الشعر الفيروزي



فؤاد سعودي الهموري

رواية

فانتازيون للنشر والتوزيع

الشعر الفيروزي

فؤاد سعودي الهموري

تصميم الغــــلاف: محمد مجدي يوسف
تدقيق لـغـــوي: هبة النجار
تنـسـيق داخلـي: إسلام علي
رقــم الإيــــداع: 2022/11178
الترقيـم الدولـــي: 978-977-6695-42-9

مدير النشــــر: محمد الدواخلي
المدير الفـنــي: إسلام علي
مدير التـحـرير: هبة النجار
المدير العـــام: محمد مجدي أبو الهنا

دار فانتازيون للنشر

zeriffouad@gmail.com

الجزء الأول : المتسول والحمير

الفصل 1

لعشرات السنين في زمن حكم الموحدين لبلاد المغرب، عوملت الحمير بمدينة (بَرْتَاتْ) معاملة فظيعة لا مثيل لها. هذه المدينة الخضرة النضرة -التي تغير اسمها الآن- كانت تقع بين جبال الأطلس، وكانت واسعة ومحاطة بسور عال من التراب المدكوك، ولها أربعة أبواب ضخمة: باب شرقي، وباب غربي، وباب جنوبي، وباب شمالي.

الحق أن (عباس اليحياوي) -والي المدينة- كان أول من كره الحمير، وتسبب في المعاملة السيئة التي صارت تعامل بها. كان رجلًا طويلًا، ممتلئ الجسم، مفتول العضلات، بوجه مكور منفوخ الأوداج يبرز منه أنف طويل.

ذات مساء ركب ابنه الوحيد البالغ سن العاشرة، حمارًا وراح يعدو به في حديقة البيت، وفجأة قفز الحمار بقوة فزعًا من حية كبيرة، ليسقط الولد ويرتطم رأسه بصخرة ويموت فورًا.

حزينًا على ابنه، قتل الوالي الحمار.

لكن هذا لم يشفِ غليله، فقتل كل الحمير التي في المدينة. جعل يدخل البيوت مع جنوده ويخرجها بعد أن يُنْقِد أصحابها مبلغًا كبيرًا، فيقتلها ويضعها على عربة، ويأخذها إلى مزبلة بعيدة، ثم يلقي بها.

للأسف، حتى بعد ذلك لم ينطفئ حقده على هذه الحيوانات، ولم يشعر أنه انتقم لابنه منها كما ينبغي، فحرص على ألا تدخل المدينة بالمرة، إذ هدد بجلد كل من يراها عنده، وموازاة مع ذلك كتب على أبواب المدينة الأربعة: «الحمير شر الحيوانات، فلا تقربوها»، وأوعز للفقهاء والأطباء

والمشعوذين بأن يذيعوا بين الناس أن لمسها يذهب الطهارة، ويتسبب بأمراض فتاكة، ويجلب النحس. وهكذا، لم تعد تصادف حمارًا واحدًا في الشوارع والأزقة عقب ذلك.

ويا للعجب! حتى هذا لم يرضه! لذلك راح كل سنة في اليوم الذي أسقط فيه ذلك الحمار ابنه يجلب مئات الحمير للمدينة، يدخلها إلى ساحة واسعة، يمتطي جواده، يطاردها برمح كبير، فيشرع في قتلها حتى يصفيها كلها، ثم يحملها خارج المدينة ويطعمها للكلاب.

وبعد سنتين شيَّد بناية كبيرة تسع ثلث الساكنة سماها المضمار، فيها مدرجات يجلس عليها عامة الناس، تعلوها منصة مخصصة للأكابر والأغنياء، وفي الوسط ساحة واسعة، وممر حولها طوله كيلومتر تقريبًا وعرضه ثلاثمائة متر، يحده من الجانبين سور يبلغ المتر والنصف علوًا، سماه بالمسار الدوار، وصار يقتل فيه الحمير على مرأى من جمهور غفير في ذكرى مقتل ابنه.

وفي أعقاب ثلاث سنوات، قام بتوسيع المضمار حتى أضحى يسع كل سكان المدينة، ولم يعد يقتل فيه الحمير لوحده، بل سمح للشباب بمشاركته في ذلك، والشرط الوحيد الذي كان يشترط عليهم هو أن يمتلكوا حصانًا، وهكذا كان ينزل معهم المضمار، فيلاحقون مئات الحمير، ويرشقونها بالنبال والرماح. فسمى هذا العرض بـ(مهرجان تطهير الأرض من النحس)، وكان يدوم ثلاثة أيام، صباحًا تقتل فيه الحمير، ومساء يُسخر منها في مسرحيات ومسابقات شعرية، وذلك في الساحة التي يدور حولها المسار الدوار. فكان الناس يمرحون كثيراً ويستمتعون بهذا المهرجان أيما استمتاع، لاسيما أن الوالي كان يوزع عليهم ألوانًا مختلفة من الطعام والشراب مجانًا.

ومرت ثلاثون سنة سريعة كلمح البصر. مات هذا الوالي وجاء بعده آخر لا يختلف عنه قساوة، لكنه -عكسه- كان بخيلًا جدًا. كان اسمه (مصعب).

كان ربع القامة، حسن البنيان، متناسق القسمات، قصير الشعر وطويل القذال. عيناه صغيرتان، بنيتان، سريعتان. وشفتاه مسطحتان عريضتان. عمومًا، في شكله شيء حديدي، وبليد وفارغ في نفس الوقت. عند توليه منصبه همَّ أن يلغيَ المهرجان، وذلك قبل أيام قليلة من موعد انطلاقه، لكن الناس المقربين إليه حذروه ونهوه عن ذلك، مؤكدين له بأن سكان المدينة يعتبرون المهرجان بمثابة عيد لهم.

مرغمًا، صرف أموالًا طائلة لشراء الحمير والطعام والشراب من أجل إقامة المهرجان. فنُظم المهرجان تمامًا كما كان ينظم في زمن الوالي (عباس). وعقب ذلك مرض الرجل لأيام حزنًا على ماله الذي ضاع هباء، فحلف أغلظ الأيمان ألا يصرف ريالًا واحدًا في العام المقبل حتى لو كلفه ذلك حياته.

وبعد تفكير طويل، اهتدى إلى الحل الأنسب. فخطب في أهل المدينة أيامًا قبل موعد المهرجان، معلنًا أنه سوف يجري تغييراً طفيفًا عليه، يتمثل في إقامة مسابقات مدرة للمال. بدت الغرابة في وجوههم. أضاف قائلًا، ليبدد استغرابهم:

ـ «سنقيم ثلاثة رهانات كمرحلة أولى تسمى رهانات السباق، وكلها تراهنون فيها -إن شئتم كسب المال- على حمير تتسابق فيما بينها: فأما الرهان الأول، فيسمى (الرهان الأعلى)، من شاء المشاركة فيه يراهن على حمار بألف درهم، فتتسابق الحمير المُراهَن عليها في المسار الدوار، وكل مشارك يجر بواسطة حبل الحمار الذي يراهن عليه ليحثه على المضي قُدُمًا نحو نقطة الوصول، وهو راكب حصانًا أو يطارده من الخلف وهو راجِل. والحمير التي تفوز بالمراتب الثلاث الأولى يجني أصحابها مال الرهان: الأول يجني النصف منه، والثاني الثلث، والثالث السدس. وأما الرهان الثاني، فيسمى (الرهان المتوسط)، من رغب في المشاركة فيه يراهن على حمار -لا يكون قد شارك في الرهان الأول- بخمسمائة درهم، وتتسابق الحمير

وتقسم الجوائز مثل الرهان الأول. وفيما يخص الرهان الثالث، فهو يسمى (الرهان الأدنى)، يراهن فيه المشاركون على حمير -غير تلك التي شاركت في السباقين المذكورين آنفًا- بعشرة دراهم فقط، وهو أيضًا تتسابق فيه الحمير، وتقسم الجوائز مثلما قسمت في الرهان الأول والثاني. والمرء لديه الحق بالمشاركة في كل هذه الرهانات. وكل حمار يراهن عليه شخص واحد فقط. وتتلوا هذه المرحلة الأولى من الرهانات مرحلة ثانية تسمى بـ(رهانات المطاردة)، وفيها ثلاثة رهانات أيضًا، ويراهن فيها بنفس ثمن سابقاتها، لكن لا يشارك فيها إلا الذين فازوا بالمراتب العشر الأولى في رهانات المرحلة الأولى، ولا تتسابق فيها الحمير فيما بينها، بل تجري في المسار الدوار، الحمير التي شاركت في كل رهان على حدة، بينما يركض خلفها هؤلاء الذين حازوا على الرتب العشر الأولى، فيرمونها بالنبال إلى الأعناق، وبمجرد أن يصيب أحدهم حمارًا في عنقه يحسب له، والفائز في كل رهان هو من يردي أكبر عدد من الحمير»

كما خطط الوالي، بعد الانتهاء من خطابه هتف عملاؤه الذين دسهم وسط الجمع معبرين عن الموافقة على اقتراحاته، داعين له بطول العمر، ومادحين ذكاءه وحسن بصيرته، ليحذو حذوهم بعد ذلك كل من حولهم.

وبالفعل، كان المهرجان كما قال (مصعب) في الخطاب، لكن مع قليل من التبديلات، كاقتطاع نسبة من كل رهان لتغطية مصاريف الطعام والشراب، وشراء الحمير، ناهيك عن بناء ثلاث زرائب متصلة بالمسار الدوار حيث توضع الحيوانات المشاركة في رهانات المرحلة الأولى لتطلق في رهانات المرحلة الثانية. وعلى كل حال، لم يعترض أحد على هذه الإجراءات، وكان الجميع سعداء، حتى أولئك الذين خسروا في الرهانات.

ولم تمضِ سبع سنوات حتى أقدم الوالي (مصعب) على تغيير آخر، فمنح المشاركين في الرهانات الحق في شراء الحمير بأنفسهم لتدريبها للسباق.

وقبل المهرجان بأربعة أسابيع صار يقام في المدينة سوق كبير للحمير، يحج إليه التجار من كل حدب وصوب، فيشتري منه المشاركون الحمير بكل عناية ودقة كما لو كانوا يشترون قطعًا أثرية، فيأخذونها إلى بيوتهم ويدربونها على الجري بأقصى سرعة.

وهكذا انمحت تلك الأفكار السلبية عن الحمير من عقول الناس، وباستثناء المهرجان الذي تقتل فيه هذه الحيوانات وتهجى وينكل بها، فلقد صارت تُعامل بشكل عادي في المدينة، إذ يستعملها الناس في الحرث والتنقل.

وتصرمت عشرون سنة. العديد من الناس كانوا غير راضين عما يُصنع بالحمير في رهانات المطاردة خلال المهرجان، لكن ولا واحد منهم استطاع أن يعلن ذلك للوالي، باستثناء (شعبان). إنه شيخ في السبعين من العمر، خلال سفره إلى قرية بالجنوب الشرقي قادمًا من الغرب زار مدينة برتات، وذلك في أحد أيام المهرجان، الذي لم يعد يسمى (مهرجان تطهير الأرض من النحس)، بل (مهرجان سباق الحمير)، وإذ شاهد الطريقة الوحشية التي قتلت بها في رهان المطاردة الأول، أبى إلا أن يحدث الوالي ويلتمس منه إلغاء الرهانين الباقيين.

لم يستطع الوصول إلى الوالي حتى اقتراب موعد إقامة سباق رهان المطاردة الثاني، وذلك صباح الغد. ما أن استقر الوالي في كرسيه الوثير بالمنصة المخصصة له ولأعيان المدينة، حتى قصده، وعلى بعد أمتار منه اعترضه جنوده، فالتمس منهم أن يسمحوا له بلقائه ليتقدم إليه بشكاية في موضوع شخصي، لكنهم أخبروه أنه ليس في مزاج جيد، لأنه لم يفز بالرهان الأعلى للمطاردة، وأمروه أن يؤجل لقاءه إلى الغد.

تجاوزهم غير مهتم بكلامهم، وصرخ على بعد خطوات منه:

ـ «يا صاحب المقام العالي، إن ما تفعلونه بالحمير أمر لا يقبله الله، فأوقفوا هذه المجزرة!»

سمعه الوالي فثار غضبه. انتصب من مكانه وركض إليه، ولما بلغه رفع سوطه إلى الأعلى وراح يضربه بعنف. لم يزل كذلك حتى أدماه، ثم أمر الجنود بإلقائه بعيدًا، فجرجروه على الأرض والدماء تسيل من ظهره ووجهه ورأسه، ورموه في حفرة بالقرب من الباب الغربي للمدينة كالجيفة. وجعل الشيخ المسكين يئن من الألم، ومد كفيه ونظر إلى السماء ثم قال بإخلاص: «اللهم احفظ الحمير من شر هؤلاء الظالمين يا رب!»، ووافته المنية من توه.

الفصل 2

صباح الأربعاء، بعد أسبوع من موت (شعبان)، ذهب (سفيان) إلى الحلاق ليقص شعره. إنه متسول في الثلاثين من العمر، بني العينين، حسن الملامح، سبط القوام، رث الثياب، وله شعر أسود رطب. عند الطرقة الثانية فتح الحلاق (تسي تسن) الباب، ورحب به أشد الترحيب. كان هذا الحلاق ينحدر من الصين، إنه شيخ قصير، له شعر أبيض معقوص إلى الخلف، ووجه أصفر مكور يبرز منه خدان منتفخان، وأنف صغير، وعينان خضراوان ضيقتان.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يقص فيها (سفيان) شعره عند هذا الحلاق، فلطالما فعل ذلك منذ قدوم هذا الأخير إلى المدينة قبل سبعة أشهر مضت. والسبب في اختياره له دون غيره من الحلاقين هو أنه كان يحلق شعره مجانًا. الحق أن (تسي تسن) كان يحلق شعر كل زبائنه مجانًا، بيد أنه كان يشترط عليهم تركه يرسم خطوطًا في مقدمة رؤوسهم وشكلًا صغيرًا لمخلوق ما على مؤخرتها قبل قطع الشعر كله. عكس الكثيرين، لم يكن (سفيان) يأبه لشرط (تسي تسن) هذا أو ينزعج منه، وكل ما كان يهمه هو أن يخرج من بيته ورأسه محلوقة.

لم تمضِ فترة على قدوم (تسي تسن) إلى مدينة برتات واقتنائه بيتًا فيها، حتى شاع بين أهلها بأنه سكير مجنون، فبالإضافة إلى أنه لا يتوقف عن الشرب، فهو دائم الحديث بعربيته الركيكة عن قَصَّة شعر يصفها بالساحرة تحول لون عيني صاحبها وشعره إلى اللون الفيروزي، ناهيك عن عيني كل الذين يرونه، سواء كانوا بشرًا أو حيوانات، وتجعلهم يتوهمون بأنه أسعد

مخلوق على الأرض، فيتوسلون إليه بأن يلمس رأسهم برأسه ويأمرهم بإنجاز مهمة ما ليختبر طاعتهم له، وما أن يفعل ذلك حتى ينطلقوا لتنفيذ أوامره وهم ينتفون شعرهم ظنًّا منهم أن شعرًا فيروزيًا كشعره سينبت لهم بعد ذلك، فيسبحون في سعادة استثنائية، فإذا لم يلمس شعرهم ويرضَ عنهم قتلوا أنفسهم، وهذه القَصَّة العجيبة تتكون من مجموعة من الخطوط في مقدمة الرأس ورسم صغير لإحدى المخلوقات خلفها، ولقد قال (تسي تسن) بأنه أفنى عمره في البحث عن هوية هذا المخلوق وبأنه سافر من بلاده الصين إلى الكثير من بقاع الأرض لعله يجده، لكن عبثًا، وهو في برتات لهذا الغرض، فإذا لم يعثر عليه فيها سيغادرها للبحث في مكان آخر.

فرح (تسي تسن) كثيراً بمجيء (سفيان)، فمنذ أسبوع لم يأتِ أحد إليه ليقص شعره، ولقد كان جد متشوق لتجربة رسم حيوان شك بأنه ضالته. قال بحماس:

ـ «تَمَنَّ أن يأتي الفرج على يديك»

ورَدَّ (سفيان) وهو يسخر منه في نفسه؛ لأنه لا يؤمن بتلك القَصَّة التي ما برح يحدثه عنها كلما قطع شعره:

ـ «إن شاء الله.. إن شاء الله»

فحمل الحلاق المقص وشرع في العمل، وبين الفينة والأخرى كان يلقي نظرة إلى كتاب بالقرب منه. والحق أنه كلما قص شعر (سفيان) كان يضع هذا الكتاب أمامه ويقرأ منه. وقد سأله قبل شهر بدافع الفضول عن عنوانه، فقال له أن عنوانه هو (الشعر الفيروزي)، ويتحدث عن تلك القَصَّة السحرية. مضت بضع دقائق وهو يحصد في مقدمة ومؤخرة رأسه، كان الصمت يخيم على البيت ولا يُسمع إلا صليل المقص والسكين، فجأة سقطت أرضًا السكين من يد (تسي تسن)، ظن (سفيان) بأنها انزلقت منه، فانفجر ضحكًا، وفي نفس اللحظة شعر بوخز في رجله اليمنى، انبطح ليعرف

ما الذي وخزه، فسمع قعقعة قوية جعلته يقفز من مقعده، نظر من حوله فإذا (تسي تسن) يمسك سيفًا وينظر إليه بعينين فيروزيتين!

يا إلهي! ماذا جرى لعينيه!؟ لقد كانتا خضراوين للتو، فكيف صارتا فيروزيتين!؟ وما الذي يريد فعله بذلك السيف الذي يحمله!؟ يا للهول! لقد حاول قطع رأسي! لولا تلك الوخزة لكانت رأسي الآن مقطوعة بلا ريب!

وفي الحال اندفع (تسي تسن) نحوه كالثور الهائج، تجمد (سفيان) في مكانه لا يعرف ما يفعله، ولحسن الحظ، على بعد خطوات منه تعثر الرجل فسقط أرضًا، وانفلت السيف من يده وتدحرج باتجاهه، لكنه لم يلبث أن انتصب واقفًا، استخرج خنجرًا من جوربه الأيمن، وهمَّ بالانقضاض عليه. أحس (سفيان) بأنه إذا بقي مكتوف اليدين فسوف يفقد حياته، فلم يجد مناصًا من التقاط ذلك السيف من الأرض وتوجيهه إلى (تسي تسن) لعله يتراجع، بيد أنه ارتمى عليه دون هوادة. غير متعمد، طعنه.

سقط (تسي تسن) أرضًا والدماء تسيل منه كالسيل العرم، وقال له وقد شعت عيناه ببريق وادع:

- «يا صاحب الشعر الفيروزي، شعِّرني ومرني بتنفيذ ما تريده؛ كي أثبت لك أنني مطيع لك طاعة عمياء!»

فجأة لفت انتباه (سفيان) حين انعكست صورته على المرآة التي على الجدار خلف كرسي الحلاقة، بأن لون شعره وعينيه صار فيروزيًا. أحس بالهلع. ما الذي يجري بحق الله!؟ استرجع كلام (تسي تسن) عن القَصَّة العجيبة، فهم بإيقاظه ليستفسره. لكنه ألفاه ميْتًا. يا للمصيبة! لقد قتله! سوف يشنقونه دون شك! ماذا يصنع الآن؟ ماذا يصنع؟ عليه أن يلوذ بالفرار قبل أن يأتي أحد ما ويكتشف جريمته. شرع ينظر من كوة الباب إلى الزقاق، وتساءل: أليس من الأفضل دفن (تسي تسن) أولًا ومسح كل آثار الجريمة قبل المغادرة؟ فعدل عن الفرار.

ولكن أين يدفن الميت؟ أخذ يذرع المنزل بحثًا عن المكان المناسب. كان يتكون المنزل -بالإضافة إلى الصالة التي يتمدد فيها (تسي تسن)- من غرفة للنوم بها سرير وثير وبعض الفراش والكراسي وصوان، ومطبخ، وزريبة يربي فيها نعاجًا ومعيزًا. حين أطل على هذه الزريبة اندفعت النعاج والمعيز باتجاهه كالمجنونة وقد صار لون أعينها فيروزيًا، شعر بالفزع منها، راحت تثغو وتصيح بأصوات غريبة، مادة رؤوسها نحو رأسه. لم يعرف ما الذي دهاها. صرخ فيها: «ابتعدي عني!»، ففوجئ بها تتجه نحو الجدار وتضرب رؤوسها به. لم تزل كذلك حتى سقطت ساكنة وخيوط من الدماء تسيل من قرونها! فَغَرَ فاه دهشة.

بحث عن معول وفأس. حين وجدهما حفر وسط الزريبة حفرة كبيرة. جر الجثة إليها. ألقاها فيها. مسح كل الدماء بمنشفة لم يلبث أن رمى بها هي الأخرى مع الجثة. وارى الحفرة بالتراب. هم بالخروج، فلفت انتباهه الكتاب الذي كان ينظر فيه (تسي تسن) كلما حلق شعره، وكان يمنعه من الاقتراب منه أو لمسه هو وأغلب المتسولين الذين يحلق شعرهم -كما حكوا له. إنه دفتر في مائة ورقة تقريبًا، كان مكتوبًا بلغة لا يعرفها. طفق يقلب أوراقه.. فجأة وقع بصره على رسم فيه سيف يقطع رأسًا رسمت فوقها أشعة بلون فيروزي. تساءل مع نفسه: «هل كان (تسي تسن) ينوي قطع رأسي هكذا؟ اللعنة عليه!»

ترك الكتاب، اتجه نحو الباب، عليه أن يرحل بسرعة.

من حسن الحظ، المنزل واقع في زقاق تخف فيه الحركة. وما يزال الصباح في بدايته على كل حال. فتح الباب بتؤدة بعد أن عم السكون في الزقاق. نظر خلسة من هنا وهناك. لا أحد قادم. صافقًا الباب وراءه، اندفع مهرولًا. لن تطأ قدماه هذا المكان مرة أخرى أبدًا، وهكذا لن يتهمه أحد بقتل الشيخ الصيني المجنون.

بعد أن مال في أول عطفة على اليمين، مر حذو دكان للخياطة، فإذا بصاحبه يهرول نحوه، وينبطح أمام رجليه وهو يقول متضرعًا:

ـ «يا صاحب الشعر الفيروزي، شعِّرني ومرني بتنفيذ ما تريده؛ كي أثبت لك أنني مطيع لك طاعة عمياء!»

أخذته الدهشة، وقف حائرًا. هل نجح (تسي تسن) في رسم تلك القَصَّة العجيبة على رأسه!؟ ولكن ماذا يقصد الخياط بكلمة (شعِّرني)!؟ سأله، فأجابه بأنه يتمنى أن يلمس شعره بشعره. يا للعجب! شَعرُه فيروزي، ولون عينيه وعيني هذا الخياط الذي رآه للتو فيروزي أيضًا! وهو يترجاه أن يلمس شعره بشعره، مما يدل على أن (تسي تسن) نجح بالفعل في خط تلك القَصَّة العجيبة على رأسه. إذن، هل سيطيعه كل من يراه من إنسان وحيوان؟ وما أدراه أن هذا الخياط لا يسخر منه فقط؟ على أية حال من الأفضل أن يلمس شعره بشعره، وينصرف من هنا قبل أن يجذب انتباه المارة، فتُكتشف جريمته. لامس رأس الخياط بشعره فانتصب الرجل واقفًا وهو يكاد يطير من الفرح، فقال له راجيًا: ـ «مرني بشيء أقوم به، مرني»

فرد عليه متضايقًا:

ـ «اذهب إلى دكانك، وقم بعملك»

وفي الحال انصرف الرجل إلى دكانه بوجه مبتسم وراض وهو ينتف شعر رأسه، وانكب على الخياطة بتفانٍ وإخلاص.

لكن (سفيان) لم يتقدم إلا خطوتين حتى اصطدم بشخص آخر، انبطح أرضًا يحدق فيه بعينين وادعتين فيروزيتين، وتوسل إليه قائلًا:

ـ «يا صاحب الشعر الفيروزي، شعّرني ومرني بتنفيذ ما تريده؛ كي أثبت لك أنني مطيع لك طاعة عمياء!»

رفرفت في قلبه فرحة رائعة حلوة منسية منذ زمن بعيد. إذن فالأمر جد لا

هزل. ليجرب عدم المسح على شعر هذا الرجل ثم ينظر ما سيحصل. تجاهله وأكمل سيره. فأخذ المسكين يضرب رأسه مع الأرض بقوة، مما ذكره بتلك النعاج والمعيز في منزل (تسي تسن). فكر: «لذلك راحت تؤذي نفسها، تبًا لي! لو أرضيتها لما آذت نفسها»، وخطر له العودة لإنقاذها، لكنه خاف أن يراه أحد ما في ذلك المنزل ولا يتأثر بقصته، فضرب صفحًا عن الموضوع.

قصد الرجل، سأله: ـ «ما خطبك؟»

رد باكيًا:

ـ «سيدي، أنت ترفض لمس شعري القذر بشعرك الفيروزي.. حياتي لا معنى لها الآن! أرجوك شعّرني، ومرني بتنفيذ ما تريده؛ كي أثبت لك أنني مطيع لك طاعة عمياء.. إذا لم تصنع ذلك، فسأقتل نفسي»

شعّره، فتألقت أسارير وجهه فرحًا.

وحينها ترجاه أن يأمره بشيء يفعله، فكر لوهلة، ثم طلب منه تسليمه كل المال الذي بحوزته، فاستخرج رزمة من المال من جيب سرواله الأيسر، سلمها له، أمسكها (سفيان)، وأمره بالانصراف لشؤونه، فذهب الرجل إلى حال سبيله جذلًا، ويده تنتف شعره. وفي ذات الوقت فتح (سفيان) الرزمة، فوجد فيها مالًا يعفيه من التسول لشهر، فامتلأ صدره بإحساس مفعم بالبهجة والانتصار.

على الفور ركض نحو السوق الواقع وسط المدينة، مارًا من درب يقل فيه المارة. لم يلتقِ أحدًا طوال الطريق. غير أنه لم يكد يدخل السوق حتى كان كل من ينظر إليه تتسع عيناه دهشة وحبًا وطاعة، وتشعان بلون فيروزي، فيقبل عليه متوسلًا مرددًا ما ردده عليه الرجلان اللذان التقى بهما قبل قليل. شرع يستقبل الناس واحدًا واحدًا، ويلامس بشعره رؤوسهم، ويطلب منهم أن ينصرفوا لشؤونهم، فينفضّون بانتظام وأيديهم تنتف شعرهم،

الأمر الذي استغرب منه أشد الاستغراب! فنادى رجلًا منهم، وسأله عن السبب في نتف شعره، فأجاب بأنه يفعل ذلك لكي ينبت له شعر فيروزي رائع كشعره.

وسط أسرة فقيرة ولد (سفيان). لما بلغ العاشرة من عمره توفي والده وأخوه بمرض عضال، فعاش مع أمه. هذه الأخيرة تعودت منذ صغرها أن تتسول مع أسرتها، وبالرغم من أن زوجها الذي كان يعمل حمالًا في السوق منعها من التسول بعد الزواج، فهي لم تترك هذه الحرفة، وفي الكثير من الأحيان كانت تخرج من البيت خفية، فتتسول وهي واضعة وشاحًا على وجهها كيلا يتعرف عليها أحد، والحق أنها لم تكن تتسول وقتئذ بدافع الحاجة، بل بدافع الإدمان.

بيد أنها عقب وفاة زوجها وابنها البكر، لم يكن لديها هي وابنها (سفيان) من يعيلهما، فباتت تتسول بدافع الحاجة أيضًا. كانت تتقن -وتحب- هذا العمل كثيرًا. ولذلك شرعت في تعليم ابنها بعد وفاة والده ما تعلمته من أسرتها التي امتهنت هذه الحرفة أبًا عن جد لعقود وعقود، وذلك لكي تطمئن على مستقبله. بدأت دروسها بالقول:

ـ «المهم أن تستدر شفقة الآخرين إذا أردت الحصول على حصة من الأموال التي في جيوبهم. كيف يمكنك فعل ذلك؟ أولًا، إياك أبدًا أن تبدو أمامهم في مظهر حسن! شكلك ينبغي أن يدعو دائمًا للرثاء: شعرك منفوش، ثيابك رثة متسخة، وجهك مسود مغبر كئيب خاسف، ظهرك مقوسة، مشيتك متعثرة تشبه مشية شيخ بقي له يوم أو وجبة طعام واحدة فيموت، صوتك مخنوق بالكاد يُسمع ويُفهم كصوت غريق امتلأ بطنه بالماء ويطلب النجدة. ثانيًا، إياك أن تتسول في أوقات وأماكن غير مناسبة. بقدر ما

تقتنص الزمان والمكان المثاليين بقدر ما تحصل على مبلغ أكبر. فمتى وأين يجب أن تتسول؟ عند الأفراح: مناسبة زواج مثلًا أو عقيقة، فإذا مررت من أمام بيت وسمعت الزغاريد وضرب الدفوف، فتربص بأهله، وإذا خرج أحدهم فبارك له واسأله صدقة فهو بلا شك سيعطيك، إن الإنسان في الغالب يا بني إذا ما كان سعيدًا فهو يميل إلى التصدق على المتسولين مهما كان شحيحًا بخيلًا. المناسبات الدينية: يوم الجمعة مثلًا، شهر رمضان، عيد الفطر، عيد الأضحى. المصائب: أعني بذلك الجنازات على وجه الخصوص، عند موت أحد الأقارب يكون الناس أميل للتصدق من أي وقت آخر، هذا لأنهم يهابون الموت، ويظنون بأنهم سينقذون أنفسهم منه عبر التصدق بأموالهم. كما أعني بذلك أيضًا الحوادث الأليمة، مثلًا أن ينهار منزل على أصحابه، أن يسقط طفل في بئر، أن يختفي شخص ما. بعض المصائب التي تنزل بالناس يجني منها المتسولون خيراً كثيراً. فالناس يكونون في حاجة ماسة للمساعدة في هذه الحالات، ولذلك يساعدون المتسولين عسى أن يرحمهم الله ويخرجهم من محنتهم. وبناء على ذلك يا عزيزي، فإن أفضل الأماكن لاستجداء المال هي أمام أبواب المساجد والقبور والمنازل. ولا بأس يا بني أن أخبرك أن ثمة أوقات وأماكن لا يجب أن تتسول فيها، فما هي؟ لا تقترب أبدًا من شخص يعد ماله وتسأله أن ينفحك دراهم منه؛ لأنه لا محالة سيظن بأنك تريد سرقته. إن شخصًا استيقظ للتو لن يتصدق عليك؛ هذا لأن الناس يتشاءمون عادة من المتسولين في أول النهار. نحن نخلق لديهم إحساسًا بالفقر والعوز والمرض والحزن، وهم يريدون أن يبدؤوا صباحهم برؤية الأشياء الجميلة والباعثة على التفاؤل. لذلك لا تستيقظ باكرًا للتسول؛ لأنك لن تحصل إلا على الشتم والبصاق. إذا رأيت شخصًا غاضبًا، فإياك أن تطلب منه صدقة، سوف يصب جام غضبه عليك، فما أكثر المتسولين المساكين الذين تعرضوا لضرب مبرح من طرف أناس كانوا غاضبين، فاعترضوا طريقهم يستعطونهم. إذا أوقفت شخصًا ما يسير لوحده

في الظلام لتسأله صدقة، فإنه سيظنك لصًا تريد الاعتداء عليه وسرقته، وهكذا قد يهاجمك ويضربك، لذلك لا تتسول أبدًا في الأماكن المظلمة، وعلى أية حال، الأماكن المظلمة المقفرة خطيرة على المتسولين ولا يجب أن يغشوها، فالكثيرون منهم تعرضوا فيها للنهب. عندما يكثر المتسولون من حولك فلا تنتظر خيراً أبدًا، إذا زاد عددهم على ثلاثة، فغادر المكان فورًا. كثرة المتسولين تجعل الناس يكرهونهم جميعًا، ومن كان ينوي استخراج درهم من جيبه، فإنه يتردد في ذلك ألف مرة خوفًا من أن يتقاطروا عليه مثل الذباب الجائع»

لم تغب يومًا عن (سفيان) نصائح أمه هذه، أمه التي يشهد لها جميع المتسولين في المدينة بالبراعة في التسول، كما يحسدها كثيرون، حتى أن عجوزًا بسبب حسدها الشديد لها تسببت في مقتلها، فلقد وشت بها قبل ثلاثة أشهر إلى رجال عصابة بوشتا، أخطر عصابة في المدينة، مدعية بأنها تملك كيسًا كبيراً مليئًا بالذهب وتدفنه في مطبخ بيتها، فهجموا على البيت ليلًا لسرقة الكيس الوهمي، ضربوها وابنها بقسوة، ومع الأسف أصابوها في رأسها إصابة مميتة.

في الغد من تلك الحادثة دفن (سفيان) والدته في مقبرة الحي وعاش وحيدًا. ظل يقطن في نفس البيت الذي كان يقطن فيه مع أمه، والذي كان قد اشتراه أبوه قبل أربع سنوات من وفاته. استخرج كيس دراهم كانت تخبئه أمه في جدار المطبخ كما أوصته أن يفعل إذا ما وقع لها مكروه. وهو كيس يحتوي على دراهم معدودة فقط، فلقد كانت تنفق كل ما تجمعه تقريبًا من التسول في الأكل، لأنها كانت امرأة أكولة جدًا. قرر ترك التسول وتعلم حرفة يعيل بها نفسه، فهو يكره التسول منذ أول يوم علمته له، وذلك لأنه يحط من كرامته، والحق أنه في الكثير من الأحيان بذل قصارى جهده لإقناعها بالإقلاع عنه، لكن دون جدوى، فهي لم تزل تدافع عن التسول

بشراسة وتعتبره أشرف المهن، وقبل أشهر من وفاتها طلب منها دفع مبلغ صغير من المال -كان كبيرًا في نظرها- لأحد الخياطين الذي اتفق معه على تعليمه حرفة الخياطة، لكنها رفضت ذلك بشكل قاطع وراحت تسخر منه مؤكدة له بأن المتسول يكسب في اليوم أضعاف ما يكسبه الخياط وبمجهود أقل.

وسرعان ما اتفق مع حداد على تعليمه حرفة الحدادة، مقابل ثلثي المال الذي تركته له أمه، لكنه مع الأسف قبل أن يدفع للحداد هذا المبلغ ويبدأ التعلم، اقتحم رجال عصابة بوشتا البيت عليه ليلًا مرة أخرى، فسلبوا منه كل ما بحوزته، وأشبعوه ضربًا.

مجبرًا، عاش بعدها على التسول، الذي لم يكن يحسنه، ناويًا جمع المبلغ الذي طلب منه الحداد.

الآن صار قادرًا على الانتقام ممن قتلوا والدته، إذا لم يكن ما يحدث له مجرد حلم. فكر بينما يحيط به الناس في السوق وهو يمسح على رؤوسهم بشعره الفيروزي أنه قادر في هذه اللحظة أكثر من أي وقت سابق على الانتقام من هذه العصابة المجرمة. ألا إنه يستطيع الانتقام من كل الناس الذين يكرههم، كالأغنياء البخلاء بالمدينة وغيرهم. بإمكانه أن يطلب منهم إحضار أموالهم ووضعها بين يديه. بإمكانه أن يلخبط حياة الحرفيين الذين رفضوا تعليمه حرفهم مجانًا، بوسعه أن يطلب من الخياط القيام بعمل الحلاق، والبناء بعمل الجزار، وبذلك يقلب حياتهم رأسًا على عقب. لكن فليؤجل ذلك إلى حين، في الوقت الراهن، هو يرغب في القيام بأمر واحد: الانتقام من عصابة بوشتا.

الفصل 3

على باب السوق صاح (سفيان) بصوت مرتفع: «أيها الناس!»، فتجمد الكل عن الحركة، كان قد لمس بشعره رؤوس جميع من دخل السوق حتئذ، أقبلوا عليه منظمين متراصين كما لو كانوا جنودًا مدربين، تحلقوا من حوله، أشار لهم بالجلوس، فجلسوا القرفصاء قرب السلع المعروضة في السوق، وهم ما يزالون ينتفون شعرهم. كانت تنبعث من أعينهم الفيروزية نظرة رطيبة طيبة توحي بالوداعة والخلو التام من الهموم والأحزان. أعجبه منظرهم، أضاف بلهجة آمرة: «أحضروا لي عصابة بوشتا». فانتصبوا كأعمدة وغادروا السوق بنظام وانتظام.

الناس الذين كانوا خارج السوق -ولم يروا (سفيان)- استغربوا منهم وتساءلوا عما حملهم على المشي بذلك الشكل وأصابع أيديهم تنزع شعرهم. جعلوا يتساءلون: هل هو نوع جديد من الجنود قامت الدولة بتعيينه!؟ لا بالطبع، فالناس المتصافون على ذلك النحو يعرفونهم وليسوا غرباء عنهم، إنهم أبناء مدينتهم برتات. ولكن ما بال أعينهم فيروزية!؟

أوقفوا بعضهم، وسألوهم عما يحملهم على التصرف بذلك الشكل، فردوا منزعجين من إيقافهم: «إننا ننفذ أوامر صاحب الشعر الفيروزي»، وانصرفوا دون إضافة كلمة واحدة، فلحق بهم هؤلاء بعد أن لم يشفهم هذا الجواب.

خلا السوق من الناس، كل من كان فيه من باعة ومشترين انطلقوا مع ذلك الجمع. تحت سماء صافية تلمع فيها شمس متوهجة صعد (سفيان) على منصة واسعة تتوسط السوق يباع فيها العلف والتمر، ويستطيع المرء منها رؤية السوق بأكمله، جلس على كرسي وثير لتاجر ثري لطالما حسده على

الجلوس عليه، راح يتمطى في الكرسي كالأسد الكسول، شاعرًا بأنه ابن جلا يعلو كل من في الأرض شأنًا ومقامًا، فتساءل كيف لا يكون الإنسان سعيدًا وهو يجلس على ذلك الكرسي! واستنتج بعدها أن حياته كانت تعيسة حتى ذلك الحين؛ لأنه لم يكن يفترش إلا الحصير والأحجار. وتذكر بأنه في العديد من الأحيان طلب صدقة من التاجر صاحب الكرسي، لكنه لم يسبق أن نقده ولو فلسًا واحدًا، وبدل ذلك كان يصرخ في وجهه أن (اذهب أيها المأفون!)، فقرر أن يؤدبه على فعلته هذه وينكل به هو وكل التجار أمثاله.

كان رجال عصابة بوشتا الأربعة يقطنون جنوب المدينة، كانوا في هذه اللحظة يتناولون فطورهم، سمعوا صوت أقدام تقترب من البيت، فهرولوا نحو الباب يختلسون النظر منه ليطلعوا على ما يجري في الخارج. نظروا من أربع كوات بالباب، إلى أين يتجه ذلك الجمع؟ لا يمكن على أية حال أن يكون متجها إليهم، فالناس في المدينة يهابونهم. يا للغرابة! كيف يمكن للناس أن يتجمهروا بذلك الشكل المنظم؟ ولماذا جميعهم ينتفون شعرهم!؟ لابد أن خطبًا ما قد حدث. وأخذ الجمع يقترب من الباب أكثر فأكثر، إنهم آتون نحوهم، يا للويل! ولكن هل هذا معقول!؟ وإن كانوا مجرمين، فالوالي يحميهم، وذلك مقابل المال الذي يدفعونه له كل شهر. لكن يبدو أن الوالي لا يؤتمن أبدًا كما يظل يردد رجل منهم مشبهًا إياه بالذئب الغدار الذي لا يمكن الوثوق بصداقته.

كسر الناس الباب، تقاطروا إلى الداخل كالجراد الجائع، لم يمنحوهم أية فرصة للدفاع عن أنفسهم، أحاطوا بهم من كل جانب، كتفوا أرجلهم وأيديهم، ملأوا أفواههم بخرق مزقوها من قمصانهم كيلا يتكلموا، ثم حملوهم على عربة ألفوها في بيتهم، وقفلوا إلى السوق.

وفي الطريق التقوا بأربعة جنود، فأوقفوهم، رأى الجنود رجال العصابة في العربة، عرفوهم، سألوا الجمع ماذا يفعلون بهم، فأجابوهم مرة واحدة

بأنها أوامر صاحب الشعر الفيروزي، سألوهم: (أين يتجهون). قالوا: (إلى سيدهم صاحب الشعر الفيروزي الموجود في السوق)، ثم تابعوا سيرهم. الجنود بقوا متجمدين في أماكنهم. كيف يتصرفون؟ هل يوقفوهم؟ ولكن ماذا لو تبين بأن هذا الملقب بصاحب الشعر الفيروزي هو أحد معارف الوالي؟ أو هو الوالي بعينه الذي لقب نفسه هذا اللقب الجديد؟ فهو مولع بالألقاب، ومرارا طلب منهم أن ينادوه بها، وكان آخرها (ذو السيف الحادة). لا، لن يوقفوهم. عليهم أن يفكروا في الحل الأنسب الذي لا يكلفهم فقدان وظائفهم، أو رقابهم. في النهاية، هذه العصابة قد تمادت في شرورها، وهي تستحق أن تكتف وتحمل بذلك الشكل المذل. ولكن، مع ذلك، من الأفضل التأكد، هل للوالي يد في الأمر؟

وانطلق أحدهم إلى قصر الوالي، بينما البقية لحقوا بالجمع.

في هذه اللحظة كان الوالي في الديوان بقصره الفسيح جالسًا على كرسي فاخر، منشغلًا ببعض الأوراق. إنه أعلى سلطة في المدينة، يتحكم بكافة شؤونها الإدارية، وبه يأتمر كل من فيها. جاء إليه حاجبه يخبره بأن جنديًا من جنوده يطلب الدخول إليه لأمر مهم. أوه يا لهؤلاء الجنود! من المؤكد أنه يريد الوشاية بشخص ما. لا بأس، من الضروري استقباله، فلولا أمثاله من الوشاة لحدثت مصائب لا عد لها ولا حصر في المدينة، بل وفي الدولة قاطبة.

ـ «أدخله». قال للحاجب.

بعد ثوان كان يحكي له ما رآه هو وزملاؤه. عجبًا! مَنْ أمر بشيء فظيع كهذا!؟ إن عصابة بوشتا من العصابات الأشد التزامًا وولاء له في المدينة. صحيح تتجاوز الحدود أحيانًا، وترتكب جرائم فظيعة، لكنها مع ذلك تؤدي له واجباتها المالية دونما تلكؤ أو تأخير. صاحب الشعر الفيروزي!؟ من هذا!؟ هل هو شخص موفد من السلطان؟ فلِمَ لَمْ يأتِ إليه أولًا؟ لابد أن

يتقصى الأمر ويعرف ما يحدث. امتطى حصانه، واتجه إلى السوق بمعية عشرة جنود.

ما أن دلف إلى السوقِ الناسُ الذين أحضروا عصابة بوشتا حتى تبَدَّى لهم (سفيان) بقَصَّته العجيبة، التي كانت تداعبها ريح شرقية خفيفة. أولئك الذين جاؤوا مع الجمع ولم يروا (سفيان) من قبل هرولوا نحوه يحنون رؤوسهم، قائلين له نفس ما يقوله له كل من يراه أول مرة. كان يعلم بأنه إذا لم يلمس شعرهم بشعره فسيكونون أتعس الناس. مسح على رؤوسهم، وأمرهم أن ينصرفوا لشؤونهم. وفجأة ركض نحوه الحصان الذي كان يجر العربة التي وُضع فيها رجال العصابة بعد أن نجح في فك عقاله، أراد الناس اعتراض طريقه خوفًا من أن يؤذي (سفيان)، لكنه أمرهم ألا يفعلوا ذلك؛ لعلمه بأنه هو الآخر قد تأثر بقَصَّة شعره. انحنى الحصان محركًا رأسه، مسح عليه (سفيان) بشعره، راح يصهل، فطن إلى أنه يطلب منه أن يأمره بالقيام بشيء ما، فطلب منه أن ينصرف لشؤونه، وهكذا عاد الحصان أدراجه إلى العربة.

«يا لسحر هذه القصة! تجعل أوامر صاحبها مفهومة حتى من الحيوانات!»، فكر (سفيان).

طلب صاحب الشعر الفيروزي من الجمع تحرير أفراد العصابة، ففعلوا. أقبل الرجال الأربعة عليه يطلبون منه ملامسة شعرهم بشعره، فإذا به يصرخ فيهم: «أنتم مجرمون، لا تستحقون رحمة ولا شفقة!»

فكان ذلك كافيًا ليجعل وجوههم تسود وأجسادهم ترتعد! أخذوا يضربون رؤوسهم بالأرض ويصرخون، فأمر الناس أن يجهزوا عليهم.

التفوا حولهم، فامتدت الأيدي من هنا وهناك، وراحت تخنقهم، لم يمانعوا، لم يقاوموا أدنى مقاومة! في نظرهم هم يستحقون أن يُخنقوا، فما فائدة الحياة بعد أن حرموا من رضى صاحب الشعر الفيروزي!؟

بينما يخنق الناس عصابة بوشتا، دخل الوالي وجنوده إلى السوق، ووقفوا على هذا المشهد، والاستغراب والخوف يعصفان بهم. كل ذلك الجمع يحيط برجال العصابة، كل تلك الأيدي تمتد إلى أعناقهم، إنهم يخنقونهم! ما الذي يجري بحق الجحيم!؟ من أمرهم بذلك!؟ أهؤلاء الرجال والنساء من المدينة؟ أخرج الوالي عينيه حتى كادتا تقفزان من وجهه. أجل، هم من المدينة. فهو يعرفهم كلهم تقريبًا، ذاك (حسن النجار)، وذاك (عبد الناصر) بائع الخضر، وتلك زوج أحد قادته، وتلك... يا إلهي! إنها أخته! هي الأخرى تخنق أحد رجال العصابة! ما خطبها!؟ ولِمَ عيناها فيروزيتان!؟ وما الذي يجعلها سعيدة وهي تقدم على هذه الجريمة!؟ لا شك بأن رجال العصابة ارتكبوا أمرًا شنيعًا!

لا بأس! ها قد جاء إليكم الوالي الذي ترهبونه، حتمًا ستفرون كالفئران كالعادة بمجرد رؤيتي!

كالأسد زأر بكل ما أوتي من قوة:

ـ «يكفي!!»

التفتوا إليه. لكنهم سرعان ما أداروا رؤوسهم إلى مكانها السابق واستأنفوا تنفيذ مهمتهم.

كان (سفيان) قد سمعه هو أيضًا، كان خلف الجمع بحيث لم يره، صعد إلى الكرسي الوثير المتربع على تلك المنصة، من هناك بدا له الوالي وجنوده، فما هي إلا ثوان حتى توجهت أنظارهم صوبه.

ما الذي يرونه أمامهم؟ يا لشعر هذا الرجل الفيروزي الرائع! لاشك أنه شعر نزل من الفردوس! لابد أن صاحبه أسعد مخلوق على الأرض. يجب أن يلامس شعرهم بشعره عسى أن ينبت لهم شعر فيروزي هم أيضًا، ويصيروا سعداء مثله.

في رمشة عين اتجهت صوب (سفيان) أحصنتهم وانحنت أمامه وهي تصهل، فمسح على رؤوسها بشعره، وأمرها أن تعيش حياتها بالشكل الذي تعودت عليه، وفي ذات اللحظة ترجل عنها الجنود والوالي، فانحنوا له مرددين على مسامعه نفس الكلام الذي ردده اليوم عشرات الناس.

هذا الوالي، ماذا يصنع به؟ إنه مجرم، سفاح، متكبر، متغطرس. هل يرفض مسح شعره، فيجعله يضرب رأسه مع الأرض حتى الموت؟ كلا! سيتسلى بتعذيبه أولًا، ولاحقًا سيقتله.. شَعَّره، ثم قال له:

ـ «منذ اليوم سأكون أنا الوالي، أما أنت فستكون متسولًا»

فرد هذا الأخير، وهو يكاد يطير من الفرح: «سمعًا وطاعة»

ثم رفع عقيرته بالصراخ في صوت يقطع القلب:

ـ «أنعموا علي ببعض المال، فأنا رجل فقير، منبوذ، معدم، مقطوع من شجرة، عيالي يتضورون جوعًا ولم يصيبوا طعامًا منذ أيام»

أحس (سفيان) بلذة لا توصف وهو يسمع صراخه هذا. مسح على الجنود، وطلب منهم أن يقوموا بعملهم المعتاد، ونهاهم عن خدمة الوالي المخلوع.

وسرعان ما لفتت انتباهه جثث رجال عصابة بوشتا وهي ممددة على الأرض في السوق. كان الناس يمرون من حولها وفوقها دون الانتباه لها كما لو كانت ترابًا، فطلب من بضعة رجال أخذها إلى المقبرة ودفنها. وجلس على ذلك الكرسي الفاخر، وجعل يتأمل الناس وهم يتسوقون بشكل عادي وأيديهم تنتف رؤوسهم شعرة بشعرة.

لم تمضِ إلا دقائق حتى وجد نفسه محاطًا بأربعة كلاب، كلها فيروزية الأعين وتصدر أصواتًا خاصة. شعّر رؤوسها وأمرها بالانصراف إلى شؤونها، فغادرت وهي تخربش بمخالبها على رؤوسها، فاستنتج بأنها هي الأخرى تخزها زغبات رؤوسها نتيجة تأثير قَصَّته العجيبة وتسعى للتخلص منها.

بعد ذلك تقدم نحوه ثلاثة رجال، عرف هويتهم، إنهم أطباء المدينة الثلاثة، إنهم متعجرفون ومتكبرون لا يعالجون إلا الأسياد في المدينة، ويمتنعون عن معالجة الفقراء، الذين يضطرون لمداواة أنفسهم بالأعشاب، أو اللجوء للمشعوذين. ماذا يفعل بهم؟ هل يُصَعِّر خده لهم؟ هل يطردهم ويتسبب بموتهم؟ لا، على العموم فهم ليسوا مجرمين كعصابة بوشتا والوالي، ولا يستحقون هذا العقاب.

آه، خطرت له فكرة، لماذا لا يكلفهم بصناعة دهان يطيح الشعر بسهولة ودون ألم؟ مسح على رؤوسهم ثم كلفهم باختراع هذا الدهان، وتوزيعه بالمجان في المدينة.

وتقدمت نحوه مجموعة من الدجاجات فحقق لها أمنيتها، وفي لمح البصر نزل عليه هاجس أرعبه. ماذا لو زحفت نحوه أفعى وطلبت منه أن يمسح على رأسها ففعل ذلك ولدغته؟ سيموت دون الاستمتاع بحياته الجديدة. هذا أمر مهول!

خرج من السوق وقصد المنزل. كان يبعد عن السوق بكيلومترين تقريبًا، ويقع في حي يعج بالفقراء والمتسولين. طوال الطريق كان يعترضه أناس وحيوانات أليفة، فيمسح على رؤوسهم، ثم يطلب منهم استئناف ما كانوا بصدد القيام به.

دلف إلى البيت، فاستلقى على حصير في غرفة النوم. أحس بالتعب، أغمض عينيه وأخذ يفكر، يا للعجب! إنه غني! بل أكثر من ذلك، يملك السلطة. أشياء كثيرة حُرِم منها طوال عمره وحانت الفرصة لكي يحصل عليها. سيبدأ بالطعام، كم من الفواكه واللحوم والحلوى فوَّتها عليه الفقر!؟ الفقر طاعون مميت.. الفقر قمة اليأس.. الفقر منبع الحزن، والحقد، والبغضاء، والبؤس، والغيرة، والحسد، والسقم، والجوع، والحرمان، إنه مصدر كل الشرور التي يمكن تصورها، والتي لا يمكن تصورها.

نهض بعنف، غادر المنزل. النهار قد انتصف وانتعل كل شيء ظله. فصل الصيف في بدايته، وغرته حرارة الشمس. من التعاسة أنه لا يتحكم في الشمس، وإلا لأمرها أن تبقى في لحظة الغروب إلى الأبد! لأنه يحب الغروب كثيراً، لو تحكم بالشمس وأمرها هذا الأمر ثم امتثلت له، لكان في قمة السعادة. شعر بالانزعاج لأن هذا غير ممكن.

راح يغذ الخطى نحو أفخم قصر في المدينة، إنه قصر يملكه أغنى رجل فيها، واسمه (إِزْمْ). يقع قريبًا من الباب الشمالي للمدينة، إذ أنه أول بيت يصادفه المرء بعد الدخول إلى المدينة من هذا الباب، هو أجمل بيت رآه (سفيان) في حياته، من الخارج على الأقل، ذلك أنه لم يسبق له أن رآه من الداخل، لا يوجد مثله حتى في مدينة مكناس التي زارها مرات عديدة من قبل، ولقد سمع بأن السلطان وحده يملك قصرًا أفخم منه، لطالما استهوته وعذبته قراميد هذا القصر وصومعاته الشامخة في السماء واللامعة بلونها القرمزي والأرجواني كما لو كانت باقة من الورود، مُشْعِرَة إياه بأنه مجرد خنفساء في هذه الدنيا، لا تساوي نقيراً، وبأن السعادة لا يمكن أن تشرق عليه إلا إذا كان له قصر يشبهه.

في منتصف الطريق إلى هذا القصر أوقفه حمار. المدينة تمتلأ بالحمير رغم أن الآلاف منها قتلت في المهرجان قبل أيام، فالناس يتنقلون عليها كثيراً، لاسيما الفقراء. راح الحمار ينهق، عرف أنه يريد منه أن يشعّره، هم أن يفعل ذلك، فقفز عليه مكشرًا عن أسنانه يريد عض رأسه، بقوة دفعه عنه حتى أسقطه أرضًا. هائجا، انتصب الحمار وانقض عليه فاتحًا فمه في شراهة. يا للهول، إنه مصر على عض رأسه! يجب أن يفر بجلده قبل أن يأتي المزيد من الحمير فيقتلونه! أطلق ساقيه للريح. لحق به الحمار وفي عينيه نظرة متوحشة.

بكل ما أوتي من قوة جعل (سفيان) يعدو.

حين بلغ بوابة قصر (إزم) توقف، كان أمامها حارسان طويلان، دميما الوجه وأنيقا اللباس، انحنيا له، فمسح على رأسيهما بشعره، وفي اللحظة التي التمسا فيها منه أن يأمرهما بتنفيذ شيء ما، لاح ذلك الحمار وهو قادم نحوه، لكنه هذه المرة لم يكن لوحده، بل كان برفقة أربعة حمير أخرى، وخلفها رجل، ثم عشرات البغال. كان الرجل الذي يركض خلفها أكبر تاجر للحيوانات في المدينة، ولقد قدم للتو من رحلة تجارية قام بها إلى إحدى القرى القريبة، فاشترى فيها هذه الحمير والبغال. كاد (سفيان) أن يموت هلعًا حينما رأى الحمير تجري باتجاهه، وفي الحال أمر الحارسين بالإمساك بها قبل وصولها إليه، فانقضا على ألجمتها وقاما بإقعادها أرضًا ببراعة رعاة البقر، وربطاها معًا، وهم أن يأمرهما بفعل نفس الشيء بالبغال، لكن يبدو أن هذه الأخيرة لم تقفز لتعضه، بل انحنت تلتمس منه أن يمسح على رؤوسها، فمسح عليها في فزع وأمرها بالانصراف إلى شؤونها، فانصاعت له دون أن تؤذيه، ثم مسح على صاحبها، وعندما طلب منه أن يأمره بفعل شيء ما فكر قليلًا، وسأله:

ـ «ألستَ أكبر تاجر للحيوانات في المدينة؟»

وأجاب الرجل فرحًا:

ـ «نعم يا صاحب الشعر الفيروزي»

أُعجِب (سفيان) كثيراً بهذا اللقب. سأله:

ـ «كم لديك من حمار؟»

ـ «لدي العشرات»

ـ «إذن فأخرجها من المدينة، وأخرج كل الحمير التي في المدينة، لا أريد رؤية حمار واحد فيها»

ـ «السمع والطاعة»

وهنا التفت إلى حارسي بوابة قصر (إزم)، وقال لهما:

- «ساعداه في القيام بذلك»

فردا:

- «السمع والطاعة»

وانبعث في هذه اللحظة صفير من معدة (سفيان)، إنه جائع، يجب أن يدخل على الفور إلى قصر (إزم) لتناول الطعام، تلك الأطعمة اللذيذة التي تمنى تذوقها طوال حياته تناديه، على عجل مرق من بوابة القصر.

الفصل 4

كان اسما حارسي بوابة قصر (إزم)، (حَدُّو) و(حَمُّو). وكان اسم ذلك التاجر (إيدِير). كلفهم (سفيان) بنفس المهمة، إخراج الحمير من المدينة، لم يكد يدخل إلى القصر حتى لفت انتباههم رجل يركب حمارًا متجهًا به صوب زقاق على اليمين، بشكل لاشعوري عدو نحوه، استدار الرجل في الزقاق، فوقفوا عليه كجند الموت، طلبوا منه النزول عن الحمار، رفض ذلك، فأشبعوه ضربًا، ثم أخذوا حماره إلى القصر. وفي هذه اللحظة قال (حمو):

ـ «نحن بحاجة إلى عربة نحمل عليها الحمير التي نمسكها»

واقترح (حدو):

ـ «لندخل إلى القصر، ونحمل إحدى العربات»

وفي الحال لاحت عربة أمام أعينهم، عربة ذات حجم كبير تجرها أربعة أحصنة مغطاة بجلود سوداء تحجب ما بداخلها. كان كبار التجار في مدينة برتات يحملون على هذا النوع من العربات سلعهم حفاظًا عليها من السقوط ومن العين الحسود.

أوقفوها بعد أن تغامزوا فيما بينهم تغامز الثعالب. كان الحوذي يعرف (حدو) و(حمو)، كان يحمل في العربة مجموعة من أكياس الذرة التي أتى بها للتو من مكناس، وهو متجه صوب متجر سيده الواقع وسط المدينة.

ـ «نحن في حاجة إلى العربة، انزل»

قال له (حمو) بجفاء دون أن يحييه، سواء تحية عادية أو تلك التحية الحارة التي عوده إياها كلما مر من أمام القصر.

ـ «وعليكم السلام»

رد لائمًا، دون أن يفطن إلى ما تلفظ به (حمو). واستغرب من نظرته الغريبة ومن لون عينيه الفيروزي. أضاف (حمو) بشراسة:

ـ «قلت لك، انزل!»

أمسكه (إيدير) من يده، وجذبه من فوق العربة، سقط أرضًا وهو في غاية الدهشة، هتف بهم:

ـ «ثكلتكم أمهاتكم! ما الذي دهاكم!؟»

صعد (حدو) إلى داخل العربة، وأخذ يرمي بالأكياس التي فيها. شعر الحوذي بغيظ كبير، استل سيفه وهدده به. تناول (حدو) سيفه ودخل معه في نزال شرس، كان أضخم منه وأبرع في القتال. لم تمضِ إلا دقيقة حتى طوح بسيفه بعيدًا، ثم هدده وهو يضع رأس سيفه في عنقه:

ـ «لقد أخبرناك بأننا نريد العربة، لكنك تأبى أن تسلمنا إياها طواعية! اغرب عنا وإلا قتلناك! هيا، ابتعد!»

فر الحوذي وقطرات دم تسيل من عنقه، لم يصدق أنه نجا، ظن بأن (حدو) سيقتله عندما طوح بسيفه، فلقد كان يحاربه بضراوة وعيناه تقدحان غيظًا وشررًا.

هرع مبتعدًا، انعطف شمالًا، وتهالك على جدار أحد البيوت، مزق قميصه ووضعه على جرحه، جعل يختلس النظر إلى الرجال الثلاثة ليعرف ما سيفعلونه بعربة سيده كي يطلعه على ذلك، رآهم يحملون فيها عددًا من الحمير، فذهب من تَوِّه إلى سيده مهرولًا. كان هذا الأخير جالسًا قبالة أحد محلاته بكرشه المنتفخة، بأنفاس لاهثة أخبره بما حدث، كما توقع، ضربه ضربًا مُبَرِّحًا، اعتبر ما حصل لعربته إهانة شخصية له. بمعية نفر من رجاله، قصد قصر (إزم).

وجد البوابة الخارجية مفتوحة ولا يحرسها أحد، استغرب من ذلك، يعرف أنه ليس ثمة في المدينة من هو أحرص من (إزم) في تأمين بيته، ففي بعض الأحيان -كما سمع- يملأ أسوار قصره الخارجية كلها وساحته بالحراس، لماذا إذن ترك البوابة هكذا!؟ حتمًا ثمة سر وراء ذلك!

عبر البوابة، في الحديقة رأى منظرًا عجيبًا، (إزم) مع أسرته وبعض خدمه يقلبون الأرض ويزرعون شيئًا ما، ما الذي يحدث بحق الله!؟ أهذا هو (إزم) الذي يأنف ويترفع عن المشي على التراب بقدميه!؟ كيف يُعَفِّر ثيابه ويعمل في الحديقة مع خدمه الفلاحين!؟ ماذا جرى للدنيا!؟

بلهفة سأله عما يفعله، لم يحترمه لرؤيته في ذلك المنظر؛ لذلك لم يجد أية غضاضة في التحدث إليه دون رسميات، فأجابه (إزم) بأن سيده أمره أن يزرع الباذنجان وهو سعيد بزرعه، وعليه أن يفعل المستحيل كي يتقن زرعه لكي ينبت له شعر فيروزي.

سيده!؟ من يكون!؟ وأين هو!؟ سأله، فأخبره أنه صاحب الشعر الفيروزي، وهو بالداخل، فدلف مع رجاله إلى القصر والفضول يحرق أوصالهم.

وإذا بـ(سفيان) على كرسي وثير، فتقدموا منه مسلوبي الأعين والقلوب. فلم تمضِ دقائق حتى خرجوا يهشون ويبشون، عائدين إلى عملهم المعتاد، كما أمرهم.

حينما ولج (سفيان) قصر (إزم)، ألفى خمسة رجال في الحديقة يقلبون الأرض ويعتنون بالأشجار، أقبلوا عليه راكضين، فعل ما يرضيهم وأمرهم أن يكملوا عملهم، فعادوا إلى الحديقة وانغمسوا بهمة ونشاط فيما كانوا منغمسين فيه بكسل وتراخ قبل رؤيته.

كانت تحيط بالقصر حديقة كبيرة، تحتوي في الوسط على نباتات وأشجار متنوعة، وتحدها شمالًا مجموعة من الزرائب، وجنوبًا أكواخ للخدم ومستودع للعربات ومخزن.

وكان القصر عبارة عن بناية ضخمة تتكون من طابقين، في الطابق السفلي صالون واسع مفروش بأحسن الفراش، مفتوح على مجموعة من الردهات التي تقود إلى غرف عدة، فيها مطبخ وحمامات ومخزن وغرف مخصصة لبعض الخدم كالطباخين والفراشين، وفي الطابق العلوي غرف مخصصة لـ(إزم) وزوجته وابنه وابنته.

حين اجتاز (سفيان) الحديقة وبلغ باب القصر ثم طرقه، فتحت له خادمة، فانحنت ورجت بركته، فمسح على رأسها وطلب منها الانصراف إلى شؤونها. كان بعض الخدم يعدون لسيدهم مائدة الغداء في الصالة، ما أن رأوه حتى توقفوا جميعهم عن الحركة، هرولوا نحوه مفتونين، انضم إليهم خدم آخرون بعضهم قدموا من المطبخ وآخرون من الحديقة، شعّرهم، قسمهم إلى ثلاث فرق، طلب من الفرقة الأولى أن تأتيه بأفضل أكلات في القصر، ومن الثانية أن تُحْضر أفضل أكلات في المدينة، ومن الثالثة أن تجلب أفضل طباخ في المدينة. آنذاك، كان (إزم) ينتظر في غرفته الخدم ليأتوا ويحملوه على هودجه إلى المائدة كما جرت العادة، لم يأتِ إليه أحد، ظل يرسل أفراد أسرته الواحد تلو الآخر إلى هؤلاء الخدم ليحثوهم على الإسراع في المجيء، لكن دون نتيجة.

ارتدى عباءته المرصعة بأزرار من الذهب والفضة بعد أن تعب من الانتظار، نزل السلالم الفسيفسائية، آخر درجة من السلم أودت به إلى منظر مفزع، رجل جالس على كرسيه الفاخر المتربع على الصالة الذي يمنع أي أحد غيره من الجلوس عليه أيًا كان.

كان لا يرى إلا رجليه المتسختين، ومال إلى اليسار ليرى وجهه، فتبدت له

رأسه الساحرة، فاقشعر بدنه ورقصت كل شعرة فيه، نشط إليه ملهوفًا.

كان (سفيان) يستمتع بالاسترخاء على ذلك الكرسي، محاولًا إيجاد مهمة مذلة لأسرة (إزم) المتكبرة، وحين انضم إليهم هذا الأخير شعّره، وقال لهم: «ازرعوا الباذنجان في الحديقة».

كان ذلك كافيًا ليهبوا من أمامه بنشاط وقوة الفلاحين المكافحين والصبورين، تسابقوا نحو الحديقة، هناك ألفوا الخدم يشذبون الأشجار، فطلبوا منهم التوقف عن ذلك والشروع في زراعة الباذنجان، فصدعوا لأوامرهم. كانوا، شأنهم شأن جميع من خضعوا لتأثير (سفيان)، ما يزالون يتلقون الأوامر من الأشخاص الذين لديهم سلطة عليهم، لكن بالطبع شرط ألا تتناقض مع أوامره، ولما كان قد طلب منهم (سفيان) إكمال عملهم، وهو الاعتناء بالحديقة، ومن ضمنه زراعة الباذنجان، فهم لم يجدوا غضاضة في الانصياع لأوامر أسرة (إزم).

أخذ الأب وزوجه وابناه يحرثون الأرض بحب، لكن سرعان ما قالت ابنته كلامًا خطيرًا جعلهم يتوقفون جميعًا عن العمل: «علينا الحصول على أفضل البذور على الإطلاق»، أجل، إنها على حق. أومأوا لها برؤوسهم مؤمنين على كلامها.

وهنا تذكر الوالد بأن أفضل مكان لشراء بذور الباذنجان في البلاد هي بلدة زرهون الواقعة بالقرب من مكناس. معلومة كهذه لم تكن لتفوته، هو التاجر المحنك الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عما يباع ويشترى في السوق، ويعلم مصادر أجود السلع.

أنهى إليهم ذلك، على الفور اتجه نحو عربة رآها أمام مستودع الطعام بجانب الحديقة، لا بد أن يأتي بهذه البذور بنفسه، من الممكن أن يجدها هنا في برتات، لكن لا، لن يثق في جودتها، ولن يخاطر بإغضاب سيده، لذلك من الضروري شراؤها من زرهون، والمسافة إلى زرهون تكلف ساعات

فقط على متن العربة، وحتى لو كانت تكلف شهورًا، أو سنوات، ما كان ليتردد في قطعها إرضاء لسيده.

حينما بلغ العربة شتم سائقها -الذي لم يلتقِ (سفيان)- لأنه قال له بأن العربة لا تليق بمقامه، ولابد أن ينتظر بضع دقائق كي يعد له عربته الخاصة. صعد عليها هو وأفراد أسرته وصاح به:

ـ «هيا أيها الخادم الكسول، ليس لدينا وقت لنضيعه، انطلق بالعربة نحو زرهون، فأمامنا رحلة طويلة!»

فساط الخادم الأحصنة بقوة وهو في قمة الاندهاش من لون عيني سيده وأسرته الفيروزي ومن تواضعهم غير المعهود.

الفصل 5

لم يبتعد (حدو) و(حمو) و(إيدير) بتلك العربة إلا قليلًا، ثم توقفوا ونزلوا منها بعد أن مر بمحاذاتهم رجل يركب حمارًا. كانت الشمس في كبد السماء ترسل شواظًا محرقًا، لم يكن في الشارع غيرهم، قصدوا الرجل، وطلبوا منه أن ينزل من دابته، كان رجلًا فقيرًا قدم للتو من قريته المتواجدة غير بعيد عن المدينة لاقتناء بعض الحاجيات لأسرته. حين رأى لباس حارسي (إزم) الشبيه بلباس الجنود، ظن بأنهما حرس الوالي، بالنسبة له، كما هو الشأن بالنسبة لمعظم فقراء المدينة والقرى والبلدات التابعة لها، أوامر الوالي وجنوده لا تناقش. نزل عن الحمار، لم يقولوا له شيئا، بل انقضوا على الحمار، وقيدوه ورموه في العربة. صرخ في هلع:

ـ «يا إلهي! ماذا فعلت لكم حتى تأخذوا حماري!؟»

فاستخرج (إيدير) مبلغًا من المال يساوي نصف ثمن الحمار، ورماه له مزمجرًا:

ـ «خذ، اعتبر أننا اشتريناه منك!»

غادروا تاركين الرجل يضرب يديه بفخذيه حسرة على حماره، ويسب الوالي، بالطبع بينه وبين نفسه، داعيًا الله بأن ينتقم منه.

توغل مطاردو الحمير في المدينة، كلما رأوا حمارًا انقضوا عليه وقيدوه ووضعوه في العربة، إذا كان صاحبه معه أو قريبًا منه دفعوا له نصف ثمنه أو أقل، فإذا اعترض على ذلك أشبعوه ضربًا.

وسرعان ما امتلأت العربة عن آخرها، انطلقوا بها خارج الـمدينة نحو منزل

يملكه (إيدير) كان يعيش فيه والداه قبل وفاتهما منذ ثلاث سنوات مضت. مروا من بوابة المدينة الشمالية التي بالقرب من قصر (إزم)، وكان (حدو) و(حمو) يعرفان حارسها، إذ لطالما شاركاه الطعام، وهكذا لم يوقفهم لتفتيش العربة، كما يفعل عادة مع أغلب العربات سواء الداخلة أو الخارجة من تلك البوابة.

كان البيت الذي ذهبوا إليه يتواجد في مكان معزول عن الناس، مبني بالطين، يتربع وسط بستان مليء بالأشواك والنباتات البرية، ومحاط بسور طوله متران. فكوا قيد الحمير وتركوها تسرح في البستان، أغلقوا المنزل، ثم عادوا إلى المدينة، وأخذوا يمشطونها من الحمير.

وعندما انتصف الليل أحضروا الحمولة الخامسة منها، ولما كانت أبواب المدينة تغلق في هذا الوقت ولا سبيل لأحد بدخولها إلا بإذن من الوالي، فلقد قرروا إمضاء الليلة في ذلك البيت، وهكذا تمددوا في صالته على أرائك مليئة بالغبار، وشعروا بالجوع فتذكروا بأنهم لم يطعموا شيئًا منذ أن انطلقوا في تنفيذ المهمة التي كلفهم بها سيدهم، لم يندموا على ذلك، عليهم أن يصبروا على الجوع حتى الغد، فلا شيء يؤكل في ذلك المنزل.

أبى النوم أن يطرق جفونهم، بالإضافة إلى الجوع أزعجهم شعرهم، أحسوا بوخز مؤلم فيه، الحق أنه كان يخزهم منذ بدئهم بنتفه بعد رؤية (سفيان)، لكن يبدو أنهم من شدة انغماسهم في تنفيذ أوامره نسوا ألم هذا الوخز، استمروا بنتف شعرهم بعنف حتى سرقهم النعاس.

في الغد نهضوا من الفراش مع أول زقزقة للعصافير، كان ضباب غسقي يجثم على نافذة الصالة، أخذوا يتمطون ويمسحون أعينهم المؤرقة، ركبوا العربة على عجل، واتجهوا صوب المدينة، شرعوا في البحث عن المزيد من الحمير، وكلما وجدوها اشتروها من أصحابها أو انتزعوها منهم بالقوة، ثم وضعوها في العربة، في ثلاث ساعات امتلأت العربة، أخذوها نحو ذلك

المنزل، وفي رحلة العودة انكسرت إحدى عجلات العربة، حاولوا التقدم بالعربة بواسطة ثلاث عجلات، فانقلبت بهم وكادوا يهلكون، بعد التشاور لدقائق اتفقوا على العثور على عربة أخرى، غير بعيد عنهم كانت طريق تجارية تربط بين المدينة وإحدى البلدات القريبة، مشوا نحو هذه الطريق تحت شمس تزداد حرارة شيئًا فشيئًا، وتمخر عباب السماء كطائر أسطوري.

بلغوا الطريق، ووقفوا منتظرين، فجأة ألم بهم جوع لا يطاق، تلفتوا من حولهم فرأوا منزلًا فوق تلة على مسافة مائتي متر، اتجهوا نحوه. كانت حوله بعض الأبقار ترعى، أخذوا يطرقون الباب، إنهم عابروا سبيل ولا بأس أن يطلبوا طعامًا من صاحبه.

حتى الآن ما زالوا يشعرون بأنهم شأنهم شأن عامة الناس يجب أن يتصرفوا بأدب ولباقة مع الآخرين، فهم ليسوا مجرمين أو ما شابه لا سمح الله، وما ارتكبوه من أفعال شنيعة في نظر الذين لم يلتقوا (سفيان) من سرقة للحمير وضرب أصحابها وسرقة عربة، تعتبر بالنسبة لهم أفعالًا محمودة وعادية ما دام الهدف من ورائها تنفيذ أوامر السيد صاحب الشعر الفيروزي.

كان يقطن بذلك المنزل شيخ مع زوجه وأبنائه، خرج إليهم الشيخ، قال له (حدو) بأنهم مسافرون نهبت أموالهم، وهم يلتمسون منه بعض الطعام لسد جوعهم الذي دام ليومين، فأدخلهم مُرَحِّبًا رغم فزعه من أعينهم الفيروزية وشعرهم المنفوش. كان رجلًا كريمًا، قدم لهم طعامًا شهيًا، بشراهة نزلوا عليه، شيء واحد جعلهم يتوقفون عن الأكل فجأة، سمعوا نهيق حمار.

قال الشيخ ببراءة:

ـ «إنه حماري، لم أتركه يرتع في الحقل مع الأبقار، لأنه عض بقرة قبل يومين»

ابتسموا له، ثم ابتسموا لبعضهم البعض ابتسامة ثعالب تخطط للصيد، عز عليهم سرقة حمار الشيخ بعد أن أدخلهم إلى بيته وأطعمهم، لكن ما باليد حيلة، أوامر السيد فوق كل اعتبار، رغم أن (سفيان) طلب منهم البارحة التخلص من الحمير التي في المدينة إلا أنهم فكروا حينما راحوا يناقشون طلبه هذا بأنه يقصد بذلك الحمير التي في ضواحي المدينة أيضًا، لأنها من المحتمل أن تدخل إليها.

وسرعان ما نهضوا، عرض (إيدير) على الشيخ مقابل حماره ضعف الثمن الذي يستحقه، فقبل ببيعه وهو يكاد يطير من الفرح، حملوا الحمار معهم وغادروا بعد أن شكروه على حسن ضيافته، لم يكادوا يقتربون من تلك الطريق حتى سمعوا أصوات عجلات وحوافر ترتطم بالأرض بقوة، إنها عربة، عليهم اعتراض طريقها. كان المكان خاليًا إلا منهم، ربطوا الحمار خلف صخرة كبيرة، ثم وقفوا وسط الطريق. أقبلت عربة طويلة تجرها ثمانية بغال باتجاههم، توقفت على مسافة أمتار منهم، نزل منها أربعة رجال أقوياء مشهرين سيوفهم نحوهم. بتهذيب منقطع النظير طلب منهم (حمو) اصطحابهم إلى برتات مقابل سعر مرتفع، مدعيًا بأن سيدهم ينتظرهم وسيعاقبهم إذا ما تأخروا، فقبلوا مرحبين بهم ترحيبًا حارًا.

بمجرد أن ركبوا، باغتوا الرجال وضربوهم، ثم رموهم خلف ربوة بجانب الطريق هم والحمولة التي كانت بالعربة. اتجهوا نحو الحمار، حملوه ووضعوه على العربة، ثم انطلقوا صوب المدينة.

الفصل 6

فرقة الخدم التي كلفها (سفيان) بإحضار أفضل أكلات في قصر (إزم) غابت ولم يظهر بعض عناصرها حتى تصرمت ساعة تقريبًا. كانت تتكون من ثلاثة طباخين وسبعة خدم يقومون بأعمال مختلفة في القصر، ولعل ما جعل هذه المجموعة تتأخر كل ذلك الوقت، بالرغم من أن مهمتها كانت سهلة وبسيطة، ولا تتطلب جهدًا كبيرًا أو وقتًا طويلًا، على الأقل مقارنة بالفرقتين الأخريين، هو خلافها بسبب العبارة التي تلفظ بها سفيان: «أفضل أكلات في القصر».

هل المقصود من هذه العبارة الأكلات التي يطعمها (إزم)؟ لا، وما أدرى (إزم) بجودة الطعام؟ إنه مجرد معتوه شره عفن يتناول كل ما يقدم له دون أن يفرق بين السائغ منه والمقرف.

- «الطباخون الثلاثة أجدر بتحديد ماهية أفضل الأكلات في القصر» هكذا نطق أحد الخدم حينما يئس من إيجاد جواب شاف، بيد أن الطباخين احتجوا على كلامه، فهم أيضًا، ويا للشفقة!

لم يهتدوا إلى تفسير شاف لعبارة صاحب الشعر الفيروزي! فلقد جردوا أربع أو خمس أكلات بدت لهم أفضل ما يعدونه بالقصر، ثم أصيبوا بحبسة بسبب هذا السؤال الذي قطع أنفاسهم كضربة قوية على الظهر: ماذا لو لم تعجب هذه الأكلات صاحب الشعر الفيروزي؟ سيموتون لا محالة من الندم.

قال لهم نفس الخادم الذي تحدث أولًا، ليشجعهم على القيام بالمهمة:

ـ «أنتم أدرى الناس بالطعام الجيد والسيئ في القصر.. وحدكم تستطيعون اختياره»

لكنهم أجابوا في آن واحد وبنفس اللهجة كما لو كانوا متهمين بتهمة خطيرة ويريدون دفعها عنهم بأقصى سرعة:

ـ «نحن لا نعرف شيئًا!»

وصرخ فيهم خادم آخر:

ـ «كيف لا تعرفون!؟ ألم يكن حتى البارحة كل واحد منكم يدعي بأنه أفضل من الآخرين في الطبخ، وبأنه يعرف عن الطعام ما لا يعرفانه!؟ إذن فهذا هو الوقت المناسب كي تثبتوا لنا فيه براعتكم!»

وقال أحد الثلاثة من أعماق قلبه:

ـ «أنا أسوأ طباخ على وجه الأرض!»

وقال الطباخ الذي على يمينه بنفس اللهجة:

ـ «وأنا أيضًا، تبًا لي! كيف أعرف الطبخ، وأنا لم أتعلمه إلا منذ سنتين فقط!؟ حتى أنني لازلت لا أستطيع إعداد عجينة الخضر جيدًا دون أن أفرط في...»

وقاطعه الطباخ الذي على يساره وعيناه دامعتان:

ـ «والله نفس الشيء ينطبق علي! فأنا أبعدكما عن معرفة فنون الطبخ...»

وتوقف للحظة وأجهش بالبكاء، لعله يستدر شفقة الخدم السبعة، الذين كانوا ينظرون إليه وإلى زميليه نظرات تفيض حنقًا وغضبًا.

وما زال يبكي حتى فوجئ بأحدهم يلطمه على رأسه، ويهتف به:

ـ «اصمت أيها الحقير!»

فحذرهم:

ـ «ولكنني أريد مصلحة الجميع! تصوروا ألا يعجب الطعام الذي أختاره السيد! كلنا سنتضرر ولن ينبت لنا شعر فيروزي كشعره!»

أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض في حزن بالغ، فقال الطباخ الذي تكلم أولًا وقد تنفس الصعداء: «أجل.. أجل.. فلنتذوق الطعام جميعًا، وما اتفقنا على أنه جيد نقدمه للسيد، وما بدا لنا سيئًا نستبعده، بل يكفي أن يرفض أحدنا طعامًا ما حتى نستثنيه من القائمة»

وافقوا على الفكرة، هي فكرة سديدة مع أنها خطرة.

ـ «يا للتعاسة! لا مناص من تحملهم هذه المسئولية الخطيرة هم أيضًا.. ليت الطباخين الجبناء أعفوهم منها!»، فكر الخدم السبعة.

أعد الطباخون أربع أكلات أضافوها للطاولة الكبيرة بالمطبخ التي كانوا قد وضعوا عليها تلك الأكلات التي حضروها لأسرة (إزم) قبل دخول (سفيان)، ليصير المجموع سبعة عشر طبقًا، فهتف أحد الطباخين بالجميع:

ـ «هيا، تذوقوا!»

بعد تردد طويل اختاروا خمس أكلات، فوضعوها على طاولة صغيرة لا تبعد كثيرًا عن تلك الطاولة الكبيرة، كانت لذيذة، لم يكن بوسع أي منهم ادعاء العكس، رغم ذلك لم يكونوا مرتاحين مائة بالمائة. انتابهم خوف شديد من أن يكون رأيهم في مذاقها خاطئًا. ولعل ذلك هو ما جعلهم يتراجعون ولا يقتربون لحملها إلى مائدة السيد.

في هذه اللحظة خطرت لأحد منهم فكرة، فقال للآخرين:

ـ «نحن في حاجة إلى مجموعة من الأطفال»

حدقوا إليه باستغراب معبرين عن عدم فهمهم لما يرمي إليه؛ لذلك استدرك:

ـ «لقد سمعت بأن الطعام الذي يحبه الأطفال لا يمكن أبدًا أن يكرهه الأسياد.. على أية حال، سيشفعون لنا إذا لم يعجب الطعام السيد»

وبدأوا يسألون بعضهم بعضًا عن مكان تواجد أطفالهم، لكن صاحب الفكرة لم يلبث أن قاطعهم معلنًا بأنهم في حاجة إلى أطفال الأسياد، أما أطفال الفقراء كأطفالهم فلا يصلحون لهذه المهمة، لأنهم ببساطة لا يستطيعون التفريق بين طعام الإنسان وطعام البغال.

وضحكوا لما قاله، لكن سرعان ما أحاط بهم يأس قاتل، حينما أشار هذا الأخير إلى صعوبة جلب أطفال الأسياد إلى القصر، راحوا يتناقشون في الأمر، قال أحدهم: «نطرق أبواب القصور، ونطلب من الأسياد أن يسلمونا أطفالهم بعد أن نصرح لهم بغرضنا منهم»، وقال الثاني: «نختطفهم في غفلة منهم»، وقال الثالث: «نخبرهم بمبرر وهمي، ونجعلهم يرسلونهم معنا عن طيب خاطر». في النهاية تفرقوا إلى ثلاث مجموعات، متفقين على أن تحضر كل مجموعة طفلًا واحدًا.

وذهب أفراد المجموعة الأولى إلى منزل تاجر غني مرتدين ملابس أنيقة، طرقوه، قالوا لصاحبه ذي العينين السوداوين بأنهم مبعوثون إليه من طرف الوالي لكي يرسل معهم طفله للمشاركة في استقبال الأمير الذي سيأتي في المساء إلى المدينة، فألبس الرجل ابنه أبهى الثياب، ثم سلمه لهم في افتخار وفرح واعتزاز.

أما المجموعة الثانية، فقد عمدوا إلى أحد القصور، تسللوا إلى حديقته التي رأوا فيها بنتًا صغيرة جميلة المحيا تبدو عليها أمارات الثراء تركض وتلعب على مرأى من خادمة خضراء العينين، انقضوا على الخادمة وضربوها على رأسها ففقدت وعيها، أمسكوا الفتاة وكمموا فمها وخطفوها.

أما الفريق الأخير المكون من ثلاثة خدم، فيبدو أنه لم يكن محظوظًا، ذلك أن هؤلاء الخدم قصدوا أرملة ثرية بنية العينين لديها ابن في العاشرة من

العمر، فقال لها صاحب الخطة بأنهم سيكونون مدينين لها إذا تركت طفلها يرافقهم لتذوق بعض الأطباق وإبداء رأيه فيها، سألته عمن أرسلهم، فأجاب بأنه صاحب الشعر الفيروزي -شخص لم تسمع به أبدًا- مما أثار ريبتها وجعلها توقن بأنهم لصوص، طلبت منهم الانتظار قليلًا حتى تلبس ابنها ثيابًا جديدة وتحضره، وفي هذه اللحظة التفت ذلك الخادم إلى مرافقيه، ثم قال لهما بافتخار:

ـ «ألم أقل لكما بأن الصراحة كنز!؟ وبأن الناس مستعدون أن يهدوكما أغلى ما يملكونه إذا ما طلبتماه منهم صراحة دون خداع أو مكر!؟» لكنه لم ينته من كلامه حتى أحاط بهم عشرة رجال أقوياء، فسحبوهم إلى داخل القصر، وانهالوا عليهم صفعًا وركلًا.

في هذه الأثناء، كان (سفيان) يَحُثُّ الخطى نحو المطبخ، شاعرًا بجوع فظيع. بقي جالسًا على ذلك الكرسي في الصالة منذ أن أرسل الخدم لإحضار الطعام، ولما لم يعد يطيق الانتظار أكثر بسبب إلحاح الجوع عليه، هب واقفًا من مكانه، وذهب إلى المطبخ، استغرب حينما لم يجد فيه أحدًا.

ـ «من رآهم يهرولون إلى المطبخ عندما أمرتهم بإحضار الطعام يظن بأنهم سيأتون به في لمح البصر، لكن ها هم قد اختفوا عن الأنظار، يا للخدم المستهترين!»

تمتم. وشعر بغضب الأسياد، لكنه سرعان ما تذكر بأنه منذ وقت قريب فقط كان مجرد متسول مسكين، لذلك طرد غضبه شر طرد.

كان المطبخ عبارة عن غرفة فسيحة، بزاويته اليسرى كان يتربع حوض ماء تسبح فيه أطباق خشبية مزخرفة بالزهور والنباتات الجميلة. وكانت تعلو جدرانه رفوف مزدانة بالفواكه والخضر، وقربها مجموعة من المناضد التي تحتوي على أوان وأغطية. أخذ بعينيه يغزل المكان فلاحت في الوسط طاولة كبيرة لا غطاء عليها تحتوي على اثنى عشر طبقًا من الطعام، وبالقرب منها

طاولة صغيرة مقارنة بها تحتوي على خمسة أطباق، فليبدأ بالطاولة الكبرى، جلس على مقعد قبالتها، أخذ يلتهم من هنا وهناك كل ما استطاع إليه سبيلًا، بدا مثل شخص لم يذق طعامًا منذ أيام، توقف عن الأكل حين انتفخ بطنه، فلم يعد قادرًا على ابتلاع المزيد، لم يكن بعد قد لمس شيئًا من تلك الأطباق التي اختارها الخدم له. «يا إلهي!»، صاح في فرح، «ما أروع أن تكون غنيًا تأكل ما لذ وطاب! صدق من قال: (أنت غني، إذن أنت سعيد)»

وسرعان ما هجمت عليه ذكريات عن أيام عجاف جرب فيها الجوع المدقع والبرد والحرمان، تعكرت سعادته، عليه أن ينام، ما أجمل أن يستيقظ وكل هذه الذكريات المقيتة قد محيت تمامًا من ذاكرته! أجل، ما أجمل أن يحدث ذلك! تناول ملاءة من إحدى زوايا المطبخ كان قد اشتراها اليوم أحد الطباخين في السوق ونسيها هناك. تمدد أرضًا بالقرب من المقعد الذي كان يجلس عليه، تدثر بها ثم أقفل عينيه، فذهب في نوم لذيذ شعر خلاله بأنه حمامة بيضاء تحلق فوق حقول ومروج خضراء.

بعد دقائق معدودات دخلت إلى المطبخ إحدى المجموعات الثلاث التي خرجت للبحث عن أطفال الأغنياء، نظرت إلى تلك الطاولة التي أكل منها فألفتها مقلوبة رأسًا على عقب، كما لو أن الجرذان عاثت فيها، أو أن متشردًا جائعًا اقتحم المطبخ فجأة فرآها، فانقض عليها وتناول ما فيها بعجالة، ثم فر مبتعدًا. شعروا بالغضب والتقزز، وفي هذه الأثناء لفت انتباههم شخير (سفيان)، فنظروا إلى مكان اضطجاعه، كانت الملاءة التي يتغطى بها تحجب رأسه وكافة جسده.

نظروا إلى بعضهم البعض مشيرين إليه بحقد، لا شك بأنه الشخص الذي تناول الطعام الذي جاؤوا بالطفل المدلل كي يتذوقه ليختاروا أفضله ويقدموه إلى سيدهم صاحب الشعر الفيروزي! إنه لص لعين! اقتربوا منه

على رؤوس أصابعهم، وبالإشارات اتفقوا على أن يخلع أحدهم الملاءة بينما الآخرَان ينهالان عليه ضربًا.

لكن ما أن خُلعت الملاءة حتى بهتوا وتجمدوا، استيقظ (سفيان) من النوم، حملق فيهم شاعرًا بالخوف، إنها المرة الأولى التي ينام فيها، ثم يستيقظ بعد حادثة الحلاقة، راح ينظر من حوله، بصعوبة تذكر بأنه الآن سيد ولم يعد متسولًا.

وفي نفس الوقت قال له أحدهم في لطف:

ـ «سيدي، إن النوم هنا غير مريح لك بالمرة، دعنا نأخذك إلى سرير وثير»

كان ما يزال يشعر بالنعاس، فقال لهم في أدب:

ـ «افعلوا ذلك من فضلكم»

فأهرعوا ثلاثتهم إلى غرفة نوم (إزم) ليحضروا الهودج كي يحملوه عليه.

انتبه (سفيان) إلى الطفل الذي أحضروه معهم، كان أبيض الوجه وأسود الشعر وفيروزي العينين، لم يلبث أن ركض نحوه وارتمى بين ذراعيه ثم أخذ يبكي، عجبًا! كل الأطفال الذين التقاهم من قبل فعلوا مثله! لم يسبق لأحد الكبار أن بكى لما رآه! صحيح أن الحب يشع في أعينهم، لكنهم لا يبكون.

ما أروع أن يبكي طفل بين ذراعيك من فرط حبه لك! حب الأطفال هو أخلص وأنقى حب على الإطلاق. شاعرًا بحنان طافح تجاه الطفل، حضنه بحرارة.

وهنا دخل الخدم بالهودج، وألفوا الطفل يبكي بين ذراعي السيد، فتأثروا بهذا المنظر، حتى أنهم شعروا برغبة جامحة للبكاء، لكن أعينهم لم تستطع أن تدمع، فكل منهم هجمت عليه فجأة ذكرى حالت بينه وبين البكاء، فهذا تذكر بأنه ما يزال في حاجة إلى ادخار المزيد من المال ليشتري بيتًا، والثاني تذكر بأن الأرض التي يقتسمها مع أحد إخوته والتي زرع فيها

القمح هذه السنة أعطت منتوجًا ضعيفًا، والثالث تذكر بأن رزمة النقود التي سُرقت منه قبل ثلاث سنوات لم يظهر لها أثر بعد.

بعد لحظات انحنى الطفل تلك الانحناءة المعهودة من كل من يحيي (سفيان)، ثم ترجاه أن يشعّره ويأمره بالقيام بشيء ما ليثبت له طاعته، فلامس شعره بشعره، ثم قال له: «عش حياتك الطبيعية».

فذهب راكضًا، قائلًا: «السمع والطاعة»، اتجه نحو قصر والديه، وأكمل لعبه الذي كان منغمسًا فيه قبل مجيء الخدم.

دخل أفراد المجموعة الثانية التي وُفقت في إحضار تلك الفتاة الغنية في اللحظة التي كان هؤلاء الخدم يحملون (سفيان) على الهودج ويصعدون به السلالم باتجاه غرفة نوم (إزم). على الفور هرولوا لمساعدتهم في حمل الهودج، ولحقت الطفلة بهم، رأت النور الفيروزي على رأس (سفيان) فدمعت عيناها، لم تجد بُدًّا من اللحاق بهؤلاء الخدم الذين اختطفوها، مع أنهم تركوها الآن ولم يعودوا يمسكون بها بقوة كما كانوا يفعلون منذ أن أتوا بها من قصر والديها، باتت الفرصة سانحة لها الآن للهرب كما ظلت تتمنى بمجرد أن اختطفوها، لكنها لن تهرب، لقد قررت اللحاق بصاحب الشعر الفيروزي حتى لو ذهب إلى آخر الدنيا، لكي ترتمي بين أحضانه، فهي تشعر بأنها تحبه أكثر من والديها وتريد أن تطيعه طاعة عمياء.

وسرعان ما وصلوا إلى غرفة النوم، وضعوا الهودج أرضًا ببطء لا نظير له كما لو كان مليئا ببيض يخشون تكسره، وركضت الفتاة باتجاه (سفيان)، كان منظرها لا يقل جمالًا عن الطفل الذي شعّره قبل قليل، ارتمت بين ذراعيه والدموع تنهمل من عينيها، مسح على رأسها وأمرها أن تعيش حياتها بشكل طبيعي، فذهبت إلى بيت والديها تنط بسعادة كالفراشة الفرحة.

أخذ (سفيان) يتملى غرفة نوم (إزم) منبهرًا بجمالها، كان ثمة سرير من الحرير الناعم في الوسط، وستائر مرصعة باللؤلؤ فوق النوافذ، وزرابي

مزركشة مبثوثة على الأرض، وثريا براقة بألوان زاهية في السقف، وأوان من الذهب على الجدران. كيف يعقل ألا يشعر بالسعادة من ينام في هذه الغرفة!؟

وفي رمشة عين، تذكر غرفة نومه فأحس بالاختناق، حتى الجرذان تعيف من النوم فيها! ما أحقرها! لا يزال في جسده آثار الحصير المهترئ الذي يفترشه فيها، وفي عينيه صورة صباغة جدرانها الحمراء الحائلة الكئيبة التي تشبه دماء شاة مسلولة! كيف يعقل أن يشعر بالسعادة من ينام فيها!؟ لا غرابة أن حياته كانت تعيسة كحياة جرو أجرب!

وشرع يلمس بعض الأحجار الكريمة الموضوعة فوق منضدة بأحد أركان الغرفة، وهو يفعل ذلك، راح الخدم الذين أحضروه يسترقون النظر إليه، متسائلين عما يفكر فيه.

يا لتواضعه! يا لبراءته! يا لجماله! إن النظر إليه لمتعة ليس بعدها متعة! ليتهم يعرفون ما الذي يفكر فيه! إنهم مستعدون لدفع حياتهم ثمنًا لذلك!

وفطن إلى نظراتهم على حين غرة، فارتبك وشعر بالخجل، أحسوا بما حل به فعضوا على شفاههم خوفًا وندمًا وطأطأوا رؤوسهم.

قال لهم:

ـ «اذهبوا لكي ترتاحوا»

فانصرفوا من الغرفة لا يرفعون رؤوسهم، فرحين لأنه لم يغضب منهم، كالعادة لم يكونوا متأكدين مما يعنيه بكلامه، ما المقصود بأن يرتاحوا؟ هل يتكئون على جنوبهم ولا يفعلون شيئًا؟ هل يبقون واقفين أمام باب غرفته؟ هل يلعبون لعبة؟ هل ينامون؟

وهكذا أخذوا يتجادلون بحدة حول معنى الجملة التي فاه بها، لم يسبق لهم أن تبادلوا نقاشًا مشتعلًا كهذا حول أوامر (إزم)، علق أحدهم

-معروف بعدم وزنه لكلامه- بأن الجملة التي تحتمل أكثر من معنى أشبه بزوجة ثرثارة، نظروا إليه بتأفف، على رأسه لطمه أقربهم مشيراً إلى أن في كلامه ما يسيء للسيد صاحب الشعر الفيروزي، هم الآخرون أن يؤذوه، لكنه اعتذر منهم جميعًا، وقال لهم مجهشًا بالبكاء بأنه لم يكن يقصد بكلامه الإساءة للسيد، لأنه يحبه أكثر من أي شخص آخر في العالم.

بعد شد ورد وصلوا إلى خلاصة بأن السيد طلب منهم أن يرتاحوا معًا قدر ما يشاؤون، لكن ألا يبتعدوا عن الغرفة التي ينام فيها، لأنه قد يحتاج إليهم في أية لحظة، وهكذا اضطجعوا على الأرض خلف الباب، انتابهم تعب لم يشعروا به من قبل، تعب مضن، كما لو أنهم عملوا لأيام أو شهور دون أن يأخذوا قسطًا من الراحة، أو حملوا أشياء ثقيلة ومشوا بها مسافة طويلة، عليهم أن يرتاحوا، أجل، يا إلهي! لماذا لم يفكروا في ذلك من قبل!؟ وحده سيدهم يعرف ما يحتاجونه.

الفصل 7

فرقة الخدم المكلفة من طرف (سفيان) بالبحث عن أفضل الأكلات في برتات كانت تتكون من امرأة وثلاثة رجال. كالخدم الذين تركوهم في القصر، لم يعرفوا المعنى الدقيق لهاتين الكلمتين (أفضل الأكلات)، وتمنوا لو أن سيدهم طلب منهم إحضار أكلة معينة، طفقوا يسألون جميع من يصادفونهم عن أشهى المأكولات بالمدينة، فتلقوا أجوبة مختلفة، هذا قال لهم: «الثريد»، وذاك قال: «اللحم المشوي».

في النهاية خلصوا إلى أن كل طبق يأكله الناس بشهية فهو أفضل أكلة، وبالتالي عليهم أن يحضروه إلى القصر، عرفوا حاجتهم الماسة للمال، وهكذا تلثموا وتمنطقوا بالسيوف والخناجر، ثم هجموا على أحد المتاجر الكبيرة في ضواحي المدينة، وسلبوا صاحبه كيسين مليئين بالمال، اشتروا من المطاعم كل طبق وصفه الناس باللذيذ والأفضل.

ثم أخذوا يطرقون البيت تلو البيت يشترون أشهى ما يعده أهله، ويضعونه في عربة اقتنوها لهذا الغرض. وفي الليل امتلأت العربة، فكروا أن يذهبوا بها إلى القصر ويقدموها للسيد، ثم يستأذنونه لإحضار المزيد، لكنهم أحجموا عن ذلك خوفًا من ألا تلقى إعجابه، سيموتون حزنًا إذا حدث شيء كهذا، لا.. لا يجب أن يخاطروا مثل هذه المخاطرة.

استأجروا بيتًا واسعًا وسط المدينة فيه ستة غرف، راحوا يخزنون فيه هذه الأطباق، ريثما ينتهون من جمع كل الأكلات الشهية التي في المدينة، ومن ثم يأخذونها مرة واحدة إلى السيد.

عندما انتصف الليل ذهبوا إلى هذا البيت لكي يناموا، فطنوا إلى أنهم لم يأكلوا شيئًا مذ كلفهم السيد بالمهمة، تشاوروا فيما بينهم، سيدهم لم يطلب منهم إحضار أشهى المشروبات، بل أشهى المأكولات فقط. خرجوا واشتروا لبنًا وشربوه في الصالة التي وضعوا فيها تلك الأطباق، ولم يستطيعوا منع أنفسهم من اختلاس النظر إلى الأطباق بتلذذ. فجأة مدَّ يدَه إلى أحد الأطباق كي يتذوقها أحدُهم، أصيب قبل أسبوعين فقط بلوثة في عقله؛ نزلوا عليه ضربًا حتى كادوا يقتلونه، وقالوا له بأن الأكل من طعام السيد حرام وممنوع، إنهم ليسوا أهلًا لأكله، بل ولا لشمه حتى، فاعتذر منهم ووعدهم ألا يفعلها مرة ثانية، وعلى إثر ذلك شعروا بأنهم مذنبون هم أيضًا لقيامهم بشم طعام السيد، لذلك سرعان ما وضعوا خرقًا على أنوفهم، ثم أخذوا الطعام إلى غرفة، وأقفلوا عليه فيها، واضطجعوا في غرفة بعيدة عنها، وهم ينتفون شعرهم بقوة.

صباح الغد، سيطر عليهم جوع قاتل، فلم يستطيعوا شرب اللبن فقط. اقترح عليهم أحدهم تناول الفواكه، باعتبارها ليست أكلات، فتجادلوا فيما بينهم، وفي النهاية خلصوا إلى أن الفواكه تدخل في طبق التحلية، لذلك فهم لا يجب أن يأكلوها، وسرعان ما اتفقوا على تناول أسوأ الأكلات، أي تلك التي لا يرضى بها سيدهم، وهكذا وجدوا في تحديد ماهية أسوأ المأكولات الصعوبة نفسها التي وجدوها من قبل في تحديد ماهية أفضلها! ما هي أسوأ أكلة في المدينة؟ راحوا يسألون هذا وذاك من الباعة والنساء والطباخين.

قيل لهم ليس ثمة أكلة سيئة بالتحديد، مثلا لا يمكنك القول بأن الحساء سيئ، أو المرق سيئ، أو لحم الدجاج سيئ، لكن يمكنك القول بأن اليد التي أعدته قد أعدته بشكل سيئ.

وقيل لهم، الأكلة السيئة هي كل أكلة غير متوازنة، أي فيها شيء زائد عن

اللزوم كالملح مثلًا، أو الخضر، أو الزيت، أو اللحم، أو الماء.

وقيل لهم، هي كل أكلة لم تعددها يد نظيفة، فاليد المتسخة لا يسعها أن تصنع أكلة لذيذة، ذلك أن رائحتها الكريهة تطرد رائحة الطعام الزكية.

وسرعان ما قيل لهم عكس هذا الكلام، فاليد المتسخة من شأنها أن تعد أكلة ألذ من اليد النظيفة، وأغلب طعام الرجال ألذ من طعام زوجاتهم لقلة اهتمامهم بنظافة أيديهم أثناء إعداده، فكما أن في القاذورات ما يجعل العشب مخضرًا ومزهرًا، فكذلك في اليد الوسخة ما يجعل الطعام لذيذًا.

وقيل لهم، إن الأكلة السيئة هي كل أكلة أعدت سهوًا، فقلة التركيز عند إعداد أكلة ما تجعل المرء لا يضبط المقادير والخطوات، مما يفسد الأكلة.

وسرعان ما قيل لهم العكس أيضًا، فإعداد الطعام بتركيز وتمحيص شديدين يفسدانه، الأمر أشبه باختيار الزوجة، التدقيق في كل صغيرة وكبيرة في شكلها ونسبها وماضيها يحول دون الزواج بها، والتنازل أمر لا محيص عنه.

في النهاية وصلوا إلى خلاصة مفادها أن الأكلة السيئة هي أكلة يذوقها أكبر عدد من الناس فلا يحبونها.

لذلك اشتروا عصيدة، وأضافوا لها الكثير من الملح، ثم عرضوها على ثلاث نساء، تذوقنها وقلن بأنها سيئة، وهكذا ذهبوا بها راكضين إلى ذلك البيت الذي اشتروه لأكلها، على مرمى حجر منه مر متشرد ممزق الثياب، أوقفوه، مدوا له العصيدة، سألوه تذوقها وإبداء رأيه فيها وهم على يقين من أن جوابه لن يخالف جواب أولئك النسوة، لم يعجبهن من اللقمة الأولى، عكسهن استمر بالأكل وهم يتفرسون فيه متوترين، وينتظرون منه أن يتوقف، لم يبدُ عليه أنه يأكل وجبة سيئة، راح يخترق الطبق بيمينه وشماله حتى أجهز عليه كله، عندها فقط رفع عينيه إليهم، كانت أنظارهم

مسلطة عليه بحقد لا حدود له.

قال لهم شاكرًا:

ـ «بارك الله فيكم! أطعمكم الله حلالًا مثلما أطعمتموني هذه العصيدة!»

هتفوا به مرة واحدة بصوت مرتفع:

ـ «لم تجبنا عن سؤالنا!»

لم يكن صعبًا عليهم شراء عصيدة أخرى، وإضافة الملح لها ثم تناولها، لكن أولًا عليهم أن يسمعوا شهادته بأنها سيئة. هتف به أحدهم بوجه متجهم لما لم يجبهم:

ـ «عندما مددنا لك الطبق، ماذا قلنا لك؟»

راح يحاول التذكر.. كان جائعًا جدًا ولم ينتبه لسؤالهم.

قال محرجًا:

ـ «اعذروني يا سادة، لم أسمع جيدًا سؤالكم، هلا أعدتموه عليَّ؟» صاحت المرأة الوحيدة في المجموعة بغضب والجوع يكاد يقتلها:

ـ «أنت عفن.. لقد مددنا لك الطبق وسألناك أن تتذوقه لتخبرنا برأيك فيه، لا أن تلتهمه كله كالضبع النتن!»

ـ «عفوك سيدتي، عفوك! ما أنا إلا فقير عفن كما قلت ولا حول لي ولا قوة، فاغفروا لي»

وصمت وأخذ يرتعد في مكانه، وهم بالهرب، لكن الرجل الأقوى بنية في الفرقة انقض عليه، وقبضه من ياقة جلبابه المهترئ، ثم أخذ يرجه سائلًا:

ـ «ألن تجيب عن السؤال؟ أم أنك لن تفعل ذلك حتى أزهق روحك؟»

ـ «بلى.. بلى يا سيدي.. الطبق لذيذ.. لذيذ إلى درجة الجنون»

ارتخت قبضة الرجل، وسرت في جسده وأجساد أفراد المجموعة كلهم رعشة برد تألمت لها قلوبهم. وعلى الفور أطلق المتشرد ساقيه للريح، رموه بوابل من الشتائم، اشتروا عصيدة أخرى وأضافوا لها الكثير من التوابل، حتى إذا عرضوها على أربع نساء ورجلين فتقززوا من طعمها، تناولوها بشراهة، لينطلقوا عقب ذلك لإكمال المهمة التي كلفهم بها صاحب الشعر الفيروزي، شاعرين أنهم هزموا العدو العنيد الذي أراد أن يحول بينهم وبين تنفيذها على أكمل وجه: الجوع.

الفصل 8

ذلك اليوم الذي قسم فيه (سفيان) خدم (إزم) إلى ثلاث فرق كان يومًا مشهودًا من التعاون والتنافس فيما بين هؤلاء الخدم، لم يعرفوا له مثيلًا من قبل.

مثل الفرقتين الأخريين، ما أن كلفها (سفيان) بمهمة حتى راحت الفرقة الثالثة المتكونة من أربع نساء تتشاور فيما بينها حول الإجراءات اللازمة لتنفيذ مهمتها على أكمل وجه. كان عمل هؤلاء النسوة في القصر هو الاهتمام بالحديقة، لولا الصدفة ما رأين (سفيان) ولا وقعن تحت تأثيره، إذ لم يكن يسمح لهن بدخول القصر. كن في أحد البساتين، فرأينه يدخل إلى القصر، لذلك هرولن في إثره، وانضممن إلى الخدم الذين كانوا يحيطون به ويلتمسون رضاه.

(ابتسام)، (نجاة)، (سهام)، (لطيفة)، كانت هذه أسماؤهن. كن متزوجات، فقيرات، ولا فرق في مظهرهن تقريبًا، فوجوههن بيضاء تميل إلى الدمامة، قاماتهن متوسطة، أجسامهن بدينة، ويرتدين أقمصة فضفاضة مغبرة يشمرن بها عن سواعدهن، وتنانير واسعة وأوشحة رقيقة خِلقة معلقة على رؤوسهن كما لو كانت مجرد خرق التصقت بهن صدفة وهن يمشين في مزبلة، فلم يحملن أنفسهن عناء إبعادها عنهن، وذلك من شدة لامبالاتهن بمظهرهن.

خارج القصر سألت (لطيفة) في توجس، وكانت أشدهن ذكاء:

ـ «كيف نعثر على أفضل طباخ في المدينة؟»

أخذن ينظرن إليها، ثم إلى بعضهن البعض في حيرة، وهن يقطبن جباههن ويلوين شفاههنـ وردت (لطيفة) على السؤال بنفسها لما لم تسعفها أية واحدة منهن بجواب:

ـ «علينا أن نسأل الناس.. الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم، أليس كذلك؟»

وأجابت (ابتسام):

ـ «وهل من الممكن أن يجيبنا الناس الذين لا نعرفهم عن سؤالنا هذا لله دون أن يطلبوا منا مقابلًا؟»

وقالت (نجاة) بحدة، وكانت أكثرهن استهتارًا ونزقًا:

ـ «نعطيهم أي شيء يريدونه بالمقابل»

لإحساسها بضرورة إبداء رأيها لكيلا تبدو -سواء لنفسها أو لهن- بأنها لا تولي المهمة التي كلفهن بها السيد الأهمية التي تستحقها، قالت (سهام):

ـ «حتى لو طلبوا منا أن نحلب أربعين بقرة في وقت وجيز»

كانت (سهام) امرأة بليدة شيئًا ما، إذا تكلمت فإنها تقول في أغلب الأحيان إما كلامًا مغفلًا أو غامضًا، حتى أن زوجها قال لها يومًا وقد ضاق ذرعًا بها: «لا تتكلمي أمام الآخرين إلا إذا كان ذلك ضروريًا جدًا، هذا لأنك لا تتفوهين في الغالب إلا بالحماقات»، فدافعت عن نفسها بحدة مجيبة إياه: «إذا كان الناس أغبياء لا يفهمون ما أقوله، فهذا ليس ذنبي، بل ذنبهم»، والحق أنها لم تعمل أبدًا بنصيحته.

الرجل الأول الذي أوقفنه غير بعيد عن القصر، قُمن بتحيته، ثم سألته (لطيفة) ذلك السؤال مباشرة. اتفقن جميعًا على أن تكون (لطيفة) هي المتحدثة بالنيابة عن المجموعة؛ لأنها أصفاهن كلامًا وأحلاهن لسانًا. لم يكن الرجل يعرفهن، ولم يكن قد التقى (سفيان) وخضع لسحر قَصَّته، نظر إليها باستغراب ممزوج بالاستنكار، ثم قال: «لا أعرف»، ومضى مبتعدًا. والتقين

بعده بامرأة فيروزية العينين، وحين سألنها أعطتهن اسمًا، ففرحن بشدة، لكن سرعان ما تلاشى فرحهن حين سألن أربعة أشخاص سود الأعين بعد ذلك، فرفضوا الإجابة.

لذلك غيرن الخطة، أخذن يدعين للناس الذين ليست أعينهم فيروزية بأن الوالي هو من أرسلهن لطرح هذا السؤال، وأنه سيجعل الذين يزكون الطباخ المناسب الذي يُعجَب السلطان بطعامه عندما يزور المدينة الأسبوع القادم مشهورين في كل البلاد، وإذا ما رفضوا الإجابة كن يضفن بأن الوالي يخصص جائزة مالية لهم، وإذا لم ينفع ذلك، كن يلجأن إلى مبرر لم يلتقين أحدًا يمتنع عن الإجابة بعد الإدلاء به، ألا وهو أن الوالي بأمر من السلطان نفسه سيسجن أي شخص لا يجيب عن هذا السؤال ويصادر أمواله وأملاكه.

بعد طرح السؤال على أزيد من مائة شخص، قالت لهن (سهام):

ـ «الناس لا يساعدونك إلا بدافع الحب، أو الشهرة، أو المال، أو الخوف»

أومأن لها برؤوسهن.

الليل قد خيم منذ ثلاث ساعات، النسيم عليل والقمر بدر. وتابعن البحث، يجسن في الدروب والشوارع، لإيقاف كل شخص جديد يلوح أمامهن، وطرح ذلك السؤال عليه. والحق أنهن كن يتعرفن على الناس الذين سألنهم من قبل بمجرد رؤيتهم من جديد، وهكذا لا يقمن بسؤالهم مرة أخرى، بل ما أن يرينهم حتى يتحاشينهم ويشحن عنهم بوجوههن مبتعدات، لاسيما إذا كانت لهم أعين فيروزية، فلقد كن يشعرن بالخزي منهم لكونهن لم يجدن بعد الطباخ الذي كلفهن السيد بإيجاده.

وعلقت (ابتسام) على كلام (سهام)، ثم ما لبثت أن ندمت، نظرًا لكونها قد تدفع بـ(سهام) إلى قول أشياء مبلبلة:

ـ «حتى الشفقة من شأنها أن تجعل الناس يساعدونك»

ـ «لكن أحدًا لم يشفق علينا»

قالت (سهام). ثم أضافت في تنهد عميق:

ـ «لم يعد أحد يشفق على أحد في برتات على كل حال»

ولم تنبس (ابتسام) بشيء، وأشارت خلسة إلى (لطيفة) و(نجاة) بألا ترتكبا الخطأ الذي ارتكبته بمتابعة النقاش مع (سهام)، فطمأناها بأنهما لن تفعلا ذلك، وبأنهما تفضلان الصمت على الخوض معها في كلام قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

وهكذا خيم الصمت على المجموعة من جديد. استمررن باستجواب الناس حتى خلت الشوارع والأزقة من المارة، كانت لديهن ورقة مكتوب فيها أسماء الذين قمن باستجوابهم وورقة مكتوب فيها أسماء الطباخين الذين زكاهم هؤلاء.

الورقة الأولى كانت مدعوكة، وغير معتنى بها، كما لو أنها خرقة بالية لمسح قاذورات المطبخ، بينما الورقة الثانية كان معتنى بها غاية الاعتناء، كانت (لطيفة) تحتفظ بالورقة الأولى، وابتسام تحتفظ بالثانية، لم تعارض (سهام) و(نجاة) على احتفاظهما بالورقتين، فهما متعلمتان، عكسهما. بيد أن ذلك أصابهما بإحباط غير مسبوق وجعلهما تحتقران نفسيهما على أميتهما أشد الاحتقار، وبالمقابل زرع فيهما عزمًا منقطع النظير على تعلم القراءة والكتابة في أقرب وقت.

قالت (ابتسام) حينما وقفن في أحد الأزقة الخالية من المارة:

ـ «لدينا أسماء ثلاثة طباخين، سأذكرها بالترتيب مع العدد الذي زكاها: (أحمد المراكشي)، وهو طباخ بمطعم الضيوف الشعبي في سوق الخضر، ولقد زكاه ثمانون شخصًا. (ليلى سلمان)، وهي بائعة طعام متجولة، ولقد

زكاها خمسون شخصًا. (محمود الوردي)، وهو طباخ في مطعم الأمة الأرقى بالمدينة، ولقد زكاه ثلاثون شخصًا»

وبادرتها (سهام):

ـ «وماذا بعد؟»

لم يجبها أحد، فشعرت بالغيظ، وأيقنت بأن إحساسها بأنهن يتجاهلنها، ذلك الإحساس الذي انتابها منذ انطلاقهن لتنفيذ المهمة، في محله، وليس من نسج خيالها فقط. الحق أنها كانت تعرف بأن رأيها لا يعجب الكثير من الناس، حتى أقربهم إليها مع الأسف، لذلك يتجاهلون كلامها، لكنها لم تنزعج من قبل لهذا الأمر مثلما انزعجت له الآن، وهكذا أبت إلا أن تثبت لهؤلاء النسوة بأنها تستحق منهن تقديرًا أكبر مما نالته.

فأضافت وسط دهشتهن:

ـ «لا يعقل أن نركن إلى هذه الورقة إلا إذا كنا نعترف بأننا أغبياء.. إن النتائج التي فيها ليست صحيحة مائة بالمئة.. أولًا نظام الاختيار بناء على التزكية هذا.. ما الذي يجعله أفضل من غيره؟ وكيف نطمئن إليه وهو يحتوي بين طياته على فخاخ لا تعد ولا تحصى؟ فمن ناحية، يُخيَّل إليَّ أن أغلب الاختيارات اتُخذت من طرف أصحابها بناء على حجج ضعيفة، فمنهم من أكلوا طعام الطباخ الذي اختاروه في يوم سعيد فأعجبهم الطعام، لأنهم كانوا سعداء، لا لأنه كان لذيذًا، وبالتالي حكموا على الطباخ بدافع وضعهم النفسي هذا، لا بدافع براعته في الطبخ. ومن جانب آخر، لا يخفى عليكن بأن الإنسان عندما يُطلب منه اختيار شخص دون غيره ليستفيد هذا الشخص من شيء ما، فإنه لا يختاره بناء على كفاءته فقط، هذا إذا اختاره بناء عليها أصلًا، بل يختاره بناء على أسس أخرى لا مصداقية لها مثل: العرق، الدين، الحالة الاجتماعية، القرابة، الشكل، وهلم جرًا. زدن على ذلك، لنفترض أن كل الذين سألناهم، أخذوا الكفاءة مأخذ الجد وأولوها

الأسبقية، يجب أن نضع في الحسبان بأن درجة معرفتهم لعالم الطبخ من شأنها أن تحدد جدارة اختيارهم، ناهيك عن درجة ذكائهم، فبعضهم غبي، وبعضهم متوسط الذكاء، وبعضهم ذكي جدًا، وبين هذه الدرجات الثلاثة عشرات الدرجات الدقيقة من الذكاء، فهل تستوي اختياراتهم؟ طبعًا لا. هذه بعض الفخاخ المزروعة في الأرض التي نمشي عليها لبلوغ هدفنا»

لما انتهت (سهام) من قول هذا الكلام نظرت بإمعان إلى وجوه زميلاتها لتجس مدى تأثيره فيهن، وكانت منذ بداية حديثها لا تنظر إليهن، بل إلى قطة قرعاء فيروزية العينين تخربش في بعض النفايات قريبًا منهن. ألفت الوجوه مسودة منتفخة تلمع فيها أعين غاضبة، فأجفلت وشعرت بالخوف من أن يهجمن عليها ويضربنها، لاسيما أن الزقاق الذي كن يتواجدن فيه كان خاليًا تمامًا من الناس، ولم تكن فيه بالإضافة إليهن سوى تلك القطة.

ولكي تنقذ نفسها، أضافت بعجالة وهي لا تحول عينيها عن أعينهن هذه المرة، متأهبة للفرار في حال هجمن عليها:

ـ «ولكن من قال إن الغباء صفة مذمومة دائمًا؟ إن الغباء قمة الذكاء عندما لا تكون هناك وسيلة غيره لبلوغ هدف سامٍ كهدفنا.. الغباء إخلاص.. براءة.. انتصار على الاحتيال والخديعة اللتين ينسجهما عنكبوت الذكاء.. لئن لم تكن لدينا سبيل أخرى للعثور على أفضل طباخ في المدينة إلا التزكية، فلا مناص من سلوك هذه السبيل، والحمد لله، إنها سبيل معبدة ويسيرة، فإياكن والانزعاج أو الغضب يا صديقاتي، إنه لا تفصلنا عن إتمام مهمتنا إلا ساعات قليلة، وزوال الغد على أقصى تقدير نكون قد انتهينا من الاستجواب، فنذهب إلى الطباخ المعلوم بعد ذلك على جناح السرعة، نحاول إقناعه بالمجيء معنا إلى السيد صاحب الشعر الفيروزي، ولن نفارقه حتى نقنعه بذلك، وإلا فسنجبره على مرافقتنا، أنا بنفسي سأوثقه لكنّ وأحمله على ظهري إذا رفض أو تعنت»

توقفت عن الكلام وراحت تلتقط أنفاسها، لقد كانت تتحدث بسرعة، كانت تعلم بأن كلامها مختلط معجن، لكن ما همها ذلك، المهم هو ألا تصمت حتى ترى وجوه زميلاتها وقد استعادت لونها الطبيعي واختفت منها تلك السحابة السوداء التي كانت تغشاها. وفي الحقيقة، لم تصمت إلا بعد أن رأت ذلك.

وسرعان ما أضافت في جدية:

ـ «الأفضل أن نفرق المدينة إلى أربع مناطق، فتتكفل كل واحدة منا باستجواب الناس الموجودين في منطقتها، حتى إذا انتهت من ذلك، عادت إلى هنا وانتظرت الأخريات.. هكذا نربح الوقت وننفذ المهمة التي كلفنا بها السيد في أسرع وقت»

تبادلت زميلاتها النظر لدقيقة تقريبًا، حتى إذا وجدن بأن فكرتها صائبة أبدين موافقتهن عليها. وهكذا قسمن المدينة إلى أربع مناطق، لتنطلق كل واحدة إلى منطقتها، وكلها عزم على عدم العودة حتى يجيبها سكان منطقتها عن أصعب سؤال سمعته في حياتها: من هو أفضل طباخ في برتات؟

الفصل 9

عندما تلقى الوالي الأمر من (سفيان) بالتسول لم يشعر بالتعاسة، أو حتى بذرة من الانزعاج، في الحال راح يؤدي المهمة بنشاط، أخذ يمد يده للمارة مرددًا: «أنعموا عليَّ بقرش ينعم الله عليكم بعشرة!». دفعة واحدة وجد نفسه يتذكر العديد من العبارات التي كانت مسامعه باشمئزاز شديد تتلقاها في شوارع وأسواق المدينة، ها هو ذا يلهج بذكرها فرحًا على غير العادة.

لكن لسوء حظه مضت ساعة تقريبًا وهو على حاله هذا دون أن يشفق عليه أحد وينقده فلسًا واحدًا.

أما الذين لم يرو (سفيان)، فقد ظنوا بأنها لعبة من ألاعيب الوالي فابتعدوا عن طريقه، وتجاهلوا حتى النظر إليه. كيف يسمحون لأنفسهم بالتصدق عليه؟ إنه رجل ثري وجبار، لا أحد منهم يستطيع أن يثق بالتصدق عليه بالقرش الذي يطلبه خوفًا من أن يتهمه بالسخرية منه. والحق أنه لو طلب مبلغًا كبيرًا -لاسيما من الميسورين- لأعطوه له على الفور.

وأما الذين رأوا (سفيان)، فنظرًا لعلمهم بأن المهمة التي كلفه بها هي التسول، امتنعوا عن التصدق عليه، وذلك لتقصيره في أداء المهمة، بعدم خلعه ثيابه الفاخرة وارتداء ثياب بالية تليق بالمتسولين.

بعد مرور ساعة فقط على بدء تسوله، أخذ الوالي يتساءل لماذا لم يتصدق عليه أحد، حار في أمره، وهنا طرح على نفسه سؤالًا أكبر من الأول: ما الذي يجعل إنسانًا يتصدق على إنسان آخر؟ فليتذكر المرات التي تصدق فيها من

قبل، يا إلهي! ما أندرها! جميعها تصدق فيها لكي يراه الناس يفعل ذلك، أي بدافع الرياء، إذن لماذا لم يتصدق عليه أحد لنفس السبب؟ سيجن إذا استمرت الساعات بالمرور وهو فاشل في تأدية المهمة التي كلفه بها سيده.

في النهاية قرر الاستعانة بالآخرين. كان واقفًا أمام دكان بالجهة الشرقية من المدينة في اللحظة التي وصل فيها إلى هذا القرار، ولجه وسأل صاحبه:

ـ «هل سبق لك أن تصدقت على أحد من قبل؟»

هذا الأخير ما أن رآه يخطو في متجره حتى تغير لون وجهه، يا لليوم النحس! لا شك أن الوالي -كما العادة- سيقتني منه سلعة دون أن يدفع ثمنها! ما العمل؟ ليس عليه إلا الصبر، فهذا اللعين هو والي المدينة، الآمر الناهي فيها، وإذا ما شعر مجرد شعور ضعيف بأنه غير مرحب به في دكانه فسيقفله له، وقد يرمي به في السجن.

لو رأى هذا الرجل (سفيان) لقال كلامًا آخر بالطبع. لكن، ما هذا السؤال الذي وجهه الوالي إليه؟ لا مراء أنه ينوي تعذيبه والتنكيد عليه قبل نهب إحدى سلعه. فليسلم أمره لله، هل سبق له أن تصدق؟ ألا لعنة الله عليه! يظنه مثله لا يعرف بأن الزكاة واجبة!

ـ «بالطبع يا سيدي»

قال له مبتسمًا ليشعره بالراحة، لكيلا يبدو عليه بأنه منزعج من دخوله إلى دكانه، ثم هرول باتجاه كرسي على يمينه، فأحضره ووضعه أمامه قائلًا بفرح مصطنع:

ـ «اجلس يا سيدي الوالي، هذا يوم سعيد...»

لكن الوالي قاطعه قائلًا في غضب:

ـ «أنا لست واليًا! أنا لست واليًا! إياك أن تنعتني هذا النعت مرة أخرى! فأنا مجرد متسول.. متسول! لكنني متسول تعس.. تعس إلى درجة لا يمكنك

تصورها!»

وراح صاحب الدكان المسكين يعض على شفته ندمًا وخوفًا.

وعلى حين غرة قال له الوالي وقد قفز إلى قدميه يقبلهما:

- «أرجوك! أتوسل إليك!»

يا له من محتال! أكيد أنه يريد أن يسلب مني مبلغًا ضخمًا من المال. يا لحظي السيئ!

واسترسل الوالي:

- «قل لي.. لماذا يتصدق المرء على غيره؟»

لابد أن أسايره.. من التعاسة أن الإنسان يضطر في الكثير من الأحيان أن يلعب أدوارًا حقيرة في الحياة لكي يحمي نفسه من أناس أعلى سلطة منه.

أجابه بعد هنيهة:

- «يتصدق المرء في سبيل الله.. والصدقة يستحقها الفقراء والمحتاجون من ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل..»

- «ولكنني منذ ساعة وأنا أمد يدي للناس أسألهم أن يتصدقوا عليَّ بقرش، لكن ولا واحد منهم أعطاني شيئًا.. لماذا!؟»

- «كيف يعقل أن يتصدق الناس بقرش على والي المدينة!؟»

فصرخ الآخر غاضبًا:

- «ولكنني لست واليًا! أنا لم أعد واليًا! أنا متسول!»

وصمت هنيهة، ثم استدرك بهدوء يثير الشفقة:

- «وأريد أن أكون متسولًا ناجحًا.. قل لي أيها الرجل الصالح، كيف يمكنني أن أنجح في تأدية هذه المهمة!؟ أرجوك! قل لي وأنا مستعد أن أفعل كل ما

تريده! أرجوك ساعدني! فإنها مسألة حياة أو موت!»

يا لها من ورطة! هل جن الوالي!؟ أكيد أنه جن. ولماذا عيناه فيروزيتان!؟ ولكنه قد يكون دهنهما بشيء ما وهو يمثل فقط دور المتسول لتحقيق غاية ما، غاية شريرة بلا شك.. إذا كان الأمر كذلك فهو أمهر ممثل رآه في حياته! في جميع الأحوال عليه أن يسدي له النصح الذي يريده.

قال له بعد ثوان:

ـ «من شروط الصدقة أن يكون المرء جديرًا بها...»

وقاطعه بلهفة:

ـ «وكيف ذلك؟»

ـ «أن تكون حالته يرثى لها.. أن يكون ممزق الثياب منفوش الشعر...»

وأراد أن يستمر، فيقول: «مقطوع اليدين أو الرجلين»، لكن الوالي لم يتركه يكمل كلامه، وارتمى على بطنه أمام الدكان، شرع يمزق ثيابه ويتمرغ في الأرض كالشاة المذبوحة، فتعفر جسده كله بالتراب وأخذ بعض الدم ينزف من وجهه ويديه.

وفي الحال عاد إليه، وسأله وعيناه تبرقان أملًا:

ـ «والآن ما رأيك؟»

كاد يغمى على التاجر من شدة الدهشة! وحمد الله لأنه لم يكمل جملته، فمن يدري، لعل الوالي كان سيحمل من دكانه خنجرًا -كانت مجموعة من الخناجر معلقة قريبًا منه لسوء الحظ- ويقطع يديه أو رجليه!

رد عليه في إعجاب مصطنع:

ـ «تبدو بحالة يرثى لها!»

فأخذ الوالي يقفز في مكانه فرحًا مبتهجًا، وما هي إلا أن مد له يده اليسرى قائلًا: «تصدق عليَّ بقرش». بدون تردد، استخرج الرجل من جيبه بضعة قروش ونقده إياها. فلم يكد يمسكها الوالي حتى دمعت عيناه، وقال له في امتنان: «بارك الله فيك! لقد أنقذتني من الضياع». وعلى الفور مضى وهو يصيح بصوت متهدج: «في سبيل الله يا محسنين!»

الفصل 10

راحت العربة التي ركبها (إزم) تقطع الطريق باتجاه زرهون بسرعتها القصوى. كان السائق ينتظر من سيده أن يطلب منه التوقف لأخذ قسط من الراحة، فلما لم يفعل، بعد ست ساعات من بدء الرحلة، أوقف العربة ناويًا أن يقول لسيده بأن الأحصنة خففت من سرعتها شيئًا فشيئًا لشعورها بالتعب ثم توقفت فجأة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، كانوا قد وصلوا إلى فج عميق يقع وسط مجموعة من الخمائل، إنه مكان خطر، كان الحوذي يعرف ذلك جيدًا، فلقد سمع عنه الكثير من قصص السطو والاختطاف، وهكذا كان ينوي الاطمئنان فقط على أسياده ثم استشارتهم في الذهاب إلى أقرب مكان آمن للاستراحة وتناول شيء من الطعام.

ما أن فتح باب العربة حتى صعق من منظرهم الغريب، كانت الأرضية كلها مفروشة بحبات الباذنجان، وكانوا يضطجعون عليها وأيديهم تنزع شعرهم. ولكن من أين لهم بهذا الباذنجان!؟ تذكر بأنه نسي أن يخرج من العربة كيسي الباذنجان والجزر اللذين كانا فيها بعد أن أخرج الأكياس الأخرى المليئة بالقمح والسكر، وكان قد جلبها للقصر كلها اليوم بأمر من طباخي القصر. ليس من عادته أن ينسى شيئًا كهذا، لكن يبدو أن سيده (إزم) قد باغته فلم يترك له أي فرصة للقيام بعمله على النحو الدقيق الذي عهده. كم كان غبيًا حين قال له بأن سيادته لا يجدر به السفر في تلك العربة المخصصة للسلع، لأنها لا تليق بمقامه الرفيع فنهره بعصبية!

وتساءل: ما الذي دفع بأسرة (إزم) إلى النوم على الباذنجان؟

بمجرد انطلاق العربة من برتات، راحت زوجة (إزم) وابناه يفكرون في الوقت الذي يفصلهم عن الوصول إلى تلك البلدة المشهورة بزراعة أجود بذور الباذنجان. ولما كان من المعلوم في الأسرة أن أحدًا لن يجيب عن هذا السؤال أفضل من (إزم)، فلقد سأله الثلاثة عن ذلك مرة واحدة دون سابق اتفاق.

فأجاب: «قد تأخذ الرحلة، إذا أسرعنا كل الإسراع، عشر ساعات»، قالها والحزن بادٍ عليه. فأثار بكلماته زوبعة من الكدر والقنوط في وجوههم، حتى أن زوجته وضعت يدها اليسرى على فاها وغمغمت: «يا للحظ التعس!»، والابن انتصب واقفًا وضرب بيده جدار العربة وزمجر: «تعسًا!»، والبنت التي كانت تنام على حجر أمها صرخت: «يا ويلتاه!»

وصمتوا جميعا هنيهة، ثم قال الأب ليشحذ فيهم العزيمة والإصرار: «علينا أن نحصل على رضى السيد مهما كان الثمن»، وأمَّن الابن على كلامه: «أجل يا أبتي، المهم هو أن نرجع إلى برتات وفي حوزتنا أفضل البذور، فنزرعها كي تنبت أجود الباذنجان على الإطلاق»، وأضافت الزوجة: «وعلينا أن نعرف كل ما هو متعلق بزراعتها كي نحقق هذا المبتغى»، ولم تفوت الابنة البالغ عمرها عشرين عامًا -وكانت بليدة ويعتبرونها في البيت مجرد طفلة مخبولة لا يمكن أخذها على محمل من الجد- لم تفوت هذه الفرصة لكي تثبت ذكاءها، فقالت: «الذهب يشع بالرغم منا جميعًا»

على غير العادة، كانت كلماتها مزعجة لهم إلى حد كبير، لقد كانت معروفة بكلامها الغامض، إنها شبيهة بالخادمة (سهام)، إذا تحدثت فنادرًا ما يعجب كلامها أحدًا. من قبل، لم يكونوا ينزعجون من كلامها الغامض، الخارج عن السياق في أحيان كثيرة، والعميق في بعض الأحيان. أما الآن فكل منهم شرع يتساءل ماذا تعني به!؟ الذهب يشع بالرغم منا! ما المقصود بالذهب؟ هل هو الباذنجان؟ هل هو رأس السيد؟ أم معدن الذهب؟ ولماذا يشع بالرغم

منا؟ ثمة عدة دلالات لكلامها. عليهم أن يحلوا شيفرات هذه الجملة فقد تحتوي على معلومات خطيرة من شأنها أن تؤثر سلبًا على رحلتهم المقدسة. الموت أهون عليهم من الفشل في تنفيذ المهمة التي كلفهم بها سيدهم.

لربع ساعة ران عليهم الصمت، شرعوا يفكرون في المعنى الأقرب لهذه العبارة في علاقتها بزراعة الباذنجان. آه لو كانت ستجيبهم بوضوح إذا سألوها أن تفسر أكثر! لكنها للأسف عادة ما تتفوه بكلام أشد تعقيدًا من الذي تفوهت به في البداية كلما طلبوا منها تفسيراً.

وتوصل الأب متعبًا إلى أن كلامها يعني بأن البذور الجيدة موجودة في مكان ما وهي تشع منه، سواء قاموا بمجهود جبار للعثور عليها أم لا، وبأنها من الجمال ونقاء السلالة بحيث لا تحتاج لاعتراف منهم أو من أحد غيرهم بأنها كذلك.

وانتهت الزوجة إلى معنى مختلف مفاده أن الذهب لا يرمز إلى البذور الجيدة، بل يرمز إلى السيد صاحب الرأس الفيروزية، فهو سيبقى جميلًا جديرًا بالحب والاحترام والطاعة، حتى لو لم ينجحوا في تأدية المهمة التي كلفهم بها.

أما الابن فمن الغريب أن تفسيره لكلام أخته كان قريبًا من تفسير أمه التي لطالما فكر على النقيض منها، فالذهب إن كان في نظرها يرمز للسيد فهو في نظره يرمز إلى حبهم للسيد، إن هذا الحب سيظل مشعًا في قلوبهم قويًا متدفقا كالسيل العارم، مهما كانت نتيجة رحلتهم.

على العموم، في النهاية لم يكن أي منهم راضيًا على التفسير الذي خلص إليه، ولعل ذلك ما جعلهم، مثل كل الذين أمرهم السيد بالقيام بشيء ما، يصلون إلى الاستنتاج المقيت التالي: من التعاسة أن كل جملة يتلفظ بها الإنسان، تشتمل على معان مختلفة، وكلما كان حب الإنسان قويًا تجاه

شخص ما، كلما دقق في كلامه أشد التدقيق، واكتشف بمرارة هذه التعاسة وانغمس بعمق في سمومها.

وكرهوا تلك الفتاة التي عذبتهم بكلامها ذاك، حتى عنَّ لهم إقفال فمها بخرقة كيلا تعود وتتفوه بالمزيد من الألغاز المقيتة. الأب نفسه فكر بالشروع في هذه الخطوة، فالرحلة ما تزال في بدايتها، وستأخذ النهار كله والليل، وعليهم أن يستغلوا كل طاقة في أجسادهم لتنفيذ المهمة التي كلفهم بها السيد على أتم وجه، بعيدًا عن أي تشويش أو تعطيل.

لكن ما أن عزم على تنفيذ الفكرة حتى مالت العربة في أحد المنعرجات، فسقط على أرضيتها كيس للباذنجان وآخر للجزر، وفُتحا فأخذت حبات الباذنجان والجزر تتدحرج أمام أبصارهم المشدوهة، بدت لهم كرات الباذنجان مثل كرات من اللؤلؤ، انحنوا بسرعة وأخذوا يجمعونها، غير مهتمين بحبات الجزر.

لم يتركوا حبة باذنجان واحدة في الأرض، كان كل منهم يحمل العشرات منها بين يديه، لو استطاعوا حمل أكثر من ذلك لحملوه، لكنهم ما أن كانوا يحاولون حمل المزيد حتى تتساقط من بين أيديهم، فيشعرون بحزن بليغ، وكل من سقطت منه حبة باذنجان نظر إليه البقية بلوم واحتقار.

وجلسوا القرفصاء وكل منهم يحدق بعينيه في حبة الباذنجان التي بين يديه، ولما كانت هذه الأخيرة مليئة بالتراب فلقد اندفعوا ينظفونها بعناية فائقة، وسرعان ما قالت الأم: «ما أجمل شم رائحتها!»، وقال الأب: «ما أجمل النظر إليها!»، وقال الابن: «ما أجمل لمسها!»، وقالت الفتاة: «ما أجمل النوم عليها!»، وفرشتها أرضًا، واضطجعت فوقها.

صُعقوا من فعلتها، ماذا يدور في خاطر هذه الفتاة!؟ إنها تأبى إلا أن تعذبهم. أوه! لماذا أحضروها معهم!؟ ولماذا لم يكمموا فمها منذ أن قالت ما قالته عن الذهب؟ أمْرُهم لِله! يجب أن يناموا هم أيضًا على الباذنجان

مثلها، فمن يدري ما الحكمة من نومها عليه!؟ عليهم ألا يخاطروا بتجاهل سلوكها، فكما يقال، خذوا الحكمة من أفواه السفهاء، يا لها من قولة منفرة كرائحة جيفة! إن البلداء يجب ألا يستهان بآرائهم في المواقف الخطرة، فقد يكونون صائبين.

«النوم على الباذنجان سيجعلهم أشد معرفة بها عن طريق لمسها»، فكر الأب. «سيُلهمهم الطريقة الأمثل لزراعتها»، استنتج الابن. «سيزيد من حبهم لها، وهكذا يصبرون على مشاق هذه الرحلة»، استنبطت الأم.

جمعوا حبات الجزر من الأرض، فوضعوها داخل الكيس الذي كانت فيه، وعقدوه جيدًا بأحد أعمدة سقف العربة، ثم فرشوا حبات الباذنجان أرضًا واضطجعوا عليها، كان ذلك أشبه بالتمدد على كرات مختلفة الحجم، لم يعبؤوا بالألم الذي شعروا به في جنوبهم وظهورهم، ما دام سينفعهم النوم على الباذنجان فلا يهمهم العذاب الذي يكابدونه بسبب ذلك.

إذا أخذنا بعين الاعتبار حياتهم الماضية، وبأن كل واحد منهم لم يسبق له أن نام إلا على سرير وثير، فلا مبالغة في الافتراض بأنهم من المستحيل أن يشعروا بالراحة لتمددهم فوق حبات الباذنجان هذه، لكن يبدو أن هذا الافتراض خاطئ، إذ ما أن اضطجعوا حتى جعلوا يفكرون في سيدهم، فتغلبوا على الألم، بل لم يلبث أن صار هذا الألم مصدر متعة لا نظير لها، فكروا أنها المرة الأولى التي ينامون فيها معذبين من أجل شخص يحبونه بصدق، فأحسوا بالمتعة والسعادة، لماذا لم يعرفوا من قبل بوجود هذه السعادة الناتجة عن العذاب؟ ولكن لا، ليس كل عذاب يجلب السعادة، لو لم يكونوا نائمين على الباذنجان، ولو لم يكن الباذنجان يذكرهم بسيدهم، بالشخص الذي يحبونه أكثر من أي شخص عداه على وجه الأرض، لما شعروا بهذه السعادة.

لكن النوم أبى أن يطرق جفونهم، فلقد أحسوا بأن شعرهم أشبه بمسامير يدقها عملاق في رؤوسهم، فلم يزالوا ينتفونه زغبة بزغبة، وأعينهم مغمضة، في محاولة يائسة للنوم.

الفصل 11

ما أن أحس الناس الذين تعرضوا لتأثير (سفيان) بتلك الرغبة الجامحة بالتخلص من شعرهم، حتى ظهرت في المدينة أدوية تباع على أنها تحقق هذه الغاية، وجعل الناس يتهافتون على شرائها وتجربتها تهافتهم على الخبز خلال ندرته.

الكثيرون كانوا يحاولون صنع الدواء الناجع، لكن أحدًا لم يكن مهووسًا بصنعه مثل أولئك الأطباء الثلاثة الذين كلفهم (سفيان) بفعل ذلك. لما أمرهم بالانصراف لتأدية المهمة، خرجوا من السوق وهم ينتفون شعرهم، فصاح أحدهم: «من التعاسة أننا لا نملك في المختبر إلا أدوية لإنبات الشعر وتقويته وليس لإسقاطه! فما نفعها؟ ألا إننا أمضينا حياتنا في صناعة أدوية لتقوية عقارب على رؤوسنا، فهلا قلتم لي كيف نستطيع صناعة دواء يعدمها؟»، كان اسم هذا الطبيب (هشام)، كان رجلًا في الأربعين من العمر، أسمر شديد السمرة، معتدل الجسم، سبط الشعر، وله لحية طويلة قلما يقصها.

وقال له الطبيب الذي كان إلى يمينه: «إنك على حق يا (هشام)، فلقد أنفقنا الساعات الطوال في تسمين ما لا يجب تسمينه، ولكن لا تحمل همًا، سننفذ أوامر السيد بأسرع وقت ممكن، يخيل إليّ أنَّ أنجع دواء لإسقاط الشعر هو سم الفئران، فهيا بنا إلى المختبر كي نجربه»، كان اسم هذا الطبيب (عبد القادر)، عمره خمسة وأربعون عامًا، متوسط القامة، أزهر اللون وجميل الصورة.

وقبل أن يتحركوا صاح الطبيب الثالث: «ولكن ماذا لو لم ينفع سم الفئران؟ أقترح أن نجمع كل الأعشاب التي نشك في قدرتها على تحقيق هدفنا، فنأخذها إلى المختبر ونعالجها فيه كي نستخلص منها حجر الفلاسفة»، كان اسم هذا الطبيب (حسن)، إنه في الثلاثين من العمر، أدم اللون، واسع الأكتاف، طويل القامة وميال إلى الدمامة.

وضربوا في المدينة يجمعون الأعشاب، ثم قصدوا مختبرهم، كان المختبر عبارة عن بناية واسعة تعود ملكيتها للدولة، تتكون من عَذِرَة كبيرة ومجموعة من الغرف المليئة بشتى أنواع الأدوية والمستحضرات. دهنوا رؤوسهم بسم الفئران، لكنه لم يحقق النتيجة المبتغاة، وجربوا عقبه كل الأدوية التي لديهم، فلم تنفع كذلك. أمضوا فترة الزوال كلها يخلطون الأدوية والأعشاب التي أحضروها لكن دون جدوى. مع العصر كانت قد نفدت منهم الأعشاب وبعض المواد الأولية لصناعة الأدوية. كانوا قد جربوا عشرين خلطة، لم تنزل إلا شعرات قليلة من رؤوسهم، اعتراهم الكرب لذلك والسقم والكمد.

التعاسة التي أحسوا بها كل مرة تفشل فيها تجاربهم، لم يشعروا بها البتة طوال مسيرة عملهم، مع أن مواقف محزنة كثيرة واجهوها في هذه المسيرة، لاسيما حين فشلت أدويتهم في إنقاذ أحباء لهم من مخالب الموت.

ولم يستسلموا أو يتعبوا، كانوا مُصرِّين على أن تَغدو رؤوسهم ذهبية كالسنابل، ملساء كأحجار مصقولة، مهما تكبدوا من عناء، أو أنفقوا من مال ووقت، لذلك خرجوا لإحضار تلك الأعشاب والمواد التي نفدت، وكل منهم يحمل معه كيسًا كبيرًا، وسرعان ما راحوا يملؤون أكياسهم بمواد أخرى غير تلك التي خرجوا لاقتنائها، وما أغرب بعضها! ومنها: جلد أفعى، خمر معتقة، زنك، سمك نتن، ضفدعة، خشب قديم، قماش متسخ... البعض حملوه من الأرض، والبعض الآخر اشتروه.

خلال هذه العملية، لم يكونوا يتحدثون مع بعضهم البعض، أشبه بنعاج ترعى في أرض خصبة، شيء واحد كانوا يحرصون عليه أشد الحرص، وهو ألا يبتعدوا كثيراً عن بعضهم، كلما خرجوا من دكان غرسوا أعينهم في الأرض - كمجانين مفتونين بجمع الأزبال- لالتقاط شيء لافت للانتباه قد يساعدهم في صناعة الخليط الثمين.

وقفلوا إلى مختبرهم بأكياسهم بعد أن لم تعد تتسع للمزيد، في الطريق إلى المختبر، مر بمحاذاتهم رجل أقرع الرأس، بلغوا من شدة اندهاشهم وفرحهم لرؤيته أن ألقوا أرضًا بالأكياس من على ظهورهم، وهتفوا مرة واحدة: «يا للروعة!»

الفصل 12

لم يستغرب الرجل الأقرع من ردة فعل الأطباء، وذلك لأن كل من صادفه اليوم، منذ لقائه بـ(سفيان)، كان يبدي إعجابه به. كان شابًا طويلًا في السادسة والثلاثين، محني القامة، مهمل الثياب، ذا وجه مكور ميال إلى القبح تبرز منه شفتان غليظتان وعينان ذابلتان ورأس قرعاء بالكامل، يبدو أنه الشخص الوحيد الأقرع في المدينة، كان اسمه (قيس)، شأنه شأن الجميع، ما أن شعّره (سفيان) حتى تمنى لو تخلص من شعره وصار أقرعًا، فتذكر بأنه أقرع أصلًا منذ الطفولة، فحمد الله على ذلك، لأول مرة، واعتذر منه لأنه ظل يتذمر من قرعه طوال حياته.

«وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.. صدق الله العظيم»، أخذ يردد. لقد أضحى محط حسد الناس بعد أن كان محط سخريتهم واستهزائهم، الآن فقط يمكنه الاعتزاز بقرعه والافتخار به، حتى إنه يمكنه أن يجهر بالأفكار التي لطالما برر بها بينه وبين نفسه أفضلية الرؤوس القرعاء على الرؤوس المليئة بالشعر:

«أن تكون أقرعًا، اسمعوا جيدًا يا من كنتم تسخرون مني، يعني أن يكون رأسك خاليًا من لون يختلف عن لون جلدك. إن في ذلك امتدادًا ينم عن وحدة عميقة»

«الأماكن المشعرة أماكن متعِبة، تحتاج إلى اعتناء مستمر، تحتاج إلى تنظيف دائم، وإلا تعفنت»

«بقـدر ما تـخـلـو رأس الإنـسـان من الشعر بقدر ما تمتلئ ذكـاء، والعكس

صحيح. انظروا إلى القردة، إنها أغبى من الإنسان، لأن رؤوسها أملأ شعرًا»

«كل إنسان يعتني بشعر رأسه منافق. مشط الشعر يدل على محاولة لتزييف وإخفاء شكل الجمجمة. القُرع هم أشد الناس نقاء للقلب وصفاء، وذلك لأنهم لا يخفون أشكال جماجمهم عن الآخرين»

«الرأس المليئة بالشعر أثقل وزنًا من الرأس الخالية منه، ومعلوم أن الرأس التي تحمل شيئًا ثقيلًا لا تفكر إلا في الحفاظ على توازنها. ذوو الشعر لا يستعملون عقولهم إلا للتفكير في المشي بتوازن لتفادي السقوط، أما القُرع فيستعملونها في أمور أرقى من ذلك، إنهم لا ينظرون معظم الوقت إلى الأرض، بل إلى السماء»

هذه هي بعض من تلك الأفكار التي كان يُعزِّي بها نفسه، والحق أنها كانت تبدو له منطقية جدًا كلما سرح في بيدائها. بالطبع، الآن صار يستثني الشعر الفيروزي من انتقاداته للشعر.

كما كان يتوقع، لم يتركه الأطباء الثلاثة يكمل سيره دون أن يوقفوه. وسأله (هشام) باستجداء وعطف:

ـ «بالله عليك! هلا قلت لنا كيف شفيت من شعرك؟»

منذ وقت قريب فقط كان يسأله الناس بشماتة: «كيف فقدت شعرك؟»، سبحان الله! كم تتغير الأسئلة! وكم تتغير تعابير من يطرحها!

وسأل الطبيبَ (هشام):

ـ «كيف تبدو لك رأسي؟»

فقال (هشام) إنها براقة على نحو ساحر، وانضم إليه زميلاه، فقال له (عبد القادر) إنها ألمع من ماسة! وقال له (حسن): «هي أجمل من لؤلؤة»

كان (قيس) يسأل هذا السؤال كل من يستفسره عن الطريقة التي صار بها أقرعًا، كي يسمع ثناءه على رأسه، فهذا الثناء كان يُشعره بسرور جنوني. لقد كان شديد الحرص على تعويض مشاعر النقص التي كان قلبه يكتوي بنارها حين كان الناس يستهزؤون برأسه القرعاء.

كان متجهًا في هذه الأثناء لقضاء مشوار مصيري، سعادته معلقة به، وهو بحاجة إلى كل ما من شأنه أن يعيد إليه الثقة برأسه. منذ سنتين طلب يد فتاة كان مغرمًا بها، فرفضته لقرعه، قالتها له بصراحة جرحته جرحًا بليغًا: «لا أريد الزواج من رجل رأسه ملساء كبطن سحلية، بل من رجل رأسه معشوشبة كمرج أخضر»

كاد أن ينتحر وقتئذ، لكنه لم يفعل ذلك لأنه لم يقدر على الابتعاد عن محبوبته، وظل يُعزِّي نفسه بأنها من الممكن أن تغير رأيها. حتى اليوم، لم تتزوج بعد، طلب يدها شباب كثر، لكنها رفضتهم جميعًا.

الآن سيتجه نحوها ويرى هل ما يزال لديها نفس النفور تجاه رأسه، من المؤكد أنها لن ترفضه! هذا لأن الآية قد انقلبت، الشعر الفاحم صار هو العيب لا القرع، ذوق الناس تغير، دائما ما يتغير، إن عاجلًا أم آجلًا، إنه متقلب كلون أوراق الشجر، ليس ثمة ذوق شمولي، هذا أمر لا شك فيه، ذلك أن الناس إذا أحبوا اليوم اللون الأسود فإنهم لن يلبثوا حتى يغيروا رأيهم فجأة ويحبوا اللون الأزرق أو لونًا آخر، إنهم لا يرسون على ذوق واحد أبدًا.

الإنسان الذكي هو الذي يتلون تبعًا لما يحبونه، هو الذي يقلد مشية الحرباء في المراعي، لقد تعذب كثيراً وانتظر طويلًا متى يتغير ذوق الناس فيمسون مفتونين بالرؤوس الجدباء بدل المعشوشبة. عليه أن يستغل هذا التغير، عليه أن يضرب ضربته قبل أن تعود الأمور إلى نصابها، أو تتخذ مجرى آخر ليس في مصلحته، لكن أولًا وقبل كل شيء فليستعد ثقته في نفسه،

فليسترجع الطاقة التي فقدها في السنوات المنصرمة مثلما يستعيد طاقته تحت شمس الربيع حيوان ظل في سبات طوال فصل الشتاء.

قال للأطباء الثلاثة الذين كانوا ينتظرون على أحر من الجمر جوابه عن السؤال الذي طرحه عليه أحدهم قبل قليل:

ـ «لا يصير أقرعًا إلا من كان طيبًا إلى أقصى حد»

أراد أن يظهر لهم بأن سحره وفرادته لا تقتصران فقط على شكله الخارجي، بل وعلى سريرته أيضًا.

وفي ذات الوقت راح الأطباء يفكرون وهم ينتفون شعرهم.

(عبد القادر): «عليَّ أن.. أُطَبِّبَ الفقراء، أتصالح مع أخي بالتنازل له عن حصته الشرعية من الإرث التي اختلستها منه، أعيد النقود التي حصلت عليها بطرق ملتوية، أُكثر من الصوم وأقتسم مائدتي كل يوم مع الجائعين والمعوزين.. هكذا سأكون طيبًا إلى أقصى حد»

(هشام): «منذ اليوم لا مزيد من جمع المال، سوف أتصدق بكل ثروتي. بذلك سأبلغ أعلى درجات الخير»

(حسن): «لن أبيع دواء أبدًا. سأعالج الناس مجانًا. وسوف أعتني بوالديَّ اللذين تخليت عنهما منذ أربع سنوات. هكذا سأكون طيبًا جدًا»

وسرعان ما لاح أمامهم منظر غريب، مرت بالقرب منهم عشر قطط فيروزية الأعين تجري كما لو أن أحدًا يطاردها، اتجهت نحو شجرة تين، شرعت تقرض أوراقها وتطلي رؤوس بعضها بالحليب الذي يسيل منها، بعد ذلك طفقت تمرغ رؤوسها بالتراب، تساقط بعض شعرها، فاستمرت بالركض.

تبادل الأطباء النظر فيما بينهم باستغراب، اندفعوا خلفها، توقفت القطط سبع مرات، المرة الأولى أمام شجرة رمان، والثانية أمام شجرة خوخ،

والثالثة أمام كرمة، قضمت ثمار هذه الأشجار وحكت رؤوسها بها وعفرتها بالتراب، والمرة الرابعة توقفت أمام بقرة، والخامسة أمام عنزة، والسادسة أمام نعجة، ماءت أمام هذه الحيوانات فانحنت لها، فرضعت منها ومررت ألسنتها المليئة بالحليب على رؤوس بعضها البعض، والمرة السابعة توقفت أمام ربوة مليئة بعشبة (القمرية)، وهي عشبة فيروزية اللون لا يستعملها أهل المدينة في أي شيء، ولم ترَ أية حيوانات تطعمها ما خلا الحمير، قطعتها القطط بأسنانها، مررت ألسنتها بها على رؤوس بعضها البعض، وعفرتها بالتراب. عقب ذلك صارت رؤوسها قرعاء تمامًا، وفي هذه الأثناء شرعت تموء بصوت ناعم وتقفز بحركات بهلوانية جميلة.

كان ذلك كافيًا ليدخل البهجة والسرور إلى الأطباء الذين ظلوا منذ الصباح يبحثون عن دواء يسقط شعرهم دون أن يهتدوا إليه. ها هي القطط تنير طريقهم، ألا ما أروعك أيتها القطط! أنت أفضل حيوان خلقه الرب!

من جهته، شعر الرجل الأقرع بانقباض في صدره؛ أغلب الناس سيتبعون خطوات القطط ليصيروا قرعًا، بذلك لن يكون متميزًا عنهم في شيء، ولن يفوز بقلب حبيبته.. ألا ما أتعسه!

وأخذ يتململ في مكانه وفرائصه ترتعد من التوتر، وكَرِهَ أيْما كُرْه هذه القطط، وتمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلعها! أو أن الكلاب تلتهمها!

وموازاة مع ذلك، لفتت انتباهه وجوه الأطباء الثلاثة التي كانت حزينة منكسرة قبل قليل، ها هي تشع جذلًا وحبورًا. كيف لا وقد عرفوا الوصفة السحرية ليصيروا قرعًا!؟ وأحس نحوهم هم أيضًا بالكراهية والنفور والعداء، إنهم خلال هذه اللحظة بالإضافة إلى تلك القطط المشؤومة أشد الأشياء مقتًا في نفسه، إنه يكرههم أكثر من أي شيء على الأرض! يا إلهي! يُخيَّل إليه كما لو كان يحملهم فوق ظهره ويصعد بهم جبلًا عاليًا وهو يعاني من مرض عضال محرق يهشم عظامه ويمزق أوصاله! ليته يمحوهم

من الأرض عن بكرة أبيهم! ليته يتحول الآن إلى فارس مغوار يستل سيفه من غمده، ويقطع به رؤوسهم ورؤوس كل القطط التي في المدينة! فلماذا لا يحدث ذلك إلا في خياله!؟ لماذا!؟

الوقت يداهمه، إنه يمضي كالبرق. عنَّ له أن يناجز الأطباء، لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه مستسلمًا لقدره، إنه أضعف وأهزل منهم، إذا قاتلهم سيكون هو الخاسر لا محالة، وقد يفقد حياته قبل الزواج بمعذبته.

مع ذلك لم يتعامل مع تلك القطط بنفس الجبن، استغل عودة الأطباء إلى أول شجرة غمست فيها رؤوسها، والتي كانت تبعد عن الربوة، آخر مكان لوقوف القطط، بميل تقريبًا، فراح يقترب منها. حولها كانت ترعى مجموعة من الأغنام، وكان راعيها، الذي لم يلتقِ (سفيان)، بعيدًا، لكنه سرعان ما أقبل مهرولًا بعد أن رآه متجهًا صوب قطيعه.

منذ الصباح باتت المدينة منقسمة إلى مجموعتين، المجموعة الأولى التي رأت (سفيان)، والمجموعة الثانية التي لم تره، ولسبب ما كانت كل مجموعة متحدة فيما بينها، ينظر أفرادها إلى بعضهم البعض نظرة ود وسلم، معتبرين أنهم إخوة، إذا جاز التعبير، أو أبناء طبقة واحدة، أو ينتمون إلى نفس العرق، المهم كان يجمع بينهم شيء معين من هذا القبيل فيحسون به بعمق.

ومن ناحية أخرى، كانت كل مجموعة تنظر إلى المجموعة الأخرى نظرة سخط وكراهية، ألا إن أولئك الذين رأوا (سفيان) كان يشع من أعينهم الفيروزية بريق من التكبر والغرور والأنانية لأنهم حظوا بشرف رؤيته ولمس شعره الفيروزي، فيبصرون هذا البريق في بعضهم البعض، ويحسون بشعور متبادل من الميول والعطف، وبالمقابل، لما لم يكونوا يميزون هذا البريق في الآخرين، كانوا يحسون نحوهم بالازدراء والاحتقار.

قال الراعي بفظاظة لـ(قيس) الأقرع العاشق:

ـ «هذه الأرض ملكي، خذ قططك واخرج من هنا!»

لم يجبه، بل أخذ يلحق بتلك القطط، كانت تهرب في جميع الاتجاهات، فكر أن يمسك بها الواحدة تلو الأخرى، ويربطها بحبل فيأخذها إلى مكان لا يراه فيه أحد ويجهز عليها، بَيْدَ أنه سرعان ما فضل قتلها هنا أمام أعين هذا الراعي المتعجرف.

استمر باللحاق بها، لكن يبدو أنها كانت أسرع منه ففرت بعيدًا، وهكذا لم يجد بُدًّا من متابعة طريقه نحو بيت حبيبته وقلبه غارق بالحزن والتعب.

الفصل 13

استيقظ (سفيان) من النوم بقصر (إزم) مع العصر، كان مذهولًا يرشح بالعرق، يرين عليه إحساس رهيب بالخوف، لقد خاف من فقدان مكانته الجديدة في المجتمع، طفق يحاول تذكر واسترجاع الأحداث التي مرت به منذ الصباح.

في البداية كانت الذكريات عبارة عن صور شاحبة، نُتَف من هنا وهناك، تحيط بها فقاعات، لكنها أخذت تتوضح أكثر فأكثر، هل الأحداث التي تنثال على ذاكرته كالبرد حصلت فعلًا؟ أم أنها مجرد خيالات؟ أكُل من يراه لا يسعه إلا الارتماء تحته وطلب رضاه؟ آنتقم فعلًا ممن تسببوا بموت أمه؟ لا يمكن أن يكون كل ذلك حلمًا رآه في منامه، وإلا فما سبب وجوده في هذه الغرفة الفاخرة؟

وركض نحو مرآة قريبة فحدق فيها، عيناه وشعره بلون فيروزي يخلب الألباب، نهض من مكانه وصاح: «أيها الخدم!»، فلم تمضِ ثوان حتى كان الخدم النائمون خلف الباب ماثلين أمامه. للتأكد من منزلته عندهم، سألهم: «ما إحساسكم تجاهي؟»

فتبادلوا النظر فيما بينهم لوهلة، ثم أجابوا تباعًا عن سؤاله، كانت أجوبتهم مختلفة لفظًا فقط، أما معناها فكان واحدًا: إنهم يحبونه ويكنون له كل الولاء، ومستعدون أن يفعلوا أي شيء يطلبه منهم.

وأراد التأكد من حبهم له، فسأل أحدهم أن يرمي بنفسه من النافذة، ففعل ذلك وهو في غمرة من الفرح! قفز كالطير صائحًا: «السمع والطاعة

يا سيدي!»، سقط في الحديقة. فَزِعًا نزل (سفيان) السلالم بسرعة متجهًا نحوه، ندم على ما فعله به، إذا مات الرجل فهو لن يسامح نفسه.

من حسن حظ الخادم أنه سقط على أغصان شجرة فارعة كانت بمحاذاة النافذة التي ارتمى منها، فلم يتأذَ كثيرًا. وجده (سفيان) منبطحًا أرضًا لما وصل إليه هو وباقي الخدم الذين لحقوا به بمجرد رؤيته يركض.

بلطف شده من يديه وسأله: «هل أنت بخير؟»، شعر الخادم بلذة لا توصف لأنه أمسكه بذلك الشكل، بَيْدَ أنه في نفس الوقت أحس بالتعاسة لأنه لم يتأذَ كثيرًا ليثبت له كم يطيعه! أجابه بيأس: «أنا بخير»، حاول (سفيان) مساعدته على النهوض، وفيما هو يفعل ذلك فطن الخادم إلى أن الفرصة لم تفت بعد ليثبت له ولاءه وحبه وطاعته العمياء عن طريق إيذاء نفسه بقسوة، بضرب رأسه على جذع الشجرة التي أمامه بشكل متتالٍ حتى يكسر جمجمته، أو بأكل التراب، أو بجلد يديه ورجليه بأحد الأغصان... لكنه ظل مترددًا خوفًا من أن تكون النتيجة عكسية فيغضب منه السيد بدل أن يُسَر.

وهكذا، رازحًا تحت نِير هذا التردد، لم يستطع أن يمسك نفسه من البكاء، انخرط في بكاء ارتعش له كل جسده، وهنا سأله (سفيان) بحيرة: «ما بك!؟ هل تأذيت كثيرًا!؟»، قال والدموع تتطاير من عينيه كطفل يعتذر لأمه التي أغضبها، فيجد في ذلك لذة لا توصف: «سيدي، هل تسمح لي بضرب رأسي مع هذه الشجرة حتى الموت؟»، فسأله: «ولِمَ ذلك؟»، أجابه شاعرًا بنشوة كبيرة لأنه حظي بهذه الفرصة الرائعة بالتحاور معه: «لكي أثبت لك مدى ولائي وحبي وطاعتي لك»

كان باقي الخدم يحترقون غيرة وحسدًا على المكانة التي تبوأها زميلهم عند (سفيان)، منذ أن اختاره للقفز من النافذة وهم يتساءلون لماذا لم يخترهم بدله للقيام بهذه المهمة، أخذوا يتساءلون: كيف يختار سيد خادمًا من بين

مجموعة من الخدم الذين لا يعرفهم لتأدية مهمة معينة؟ هل يحدث ذلك صدفة؟ لا، بالتأكيد. ليس للصدفة أية علاقة بالأمر، بل من المحزن أن تكون الصدفة هي المسؤولة، فهي بصفة عامة تجعل الإنسان غير قادر على التحكم بالأشياء، بحياته، بالعالم، بالزمن.. الصدفة تقتل العقل وتعدم التفكير، إذن لا يجب أن تكون هي السبب، بلا شك أن السبب شيء معين يلفت انتباه السيد في الخادم الذي يختاره.

هل هو شكله؟ ربما، ولكن لا شيء يلفت الانتباه في شكل زميلهم، لا شيء يجعله أفضل منهم، فهم أجمل منه وجهًا، وأطول قامة، وأملأ جسدًا، لكن ربما هذا هو السبب في تفضيل السيد له عليهم، فلو كان العكس لاختار واحدًا منهم.

وقد لا يكون اختاره لقبحه، بل لشيء ما في مظهره لافت للانتباه، كنظرة عينيه، ابتسامته، أنفه، جبهته، خده الأيمن، أو حتى جيب سرواله أو ياقة قميصه.

وقد يكون تشابهًا بينه وبين شخص عزيز على قلبه، فذكّره به لما رآه. أوه! يا ليتهم يغوصون في ذاكرة صاحب الشعر الفيروزي ليعرفوا هذا الشخص العزيز عليه! سيبذلون بعد ذلك قصارى جهدهم ليكونوا مثله، سيقلدون صوته ومشيته وطريقة تكلمه، سيرتدون ملابس شبيهة بملابسه، سيفعلون كل ما يفعله حتى لو كان مخزيًا أشد الخزي، لكن ويا للتعاسة من المحال أن يعرفوا هذا الشخص!

ولعل السيد اختاره بسبب مكان وقوفه، أجل مكان وقوفه، أي المكان الذي استدار نحوه السيد في اللحظة التي خطر له فيها أن يأمر أحدهم بتنفيذ ذلك الأمر، لقد كان على يساره، عندما كانوا مصطفين أمامه كان يحدهم من اليمين، هل يفضل السيد الجهة اليسرى على اليمنى؟ ربما، إذا كان الأمر كذلك فمنذ هذه اللحظة سيبجلون هذه الجهة في كل شيء في حياتهم، لن

يأكلوا إلا باليد اليسرى، ولن يناموا إلا على الجانب الأيسر، ولن يقفوا أمامه إلا على الجهة اليسرى، ومن دون شك سيختصمون بسبب ذلك وقد يقتتلون، فكل منهم سيحب أن يكون في الطرف الأخير.

كرهوا أنفسهم لأنهم لم يكونوا في المكان المناسب، من التعاسة ألا يتواجد الإنسان حيث ينبغي له، عليهم تعلم حسن التموقع، هل ثمة مدرسة يتعلمون فيها ذلك؟ إذا كان الجواب لا فما أهمية ما يُعلمونه في المدارس بحق الله؟

راحوا ينبشون في ذاكرتهم، لم يسبق لهم أن كانوا في المكان المناسب إلا مرات نادرة في حياتهم، حتى هذه المدينة لم يختاروها، وعندما تزوجوا كل واحد منهم أخطأ المكان الذي اختار منه المرأة التي اقترن بها، وهذا هو السبب في تعاستهم الزوجية بلا شك.

ولكن، ماذا لو لم يكن السيد يحب الجهة اليسرى واختار زميلهم فقط لأن شيئًا ما لفت انتباهه قريبا منه؟ شيء من ورائه مباشرة، أو أسفل قدميه؟ فلقد كان يدير عينيه في الغرفة كلها قبل أن يتوجه إليه بالكلام.

بأعينهم المليئة بالحسد، أخذوا يختلسون النظر إلى الجدار من ورائهم، بمجرد أن حطت على عقولهم هذه الفكرة. الحق أن تفكيرهم كان يسلك في مسار جريه المتعثر كجري الأعرج نفس الفجاج والأزقة والشوارع، لذلك نظروا في نفس الوقت تقريبًا إلى الجدار.

كان الجدار كله مصبوغًا بلون قرمزي، إذن لا يمكن أن يكون لون الجدار هو السبب.

نظروا إلى الأرض فألفوا أنفسهم يقفون فوق زربية مزخرفة بصور بعض الأواني المطبخية، كانوا يعلمون جميعًا بأن (إزم) قد اشتراها من بلاد فارس بثمن خيالي، ومن العجب أن كل واحد ألفى نفسه واقفًا على جزء من أحد

الرسوم، هذا يجلس على سكين وذاك على كأس... الخادم الذي اختاره السيد كان واقفًا فوق رسم لملعقة، «أوه! أيتها الملعقة، لا شك أنك أنت السبب!»، هكذا هتفوا بداخلهم بثقة بعد أن تذكروا بأنهم رأوا سيدهم يحمل ملعقة في جيبه عندما شعّرهم.

الفصل 14

لقد كان (سفيان) متعودًا على حمل هذه الملعقة في جيبه منذ أربع سنوات مضت، أي منذ اليوم الذي أهديت فيه إليه. كان ذلك اليوم من أشد أيام الصيف حرًا، جعل يتسول خلاله طوال الصباح، وعند الزوال اتجه نحو بيت أحد الأغنياء وطرقه طالبًا طعامًا للغداء، فخرجت خادم وطردته. وهو يبتعد جارًا وراءه أذيال الخيبة، سمع صوتًا رخيمًا يناديه من الخلف، استدار فوجد وجهًا على باب ذلك البيت لم يرِ أشد نورًا منه ولا حُسْنًا، تجمد في مكانه، كانت فتاة في ميعة الصبى هي صاحبة ذلك الصوت، بيضاء كالثلج، ذات عينين خضراوين ملتمعتين، شعر أشقر وقامة هيفاء. قالت له: «انتظر هنيهة»، ودخلت البيت، فشعر بأنه مستعد ألا ينتظر هنيهة فقط، بل عمره كله إذا أمرته بذلك.

ولم يزل واقفًا حتى سمع الباب يفتح، فخرجت منه الخادم التي طردته للتو بسحنتها المنفرة وجسدها المفكك، حاملة في يديها صينية بها بعض الفواكه وطبق من (التروية)، وهي أكلة تشبه كثيرًا (الكسكس). وضعتها بالقرب منه، وقالت له بفظاظة وغلظة: «كل»، وتركته، وقبل أن تدخل البيت قال لها شاعرًا بالحنق تجاهها: «أريد ملعقة»، لكنها ردت وهي تزفر كالثور: «استعمل يدك التي تتسول بها». وصفقت الباب، فكال لها اللعنات في نفسه.

أخذ يُكوِّر (التروية) ويمدها إلى فمه ساهمًا، حزينًا لأن الفتاة الجميلة لم تخرج إليه كما توقع. تمنى من أعماق قلبه أن يراها مرة أخرى. فإذا بها على حين غرة تخطو خارج البيت برفقة والدتها حابكة على جسدها إزارًا

أخضر. لما رآها سقطت كرة (التروية) من يده من شدة المفاجأة وابتهجت روحه وامتلأت بإحساس غريب لا عهد لها به، هو مزيج من السرور والسلام والطمأنينة والأمل.

رأت الفتاة كرة (التروية) تسقط من يديه، فضحكت ببراءة.. يا لضحكتها الرائعة! كثيراً ما سيتذكر هذه الضحكة لاحقًا، تارة في أوقات المرح، وتارة في أوقات الحزن، فيحس بسعادة لا توصف. تفحصت بعينيها العذبتين الصينية باحثة فيها عن ملعقة، فلما لم تجدها سألته فيما أمها واقفة في مكانها تبدو عليها علامات السرور: «ولكن أين الملعقة؟ لماذا لا تستعملها ما دمت لا تحسن الأكل بيدك؟»، فأراد أن يجيبها، لكن صوته لم يسعفه.

إذ ذاك اقتربت منه، بدأ يرتجف كريشة في مهب الريح، راحت تنظر في الصينية. سألته: «ألم تعطك الخادم ملعقة؟». هَمَّ أن يجيب، لكنه فشل ثانية، ووجد نفسه يتملى وجهها المنير كالصبح الوضاء. وعندما لم يجبها، ابتسمت وسألته مرة أخرى: «ما بك؟ هل أنت مريض؟»، وبقي على حاله فهرولت إلى الداخل وأحضرت له ملعقة. وضعتها في الصينية، وقالت له في حنان: «هيا استعمل هذه الملعقة، بالهناء والشفاء». والتحقت بوالدتها التي تلقتها بالتقبيل والثناء.

شيعها بيأس وحزن وصبابة ووجد، ولم يستعد رباطة جأشه حتى مرت دقائق على اختفائها، وتناول الملعقة من الصينية بيده اليمنى، ملأها بـ(التروية)، ثم مدها لفمه، لكن يده تجمدت في منتصف الطريق. إن ملعقة طاهرة كهذه لا يجب أن تدخل إلى فمه النتن، إنه لا يجب أن يستعملها في شيء حقير وتافه مثل الأكل، بل ينبغي أن تبقى نظيفة تحمل آثار تلك اليد النفيسة المقدسة التي مدتها له.

وهكذا أفرغ الملعقة من (التروية)، ومسحها جيدًا، ثم دسها في جيبه. منذ هذا اليوم ستكون أغلى كنز لديه، وسوف يحملها معه أينما ذهب، وكلما

شعر باليأس من الدنيا وضاقت به السبل، استخرجها، وحدق فيها بحب وعاطفة جياشة، حتى أنه في الكثير من الأحيان ذرف عليها الدموع حزنًا على نهاية صاحبتها المأساوية.

فللأسف، لم تمض إلا ثلاثة أسابيع على هذه الحادثة حتى فارقت الحياة. كان (سفيان) خلال هذه الأسابيع يمضي من الوقت في الزقاق الذي تقطن فيه أكثر مما يمضيه في أي مكان آخر، تارة يتسول، وأخرى يتكئ على بيوت الجيران، مصوبًا أنظاره إلى باب منزلها لعلها تفتحه فيراها. كان يشعر برغبة عارمة لرؤيتها، حتى أنه لو خُيِّرَ وقتها بين ذلك وبين أن يعطى كيسًا مليئًا بالنقود لاختار رؤيتها.

كان اسمها (زينة).. يا له من اسم رائع! فضله حتى على اسم أمه (زليخة). كلما فُتح باب منزلها دق قلبه بصوت مرتفع، وتعرقت يداه ورجلاه، وارتعدت شفتاه، لكن سرعان ما تختفي أعراض القلق واللهفة هذه، بمجرد أن يتبين بأنها ليست الشخص الذي فتح الباب، فيغمر قلبه الحزن واليأس.

وبقي على حاله ذاك حتى رأى البيت الهادئ الصامت يتحول إلى مكان صاخب يعلو منه الصراخ والعويل، اجتمع في ثوان نفر من سكان الحي على عتبة الباب، لم يشعر إلا وقدماه تحملانه جريًا نحوهم، كان الكل يبكي بحرقة! يا إلهي! ماذا يجري!؟ لا شك بأن أحد أقارب (زينة) قد حدث له مكروه.

لم يكن يتوقع أدنى توقع بأن تكون هي التي توفيت.. أخبرته امرأة وسط ذلك الجمع بأن ابنة صاحب البيت، وهي البنت الوحيدة التي لديه، قد فارقت الحياة، بعد معاناتها من آلام فظيعة في رأسها. لم يصدق.. هل من الممكن أن تكون (زينة)؟ سألها عن اسمها، فقالت أنها لا تعرفه، ثم ترجاها والدموع تطفر من عينيه أن تصفها له. بعطف أجابته وهي تنتحب: «إنها أجمل وأطيب فتاة على الإطلاق»، فشهق شهقة تمنى أن تتقطع أنفاسه على

إثرها وينفجر قلبه.

واندفع في فورة عارمة نحو الداخل، مخترقًا الجموع كصخر متدحرج من قمة جبل، لم يكن يرى أحدًا أمامه، ولم يكن يفكر فيما يصنعه. دخل الغرفة التي كانت ترقد فيها (زينة)، على سرير بنفسجي كانت مسجاة بكفن أبيض لا يظهر منها إلا وجهها، الذي بدًا جميلًا مبتسمًا، وطيبًا وحنونًا حتى بعد أن فارقته الحياة. لم يهتم أحد بالسؤال عن هوية (سفيان)، فالبيت حينئذ كان يغص بالغرباء الذين حزنوا على موت الفتاة وجاؤوا للتعبير عن تعازيهم.

محاطة بجمع غفير حُمِلَتْ (زينة) في تابوت باتجاه مقبرة قريبة ودفنت فيها وسط النواح والبكاء. ظل (سفيان) يحب هذه الفتاة حبًا قويًا، وفي أحيان كثيرة كان يؤنب قلبه ويقرعه على ذلك.. أولًا لأن (زينة) قد ماتت، وثانيًا لأنها حتى لو كانت ما تزال حية فليس هناك أدنى احتمال بأن تقبل به زوجًا، فهي غنية، بينما هو مجرد متسول فقير.

كان تخمين أولئك الخدم صحيحًا عندما افترضوا بأن (سفيان) اختار زميلهم ليرمي بنفسه من النافذة لأنه كان واقفًا على صورة ملعقة، فقد لفتت انتباه (سفيان) هذه الملعقة بمجرد أن نظر إلى الزربية التي كانوا يقفون عليها، كان من عادته كلما رأى ملعقة أو لمسها تذكر الملعقة الغالية التي يحتفظ بها في جيبه والعصفور الجميل الذي أهداها له.

استغرب كيف لم يتذكر محبوبته وملعقتها إلا اللحظة رغم أنها المرة الثالثة التي يرى فيها اليوم هذه الأداة المطبخية، إذ سبق أن رآها في السوق حيث عاقب أولئك المجرمين الذين قتلوا أمه، وفي مطبخ قصر (إزم). شعر بالخزي تجاه نفسه، وراح يلوم قلبه متسائلًا ماذا جرى له، لكنه لم يلبث أن انجرف

وراء لذة اختبار محبة أولئك الخدم له فتلاشى هذا اللوم.

الفصل 15

أحس (سفيان) بالفرح والبهجة لما استأذنه ذلك الخادم بإلحاق المكروه بنفسه أكثر كي يثبت له مدى حبه وولاءه، فقال له:

ـ «أنا أعلم بأن طاعتك لي غير محدودة، فلا حاجة لذلك»

وهنا سمع قرقرة صادرة عن بطنه، فاستغرب من ذلك متذكرًا الوليمة التي تناولها قبل النوم. هل يمكن أن يكون جائعًا؟ بلى، وإلا فما هذا الصوت؟ لقد أصبحت شهيته مفتوحة بشكل فظيع، لاشك أن معدته تريد منه إشباع جوعها الذي دام لسنوات طويلة! حسنًا، لماذا يحرمها إذن؟

استدار نحو أربعة من أولئك الخدم، وقال لهم: «أحضروا لي من المطبخ مائدة مليئة بالطعام.. هيا! بسرعة!»، وطلب من الاثنين الباقيين حراسته، وذلك خوفًا من أن يهجم عليه حمار فيعضه.

لم يكد الخدم الأربعة يدخلون القصر حتى حملوا تلك الطاولة وذلك الكرسي بالمطبخ حيث أكل وعادوا إلى الحديقة، وضعوهما حيث أمرهم، ثم انطلقوا لإحضار غطاء ليفرشوه على الطاولة. إذا كانوا قد اتفقوا حول اختيار الكرسي والطاولة، فإنهم اختلفوا حول اختيار الغطاء، ولو أن الطاولة التي أكل عليها (سفيان) في المطبخ كانت تحتوي على غطاء لما اختلفوا. حمل كل منهم غطاء وادعى بأنه الأفضل، معللًا ذلك بشيء معين مختلف عن تعليل الآخرين.

أول من تحدث قال بأن غطاءه الأحمر هو الأفضل، فليس ثمة لون يفتح الشهية أفضل من هذا اللون، الذي هو لون أحلى الفواكه عندما تنضج

كالتفاح، انتقدوه قائلين بأنه لون الدماء، ولون الجحيم.

الثاني قال بأن غطاءه الأخضر هو الأفضل، فليس ثمة لون يفتح الشهية أفضل من هذا اللون، الذي هو لون أروع الخضر وأشدها فائدة للجسم كالخيار، انتقدوه قائلين بأنه لون الضفادع والمخاط المقرف.

الثالث قال بأن غطاءه الأسود هو الأفضل، فليس ثمة لون يفتح الشهية أفضل من هذا اللون، الذي هو لون الباذنجان وأجود الأحجار الكريمة، انتقدوه قائلين بأنه لون الظلام والنحس.

الرابع قال بأن غطاءه الأبيض هو الأفضل، فليس ثمة لون يفتح الشهية أفضل من هذا اللون، الذي هو لون اللبن والثلج، انتقدوه قائلين بأنه لون الكفن.

اشتد الصراع بينهم حتى بلغ حد العراك بالأيدي، في النهاية احتكموا إلى القرعة، مشترطين معاقبة من وقع الاختيار عليه بالجلد مائة جلدة إذا اشتكى السيد من لون غطائه، فأقرعوا باستعمال العيدان.

كان صاحب اللون الأسود هو الفائز، شعر بفرحة عارمة، حمل الغطاء وهرول به نحو الطاولة، لكنه ما أن وضعه عليها حتى قال له (سفيان): «ألا يوجد غطاء غير هذا؟»، فتجمدت يداه ولم يستطع أن يحركهما، فسأله وهو يشعر بأن جسده يكاد يتقيأ روحه: «سيدي، ألم يعجبك؟»، فرد بصراحة: «إنني أكره اللون الأسود»، فأغمي عليه في الحال.

فندم (سفيان) على صراحته، يا لحساسية هؤلاء الخدم! تهالك أرضًا وراح يحاول إيقاظه، ثم أحضر بعض الماء من نافورة قريبة وطفق يرشه على جبهته، حتى إذا استعاد وعيه قال له: «كنت أمزح معك فقط، فأنا أحب اللون الأسود». فنظر إليه الخادم ببراءة الأطفال، وسأله بعفوية: «صحيح؟ هل تحبه يا سيدي؟»، أجابه باطمئنان: «أجل إنه أجمل لون على الإطلاق،

فهيا انهض وأكمل عملك»، انفجر بالبكاء وانتصب، ثم هرول باتجاه زملائه الذين كانوا يطلون من المطبخ وينصتون لما يدور بينه وبين (سفيان)، والغيظ يغلي في صدورهم بعد أن تبددت الفرحة التي شعروا بها حين عبر السيد في البداية عن كرهه للغطاء الأسود.

وما أن بلغهم حتى أخذ يقفز من البهجة، قائلًا بأن سيده يعشق اللون الأسود الذي اختاره. لكنهم تجاهلوه، ثم صاح به أحدهم: «يكفي استهتارًا! هيا لنعدّ الطعام!»

لم يكن من الصعب عليهم معرفة الطعام الذي يفضله سيدهم، ذلك أنه سبق وأكل في المطبخ، ولقد وضعوا بقايا الطعام الذي أكله فوق إحدى الطاولات بعد أن أخرجوا الطاولة التي كان عليها إلى الحديقة. بمثل حرص المحققين في تفحص كل شبر وسط مسرح الجريمة، طفقوا يدققون النظر في كل صغيرة وكبيرة بهذه البقايا.

وسرعان ما شعروا بتعاسة مهولة لما لم يستطيعوا معرفة الأطعمة التي بدأ بها (سفيان) ليحملوها إليه أولًا، وتساءلوا بأسى: «لماذا لا يتناول الإنسان كل شيء دفعة واحدة؟»

بسرعة لا نظير لها، أعدوا اثني عشر طبقًا مثل تلك التي تناولها (سفيان). وبعد أخْذٍ ورَد، قرروا حملها إليه مرة واحدة، على كل منهم إذن حمل ثلاثة أطباق، كيف يمكن فعل ذلك؟ يا للتعاسة! لماذا لا يملك الإنسان ثلاثة أيدي؟ اثنان غير كافيين، غير كافيين بالمرة.

وقام أحدهم بحمل طبقين على يديه والثالث فوق رأسه، مقترحا عليهم أن يقلدوه. يا لها من فكرة فذة. لماذا لم تخطر لهم قبله؟ شعروا بالانقباض، لكنهم في نفس الوقت حمدوا الله، فأن تأتيك المساعدة من شخص تكرهه خير من ألا تأتيك أبدًا.

وهكذا حذوا حذوه.

لكن قبل أن يخرجوا إلى الحديقة، قال فرد من المجموعة، وكان مدمنًا على الخمر: «يبدو لي أن المائدة ينقصها ألذ شراب»، فرموه بنظرة شزراء، هل يمكن أن يكون قصده هو ما يفكرون فيه؟ «وما هو هذا الشراب؟»، سأله الأقرب منه. فرد بثقة أزعجتهم كثيرًا: «الخمر»

وتبادلوا النظر قليلًا، ثم هتف به من سأله قبل قليل: «كيف تجرؤ على تقديم هذا المشروب النتن للسيد؟»، وأمن الخادم الذي يقف أبعد منه على كلامه بنفس لهجته الحانقة: «أيها السكير، هل تريد تدنيس قلب السيد النقي بشرب مياهك الملوثة!»، وقال الثالث الذي يقف وسطهما: «يا لك من متعجرف!»

ثم وضعوا الأطباق التي كانوا يحملونها وتلك التي كان يحملها فوق الطاولة ونزلوا على رأسه لطمًا حتى أوجعوه، ولولا أن تذكروا حاجتهم إليه لحمل تلك الأطباق الثلاثة ربما استمروا بضربه حتى يغمى عليه. وما هي إلا أن أمروه قائلين بعد أن تراجعوا عنه: «هيا، لنحمل الطعام الذي يستحق فاه السيد الطيب»، فصدع لهم شاكرًا الله على إمساكهم عن ضربه، غير نادم على اقتراحه.

كان (سفيان) فرحًا برؤيتهم يحملون تلك الأطباق ويمشون في صف واحد، أخذ يتساءل لماذا يكلفون أنفسهم عناء حمل ثلاثة أطباق دفعة واحدة، فلو حملوا طبقين لكان أسهل لهم. ما أغربهم! لما وضعوا الأطباق على الطاولة أمرهم بالانصراف وراح يأكل بشراهة.

ووجد نفسه يشعر بالتخمة سريعًا، وتعجب من ذلك كل العجب، فكيف يمل الأكل من هذه الأطباق اللذيذة بسرعة! هو الذي ظل طوال حياته محرومًا منها متألمًا لذلك، وناسجًا تهاويل لا أول لها ولا آخر ظانًا بأن كثرة الطعام اللذيذ مصدر السعادة والهناء والراحة في الحياة!؟ وقال لنفسه:

«إذا كان كل شيء في حياة الأغنياء مما يملكونه ويفتقر إليه الفقراء يبعث على هذا الإحساس فلا قيمة للغنى»، لكنه سرعان ما سخر من هذه الفكرة.

وما أن انتهى من الأكل حتى أخذ يتجشأ ويتلمظ ويلقي مِنْ حوله نظرات كسولة هادئة كنظرات أسد متخم يبحث عن مصدر للتسلية. ولم يزل كذلك حتى رأى فجأة بوابة القصر مفتوحة عن آخرها، فكاد قلبه يقفز من صدره هلعًا! يا إلهي! إنه في خطر! لقد كانت البوابة مقفلة للتو! من فتحها!؟ هل يعقل أن أحدًا ما جاء لقتله؟ ممكن، فليس غريبًا أن ينقلب ضده كل الناس الذين ادعوا بأنهم عبيده. أرسل الخادمين اللذين كلفهما بحراسته لتفحص المكان من حول البوابة ومعرفة ما إذا كان هناك من يحاول الهجوم عليه. ذهبا يعدوان. أهذان الخادمان كافيان لدرء الأخطار عنه؟ كلا. يجب أن يكون لديه المزيد من الحراس، فهو الآن بمثابة السلطان، وكما هو معلوم، لكي يحمي السلطان نفسه من شر أعدائه فهو يتخذ لنفسه العديد من الحراس.

بعد دقائق عاد الحارسان وطمأناه بأن المكان آمن، شكرهما، راح يفكر، لابد من وضع جنود حول القصر لحمايته، بَيْدَ أن عدد الجنود الذين في المدينة قليل، إذن يجب أن يجند المزيد، بل يجب أن يجند كل سكان المدينة للدفاع عنه. ليس غريبًا أنه لم يكن يرى الوالي سعيدًا، فكل شخص يتربع على منصب كمنصبه يكون دائم الخوف من الخديعة والخيانة والغدر. الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الإحساس هي عدد كبير من رجال الحرس. ولكن، أهو فعلًا مضطر لإحاطة نفسه بالكثير من الجنود؟ فالناس يحبونه. كلا، لا يجب أن يعول على حب الناس، حب الناس متقلب، مثل نهار المتسول.

انتصب من مقعده فجأة كعمود قصب كان مشدودًا إلى الأرض ثم انفلت. نادى على كل الخدم الموجودين في القصر، فوزعهم على سور القصر، احتفظ

بأولئك الخدم الأربعة الذين قدموا له الطعام قبل قليل، أخبرهم أنه يريد الخروج لإحضار المزيد من الناس لحراسته وطلب منهم حمايته، قالوا له بأنهم لن يسمحوا لأي كان بمس شعرة واحدة من رأسه، ولم يكد يخطو خطوة إلى الأمام حتى قال له أحدهم باحترام كبير: «سيدي، من الأفضل أن نحملك على هودج، فذلك أكثر أمنًا»، وافق على فكرته، بل وأثنى عليه ووصفه بالخادم الذكي. طبعًا كان ذلك كافيًا ليشعر زملاءه بالحنق تجاهه، منذ الآن سيصير هذا الخادم مستشاره الأول، كان اسمه (مسعود)، كان رجلًا عازبًا في السادسة والأربعين من العمر، طويلًا، محدودب الظهر، أسمر الوجه وخشن الملامح، وكانت مهمته في قصر (إزم) هي الطبخ.

طلب منهم التوجه صوب دار القضاء، ففعلوا. كلما رأى رجلًا قويًا أمرهم بمناداته، فما أن يقبل عليه حتى يطل بشعره من الستار الذي يغطي الهودج، يشعّره إذا لم يكن قد شعره من قبل، ثم يطلب منه الانضمام إليه، فيصدع وهو من السعادة في غاية. جمع من هؤلاء الرجال عشرين.

أما الجنود فهو عثر على قلة منهم فقط في دار القضاء، وجميعهم كان قد شعرهم في السوق صباحًا، ما أن رأوه حتى هشوا وبشوا وقدموا له الولاء والطاعة، طلب منهم إحضار باقي الجنود في أسرع وقت، أطلقوا أرجلهم للريح مثل أحصنة سريعة نحو نقط الحراسة التي يتواجد فيها هؤلاء، والذين لم يشعِّرهم (سفيان) بعد، عندما وقفوا عليهم وأمروهم بالقدوم معهم، سألوهم هل الوالي هو من أرسلهم؟ فأجابوا: «بل صاحب الشعر الفيروزي»، دون إضافة كلمة واحدة، فرافقوهم، وفي ظنهم بأن الوالي هو من لقب نفسه هذا اللقب، حتى إذا لاح (سفيان) برأسه الوضاءة حلفوا أنه الأجدر بهذا اللقب من أي إنسان آخر، وأقبلوا عليه متوسلين، فشعّرهم وضمهم لحرسه.

مع الغروب، عاد (سفيان) إلى قصر (إزم)، محاطًا بعشـرات الجنود والرجال

الأقوياء، أول شيء فعله هو إحاطة جدار القصر الخارجي بالجنود والخدم، وحديقته الداخلية بالرجال الأقوياء، محذرًا إياهم من السماح لأي كان بالدخول إلى القصر دون إذنه الشخصي.

موازاة مع ذلك، طلب من أولئك الخدم الأربعة المقربين إليه حراسة القصر من الداخل والسهر على توفير طلباته، ومنعَهم من الصعود إلى الطابق العلوي حيث ينزل، باستثناء (مسعود)، الذي أمره بالمرابطة قبالة باب غرفته، ومرافقته كلما خرج منها.

على الرغم من أن هذه الأوامر كان لها وقع مختلف على نفوس الخدم الأربعة، إذ كل واحد منهم فرحًا بتكليفه بحراسته من مسافة قريبة وفي الوقت ذاته انزعج من نفسه لأنه لم يكلفه بحراسته من مسافة أقرب، إلا أن أحدًا منهم لم يخطر له مخالفتها أو التلكؤ في تنفيذها.

حتى (مسعود)، الذي كان موضع حسد الجميع، كان منزعجًا من نفسه لائمًا إياها على عدم كفاءتها لأن السيد لم يتركه ينام أسفل سريره، مثل كلبه الوفي، وذلك لكي يحميه ويطمئن عليه أكثر، بيد أنه لم يفكر ولو للحظة بأن يقابل هذه الأوامر بالتراخي أو الخذلان.

ودخل (سفيان) إلى غرفة نوم (إزم) المريحة شاعرًا بتعب غريب، ناويًا الاضطجاع قليلًا في ذلك السرير المهيب. وسرعان ما نادى على (مسعود)، وطلب منه تكليف الخدم الثلاثة الذين معه بإعداد مائدة الطعام، مع إضافة شيء لم يقدم له من قبل، ألا وهو الخمر، ناهيك عن إرسال ثمانية رجال إلى غرفته، أربعة من الجنود وأربعة من حراس الحديقة، فذهب (مسعود) مسرعًا، وفي الطريق راح يعض يديه على عدم تقديمه الخمر لسيده من قبل.

الحق أن (سفيان) لم يكن سكيرًا، بل طلب الخمر لمعرفته بأن الأغنياء يشربونها، وهكذا أراد تجربتها.

أمر (مسعود) الخدم الثلاثة أن يعدوا مائدة الطعام مع إضافة الخمر، اثنان منهم ندما مثله لأنها لم تخطر لهما على بال، أما الخادم السكير الذي كان قد اقترح عليهم أن يقدموها له وسخروا منه وضربوه، فقد قفز في مكانه وأخذ يردد فرحًا: «ألم أخبركم بأنها تنقص المائدة؟»، وما هي إلا أن لطمهم على رؤوسهم منتقمًا، لم يُبدوا أية مقاومة، إنهم يستحقون هذه الضربات، بل ويستحقون عقابًا أقسى على غبائهم الذي منعهم من اتباع نصيحته.

كان اسم هذا الخادم السكير (شاكر)، إنه في الخامسة والأربعين، طويل القامة، نحيل الجسم من كثرة الشرب وقلة الأكل، خلق الثياب، تَبْرُزُ من وجهه الأبيض المثلث عينان كبيرتان متعبتان. كانت مهمته في القصر هي البناء والصيانة. لما انتهى من لطمهم، اقترح -منتهزًا هذه الفرصة لإثبات ذاته- أن يتولى إحضار الخمر لصاحب الشعر الفيروزي، فهو يعلم من يبيع أجود أنواعها، بل ويعلم أيضًا أفضل عاصريها سواء في المدينة أو المدن المجاورة.

واسترسل في الحديث عنها لدقائق معدودات، واصفًا الطريقة التي تصنع بها، وأفضل أنواعها وأسوئها، ناهيك عن الكثير من التفاصيل الأخرى الثانوية جدًا حولها. وعلى غير العادة، وجد (مسعود) والخادمَيْن الآخرَيْن ينصتان إليه بانتباه كامل، بل وبإعجاب كان بريقه يشع من أعينهم بقوة كما يشع الضوء من النجوم في ليال حالكة. وفي هذه اللحظة أحس بنشوة ألذ من أحلى الخمور التي سبق له أن شربها يومًا. ويا للتناقض! حَمَدَ الله لأنه مدمن على الخمر! وبالأمس فقط كان يدعوه لمساعدته على الإقلاع عنها!

أما الخدم الثلاثة الآخرون، فلقد كان يعتمل بداخلهم الإعجاب بكلام (شاكر) الجميل مع إحساس آخر، هو الاحتقار، الاحتقار تجاه أنفسهم لأنهم يجهلون ما يعرفه عن الخمر، فما فائدة كل ما يعرفونه؟ وما فائدة

تقواهم المزيفة وامتناعهم عن شرب الخمر مع أنهم يرتكبون الزنى والسرقة وغيرها من الفواحش؟ فلو أدمنوا شرب الخمر، لاستطاعوا امتلاك كل هذه المعلومات الغزيرة عنها، وأكثر من ذلك، وأهم، لتوقعوا رغبة سيدهم فيها ووافقوا بالتالي على مقترح (شاكر) بأن يقدموها له بدل أن يسخروا منه.

الفصل 16

لم تمضِ إلا لحظات قليلة على توقف العربة التي كانت تقل أسرة (إزم) باتجاه زرهون، حتى هاجمتها عصابة من ثمانية رجال، مسلحة بالهراوات والسيوف. كان الحوذي ما يزال في مكانه على عتبة باب العربة لم يفق بعد من دهشة ذلك المنظر الغريب، اضطجاع الأسرة على الباذنجان، فإذا به يسمع صوتًا يصيح من خلفه: «إياك أن تتحرك من مكانك!»، ذهبت الظنون بعيدًا برجال العصابة حين رأوه واقفًا هناك، إذ اعتقدوا بأنه ينظر إلى حمولة من الذهب أو الفضة، ولما اشرأبت أعناقهم إلى ما بداخل العربة صدموا وخاب أملهم، ليس ثمة ذهب، الحوذي يحدق إلى مجموعة من الحمقى يفترشون الباذنجان! يغمضون أعينهم وينتفون شعرهم، هل هم مجانين؟ لا، لا يبدو عليهم ذلك، ولكن لماذا ينامون على تلك الحبات من الباذنجان ويقتلعون شعرهم؟ هل في الأرض عقلاء يفعلون أمرًا كهذا؟

أمسك زعيمُهم الحوذيَ من كتفه وطوح به بعيدًا، ثم صعد إلى العربة واندفع يلكز محبي الباذنجان بعصاه ويصيح: «انهضوا! انهضوا أيها المغفلون!»، وقال (إزم) مفزوعًا، وهو يدير عينيه من حوله: «ما الذي يجري هنا!؟»، وسرعان ما لفت انتباهه أن الرجل الذي أيقظهم للتو يقف على حبة باذنجان، فصرخ في وجهه: «أيها البغل، إنك تطأ على أغلى ما أملكه، فأبعد رجلك المتسخة!»

اهتز قلب هذا الأخير لسماع كلامه، فنظر بسرعة البرق إلى أسفل رجله متوقعًا أن يرى ذهبًا أو حجرًا كريمًا، لكنه لم يجد إلا حبة باذنجان مغبرة، غضب بشدة، فحمل عصاه إلى السماء ونزل بها على ظهر (إزم)، وهو يزفر:

«هل الباذنجان هو أغلى ما تملكه أيها الحقير؟ الناس يملكون الذهب وأنت لا تملك إلا باذنجانًا نتنًا يا &ابن الـ....!»

وأصدر (إزم) صرخة تألم، ثم هتف بالرجل الذي ضربه: «إن الباذنجان أثمن من الذهب»، واستغرب كل رجال العصابة من كلامه، لكنهم كانوا من التعب بحيث لم يشعروا برغبة في مجادلته، فليلة البارحة ظلوا يجرون هربًا من قبيلة طاردتهم للفتك بهم لأنهم حاولوا سرقة مواشيها، وهكذا تقدم كل رجال العصابة وأخذوا يفتشون جيوب (إزم) وباقي الأسرة، لم يجدوا إلا بضعة دراهم، امتقعت وجوههم حنقًا، لكنها سرعان ما تألقت فرحًا عندما ألفى أحدهم لدى الزوجة والابنة دمالج وقلائد من ذهب فصاح: «ذهب! ذهب! ذهب!»، خلعوها عنهما بلهفة، انفجرتا بالبكاء، (إزم) وابنه أيضًا أخذا يبكيان، كان في ظن العصابة بأنهم يبكون حزنًا على الدمالج والقلائد ولم يخطر ببالهم أبدا أنهم يبكون حزنًا على الباذنجان الذي كانوا يدوسون عليه بأقدامهم.

غير قادر على الصبر أكثر، قفز الابن على أحدهم ودفعه بقوة حتى سقط، فجرجرهم رجال العصابة خارج العربة وانهالوا عليهم ضربًا، نهض الحوذي وحاول الدفاع عن أسياده، فإذا بهم يضربونه بقسوة حتى فقد وعيه، وعاد الرجال للعربة وطفقوا يفتشون كل زواياها قاذفين حبات الباذنجان بوحشية، ثم غادروا لما لم يجدوا شيئًا يستحق الذكر، فرحين، مكتفين بما غنموه.

كان (إزم) أول واحد نهض مقاومًا آلامه، لم يذهب للاطمئنان على أفراد أسرته الذين كانوا يتأوهون ويتوجعون قريبًا منه، وبالطبع لم يذهب للاطمئنان على الحوذي المسكين الذي كان ممددًا أرضًا كقطعة خشب، بل ذهب للاطمئنان على حبات الباذنجان التي قذفها أولئك الهمج كما وصفهم، راح يجمعها الواحدة تلو الأخرى وعيناه تذرفان الدموع بغزارة

كلما ألفى حبة تعرضت لضرر فادح.

أنشأ يجمعها في الكيس الذي كانت فيه أول مرة، هذا الكيس كانت قد ركلته أقدام العصابة خارجًا لما لم تجد فيه شيئًا مهمًا، انضمت إليه ابنته وزوجته ثم ابنه، لما انتهوا من التقاط آخر حبة، صعدوا إلى العربة، وضعوا الكيس فيها، ألفوا أرضية العربة مليئة بحبات الجزر، جمعوها هي الأخرى ووضعوها في الكيس الذي كانت فيه، نزلوا، اتجهوا صوب الحوذي أيقظوه. «هيا بنا لقد تأخرنا»، صاح به (إزم) وهو يحركه بعنف.

استيقظ، قال محاولًا لعب دور الفارس المغوار الذي غلبت قوة الجماعة شجاعته: «لو لم يكونوا كثرًا لما تركتهم يأخذون أغلى ما تملكه»

يبدو أنه حينما طوح به زعيم العصابة بعيدًا عن العربة شعر بأذنيه تتثاقلان شيئًا فشيئًا بسبب امتلائهما بالتراب، وكان آخر ما سمعه صياح (إزم) بزعيم العصابة برفع رجليه عن أغلى ما يملكه، فمازال ينفض التراب عن أذنيه ويحركهما حتى عادا إلى حالتهما الطبيعية، وكان أول ما سمعه بعد ذلك هتاف رجل من العصابة بأنه عثر على دمالج وقلائد، فربط هذا الكلام بذاك، ليستنتج في النهاية بأن أغلى ما يملكه (إزم) هي دمالج وقلائد زوجه وابنته.

شعرت الأسرة بالانقباض والتوتر مما قاله، حسب ما رأوه، لم يأخذ أفراد العصابة حبة باذنجان واحدة، طبعًا فالباذنجان هو أغلى ما يملكونه، وهم سيزرعونه للسيد فقط، والسيد وحده من يحق له تناوله، أما الدمالج والقلائد فهي لم تكن بالنسبة إليهم سوى خُضَر لا قيمة لها، لقد أمعنوا النظر في أيدي العصابة وهم يغادرون بالرغم من الضربات التي تلقوها، وذلك خوفًا من أن يأخذوا معهم أية حبة باذنجان، لم يأخذوا شيئًا، كما بدا أو تبدّى لهم.

سألته الأم قلقة: «ولكن، هل رأيتهم يأخذون أغلى ما نملكه؟»، ظن بأنها تريد بسؤالها هذا لومه على عدم نجاحه في منعهم من سرقة دمالجها وقلائدها، لذلك أحنى رأسه وأومأ لها بأسف، انهارت، وهنا سأله الابن مقتربًا منه مسافة إنشات: «كم حبة رأيتهم يأخذونها؟»، لم يفهم قصده، بقي صامتًا، شعر (إزم) بالغيظ فأمسكه من كتفيه وسأله وهو يهزه: «أجب! كم حبة!؟»، ارتعد من الهلع، سيقتله إذا لم يجبه، بل سيقتلونه جميعًا فقد طوقوه اللحظة من كل ناحية، كما لو أنه هو الذي سرق ذهبهم! يا لليوم النحس! ما باليد حيلة، عليه أن يجيبهم قبل أن يفقد حياته، ولكن ماذا يقول لهم؟ حبات!؟ ماذا يقصدون بحبات!؟ هل ثمة من يحسب القلائد والدمالج بالحبات!؟

أجاب بسرعة بعد أن رفع (إزم) يده ليصفعه: «أرجوك يا سيدي لا تفعل، إن وجهي لن يحتمل صفعة واحدة.. سأجيبك.. رأيتهم يأخذون ثمانية دمالج وأربع قلائد.. هذا كل ما رأيتهم يأخذونه يا سيدي، أقسم لك، لا تؤذني، بحق الله!»

وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض بسخرية، «يا للغبي!»، صاح الابن، وفي رمشة عين لفتت انتباههم حبة باذنجان تدحرجت من فوق ربوة وسقطت وسط سدرة صغيرة، هرولت نحوها الابنة بسعادة وارتمت على السدرة فاستخرجتها منها وأحضرتها دون أن تبالي بالأشواك التي التصقت بها، أثنوا عليها ونعتوها بـ(الفتاة المباركة)، وقبل أن تأخذ الحبة إلى العربة، أشارت بها إلى الحوذي هاتفة: «هذه هي أغلى ما نملكه يا رأس البطيخة! فهل رأيت العصابة تأخذ أية حبة منها؟»

إن أخوف ما كانت تخافه أسرة (إزم) أن تقوم العصابة بأكل تلك الخضر التي باتت بالنسبة إليها حكرًا على صاحب الشعر الفيروزي فقط.

عندما يترجم (سفيان) ذلك الكتاب سيعرف بـأن قصته العجيبة تدفع كـل

من يأمره بزراعة خضر ما إلى الامتناع عن تناولها وبذل قصارى ما بوسعه لمنع كل الناس من فعل ذلك.

وهكذا، فإن أسرة (إزم) لن تأكل بعد اليوم الباذنجان وستفعل ما بوسعها لمنع كل الناس من أكلها.

بعد سماعه كلام ابنة (إزم)، فهم الحوذي المعنى الحقيقي لكلام سيده، بغيظ سبَّهم جميعًا في نفسه، «ألهذا يريدون ضربي!؟ لا شك أنهم أصيبوا بمس. علي أن أنجو منهم قبل أن يقطعوا رأسي. لا بأس، سآخذهم على قدر عقولهم وألاعبهم وأجري معهم على الطريقة التي ترضيهم إلى أن أجد الفرصة المناسبة لألوذ بالفرار»

أجاب وهو يتنفس الصعداء: «يبدو أنني كنت مخطئًا يا سيدتي، الآن تذكرت، لقد توهمت فقط بأنهم سرقوا أغلى ما تملكونه، والحقيقة أنهم لم يسرقوا سوى قلائد ودمالج لا تساوي أنف حمار»

كان ذلك كافيًا ليشعل البسمة في وجوههم والطمأنينة في قلوبهم، قال لهم الأب: «إلى العربة، ابنيَّ العزيزين وزوجتي الغالية، وأنت أيها الحوذي البطل، هيا! (ربت على ظهره في حركة ودودة أثرت فيه أيما تأثير، إلى درجة أنها جعلته يعدل عن فكرة التخلي عنهم)، قُدِ الخيول بثبات نحو بلدة زرهون»

رد الحوذي في إخلاص: «السمع والطاعة يا سيدي»، ارتقى العربة ناسيًا كل آلامه، أمسك برسان الأحصنة، وبعد أن اطمأن إلى أن الجميع صعد، ساط الحصان الأقرب إليه قائلًا بحرارة وبصوت قوي: «إلى الأمام!»

الفصل 17

لما أرسل (سفيان) (مسعود) ليطلب من الخدم إعداد مائدة الطعام ويوفد إليه ثمانية رجال، طبق أوامره بالحرف الواحد. وبعد وقت قصير أتى ومعه الرجال الذين طلبهم، وقفوا أمامه في صف واحد، قدموا له التحية التي يجد نفسه كل واحد يراه ثانية يؤديها بشكل لا شعوري، حانيًا رأسه حتى يلامس صدره بذقنه، كما لو كان يعبر عن خنوع رأسه المظلمة والملوثة وذلها وعدم قيمتها أمام رأسه المضيئة والطاهرة.

ودون مقدمات قال لهم وهو يعض على الكلمات بشدة: «أريدكم أن تحضروا لي أجمل النساء في المدينة!»، فالتمعت أعينهم ببريق يوحي بالود والإخلاص والتضحية، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض في فرح لأن سيدهم وضع فيهم ثقته وانتدبهم للقيام بهذه المهمة. ومع انصرافهم اضطجع (سفيان) في السرير ونام، شاعرًا بنعاس لا يقاوم.

خرج أولئك الرجال مسرعين كما لو كانوا يدرون بالضبط ما عليهم القيام به ولا يفصلهم عنه إلا بضع خطوات. لكنهم بمجرد أن اجتازوا بوابة القصر حتى راحوا يفكرون في التفاصيل المتعلقة بتنفيذ المهمة، فلاحت أمامهم هذه الأسئلة الثلاثة التي حاولوا عبثًا بينهم وبين أنفسهم إيجاد أجوبة لها: أولًا، ما هي مواصفات هذه النساء؟ ثانيًا، أين يجدوهن؟ ثالثًا، كيف يجلبوهن عندما يعثرون عليهن؟

على أية حال، لقد ألفوا أنفسهم مضطرين لمناقشة هذه الأسئلة فيما بينهم بصوت مرتفع، فاحتد الجدال، وبعد نصف ساعة -تقريبًا- اتفقوا على

جواب موحد عن السؤال الثاني والثالث، لكنهم اختلفوا حول الجواب عن السؤال الأول.

أما فيما يخص المكان الذي سيجدون فيه هؤلاء النسوة، فلقد قرروا تمشيط المدينة والبحث في كل مكان: المنازل، الأسواق، الحدائق...

وأما بالنسبة للطريقة التي يستعملونها لجلب النساء اللواتي يقع اختيارهم عليهن، فلقد أجمعوا على إخبارهن إذا كانت أعينهن فيروزية، بأن السيد صاحب الشعر الفيروزي يطلبهن، وإذا لم تكن كذلك يخبروهن بأن الوالي هو من يطلبهن على خلفية جريمة قتل ارتكبنها.

وأما فيما يتعلق بمواصفات المرأة الجميلة، فكل منهم كان له رأي خاص. قال أحدهم بأن المرأة الجميلة بالنسبة إليه هي قرعاء الرأس، سمراء البشرة، فيروزية العينين، صغيرة الأنف، ورخيمة الصوت.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، سمراء البشرة، فيروزية العينين، دقيقة الأنف، غليظة الشفتين، متوسطة القامة، رشيقة الجسد، رفيعة العنق، وذات صوت هادئ مثل مشية البطة على العشب الأخضر.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، سوداء البشرة، لها عينان فيروزيتان يلمع منهما بريق ساحر جذاب، دقيقة الملامح، جسدها مكتنز، فإذا مشت فهي تمشي مشية الديك الرومي، وصوتها صداح، إذا تكلمت فأجمل الأصوات في الأرض تصمت لتستمتع بصوتها.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، سوداء البشرة، فيروزية العينين، ضاحكة الوجه، سحرها الأكبر في ابتسامتها الآسرة التي تفتر عن أسنان عاجية تعمي الشمس.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، ذهبية البشرة، فيروزية العينين، طويلة القامة، رشيقة، شفتاها مثل هلالين حمراوين وأنفها دقيق، النظر إلى وجهها

يشفيك من كل داء ويشعرك كما لو كنت وسط جزيرة مليئة بالذهب واللؤلؤ والفيروز.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، بنية البشرة، فيروزية العينين، طويلة القامة، مكتنزة الجسد، لها أنف أجمل من لوزة، سحرها في وجنتيها الحمراوين كشقائق النعمان، فإذا نظرتَ إليهما طاش صوابك وتبلبل تفكيرك.

آخر قال بأنها قرعاء الرأس، بيضاء البشرة كالشمع، فيروزية العينين، حمراء الوجنتين، مكتنزة الجسد، سحرها الأكبر في جيدها الطويل الأملس، فإذا نظرتَ إليه شعرت بأن صاحبته جبل شامخ مكسو بالثلج.

والأخير قال بأنها قرعاء الرأس، سمراء الجلد، فيروزية العينين، حمراء الوجنتين، دقيقة الأنف والشفتين، رشيقة الجسد، سحرها الأكبر في أهدابها الطويلة كريش الطاووس.

اتجهوا أول ما اتجهوا نحو الأماكن العمومية التي يرتادها الناس بكثرة، بدأوا بالسوق، شرع كل منهم يبحث عن تلك التي تنطبق عليها المواصفات التي أدلى بها للتو، لكن ولا واحد منهم وجد ضالته، في النساء اللواتي كن هناك رأوا عشرات العيوب، ولعل عيبهن الأسوأ هو رؤوسهن المشعرة.

ومن السوق اتجهوا نحو الحدائق، بقيت النتيجة على حالها، وسرعان ما تعالى صوت أذان العشاء، أحسوا بالامتعاض، في هذا الوقت تخلوا المدينة من السابلة، من التعاسة أن النساء لا يتجمعن في مكان واحد ولو لدقيقة في اليوم، فلو كن يفعلن ذلك لاهتدوا إلى ضالتهم في هذا المكان لا محالة.

شرعوا يطرقون البيوت، إذا كان لون عيني صاحب البيت الذي يطرقونه فيروزيًا كانوا يخبرونه عندما يخرج إليهم بالمهمة التي كلفهم بها (سفيان)، فيرحب بهم بحرارة ويسمح لهم بالدخول والنظر إلى كل النساء اللواتي في بيته، متمنيًا ألا يخرجوا إلا وقد اختاروهن جميعًا. أما إذا كان لون عينيه

غير فيروزي كان يتقدم نحوه الجنود الأربعة في الفرقة، ويقولون له بنبرة قوية فيها الكثير من التهديد: «نحن نبحث عن امرأة قتلت عشرة أشخاص وهربت، أخرج إلينا جميع النساء اللواتي في بيتك لنتأكد من أن المجرمة ليست واحدة منهن»، فيفعل ذلك، يخرج زوجته، أخواته، بناته... حتى لو كانت في بيته عجوز مسنة كانوا يطلبون منه إخراجها.

أول بيت طرقوه، كان صاحبه -وهو أخضر العينين- أعزب ويعيش مع أمه العجوز التي يبلغ عمرها ثمانون سنة. حين أخرجها لهم نظروا إلى بعضهم البعض باستغراب، ثم غادروا، بعد أن خاب أملهم فيها، ودخلوا في نقاش حاد حول العمر الذي يذبل فيه جمال المرأة، لتحديده لأصحاب البيوت التي يطرقونها، الذين لهم أعين غير فيروزية، لتوفير الوقت، خاصة أن هذه العجوز تطلب إخراج ابنها لها أزيد من ربع ساعة.

على نفس المنوال الذي انتهى به نقاشهم حول أوصاف المرأة الجميلة، انتهى به نقاشهم حول العمر الذي يذبل فيه جمال المرأة، وهكذا كان لكل منهم، بالتالي، رأيه الخاص:

- «يذبل جمال المرأة ابتداء من سن العشرين»
- «بل الرابعة والعشرين»
- «بل الثامنة والعشرين»
- «بل الثلاثين»
- «بل الرابعة والثلاثين»
- «بل الأربعين»
- «بل الخمسين»
- «بل إن المرأة المثالية تبقى جميلة ولو عاشت قرنًا كاملًا أو أكثر؛ إنها

كوردة في جنة الفردوس لا تذبل أبدًا، ويبقى جوهر جمالها قائمًا رغم كبر سنها، إنها تبقى فيروزية العينين، شادية الصوت، حمراء الشفتين، قرعاء الرأس. لذلك لا حدود عمرية لجمال المرأة المثالية»

كان رأي هذا الأخير كافيًا لحسم النقاش، وإبقاء الأمور على حالها، وبالتالي عدم استثناء أي فئة عمرية في البحث.

لما دقت الواحدة ليلًا، كانوا قد طرقوا عشرات المنازل، لم يعثروا فيها على شيء يذكر، شتان بين المعايير التي وضعوها وبين النساء اللواتي كن في هذه البيوت، واقترح عليهم أحدهم أن يتوقفوا عن البحث لأن أغلب البيوت تبدوا مظلمة، مما يدل على أن أصحابها نائمون، الأمر الذي يعني أن النساء إذا خرجن إليهم فلن يظهر لهم جمالهن الحقيقي بسبب تأثير النوم.

وانخرطوا في حوار ساخن حول الوقت المناسب الذي يكون فيه جمال المرأة في ذروته، فهل هو عند استيقاظها من النوم؟ أم قبل نومها؟ فقال كل منهم رأيه:

ـ «يكون جمال المرأة في ذروته أثناء استيقاظها من النوم عند الضحى»

ـ «بل عند الفجر»

ـ «بل قبل نومها عند منتصف الليل»

ـ «بل في الظهيرة بعد استيقاظها بساعات»

ـ «بل في العصر»

ـ «بل عند الغروب»

ـ «بل قبل منتصف الليل بساعتين»

ـ «بل بساعة واحدة فقط»

منذ شروعهم في إنجاز المهمة وهم يتنافسون فيما بينهم، ويبذلون قصارى

ما بوسعهم ليثبتوا أنهم الأعلم في الفريق، والأفضل في تأدية المهمة، والأحق بالنصيب الأكبر من رضى السيد صاحب الشعر الفيروزي. كان الظلام دامسًا، والدروب مقفرة إلا من كلاب ضالة أو قطط شاردة، استمروا بالبحث.

كانوا جميعا متزوجين، خلال بحثهم، فطنوا إلى أمر غريب، إنهم متزوجون من نساء غير جميلات.

بعد ساعة يئسوا من البحث وعن لهم العودة إلى بيوتهم، لكنهم طردوا هذه الفكرة من أذهانهم، أحسوا بأنهم إذا ناموا في بيوتهم فذلك يعني أنهم يستخفون بأوامر السيد. على العموم، لم يكونوا لوحدهم في المدينة الذين امتنعوا عن المبيت في منازلهم هذه الليلة، بل كل من كلفه (سفيان) بمهمة، باستثناء بالطبع أولئك الذين أمرهم أن يعيشوا حياتهم العادية.

تفرقوا غاضبين من بعضهم البعض على فشلهم حتى الآن في إنجاز المهمة، اضطجعوا بأزقة متفرقة من المدينة كالمتشردين، حاولوا النوم لكن عبثًا، فأمضوا الليل كله وهم يكملون نتف شعرهم، وفي الصباح نهضوا برؤوسهم المشوهة وراحوا يذرعون المدينة شمالًا وجنوبًا، ولم تدق الثانية عشر زوالًا حتى عثروا على النساء المثاليات، ومن الغريب أن مواصفاتهن لم تكن تطابق المواصفات التي أدلو بها لبعضهم البعض، اللهم إلا أعينهن الفيروزية. لكن، على العموم، النظر إليهن بعث السرور في نفوسهم وجعلهم متأكدين بأن السيد لا محالة سيحبهن. الحق أن ما جعلهم يتنازلون عن تلك المواصفات التي أدلوا بها هو خوفهم من غضب السيد عليهم إذا تأخروا أكثر، اتجه كل واحد منهم نحو المرأة التي وقع اختياره عليها بمجرد أن اقتنع بجمالها، طلب منها مرافقته لصاحب الشعر الفيروزي، فوافقت وطائر السعادة يحلق بقلبها في السحاب.

لسوء الحظ، لم يعثر رجال هذه الفرقة على (سفيان) في قصر (إزم) ليثني عليهم كما تمنوا، بدل ذلك اعترضهم تباعًا بعض الخدم ولاموهم على

تأخرهم وأفضوا إليهم بأن السيد غاضب منهم بسبب تأخرهم ثم أخذوهم إلى غرفة بالطابق السفلي وأقفلوا عليهم فيها معلنين أنه هو الذي أمرهم بفعل ذلك، بهذه الغرفة التم شمل الفرقة، أخذوا يبكون حزنًا على فشلهم في تأدية المهمة التي أمرهم السيد بتنفيذها، وما زالوا كذلك زهاء ساعة تقريبًا، وأولئك النساء يبكين معهم، واللوم يمزقهن لأنهن لم يظهرن لهم في الوقت المناسب، فإذا بالباب يفتح فجأة، ظنوا أن السيد هو الذي فتحه، وهموا أن يطلبوا منه الصفح، بيد أنهم فوجئوا بالخادم السكير (شاكر) يخطوا إلى الداخل والدموع تنزل من عينيه.

الفصل 18

البارحة، عندما التمس (سفيان) من (مسعود) بأن يقدم له خمرًا على مائدة الطعام، اتفق هذا الأخير مع أولئك الخدم الثلاثة المكلفين بخدمته داخل القصر على أن يتكفل بالمهمة الخادم (شاكر)، فهو أعرفهم بأجود أنواع الخمور، وأماكن بيعها. نقدوه مالًا كثيراً لذلك. فهرول من توه ليؤدي المهمة الملقاة على عاتقه والأرض لا تكاد تسعه من السرور. وفيما يغذ السير، عصفت به أفكار مزعجة. تساءل: لماذا يشرب الإنسان الخمر؟ وجد نفسه يسأل هذا السؤال لتحديد سبب رغبة سيده في الشرب، وبالتالي تحديد نوع الخمر التي يحضرها له، ذلك أن ثمة أنواع كثيرة ذات مذاق ومفعول مختلف، فمنها المر الذي يؤدي إلى الثمالة بسرعة، والحلو الذي لا يسكر إلا بعد أن يشرب المرء منه كميات كبيرة، وغيرها.

لم يهتدِ إلى جواب، أو قل اهتدى إليه لكنه لم يكن واثقًا من أنه الجواب الوحيد، فخاف من وجود جواب غيره، إذا لم يأخذه بعين الاعتبار أخفق في مهمته وباء بغضب من السيد.

لا محيص عن الاستعانة بالآخرين. فمن يستشير؟ طبعًا مدمني الخمر أمثاله، ولا يخفى عليه مكانهم. دون تردد، عدا صوب حانة المدينة لاستشارة السكارى فيها.

كانت تقع في حي راقٍ، ولقد كان يوزع فيها الخمر بشكل سري، ولم تكن معروفة إلا للسكارى، والحق أن المار من أمامها الذي لا يعرف ما يدور بداخلها لا يشك أبدًا بأنها حانة نظرًا لشبهها من الخارج بالمنازل الفاخرة المحيطة بها.

وكان يمنع منعًا كليًا على الذين يشربون فيها أن يخرجوا ثملين في وضح النهار، لذلك من كان يقصدها ليشرب حتى لا يستطيع التفريق بين الصرصار والحمار كان يخطط سلفًا للبقاء فيها إلى أن يهبط الظلام. ومن ناحية أخرى، لم يكن يرتادها إلا الأغنياء المعروفون في المدينة، وأما غيرهم، فلم يكن يسمح لهم بدخولها إلا بعد الإدلاء لبوابها بثمن الخمر التي يودون شربها.

دخل (شاكر) إلى هذه الحانة مرتين، كانت المرة الأولى قبل عامين عندما ربح في القمار مبلغًا ماليًا كبيرًا، شرب بشراهة حينها، ولما غادر عقد العزم على العودة إليها في أقرب وقت ممكن، ومنذئذ وهو يقامر كثيرًا لعله يربح مرة أخرى، لكنه لم يكن يربح إلا مبالغ زهيدة، وفي الصيف الماضي قصد هذه الحانة بعد أن عيل صبره ويئس من حظه العاثر في القمار، لم يكن في جيبه إلا دراهم قليلة، تركه الحارس يتخطى الباب دون أن يطلب منه الإدلاء بثمن الخمر التي يود شربها، متذكرًا إياه، فلقد أخبره في المرة الماضية بأنه من كبار التجار في المدينة، شرب حتى الثمالة، وحين أزفت ساعة الإقفال وتبين بأنه لا يملك ثمن الشراب الذي تناوله ضربه الحارس ضربًا مبرحًا حتى كاد يقتله.

الآن سيذهب إلى الحانة ومعه كيس مليء بالنقود، كانت ريح خفيفة تهب من الغرب حين بدأ يطرق باب الحانة، هذه المرة لن يتعرض للضرب بالطبع، فمعه صك المرور. آه! ليته يملك هذا المبلغ يوميًا للدخول إلى الحانة والبقاء فيها حتى تقفل!

فتح الباب، ظهر الحارس، كان مختلفًا عن الشخص الذي ضربه المرة السابقة، نظر إليه بتجهم وأدار عينيه في مظهره جاسًّا كل نقطة فيه، نازلًا من شعر رأسه الذي كانت يده اليسرى منشغلة بنتفه إلى أخمص قدميه، وقبل أن يفتح فاه، استخرج كيس النقود من جيبه، فانفرجت أسارير

الحارس وتحولت التكشيرة إلى بسمة، وقال له مُرَحِّبًا: «أهلًا وسهلًا يا سيدي»

المال اللعين يفتح كل الأبواب، حتى تلك التي يحرسها الشيطان.

شعر بالفرحة لأول خطوة يخطوها بالحانة، وخيل إليه بأنه سيسبح في نهر من العسل، فقال للساقي مصفقًا: «هاتها على طبق من ذهب يا ساقي السرور»، وانفجر بالضحك جماعة كانوا يجلسون قريبًا من الباب، كانوا الزبائن الوحيدين الموجودين في الحانة عندئذ، كان عددهم خمسة، كان يبدو عليهم من أعينهم غير الفيروزية وخدودهم الحمراء أنهم لم يبلغوا درجة الثمالة نفسها.

بيد أنهم كانوا قد وصلوا إلى ذلك المستوى من الثمالة الذي تتكسر معه كل الحواجز بين الغرباء، وهكذا ما لبث أحدهم، وكان أثملهم، أن دعاه للانضمام إلى طاولتهم، لم يرفض، اتجه صوبهم وجلس إلى طاولتهم التي كان عليها عشر زجاجات من الخمر، كل واحدة من نوع مختلف، وهي الأنواع الوحيدة التي كانت موجودة في الحانة، ولم تكن متوفرة في أي مكان آخر بالمدينة عداها.

شربها كلها في المرة الفائتة، ماعدا واحدة، نفدت من الحانة وقتها، كان اسمها (النتنة)، سميت كذلك لرائحتها الكريهة بعض الشيء. لكل من هذه الخمور لقب متعارف عليه بين مرتادي الحانة، يسمونها به، دون اسمها الحقيقي، والحق أن أحدًا لا يعرف مَن هو الشخص الأول الذي أطلق عليها هذه الألقاب التي صارت تجري على ألسنة متجرعيها وساقييها جريان الماء في النهر، بيد أن الجميع تقريبًا يعرف من أين استُخلصت هذه الأسماء.

سميت (القاتلة) بهذا الاسم لأنها تذهب بعقل شاربها وتجعله لا يتورع عن ارتكاب جريمة قتل إذا شرب منها كمية كبيرة، و(الكلبة) و(الفهد) و(الحمار) و(النخلة)، لأن هذه المخلوقات مرسومة على زجاجاتها،

و(الرافعة)، لأنها ترفع صاحبها عن الأرض بمجرد شربه الكأس الثالثة منها فتجعله يحس كما لو كان يطير في السماء، و(الحامضة) و(الحلوة) و(المالحة) بسبب مذاقها.

وعلى الأرجح أن صعوبة نطق أسماء هذه الخمور الإفرنجية المستوردة من بلاد الأندلس هو الدافع إلى ابتداع هذه الألقاب المثيرة للسخرية.

وتناول أحد الرجال زجاجة (الفهد)، صب منها نصف كأس، فحمل الكأس بيد مرتجفة، ثم سلمها لـ(شاكر) قائلًا: «هيا اشرب من الفهد لعلك تسرع في اللحاق بنا»، فانفجر مع الرجال الآخرين بالضحك، بينما تلقف منه (شاكر) الكأس بلهفة جائع يتلقف رغيف خبز من يد محسنة.

لكنه قبل أن يشرب، صعقته فكرة مهولة. إنه هناك، لا للشرب واللهو، بل لتأدية مهمة جليلة. لقد دخل الحانة لكي يسأل عن الأسباب التي تدفع الناس إلى الشرب ونوع الخمر المفضلة في كل سبب على حدة، وذلك ليعرف دافع سيده للشرب فينتقي له الزجاجة المناسبة. وهؤلاء الرجال في وضع يؤهلهم أحسن تأهيل للإجابة عن أسئلته بأريحية، بل وبصدق لا يشوبه رياء ولا افتراء.

وهكذا، وضع الكأس على الطاولة دون أن يراه الرجال، مستغلًا انفجارهم بالضحك إلى درجة تهالك ولطم بعضهم بعضًا، وما أن تابوا إلى رشدهم، هذا إذا كان من في وضعهم يتوب إلى رشده لمجرد توقفه عن الضحك، بادرهم في نبرة سكير: «البارحة خرجت من هنا ثملًا، فلما دخلت البيت ليلًا في وقت متأخر، وجدت زوجتي بانتظاري، كنت أظن بأنها كما العادة ستبدأ بلومي على العودة إلى البيت في تلك الحالة، لكنها بدل ذلك قالت لي: (أنت بغل)»

فقهقهوا بصخب، واستأنف الكلام فوضعوا أيديهم على أفواههم يكتمون ضحكهم بصعوبة وأصاخوا السمع:

ـ «فسألتها: (لماذا تنعتينني بالبغل؟)، فردت: (هذا لأنك تفعل شيئًا لا تعلم السبب الذي يدعوك إلى فعله)، قلت لها: (وما هو؟)، فقالت: (أنت تشرب الخمر، فهلا قلت لي لماذا؟)، رحت أفكر فلم أعرف بماذا أجيبها، وهكذا لم يكن منها إلا أن دخلت إلى غرفة نومها، وأقفلت الباب بالمفتاح صارخة: (ألم أقل لك بأنك بغل!؟ فالبغل مثلك يسوق عربة دون أن يعرف لماذا يسوقها!»، وأضافت مهددة: «إذا عدت مخمورًا مرة أخرى ولم تجبني عن سؤالي فسوف تندم شر ندم»

وهنا صمت (شاكر)، فقال له أحدهم، وقد تأثروا جميعًا بقصته: «اضربها»، لكنه أجابه بوجه عابس:

«إنها ابنة قائد حرس والي مكناس، وإذا ضربتها فسيزج بي في السجن.. لقد هددني بذلك منذ زفافنا»

وغير نبرة صوته، ثم قال لهم: «ألا تخبروني بحق الله لماذا يشرب الإنسان بصفة عامة؟ لقد أفحمني سؤال زوجتي، وصرت أعتبر كل من لا يعرف له جوابًا بغلًا مثلي»

أخذوا يتبادلون النظر فيما بينهم، وقد أحسوا بأن الرجل الغريب الذي يجلس معهم يتهمهم بأنهم بغال. وبعد لأي بدأوا يدفعون التهمة عنهم الواحد تلو الآخر:

ـ «أشرب لأنسى زوجتي التي أكرهها، لأخرج من دوامة اليأس الناتج عن العيش معها، إنها الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها القضاء على هذا اليأس الذي أتخبط فيه كل اليوم. لو كنت متزوجًا من امرأة أحبها ما دخلَت الخمر التي حرم الله إلى جوفي يومًا. قد تتساءلون لماذا لا أطلقها، هذا غير ممكن، فهي تملك كل شيء: البيت، الدكاكين، الفدادين... إذا بعت هذه المرأة فسيكون الثمن هو الفقر. ولا أخاف مصيبة في الدنيا أكثر من الفقر، قبحه الله! إنه السبب في مصيبتي»

ـ «أشرب لأضحك. حياتي العادية خالية من الضحك. أبناء يجلبون الهم، عمل مضن، زوجة جدية أكثر من اللازم. أما هنا...»

وأشار بيديه إلى أرجاء الحانة، «وسطكم يا رجال...»، مشيراً إليهم بافتخار، «فلا مكان للهم والغم، ويمكنني الضحك لأتفه الأسباب. إن الخمر تجعلني طفلًا، بل أمرح من طفل، إنها تجمد بداخلي كل الأعصاب التي تمنع وجهي من الرقص في البيت والعمل، وتقتل الرجل الممل فيّ. لو كان في الحياة وسيلة أفضل من الخمر للضحك ما شربت يومًا»

ـ «أما أنا فأشرب لكي أتغلب على جبني، إنها تصنع مني رجلًا شجاعًا لا أكونه وأنا في حالتي العادية، لطالما أردت أن أصرخ بملء رئتي وأعبر عن كراهيتي لمن أكرههم. بالسكر وحده لا أكون جبانًا، لو كنت شجاعا بطبيعتي ما دخلت الخمر إلى جوفي يومًا»

ـ «أما أنا فأشرب لكي أنسى المعاناة التي عانيتها في الماضي، لقد كابدت الفقر والحرمان والتعذيب وكل أنواع التعاسة، وكلما كنت صاحيًا هجم عليَّ الماضي بذكرياته السوداء، إنني أجد في الخمر وسيلة ناجعة للنسيان»

ولما توقف عن الكلام، جاء دور آخر رجل في المجموعة لكي يبرر سبب شربه، لكنه لم ينبس ببنت شفة، وما أن فطن إلى الأعين ترقبه حتى طأطأ رأسه متمنيًا أن تنشق الأرض وتبتلعه، وراح يفكر لعله يجد سببًا واحدًا مقنعًا لإدمانه الخمر كالأسباب التي سمعها من زملائه، محاولًا أن يكون صادقًا مثلما هم صادقون، إذ لم يكن لديه شك في كونهم كذلك، لكن دون جدوى.

في البداية أخذ يفكر في سبب كل منهم على حدة، متسائلًا (هل ينطبق عليه؟)، فلم يجد واحدًا كذلك: يحب زوجته، وحياته مفعمة بالمرح سواء في العمل أو البيت، وليس جبانًا، وليس ثمة في ماضيه ما يقض مضجعه.

بعدها شرع يفكر في أسباب أخرى قد تدعوه إلى الشرب، بلا نتيجة. في النهاية قال لنفسه: «إنني تعودت على الشرب ببساطة، هذا هو السبب. لكن هل هو سبب أم نتيجة؟ إنه نتيجة كما يبدو، والسبب غير واضح. الخلاصة، ليس ثمة سبب محدد يدعوني إلى شرب الخمر، وبالتالي.. فأنا بغل»

ولم يستطع تحمل هذه الفكرة، لذلك قذف بها إلى الآخرين. رفع رأسه باستسلام وقال لهم وعيناه تحتقنان بالدموع:

ـ «أشرب لأنني بغل»

وانفجر بالبكاء، بدأ جسده كله يهتز. أشفقوا عليه، فقال له (شاكر) لكي يخفف عنه:

ـ «لا بأس...»

لكن الرجل سرعان ما قاطعه مضيفًا:

ـ «أشرب لأنني تعودت على الشرب منذ شبابي، كنت أذهب حينها في رحلات طويلة بهدف التجارة، وكنت أخفف عن نفسي بالكأس من وطأة هذه الرحلات، ولم أزل أقطع الوعد تلو الوعد بالإقلاع عن الشرب بمجرد الاستقرار، فلم ألبث أن استقررت بعد أربع سنوات، فقد جمعت مالًا وفيرًا واشتريت مجموعة من الدكاكين فأخذت أبيع فيها القماش والأخشاب والبهار، وازدهرت تجارتي، وما عدت مضطرًا للسفر، فلم يعد من سبب يدفعني لشرب الخمر بعدها، لذلك قررت تركها، ظننت أن الأمر سهل، لكنني عجزت وفشلت فشلًا ذريعًا، أتدرون لماذا؟ العادة.. اكتشفت أنها السبب في شربي. ثمة دائمًا في البداية سبب معين، مقنع، كالأسباب التي ذكرتموها للتو، يجعلنا نتجرع الكأس الأولى من الخمر، لكنه ليس السبب نفسه في ما يليها من كؤوس، ألا إن العادة هي السبب في جلسة الخمر

الثانية، أو الثالثة على أبعد تقدير.. إنها أكثر ما يملأ الحانة بالناس يا إخوتي، لا المشاكل الواقعية، فعسى أن يعفو الله عنا جميعًا!»

وهنا نظر إليهم وسدد سبابته نحوهم، قائلًا بصوت مرتفع:

ـ «أتحداكم أن تتوقفوا عن الشرب بمجرد التغلب على المشاكل التي ذكرتموها! أنتم تشربون لأنكم تعودتم على الشرب كما يتعود الأطفال على اللعب لأن اللعب يسعدهم ويلهيهم. مادامت العادة شيئًا مبهمًا لا نستطيع تحديد معالمه واعتباره سببًا مقنعًا، فلا جرم إذا قلنا بأننا جميعًا نشرب بدون سبب، وبالتالي فإننا جميعا بغال!»

لم ينبسوا بشيء، لا داعي لأن يدفعوا التهمة عنهم فهي كما يبدو عالقة بهم. خيم الصمت، في البداية وقعت هذه الكلمات من نفس (شاكر) موقعًا سيئًا ورهيبًا، لكنه سرعان ما شعر بالطمأنينة وهو يقلبها بعنف ولهفة كما يقلب لص بيت بخيل بحثًا عن المال.

أيعقل أن يكون السيد هو الآخر يشرب بسبب العادة؟ لا يمكن، ولا يجب أن يكون ممكنًا، وإلا فإنه.. بغل.. أوه يا للعنة! كيف يسمح لنفسه بأن ينعت سيده هذا النعت؟ هل نسي بأن قِصة البغل تلك من نسج خياله فقط؟ لا يجب أن يفكر في هذا الاتجاه، لأنه منذر بالشؤم، عليه تحليل الموضوع بطريقة مختلفة.

بعد تفكير عميق، أقنع نفسه بأن أغلب من يشربون الخمر يشربونها بسبب العادة. لكن ثمة فُلْجَان من الناس، فُلُج مقتنع بأنه يشرب بسببها، وفُلُج مقتنع بأنه يشرب لسبب آخر غيرها.

لا بأس، مادام الأمر كذلك، فليس ثمة مشروب واحد مفضل لدى النوع الأول من الناس، فهم يشربون كل ما يهتدون إليه، إذ يبنون هذه العادة باستمرار، وهم مستعدون أن يجربوا كل نوع جديد يقع تحت أيديهم.

عكسهم الذين يشربون لأسباب مقتنعين بها. فعلى سبيل المثال، من تعود أن يشرب لكي ينسى، إنما يشرب خمرًا جربها مرارًا فكان لها عليه هذا المفعول، ولن يحيد عنها لغيرها إلا إذا وجد فيها مفعولًا أفضل، أو مشابهًا على الأقل.

تُرى: هل السيد من النوع الأول أم الثاني؟

لا يعلم، الغريب أنه يجهل النوع الذي ينتمي إليه هو، فما بالك بالسيد، إذن عليه أن يشتري كل الأنواع التي في الحانة ويأخذها إلى السيد ليشرب منها ما يحب.

انتفض من مكانه، شكر الرجال على حسن ضيافتهم، اتجه إلى الساقي، اشترى كافة أنواع الخمور الموجودة في الحانة ورحل. كان في نيته الاكتفاء بهذه القنينات، لكن وهو يهرول باتجاه القصر كما لو عثر على كنز ويخاف أن يسرق منه، عصفت به ذكرى مزعجة، مما جعله يخفف من سرعته شيئًا فشيئًا ثم يتوقف قبل زقاقين من بلوغ القصر، تذكر هذا الكلام الذي قاله له أحد السكارى حين كانا يتحدثان عن أجود الخمور: «بعض أنواع (الماحْيَة) الرخيصة التي تباع في الأحياء الشعبية أفضل من أغلى الخمور الإفرنجية»

فقرر شراء كل أنواع (الماحية) التي تباع في المدينة، كان مدمنًا على شربها ويعرف أبرع رجل يصنعها. قام بوضع الزجاجات التي اشتراها قبل قليل في بيت أخيه القريب من القصر، والذي ترك له مفتاحه قبل سفره منذ أسبوع هو وزوجته. قصد صانع الماحية، كان منزله المحاط بضيعة كبيرة يقع في الضاحية الشرقية للمدينة، كان يعصر الشراب الذي يبيعه مما تنتجه الأشجار التي في ضيعته، ولعل ذلك هو السر كما كان شائعًا بين منافسيه، والذين لم تكن لهم أية علاقة بالفلاحة ولا يفقهون فيها شيئًا، في كون الماحية التي يعصرها أفضل من ماحيتهم.

وجد حارسًا أسود العينين أمام باب المنزل، رفض أن يتركه يدخل، أوامر سيده كانت تقضي بألا يُدخل أحدا في ذلك الوقت المتأخر من الليل. نقده مالًا وأرسله لإخباره بأنه يريد التشاور معه في صفقة كبيرة لبيع (الماحية)، وضع الحارس النقود في جيبه وطار إليه. بعد دقائق عاد وأدخله، كان صانع (الماحية) رجلًا بدينًا وقصيرًا، لم يكن قد التقى (سفيان)، كان منهمكًا في زراعة بعض الخضر التي يؤمن بأن زراعتها ليلًا يجعلها تنبت بشكل أفضل، سلم عليه من بعيد وطلب منه أن يجلس على دكة تبعد بعشرة أمتار تقريبًا عن الفدان الذي يعمل فيه، وسأله في استغراب بمجرد أن جلس:

ـ «ما الذي دهاك حتى تنتف شعرك هكذا؟»

ورد (شاكر) وهو يشعر بالكراهية والاحتقار نحوه، لأنه لم يلتق صاحب الشعر الفيروزي، ولأن سؤاله أغبى سؤال سمعه في حياته:

ـ «إن شعري يخزني ولن يهدأ لي بال حتى أستأصله من جذوره»

الحق أن هذا الخمّار رأى اليوم العديد من الناس -ومنهم بعض أفراد عائلته- ينتفون شعرهم، فلما سألهم أجابوه نفس جواب (شاكر)، فتأكد له مرة أخرى، مثل كثيرين لم يروا (سفيان)، بأن مرضًا ما قد أصاب أهل المدينة، ولعل ذلك هو ما جعله يأمر (شاكر) بالجلوس بعيدًا عنه أول وهلة رآه فيها داخلًا وهو يشد شعره، وسرعان ما سأله حول تفاصيل الصفقة لكي يصرفه عنه.

فقال (شاكر) بأريحية:

ـ «أريد في البداية زجاجة (ماحية) من كل نوع، أذوق طعمها ومن ثم أقرر الكمية التي أشتريها منها»

ـ «ماذا تقصد بعبارة (من كل نوع)؟»

ـ «كل ما تستطيع أن تصنع منه (ماحية)»

ـ «ليكن في علمك أنني أستطيع صناعة (ماحية) من كل شيء، من الفواكه والخضر والحبوب، من كل ما هو قابل للأكل، بل وأستطيع أن أصنع (ماحية) حتى من البشر!»

وسأله (شاكر) مندهشًا:

ـ «أهذا معقول؟»

ـ «بالطبع، ولكن يجمل بي أولًا قتل شخص ما ثم تخميره.. وهذا سيودي بي إلى السجن، لذلك دعنا لا نفكر في أمر كهذا.. أنت تريد أفضل أنواع (الماحية)، أليس كذلك؟ عُدْ إليَّ غدًا بعد الظهر، وستجدني إن شاء الله قد أعددت لك خمس زجاجات هي الأفضل على الإطلاق»

وتألقت أسارير (شاكر)، بَيْدَ أنها سرعان ما أظلمت حين انتبه للموعد الذي ضربه له، فتضرع إليه بصوت يدعو للرثاء:

ـ «لا، أرجوك! أريدها الآن، لأن...»

وقاطعه الرجل في لهجة حادة:

ـ «لا يمكن! قلت لك غدًا. هيا انصرف ولا تعد إلا بعد ظهر الغد، وأحضر معك كيسًا فيه خمسمائة درهم، لأن ما سأبيعك إياه كنز لا يقدر بثمن»

مُكرهًا غادر (شاكر) على الفور، استبد به مزيج من الفرح والحزن. «لا بأس»، قال لنفسه وهو متجه نحو بيت أخيه حيث ترك تلك الزجاجات الإفرنجية، «لأن أعود في الغد فأحصل على مرادي، خير من أن أخاطر بالاكتفاء بالخمر الإفرنجية فيغضب مني سيدي»

ودخل بيت أخيه، اتجه نحو المطبخ الذي كان قد وضع الزجاجات قريبًا منه وشرع بإعداد عشاء لتناوله، راحت عيناه تنظران إلى الزجاجات بلذة مجنونة، أخذ يحاول صرفهما بعيدًا، فإذا بهما تفران إلى الزجاجات كما تفر عينا كلب جائع إلى فريسة خطرة، لم يستطع إعداد الطعام، لذلك حمل

الزجاجات إلى غرفة المعيشة وأقفل عليها. عاد إلى المطبخ، حضر الطعام ثم تناوله، محاولًا ألا يفكر فيها، كان ينجح تارة، ويفشل تارة أخرى، إذ تهجم صورها عليه فيتخيل نفسه يكرعها بجنون، وهكذا يسيل لعابه كالضبع.

ولازال على ذلك الحال حتى ذهب إلى غرفة النوم واضطجع فيها. لم يتوقف عن نتف شعره. في الفراش بحث عن ذكريات عزيزة على قلبه لتمتلئ بها نفسه وينتعش بها قلبه، ولكن الذكريات امتنعت عليه، وبدلها راحت الهواجس تلقي في روعه بأن أحدًا ما دخل إلى المنزل وسرق الزجاجات الثمينة.

وفي نفس اللحظة سمع صوت سقوط شيء في المطبخ، انتصب واقفًا من فراشه كما لو رأى قدم عملاق تحط قرب رأسه، ركض باتجاه المطبخ، أيعقل أن يكون أحدهم قد دخل ليسرق الزجاجات؟ سيكون هذا آخر يوم في عمره.

لم يخطُ إلا خطوتين حتى ارتطم بقط مرقط ألصقه على الحائط من شدة سرعته، فصوَّت التعس عاليًا ثم فر بجلده وهو يظن بأنه تعمد ضربه، «اللعنة عليك أيها القط اللئيم!»، صرخ وراءه. مع ذلك ذرع البيت طولًا وعرضًا، فاتحا كل الغرف ليتأكد من خلوها من اللصوص. بالطبع، بدأ بالغرفة التي خبأ فيها الزجاجات، فتحها بلهفة، شاعرًا بأنه إذا لم يجد فيها الزجاجات فسيموت من الصدمة.

ولما رآها في مكانها، اطمأن باله واستراحت نفسه، بَيْد أنه لم يقفل عليها الباب حتى عاد وفتحه فأخذها معه إلى غرفة النوم وأضجعها بالقرب منه، وكان مثله معها مثل قط جائع ينام بالقرب من فأر مسموم، فلا هو يستطيع أكله ولا هو يستطيع تركه. وأمضى الليل بطوله معذبًا، والنهار أيضًا، وحينما أزف موعده مع الخمّار، خرج إليه، اشترى تلك الزجاجات التي وعده إياها وركض مسرعًا باتجاه القصر.

لكن يبدو أنه وصل متأخرًا، فهو لم يجد السيد هناك، وما إن رآه الخدم حتى انقضوا عليه وزجوا به في السجن مخبرين إياه أن السيد غاضب منه.

الفصل 19

بعودة الأطباء الثلاثة إلى أول شجرة غمست فيها تلك القطط رؤوسها، شعروا بأنهم حققوا المطلوب، بأنهم انتهوا من صنع ذلك الدواء الذي يشفي الناس من أخطر مرض على الإطلاق: الشَّعْر.

واندفعوا يقطفون الفواكه التي مرت عليها، ملأوا كيسًا من نفس التراب الذي مرغت فيه رؤوسها وعشبة القمرية، بعدها انتقلوا إلى الحليب، لابد أن يحصلوا على الحليب من تلك الحيوانات التي رضعت منها القطط، بل لابد أن يحصلوا على هذه الحيوانات نفسها.

أقبلوا على راعي ذلك القطيع، قاموا بتحيته بحرارة كما لو كان فردًا من العائلة، عرف هويتهم في الحال، إنهم أطباء المدينة، لا يخفون على أحد، ولكن لماذا ينتفون شعرهم لعنة الله عليهم!؟ ولماذا أعينهم فيروزية؟ هل يسألهم ليعرف الجواب؟ كلا، وما شأنه بذلك؟ هؤلاء الأوغاد على صلة شخصية بوالي المدينة المجرم وقد يجلب لنفسه المتاعب إذا ضايقهم.

طلبوا منه أن يبيعهم نعجة وعنزة وبقرة، فَرِح، هو في برتات لهذا الغرض أصلًا، فلقد أرسله سيده، مالك القطيع، الساكن بقرية تبعد أربعين كيلومترًا تقريبًا عن المدينة، ليبيع ما أمكنه بيعه من ماشيته وبقره، محددًا له ثمن البيع، متفقًا معه على أن ينفحه بضعة دراهم عن كل صفقة.

لم تكن الحيوانات التي طاردها الأطباء وأمسكوا بها وسألوه عن ثمنها هي الأفضل في القطيع. وهكذا، لم يجبهم في البداية عن سؤالهم، وبدل ذلك غاص في القطيع وأحضر لهم أفضل منها، من منظوره: أسمن، أصغر وأزهى.

لكنهم شكروه وأصروا على أن يشتروا تلك التي يمسكون بها.

ذكر لهم ثمنها، إنه ضعف ثمنها الحقيقي، قبلوا على الفور، ندم على تسرعه، بالطبع كان ينتظر منهم مساومة، أخذًا وردًا، فيبدأ بالتنازل شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الثمن الذي لن يقبل أقل منه، وهو يزيد ببضعة دراهم عن الثمن الذي حدده له سيده، لكنهم لم يساوموه، بل ابتسموا ابتسامة عريضة، واستخرج كل منهم كيسًا من المال وعد له الدراهم التي طلبها في الحيوان الذي يمسك به.

لماذا لم يقل لهم كم تعطونني فيها؟ أو بكم تقدرون ثمنها؟ ندم لأنه لم يفعل ذلك، ظن بأنهم لا يملكون مالًا كثيرًا ما داموا لم يشتروا الحيوانات التي اختارها لهم، هذا من سوء حظه، فلقد كانوا سيعطونه كل الأموال التي في أكياسهم عندئذ، بل كل ثروتهم، لو طلبها ثمنًا لتلك الحيوانات.

شكروه بأدب جم، أمسكوا الحيوانات بلطف، ومضوا يسوقونها وهم ينتفون شعرهم.

لم يصلوا بسرعة إلى مختبرهم رغم أنه لم يكن بعيدًا، تباطؤ الحيوانات في المشي هو الذي أخرهم، بكياسة وصبر كانوا يوجهونها، كل واحد منهم كان يربط الحيوان الذي اشتراه بحبل ويحزمه في يده ويقبض عليه كما لو كان صندوقًا من الذهب، وتارة يمشون أمام الحيوانات وتارة خلفها. وبين الفينة والأخرى كانت الحيوانات تتوقف عن المشي أو تنعطف نحو شيء ما لتأكله أو حيوانات من نفس الفصيلة، فأما إذا أرادت الأكل فإنهم كانوا يسمحون لها بذلك ويصبرون عليها حتى تنتهي فيستأنفون المشي، لكنها إذا أرادت الانضمام إلى حيوانات أخرى فإنهم يطردون هذه الأخيرة بفظاظة وقسوة.

وسرعان ما تباعدت المسافة فيما بينهم، كان أشدهم معاناة هو الطبيب (هشام)، من سوء حظه أنه اشترى البقرة، وكانت أكثر عنادًا وتمردًا من النعجة والعنزة، لكنه أبدى معها صبرًا لم يُبْدِه يومًا حتى مع أقرب الناس

إليه وأعزهم على قلبه، ولم يهدأ له بال حتى دخل بها إلى المختبر.

حلبوا الحيوانات، وانبروا لخلط حليبها مع الفواكه والتراب وعشبة القمرية، ولم تكد تمضي ثوانٍ حتى ألفوا أنفسهم غير قادرين على الصبر والاستمرار في الخلط أكثر، لذلك أخذوا بنهم ولهفة يدلقون الخليط على رؤوسهم، مثل شيوخ يدلقون عليهم مياها سحرية يطمعون فيها أن تعيد إليهم شبابهم، فسقط شعرهم بكمية كبيرة على الفور كالثمار الناضجة، شرعوا يضحكون ويقفزون في أماكنهم كالأطفال الصغار، وطفق الطبيب (هشام) يصيح: «يا إلهي! لقد وجدنا الدواء! لقد وجدنا الدواء! نحن عباقرة! نحن عباقرة!»

وإن هي إلا دقائق حتى أضحوا قرعًا صفر الرؤوس، الحقيقة أن حفنة صغيرة من ذلك الخليط كانت كافية لجعلهم كذلك بعد حكها قليلًا بالشعر ولم تكن بهم حاجة لكل تلك الأصواع. غسلوا رؤوسهم ليروا إلى أي مدى باتت مقفرة، مرروا أيديهم عليها، كم هي ملساء! واندفع كل منهم يسأل الآخرين: «هل فقدت شعري نهائيًا؟»، فينظران إلى رأسه من كل الجهات ثم يجيبانه: «أي نعم»

وهرولوا معًا إلى المرآة للاستمتاع بالنظر إلى رؤوسهم، من حسن الحظ، المرآة كانت كبيرة تسعهم جميعًا، ولو كانت أصغر لا تسع إلا واحدًا لتبادلوا اللكمات على من يستعملها أولًا، ومن كان البادئ فلن يترك مكانه للآخريْن إلا بعد مدة طويلة، بالطبع لن يصبرا عليها.

أخذوا يمررون أيديهم فوق رؤوسهم ويدورون في أماكنهم وأعينهم على المرآة، لم يشبعوا من التحديق إلى رؤوسهم، ولولا تذكرهم بأن من واجبهم أن يوزعوا المرهم في المدينة كما طلب منهم السيد لبقوا أمام المرآة وقتًا طويلًا، لا يزحزحهم شيء.

قفلوا نحو ذلك الخليط وشرعوا يملؤون به القوارير الفارغة المتوفرة بالمختبر، نفد الخليط بامتلاء ثمانية قوارير فقط، فكروا أن يصنعوا المزيد

من هذا الخليط، لكن الطبيب (هشام) اقترح توزيع تلك القوارير أولًا، فوافقوا.

ان المؤذن ينادي لصلاة العشاء حين خرجوا، الظلام مخيم على المدينة، الأزقة ممتلئة بعض الشيء، جَدُّوا في السير نحو الساحة التي أمام المسجد الكبير، إنها مكان يعج بالناس ويكون مضيئًا ليلًا حتى ساعة متأخرة. في الطريق رأوا بعض الكلاب الفيروزية الأعين وهي تحك رؤوسها بالأرض، فعلموا بأنها تتصرف كذلك للتخلص من شعرها. اقتربوا منها. كان (هشام) خبيراً بالكلاب فجعل يصفر لها بطريقة عذبة، جرت نحوهم تبصبص بذيولها، استخرجوا من كل قارورة القليل من الخليط ثم جعلوا يدهنون به شعر رأسها حتى سقط، فارتمت عليهم تداعبهم في عطف ومحبة وعرفان. بعد هنيهة غادروا باتجاه الساحة تاركين إياها خلفهم تلعب في مرح.

على مضض انتظروا حتى بدأت جموع المصلين تخرج من المسجد، ثم اندفعوا يصيحون: «دهان القرع! دهان القرع!....»، رويدًا رويدًا كانت الجموع تتحلق من حولهم. من هؤلاء القرع؟ كان ضوء الفوانيس ينعكس على رؤوسهم كما تنعكس أشعة الشمس على دروع من ذهب.

سألهم واحد من الجمع: «كم ثمنها؟»

عضوا على أيديهم لأنهم نسوا أن يقولوا بأنها مجانًا، ثم صاح (عبد القادر): «إنها مجانًا، دهان القرع مجانًا! دهان القرع مجانًا!»

فتهالك الناس على القوارير وتلقفوها.

انتابهم الضيق لأن نصف القوارير أخذها أربعة رجال أعينهم غير فيروزية، لكن سرعان ما صفت نفوسهم إذ تذكروا بأن السيد أمرهم أن يوزعوا الدهان في المدينة بالمجان دون أن يشترط عليهم بأن يوزعوه على من لهم أعين فيروزية فقط.

وما لبثوا أن ذهبوا إلى دكاكين الخضر، ليشتروا منها الفواكه التي يحتاجون إليها لصناعة المزيد من ذلك الدهان، خائفين بألا تأتي بنتيجة، وبألا يكون لها نفس مفعول الفواكه التي قطفوها من الأشجار التي غمست فيها تلك القطط رؤوسها.

في هذا الوقت فتح الرجال الأربعة الذين لهم أعين فيروزية تلك القوارير وانبروا يدهنون بها رؤوسهم، وسرعان ما حذا حذوهم رجل من ذوي الأعين غير الفيروزية، وكانت عيناه خضراوين، فتح قارورته وراح يدهنها برأسه، كان اسمه (مرزوق)، كان شابًا طويلًا وسيمًا، أبيض الوجه، أسود الشعر، ويرتدي ملابس بهية. كان معروفًا بطيشه ورعونته واندفاعه الأعمى وراء إثبات نفسه، لم ينتظر حتى يبصر النتيجة على رؤوس الرجال الأربعة الذين شرعوا أولا باستعمال الخليط الذي ظن بأنه يرطب الشعر، كان يملك شعرًا جميلًا، وما اندفع للحصول على تلك القارورة إلا ليثبت شجاعته ونباهته أمام الآخرين، كدأبه.

استغرب من سماكة الدهان ورائحته الغريبة حين فتح القارورة، وبسرعة جعل يدهن رأسه، المهم أن يكون السّبّاق، أن يكون مع الأوائل، لو لم يخطف قارورة من تلك القوارير لما نام بهناء هذه الليلة، يعرف ذلك، الأشياء المجانية التي يحصل عليها غيره ولا يحصل هو عليها تصيبه بضيق التنفس، وليلًا تزعج نومه، عندما يعود إلى بيته سيجد ما يحكيه لزوجته، سيتشدق أمامها بقوته التي مكنته من الحصول على قارورة وسط العشرات من المتدافعين، لا شك أنها ستفرح كثيرًا، لا سيما إذا أعطى الدهان مفعولًا جيدًا، فتجربه على شعرها الخشن.

وهو سارح في بيداء هذه الأفكار، لفت انتباهه الرجال الأربعة وهم يصيحون ويهللون ويرقصون، كانوا يبعدون عنه بأمتار، كانوا جميعًا قد ابتعدوا بخطوات عن الساحة، خوفًا من أن يفكر أحدهم بسرقة قواريرهم

الثمينة، الضوء كان خافتا من حولهم، اقترب منهم أكثر ليعرف سبب فرحهم، من يدري؟ فقد يفوته شيء ما، وهذا لا يجب أن يحدث أبدًا.

يا للمصيبة! لقد صاروا قرعًا! في هذه اللحظة نظر إلى يديه اللتين كان يحك بهما الخليط برأسه، فألفاهما ممتلئتين بالشعر. بدأ يصرخ بصوت مرتفع ويضرب على رأسه بيديه: «يا ويلتاه! يا ويلتاه! شعري! شعري!....»

لفت انتباه الرجال الأربعة القرع فاقتربوا منه، استغربوا صياحه وحزنه، وقال له أحدهم في محاولة لمواساته رغم احتقاره له لأنه أخضر العينين: «هون عليك، هذه نعمة من الله، لقد تخلصت من المصيبة التي كانت فوق رأسك، جدير بك أن تفرح»، وحدجه (مرزوق) بعينين دامعتين وهو لا يكاد يفهم شيئًا من كلامه ثم هتف به: «ماذا!؟ ما الذي تقوله!؟ أي نعمة!؟»، وأجابه: «نعمة القرع، انظر إلى رؤوسنا، إنها أخف وألمع، أليست رائعة؟»، وأمّن على كلامه أقرع آخر من المجموعة قائلًا بحماس: «بلى، إنها رائعة جدًا، وستكون أروع عندما ينبت فوقها شعر فيروزي»

صرخ فيهم جميعًا: «أنتم مجانين! أنتم مجانين!»، ثم فر مبتعدًا. فلحقوا به شاعرين بالإهانة لنعتهم بالمجانين، أمسكوه، التفتوا من حولهم، لا أحد في الجوار.

ـ «نحن مجانين، أيها الجاحد!؟»

صرخوا في وجهه، ثم نزلوا عليه ركلًا وصفعًا، فلم يمسكوا عن ضربه حتى أدموه.

غادروا إلى بيوتهم عقبها، شأنهم شأن كل من تأثر بسحر (سفيان) ولم يكلفه بمهمة معينة، ذهبوا إلى منازلهم في الوقت المعتاد، علاقتهم بأزواجهم وأقاربهم الذين لم يروا (سفيان) تدهورت إلى حد كبير. أحدهم حين دلف الليلة إلى منزله ألفى فيه الكثير من الناس، إخوته والجيران ونفر

من العائلة، جميعهم لم يلتقوا (سفيان) بعد، كان سعيدًا بفقده شعره ويبتسم ابتسامة عريضة، لم يعرفوه عندما دخل عليهم. ـ «ما الذي يحدث هنا؟»، سأل زوجته.

ظلت تتفرس فيه لدقائق محاولة التعرف عليه، فإذا بها تلطم وجهها بيديها لما اكتشفت هويته، وأخذت تسأله: «ماذا جرى لشعرك؟»، وانضم إليها الجميع يسألونه هذا السؤال، فأحس بقمة الكراهية نحوهم، وأيقن أنه إذا لم يتركهم فسينقض عليهم واحدًا واحدًا ويقتلهم.

وهكذا صرخ فيهم: «لعنة الله عليكم أيها المتعجرفون!»، ثم ركض خارجًا، بَيْد أن زوجته لحقت به غير مبالية بما قاله، أمسكته من جلبابه قبل أن يبتعد بخطوات عن المنزل، فقالت له بأسى: «ماتت أمك»

ظنت بأنه سيصوت عاليًا ويذرف الدموع ويتمرغ أرضًا حزنًا عليها، لأنه كان يحبها كثيرًا وظل يعتني بها طوال السنوات الست الماضية التي كانت خلالها طريحة الفراش في بيته، لكنه بدل ذلك زفر متضايقًا من إيقافه ثم غمغم: «عسى الله أن يغفر لها! دعيني وشأني»، تملص منها وركض مبتعدًا.

لن تفهم زوجته ردة فعله هذه حتى تلتقي بـ(سفيان).

الرجال الثلاثة الآخرون الذين لهم أعين فيروزية وأصبحوا قرعًا مثله بواسطة تلك القوارير بدورهم تلقوا الاستنكار والاستهجان من طرف أسرهم عندما دخلوا عليهم البيت برؤوس صفراء. وهم أيضا فروا منهم لإحساسهم بكراهية مدمرة تجاههم، فناموا في العراء بفرح.

ونام بفرح أيضًا الرجال الثلاثة من حزب الأعين غير الفيروزية الذين حصلوا على نفس القوارير، حامدين الله لأنهم لم يدهنوا رؤوسهم بما فيها كما فعل (مرزوق)، فلقد ألقوا بالقوارير في اللحظة التي رأوا مفعولها المدمر على الرجال الأربعة الذين جربوها، والحق أنهم كانوا ينوون تجربتها إذا كان

مفعولها إيجابيًا، حتى إذا ظهر العكس تخلصوا منها، لكنهم سيندمون في الغد بعد رؤية (سفيان) على ذلك شر ندم.

أما (مرزوق) فلقد أخذ عهدًا على نفسه بألا يدخل بيته إلا وقد استرد شعره، فانهمك في البحث عن الأطباء الذين باعوه ذلك السم الزعاف، ناويًا الانتقام منهم إذا لم يعطوه دواء يعيد له شعره، ادّلج في المدينة، شرّق وغرّب فيها، لكنه لم يعثر عليهم. وفي اللحظة التي بزغ فيها الفجر، لم يقوَ على المشي أكثر، فتمدد أسفل الجدار الخارجي للمضمار، ثم ذهب في نوم مليء بالكوابيس والرعب.

وعلى الساعة التاسعة صباحًا استيقظ على صوت ضجيج صاخب، فإذا جمهور من الناس يتدافعون على بوابة المضمار كما لو كانوا يتسابقون لرؤية شيء ما، ينبغي أن يكون في المقدمة، هذا أول شيء بَدَرَ إلى ذهنه لما رآهم، نهض بعينين حمراوين، وما أن تقدم خطوة حتى تذكر حادثة البارحة، لولا تسرعه لما فقد شعره، ووضع يده على رأسه بعجالة ليتأكد مما إذا كانت الحادثة المطبوعة بذاكرته حقيقة أم مجرد حلم مر به في منامه، هيهات، إن رأسه ملساء كصخر الواد. لا يجب أن يتسرع مرة أخرى، لكن هذا لا يمنع من أن يلقي نظرة ليعرف سبب تدافع هؤلاء الناس، واندس بينهم، فإذا به يرى أعداءه اللدودين بساحة المضمار: الأطباء الثلاثة. كانوا يضعون على عربة خليطًا ضخم الحجم أشبه بالطين ويملؤون منه ملعقة، ثم يفرغونها في أكف الناس المتهافتين عليهم تهافت الأبقار الجائعة على العلف، ولفت انتباهه على حين غرة رجل كان يتقدمهم يبدو أن عشرات الناس التفوا حوله قبل قليل فحجبوه عنه، رجل هو أشبه بلؤلؤة، شعره ساحر ينبعث منه ضوء فيروزي، ببهجة ركض باتجاهه وطلب منه أن يشعره، فكان له ما أراده، وفي هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالذات، حمد الله على قرعه وما عاد يريد أن يستعيد شعره البتة.

الفصل 20

البارحة بعد انصراف الحراس الذين كلفهم بإحضار نساء جميلات، اضطجع (سفيان) في سرير (إزم) الوثير، وغط في نوم عميق، لم يستيقظ حتى منتصف الليل، فتح باب الغرفة ناويًا النزول فألفى (مسعود) أمامه، حياه ثم هبط السلالم، وهذا الأخير خلفه كالكلب الأمين. وجد المائدة منصوبة في الحديقة يحيط بها الخدم، كانت الفوانيس في كل مكان بالحديقة تقريبًا، جلس يتناول الطعام، ولم يزل يأكل ويشرب ما لذ له وطاب حتى انتبه لعدم وجود الخمر التي طلب، استفسر عنها (مسعود) فأخبره أن الخادم الذي كلفوه بإحضارها لم يأت بها بعد، أكمل أكله والغضب بادٍ عليه، فجأة تذكر الحسناوات، استفسر (مسعود) عنهن فقال له أن الرجال الذين ذهبوا في طلبهن هم أيضًا لم يرجعوا بعد.

في لمح البصر هبط عليه خاطر مرعب: «ماذا لو كان تأثير قَصَّته على هؤلاء الذين ذهبوا ولم يعودوا بعد قد انتهى وبذلك فهم يدبرون له مكيدة لقتله؟»

ونظر إلى المائدة التي كان ما يزال بها طبق لم يتناول منه شيئًا، وفكر أنهم لو حرموه من تناوله فسيموت من الغم، لذلك التهمه بعجالة ثم قام من مكانه وقال لـ(مسعود): «هيا، هلم معي»

لابد أن يتأكد من أن الناس الذين رأوه ما يزالون تحت سطوته، بل لابد أن يسيطر على كل الناس في المدينة، فسأل (مسعود):

ـ «كيف نعرف من يحبني ممن يكرهني؟»

ورد (مسعود) بنبرة دسمة:

ـ «إن من يراك لا يسعه إلا أن يحبك»

ـ «أتدري؟ على المدينة كلها أن تراني.. سنمر بالبيوت والأماكن التي يملؤها الناس، ونوصي حراس أبواب المدينة ألا يسمحوا لأحد بالدخول منها قبل المثول بين يدي.. هل فهمت؟»

ـ «أجل يا سيدي.. أجل»

ـ «وأحضر لنا صباغة لنضع علامة على كل باب نطرقه وذلك لكيلا نطرقه مرة أخرى»

حاملين قناديل في أيديهم، خرج (سفيان) مع كافة الخدم والجنود بالقصر، ماعدا أربعة كلفهم بالقبض على أولئك الرجال الذين أرسلهم لإحضار نساء جميلات والخادم الذي ذهب لإحضار الخمر، ناهيك عن كل من يطرق باب القصر، كلفهم بالقبض عليهم وسجنهم فيه حتى يعود.

محاطًا بذلك الجمع اتجه (سفيان) نحو قصر يقع عن يمين قصر (إزم)، طرقه، فتح له الحارس، شعّره، دخل مع الجمع، كان أهله نائمين، أيقظهم، شعرهم هم والحيوانات التي في القصر، دلف إلى المطبخ، أعجبه منظر الطعام فيه ورائحته، حزن لأنه لم يعد في بطنه مكان لأي طعام إضافي، بَيْد أنه قرر أن يأكل هذا الطعام بمجرد أن تهضم معدته ما حشاه بها قبل قليل، لذلك طلب من أهل البيت أن يحملوه ويلحقوا به، ففعلوا شاعرين بقمة البهجة.

حث الخطو نحو منازل أخرى بعد أن وضع (مسعود) علامة على باب هذا القصر وأقفله هو وكافة أبواب الغرف الموجودة فيه، تاركًا المفاتيح في الأقفال. طفق (سفيان) يدخل المنازل واحدًا واحدًا، يمسح برأسه على رؤوس من بداخلها من بشر وحيوانات ويطلب من أصحابها حمل كل

الطعام والشراب والقناديل والشموع التي فيها ثم مرافقته، فيغادر بعد أن يضع (مسعود) علامة على أبوابها الخارجية ويقفل أبوابها ويترك مفاتيحها على أقفالها. ولازال على ذلك الحال حتى صار يمشي خلفه مئات الناس، حاملين شتى أصناف الطعام والشراب والقناديل والشموع، ولقد مر خلال ذلك على قصر الوالي ومنزل محبوبة الأقرع العاشق.

الفصل 21

لم يكن ذلك التاجر الذي سأله الوالي عن الدافع وراء تصدق الناس على غيرهم، فنصحه بتقطيع ثيابه وتعفير إهابه بالتراب، الشخص الوحيد الذي سأله هذا السؤال، بل سأل بعده كثيرين، أعينهم ليست فيروزية. قلة من أجابوه، وذلك لأن أحدًا لم يعرف بأنه الوالي بسبب ثيابه الممزقة وشكله الذي يرثى له، وتلقى الدفع والاستهجان والصفع والشتم من البعض، لإلحاحه وإصراره على الحصول على جواب.

وكبر عليه ذلك حتى ضاقت به السبل، فسقط بزاوية أحد المنازل منهك القوى، وقد مضى على خروجه من دكان التاجر ثلاث ساعات، وسمع بطنه تنق فقال لها متوعدًا: «نقنقي أو لا تنقنقي، والله لن تطعمي شيئًا إلا بعد أن أنجح في تأدية مهمتي حتى لو قتلتك جوعًا!»

وفجأة مر من أمامه متسول طاعن في السن عيناه سوداوان يصيح بصوت أجش: «أحسنوا لهذا الشيخ الفقير!»، طرق باب المنزل الذي يرقد قبالته، فتحه أهله، استمهلوه، وبعد برهة تصدقوا عليه بشيء من الطعام، فغادر مكملًا طريقه، مرددًا أنه فقير ومريض. شعر الوالي نحوه ببغض لا حدود له، وعن له أن يلحق به ويضربه، لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه، خوفًا من أن يكون له أهل بالجوار فيهاجموه ويصيبوه بمكروه يحول بينه وبين التسول.

ولم يبارح مكانه، بل لبث يفكر في حل لمعضلته، لابد أن يجد طريقة تجعل أكبر قدر من الناس يرأفون به ويتصدقون عليه، ولم يزل يقلب الموضوع من كل الجهات، فإذا بمتسول آخر يقبل من شمال الطريق، لكنه مختلف

عن سابقه، فهو شاب، ويمشي أعرجًا، هو الآخر شرع يئن راجيًا أن يتصدق الناس عليه، فنال مراده.

وفي ذات اللحظة نزلت على الوالي هذه الفكرة التي أحدثت في نفسه صعقة مدوية كصعقة البرق، تزعزع بدنه كله على إثرها، إن سبب فشله حتى الآن في تأدية المهمة التي كلفه بها صاحب الشعر الفيروزي هم هؤلاء المتسولون الذين يملؤون المدينة، وإذا أراد تجاوز فشله وإرضاء سيده فلابد أن يتخلص منهم، ما عدا بالطبع من كانت أعينهم فيروزية، وهو لن يجد صعوبة في التعرف عليهم.

وانتصب من مكانه وقد تراءت له مع هذه الفكرة الطريقة الأمثل التي يطبقها بها فاتجه نحو قصره ليحضر منه إحدى عرباته كي يحمل فيها جميع المتسولين الذين ليست أعينهم فيروزية ويسجنهم، كان يشعر بمزيج من الفرح والحزن، فأما الفرح فمصدره هذه الفكرة، وأما الحزن فمصدره أنه مضطر لدخول منزله ورؤية أهله، وبالطبع سينعتونه بالوالي، وهو لقب يمقت أن يسمع أي أحد يتفوه به.

وكما توقع، فلقد وقف له حارس القصر بالمرصاد على الباب يسأله عن هويته، فثيابه الممزقة ووجهه المغبر حالا دون تعرفه عليه، وهكذا صاح فيه على كره منه: «أنظر إلي جيدا أيها الحقير ودعني أدخل لا أم لك!»، فأفسح له الطريق وهو يعتذر منه والدهشة تكاد تصعقه.

وكانت زوجته تسقي إحدى الأشجار عندما خطى بالداخل، حدقت فيه، لم تعرفه، وفي غضب أقبلت عليه وبادرته بتجبر:

ـ «قف عندك! من أنت بحق الشيطان!؟ وكيف تدخل منزل الوالي بهذه الحالة الرثة!؟»

فإذا كـان بينها وبينه خطوتان عرفته فصاحت وهي تضع يدها علـى شفتها

العليا:

- «يا للجحيم! من فعل بك هذا!؟»

لم تلتقِ (سفيان)، وبالتالي فهي دون مستواه وغير جديرة به، لذلك لم يقف عندما طلبت منه ذلك، ولم يجبها عن سؤالها، بل لم ينظر إليها حتى، مما أغضبها وأصابها بالحنق، فأمسكته من قميصه بقوة وصاحت به:

- «لماذا لا تجيبني!؟»

اغتاظ منها فرفع يده إلى السماء وصفعها بقوة حتى سقطت فاقدة وعيها. أكمل طريقه وهو يدمدم:

- «يا للحقيرة المتجبرة! لم يبقَ إلا أن توقفيني عن أداء واجبي! ألا سحقًا وبُعدًا لك!»

لاحت إحدى عربات السجن بباحة القصر، اتجه نحوها، ربطها بالأحصنة الأربعة التي تجرها، ركب في مكان الحوذي ثم ساط الأحصنة، ولما بلغ الباب الخارجي قال له ذلك الحارس الذي أوقفه قبل قليل، مغتبطًا أشد الغبطة لما ضرب زوجته التي يكرهها هو وأغلب الخدم والحراس بالقصر أكثر مما يكرهونه: «سيدي، هل تحتاج لأية مساعدة؟»

في الوهلة الأولى لم يجبه، لكنه ما أن اجتاز البوابة ببضعة أمتار حتى راح يفكر في عرضه ثم قرر الاستعانة به رغم أن لون عينيه أزرق، أولًا كسبًا للوقت، وثانيًا لأن رأسه كانت صلعاء في الوسط ووجد نفسه معجبًا بها. أوقف العربة وناداه طالبًا منه الصعود إلى جانبه، هرول إليه شاعرًا بالفرحة والدهشة لأنها المرة الأولى التي يسمح فيها الوالي لخادم بالجلوس قربه على عربة.

وانطلقت العربة في صمت تخترق الشوارع والأزقة في ذلك الحي الراقي الذي يقطن فيه أثرياء المدينة، لم يَلُحْ ولو متسول واحد، في البداية

استغرب الوالي ذلك، لكن استغرابه سرعان ما زال عندما تذكر بأنه منذ أول يوم سكن فيه بهذا الحي أمر الحراس بجلد كل متسول تطؤ قدماه فيه، فشعر بالندم لذلك، ناهيك عن الاحتقار تجاه نفسه.

ولكي يجعل الحارس يساعده قال له:

ـ «إذا رأيت متسولًا فأعلمني»

فرد متحمسًا: «السمع والطاعة يا سيدي الوالي»

فصرخ فيه:

ـ «لا تنعتني مرة أخرى بالوالي وإلا جلدتك!»

فارتعدت فرائص الخادم خوفًا، فقال نادمًا على ما فاه به، مستغربًا من ردة فعل سيده:

ـ «سامحني يا سيدي، سامحني أرجوك!»

كان يعرف بأن الوالي عندما يخرج عادة بهذه العربة، إنما يخرج ليملأها بالسجناء، ثم يأتي بمعظمهم إلى سجن قصره لينظر في أمرهم، فإما إطلاق سراح أو إرسال إلى سجن المدينة، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يقود فيها العربة بنفسه، الجنود هم الذين يفعلون ذلك عادة، أيقن بأن خطبًا ما قد وقع فحال دون تمكنهم من مرافقته، فخطر له أن يقتنص هذه الفرصة ويظهر له مهاراته عساه يرقيه من حارس عادي إلى جندي، كانت هذه الأمنية هي أمنية عمره. وهكذا، منذ ركوبه إلى جانبه قرر ألا يشغل باله بتفسير تغير لون عينيه وقيامه بنتف شعره والتركيز فقط على تنفيذ أوامره لعله ينال مراده.

وجاوزا ذلك الحي إلى حي تنتشر فيه مساكن الطبقة المتوسطة، لم يقطعا إلا شارعًا واحدًا حتى لاحت لهما امرأة ترتدي ثيابًا بالية وتستعطي بكلام يكسر الحجارة، مشتكية ضيق عيشها ومرض أطفالها وفراغ معدتها، فتوقف

الوالي بالعربة وأمر الخادم أن يحضرها طوعًا أو كرهًا، ذهب إليها وأوقفها، كانت عيناها بنيتين، ما أن ذكر لها اسم الوالي حتى ارتجفت وكادت تموت من الهلع، رافقته دون أدنى مقاومة فأودعها العربة ثم أقفل عليها الباب.

وضربا في المدينة طولًا وعرضًا حتى امتلأت العربة بأكثر من أربعين متسولًا جلهم لم يروا (سفيان)، كان الخادم الذي يرافق الوالي ينفذ أوامره بحذافيرها، يدخل المطاعم والحوانيت والأسواق وينتشل منها المتسولين ويزجهم في العربة بهمة ونشاط، ولم يسأل الوالي عن سبب القبض على المتسولين وإن كان يشعر بفضول حارق لمعرفة ذلك وكان مستعدًا أن يتلقى مائة جلدة مقابله، شريطة بالطبع ألا يفقد رتبته الجديدة كجندي، والتي بات متأكدًا بأنه على مرمى حجر منها وبأنه سيحوزها لا محالة بعد إتمام هذه المهمة بنجاح.

وكان يحس بلذة لا حدود لها وهو يزج بكل أولئك المتسولين في العربة، وكم تمنى من كل قلبه أن يعدمهم الوالي، فلقد كان يكره شريحتهم أكثر مما يكره أية شريحة أخرى في المجتمع، نظرًا لاتكالهم على الآخرين وعدم اعتمادهم على أنفسهم في كسب قوتهم اليومي، ناهيك أنهم أبخل خلق الله، ومن حسن حظه أنه أبقى فاه مقفلًا ولم يعبر عن رأيه هذا لسيده وإلا لأورده موارد الهلاك.

وببلوغهما القصر، أخذا المتسولين نحو السجن الذي في قبو القصر فأدخلاهم الواحد تلو الآخر في زنزانة واحدة بالكاد اتسعت لهم، كان منظر المتسولين وهم يتدافعون بداخل هذه الزنزانة وبعضهم يطأ بعضًا، على اختلاف أعمارهم وأجناسهم وعاهاتهم، مضحكًا. وقال شيخ منهم للوالي -عارفًا إياه رغم ثيابه الرثة- وهو يرى أربع زنزانات فارغة بالقرب من الزنزانة الضيقة التي رماهم فيها:

ـ «ألا تقسّمنا يا سيدي الوالي على هذه الزنزانات، فنحن متزاحمون هنا؟»

لكنه هتف به:

ـ «أنا لست واليًا، قُطع لسانك!»

وصمت لبرهة والاستغراب يعلو وجوه جميع من في الزنزانة ثم أضاف:

ـ «لا يمكنكم النزول في هذه الزنزانات، لأن المزيد من المحتالين القذرين أمثالكم سيكبكبون فيها.. فإياكم أن أسمع صوتكم وإلا مزقتكم إربًا إربًا»

تراجعوا إلى الوراء من شدة خوفهم من هذا التهديد، يختبئ بعضهم خلف بعض. خرج الوالي والحارس، ركبا العربة واتجها نحو الأحياء التي لم يمرا منها يكملان بحثهما عن المزيد من المتسولين.

وكان الليل قد أرخى سدوله على المدينة قبل نصف ساعة، وأدخل ذلك إلى قلب الوالي الحزن واليأس لعلمه أن المتسولين سرعان ما يؤوبون إلى منازلهم ليلًا، مما سيضطره إلى الانتظار حتى الغد صباحًا لاستئناف البحث عنهم، لكن لم تمضِ ثوانٍ حتى برقت في ذهنه فكرة جرفت هذا الحزن وأنبتت مكانه إحساسًا بالفرح والحماسة، فكر: «لماذا لا أنتشل المتسولين من بيوتهم كما انتشلتهم من الشوارع؟ إنني لن أجد صعوبة في العثور على منازلهم»

ومن فوره أمر الحارس أن يبدأ بالتحري عن بيوت المتسولين في المدينة، كذلك فعل، ما أن يرى الناس زيه الذي يشير إلى أنه حارس الوالي حتى يجيبوه إلى ما يريده بكل عجلة، وكان المتسولون المساكين يفاجؤون به عندما يفتحون أبواب منازلهم منتصبًا أمامهم كشبح الموت، فيعرفهم عن نفسه ويأمرهم بمرافقته هم وكافة من معهم بالبيت إلى العربة، فلا يجدون مناصًا من الانصياع له، وخلال ذلك كان الوالي يراقب كل واحد يأتي به، مخافة أن يأتي بشخص فيروزي العينين، والحق أنه جاء بثلاثة متسولين كذلك، جيرانهم وشوا بهم للحارس، وعندما طرق هذا الأخير أبوابهم

وسألهم أنكروا أنهم متسولون، مؤكدين له بأنهم لم يعودوا كذلك منذ أن أمرهم سيدهم بترك التسول، والحق أن (سفيان) كان كلما شعّر متسولًا أمره هذا الأمر، فجرجرهم الحارس رغم ذلك، بَيْدَ أن الوالي لم يلبث أن أطلق سراحهم معتذرًا منهم.

أوحى هؤلاء الثلاثة بفكرة خطيرة للوالي: إذا كان كل المتسولين في المدينة سيرون سيده عاجلًا أم آجلًا، فمن الحكمة التخلص منهم سريعًا، إذ حينما تصير أعينهم فيروزية، لن يكون من حقه مسهم بأذى، وبالتالي سوف يتسولون بحرية كما يشاؤون وقتئذ، وينافسونه، ويتسببون في فشله في تأدية المهمة التي كلفه بها سيده.. ولكن ماذا لو تخلص منهم وغضب منه سيده؟

ولم يزل يقلب هذه الفكرة كما تقلب الضباع جيفة، فحزم أمره في النهاية بالرمي بهم في السجن حتى يقضي فيهم فيما بعد. مر على أغلب منازل المتسولين بالمدينة وقبض على ذوي الأعين غير الفيروزية منهم وأودعهم السجن، كان عددهم يربو على الثمانين، وفي السجن سألهم واحدًا واحدًا عن أفضل وسيلة يستعطون بها، فما أن انتهى من ذلك حتى راح يفكر في أجوبتهم، محاولًا تحديد أحسن وسيلة للتسول، أيحصل على رضيع؟ للأسف أن ابنتيه تجاوزتا مرحلة الرضاعة. على أية حال، لن يجد صعوبة في انتزاع رضيع من الرعاع، بالطبع يقصد بهم أولئك الذين لم يروا (سفيان)، ولكن مهلًا، أليس من الأفضل أن يقطع أحد أطرافه أو معظمها أو يفقأ عينيه أو يدعي بأنه مصاب بالجدري؟

فجأة خطر له أن يستعين بالحارس، كان لا يبعد عنه إلا بخطوات، سأله:

ـ «قل لي أيها الخادم الأمين، إذا كنت أمام ثلاثة متسولين، الأول دون يدين، والثاني أعمى، والثالث دون رجلين، من منهم تشفق عليه أكثر فتتصدق عليه؟»

فرد بشكل لاشعوري:

ـ «والله لا أتصدق على أي منهم ولو اجتمعت فيه كل هذه العلل، هذا لأنني لا أثق بالمتسولين وأظن بأنهم مجرد لصوص من الدرجة الثانية.. اللعنة عليهم!»

ونهره الوالي:

ـ «لا أم لك! لماذا تشتمهم!؟ لو عدت إلى شتمهم مرة أخرى فسأقطع لسانك! ألا تشعر بالشفقة عليهم!؟ ولماذا تتهمهم جميعًا بالكذب والتمثيل!؟ ألا تعرف أن منهم المحتاج الذي يستحق الصدقة فعلًا لأنه لا يقوى على العمل؟»

ـ «بلى يا سيدي»

ـ «إذن فأجبني عن سؤالي وإلا قطعت رأسك»

ارتعدت فرائصه ولم يعرف كيف يرد عليه، لقد ظن بأن سيده يَجِسُّ قساوته ورباطة جأشه، كعادته مع جميع حرسه وخدمه، فلماذا كل هذا الغضب لأنه شتم المتسولين!؟

وأجابه بعجالة بعد أن قرأ لهفة جشعة ترتسم في عينيه:

ـ «أتصدق على الرجل مقطوع الرجلين»

وأشرق وجه الوالي ببريق من الفرح والبهجة، حتى استغرب الخادم من أمره وأخذ يفكر فيما نطق به لعله يجد فيه ما يفسر هذه الفرحة، ولم يزل كذلك، حتى بدر منه ما هو أغرب، إذ مد رجليه وأمره:

ـ «هيا اقطعهما!»

لم يصدق أذنيه وتبادر إليه أنه لم يسمعه جيدًا لذلك سأله:

ـ «ماذا قلت يا سيدي؟»

فصرخ فيه الوالي بشراسة:

ـ «هل أنت أصم أيها الوغد!؟ لقد قلت لك اقطع رجلي!»

ـ «ولكن...»

ـ «إذا لم تمتشق سيفك وتقطع رجليّ فسأضرب عنقك!»

وتجمد في مكانه لا يعلم كيف يتصرف فإذا بهذا الأخير يزأر:

ـ «هيا! نفذ ما أمرتك به!»

وكان ذلك كافيًا ليوقظه من جموده، ويحثه على طاعته، فاستل سيفه وهم أن يضربه به إلى حيث يشير، لكنه قبل أن يفعل ذلك، رأى (سفيان) يجتاز عتبة السجن، فرمى السيف أرضًا وركض نحوه، ولم يكد (سفيان) يشعره حتى انتبه للسجناء، إنهم متسولون، ماذا يفعلون في السجن؟ فإذا بالوالي يقترب منه ويحييه. فسأله باستنكار:

ـ «من وضع هؤلاء في السجن!؟»

لما لمس الغضب في نبرة صوته أجابه مرتعدًا:

ـ «أنا يا سيدي»

فانقض عليه وصفعه بقوة، فانفجر باكيًا واعتذر منه مرددًا:

ـ «سامحني يا سيدي، أرجوك! سامحني!»

وخطر لـ(سفيان) أن يأمر بقتله، لكنه فضل أن يعذبه أولًا، لذلك طلب من بعض الجنود أخذه إلى المضمار وتقييده هناك، فساقه هؤلاء وهو ينشج كالأطفال وربطوه في إحدى زرائب المضمار ثم أقفلوا عليه.

وقام (سفيان) بتحرير المتسولين وتشعيرهم، وسرعان ما انضمت إليهم زوجة الوالي وابنتاه وكل الخدم، وعقب ذلك خرج من القصر جمع غفير حاملًا ألوانًا مختلفة من الطعام والشراب.

الفصل 22

لما رأى منظر تلك القطط وقد استطاعت أن تصير قرعاء، وأيقن بأن الأطباء سيحذون حذوها ليصيروا كذلك، ومما لاشك فيه أن يستغلوا الوصفة لبيعها إلى الناس، أحس الأقرع العاشق (قيس) بالخطر الداهم وبآلام مفجعة في قلبه وسائر بدنه، وهكذا راح يعدو أنْفَ الشّد والعدْو باتجاه بيت مالكة مفاتيح سعادته. تمنى من أعماق قلبه أن تكون قد رأت السيد، وإلا فهي ما تزال تبغض رأسه، ما لم يَدُرْ بخلده هو أنها لو لم ترَ (سفيان) لتوقف هو نفسه عن حبها.

ما أن طرق باب منزلها حتى فتحته وهي تمسك شعرها بقوة وتنتفه متمنية لو باستطاعتها اقتلاعه، كانت قد التقت (سفيان) هي وبقية أفراد أسرتها في السوق. كانت فتاة حسناء في التاسعة عشر من العمر، فارعة القد، بيضاء الوجه، دقيقة الملامح، فيروزية العينين، ترتدي فستانًا بنيًا، اسمها (دليلة). حينما أبصرته تأكدت بأنها أمام الفارس المغوار الذي ما فتئت تحلم به طوال حياتها وتنتظره على مضض، فابتسمت بفرح، هي التي كانت آنفًا ما أن تراه حتى تشيح بوجهها عنه، بل وفي بعض الأحيان تبصق أرضًا إشارة منها على أنها تحتقره وتشمئز منه، إذا كانت فيما مضى تشترط في فارسها أن يكون وسيمًا رطب الشعر غنيًا باسلًا رومنسيًا، وهي الأوصاف التي لم تجدها بعد مجتمعة فيمن تقدموا لطلب يدها حتئذ، وما أكثرهم! فهي الآن لا تشترط فيه إلا شرطين: أن تكون له رأس خالية من الشعر وعينان فيروزيتان، وها هو ذا أمامها، ها هو بشحمه ولحمه، ها هو برأسه القرعاء الجميلة وعينيه اللامعتين بالفيروز، فما أسعدها به!

عالمًا بأن (دليلة) وقعت في دباديبه، خُيِّل إلى (قيس) بأن جناحين قد نبتا له ويحلق بهما في الفردوس فيتأمل أجمل المناظر ويشم أطيب الروائح ويسمع أروع الأنغام. لكن، ويا للخيبة! لفت انتباهه شعر رأسها فاجتاحه إحساس عارم بالقرف وأظلمت نفسه كالليل المدلهم، فما عاد يرى نفسه طائرًا سماويًا يجوب الفردوس، بل غرابًا يقف أمام بومة بشعة، وفر مبتعدًا عنها وهو لا يكاد يصدق السرعة التي تغيرت بها مشاعره نحوها، فغمره إحساس مفجع بالغربة والشك والخوف والضياع وغياب الأمل، وراح يبحث في ثوان بدت له أطول من عمره عن السبب في تحول الحب إلى كراهية، فهل هي طبيعة الحب نفسها التي تورث الحقد والاستصغار والازدراء في قلب الحبيب تجاه محبوبه بمجرد أن يوقعه في حباله، أم ثمة سبب آخر؟

وتوقف على بعد خطوات من بيتها، التفت إليها وجعل يتفرس فيها، كانت خصلات من شعرها السَبْط المعقوص إلى الخلف تشع في ضوء الشمس كما تشع أشلاء نتنة، وفي ذات اللحظة عرف أن مصدر الكراهية الغريبة التي أحس بها نحوها هو شعر رأسها، وقفز إلى ذهنه هذا السؤال المحير كما يقفز البرغوث الطائش فوق رأس كلب راكض متيقنًا بأنه لن يسقط أرضًا: «ألم تكن منذ وقت قريب فقط تتبجح بأن حبك لهذه المرأة لن يضعف حتى لو أصابها الجذام أو احترق وجهها؟»

ضحك من أوهامه السابقة عن حبه اللامحدود لها، اللامشروط، العذري، الروحي، العفيف، وأيقن بأن الرجل يعشق في المرأة جمالها الخارجي أكثر مما يعشق فيها أي شيء عداه، وهي من ناحيتها تحبه لوسامته، ولعله لم ينسَ بعد -ولن ينسى أبدًا- أنها رفضته لقرعه.

وعز عليه أن يخبوَ حبه لها بهذا الشكل الرهيب، فخطر له أن يمسكها من شعرها ويمسح به التراب ولا يتركه حتى يجتثه كله كما يجتث الفلاح الأعشاب السامة النابتة في حقله، فشعرها هو السبب في البلبلة اليائسة

التي يرزح تحت نيرها، والسبب في إطفاء ذلك اللهب من الحب الذي ظل متأججًا في صدره نحوها لسنوات، بيد أنه خاف أن يقضي عليها، وهذا ما لا تطيقه نفسه ولا تقدر عليه أبدًا.

وبغتة تذكر تلك القطط، ففطن إلى أن محبوبته لابد أن تسلك الطريق التي سلكتها لكي تفقد شعرها.

وهم ليمسكها من يديها ليريها كيف تفعل ذلك، لكنه فوجئ بظل والدها -الشبيه بظل فيل- ماثلًا أمامه، فحياه وهو يكاد يتعثر في أذياله، متذكرًا المرة الفائتة التي انقض فيها عليه وضربه ضربًا مبرحًا حينما ألفاه يجوس حول داره عقب أسبوع من تقدمه لخطبتها فرفضه، وبدل النظرة المليئة بالبغض التي كان يرميه بها منذ تلك الحادثة، وجده يحدق إليه الآن بإعجاب واستحسان.

وقبل أن ينبس (قيس) ببنت شفة سأله هذا الأخير في استجداء:

ـ «كيف صرت أقرعًا حبًا وكرامة!؟»

وهَمَّ أن يفصح له عن السر الغالي الذي أفضت به إليه تلك القطط الحقيرة، لكنه ابتلعه قبل أن يخرج من فيه، مقررًا أن ينتقم منه على تلك الضربات التي كالها له، وهنا انضمت إليهم زوجته، وهي الأخرى عاملته بقسوة آخر مرة، فقرر ألا يضيع الفرصة للانتقام منهما معًا، وفكر كيف يصنع ذلك فلم يلبث أن قال لهما:

ـ «لن أخبركما حتى تعدانني بتزويج ابنتكما لي»

وهتف الأب: «وهل عسانا نجد لها عريسًا أفضل منك؟»

وزغردت الأم بقوة، ثم أمنت على كلامه:

ـ «نحن خدمك يا بني وزواجك بابنتنا يمنحنا شرفًا عظيمًا»

واستدار إلى (دليلة) وسألها هل تقبل به زوجًا وهو لا يشك في أنها لن ترفضه، فقالت له وعيناها تلمعان حبًا وهيامًا:

ـ «سأكون أسعد النساء إذا تزوجتني»

ومخافة نبذهم عهدهم وانقلابهم عليه، طلب من والدها إحضار اثني عشر شاهدًا في الحال كي يشهدوا على زواجهما، فهرول هذا الأخير راكضًا، غاب قرابة ربع ساعة فقط، ثم عاد ومعه الشهود، وهم أيضًا أعينهم فيروزية ولهم نفس الشغف لمعرفة وصفة القرع، ولا غرابة أن الأب كي يستعجلهم لمرافقته وعدهم بإطلاعهم على هذه الوصفة عندما يخبره بها صهره.

وحينما دخلوا البيت كانت الأم واقفة أمام (قيس) ويداها مطويتان إلى صدرها مثل طفل يستظهر المحفوظات أمام معلمه وتموء كالهرة، فنهرها زوجها:

ـ «اصمتي يا دنيئة!»

لكنها لم تصمت، وهَمَّ أن يضربها فمنعه (قيس)، وقال له بأنه هو الذي أمرها بذلك، لأن دواء الشعر لن يكون ناجعًا في رأسها حتى تمر ساعة تقريبًا على تقليدها لصوت القطط، ونفس الأمر ينطبق على كل من يريد أن يصبح أقرعًا بواسطة الدواء الذي بحوزته، ولم يلبث أن طلب من حماته التوقف عن المواء، فلما فعلت أشهدهم جميعًا على زواجه من (دليلة)، ثم قال لها:

ـ «عندما تصيرين قرعاء سنكون زوجين سعيدين»

وصاحت بأنها تتحرق شوقًا لهذه اللحظة.

وعنَّ له أن يطلب من والدها إحضار مأذون ليكتب عقد قرانهما، لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة، معتبراً أن وصفة القرع أضمن له من ورقة المأذون، فأولئك الأطباء سيصنعون خليطًا لتساقط الشعر في أسرع وقت

ممكن وينشرونه في المدينة، وقد يلتقيهم هذا الأخير إذا خرج لإحضار المأذون، والحق الحق أنه تسرع وخاطر بإرساله لجلب الشهود، فلقد كان من الممكن أن يصادفهم خلال ذلك فيسلموه الدواء.

وهكذا فضل تأجيل كتب الكتاب والزفاف حتى يسلم محبوبته ووالديها الوصفة الغالية بنفسه، لكيلا يتنكروا له. أمر حبيبته وأمها ووالدها والشهود أن يقلدوا القطط، لم يرتابوا أو حتى يفكروا في مدى مصداقية ما أمرهم به، فلقد كان البرهان أمام أعينهم: رأسه اللامعة كشمس الظهيرة. أقفل عليهم الباب بالمفتاح، مخبراً إياهم أنه ذاهب لجلب الدواء، مضى نحو المكان الذي رأى فيه تلك القطط، وشرع بجمع ما يلزم لصنع ذلك المستحضر، لكنه فوجئ بالأشجار التي تناولت منها القطط خالية من الفواكه، والتراب الذي عفرت به رؤوسها قد اختفى. لم يشك بأن الأطباء الثلاثة وراء ذلك، وفكر أنه ينبغي عليه ألا يضيع وقته في محاولة صنع ذلك المستحضر بنفسه، فثمة احتمال كبير بأن تبوء محاولته بالفشل، والأفضل جلبه من الأطباء، إما شراؤه أو سرقته، المهم الحصول عليه منهم بأي ثمن.

وهرول باتجاه مختبرهم، ألفى باب السور الخارجي مفتوحًا، دخل إلى الباحة، كان باب المختبر هو الآخر مشرعًا، اقترب مصيخًا السمع. بالداخل كان الطبيبان اللذان جاءا للتو بالنعجة والعنزة من ذلك الراعي ينتظران وصول زميلهما بالبقرة، هم بالتسلل إلى داخل المختبر، فإذا به يسمع صوتًا على بعد خطوات من باب السور يقول:

ـ «هيا يا عزيزتي، لقد اقتربنا، هيا أيتها الغالية»

لذلك قفز إلى كوخ بزاوية الباحة اليسرى بدا من شكله الصغير المثلث بأنه مخصص للكلاب، تنفس الصعداء لما لم يجد فيه كلبًا، أخذ يطل منه وقد انبطح أرضًا على بطنه كسحلية تترصد حشرة طائشة، وبعد برهة لاح أمام بصره أحد الأطباء يجر بقرة، كان يعرف الغرض الذي أتى بها لأجله، أحس

بالاطمئنان، التدابير جارية على قدم وساق لصناعة الدهان، لا حرمنا الله منكم أيها الأطباء!

شرع يفكر في الخطوة التالية، بعد أخذ ورد قرر أن يلبد في مكانه ولا يتحرك منه حتى يتأكد بأن الأطباء الثلاثة قد انتهوا من عملهم، ومازال هناك منتظرًا على أحر من الجمر حتى تناهى إلى مسامعه صوت هتاف وتهزيج وضحك آت من المختبر، فأيقن بأنها الآيات الدالة على نجاح الأطباء في مهمتهم، انتصب واقفًا كنخلة ناسيًا أن الكوخ الذي هو فيه لا يبلغ طوله سوى مترًا، بينما طوله هو يقرب المترين، وهكذا اخترق برأسه سقف الكوخ المصنوع من الزنك والخشب، فهوى عليه كما تهوي شجرة على منزل بفعل الصاعقة، فسقط مغشيًا عليه.

من حسن حظه أن رأسه لم تتأذَ كثيرًا، وإن جرحت بعض الجروح التي لا يستهان بها، بعد دقائق استيقظ، أخذ الأمر منه وقتًا قصيرًا فقط ليتذكر بأنه يضطجع تحت سقف الكوخ الذي انهار عليه لوقفته الغبية تلك، والمهمة الخطيرة التي جاء إلى هذا المكان من أجلها، فهَبَّ واقفًا بنفس الطريقة المتهورة، ناثرًا حوله بقايا السقف.

هرول باتجاه باب المختبر وهو يتمنى ألا يكون الأطباء قد غادروه، كانوا هناك، سمع صوتهم، إذن هو لم يبقَ تحت السقف الذي تهاوى عليه إلا وقتًا وجيزًا، ولبث في مكانه منتظرًا خروجهم، فجأة انبعث صوت خطواتهم القادمة، مرق خارجًا واختبأ وراء إحدى أشجار الزيتون التي تحف بالشارع قبالة المختبر، فما أن غذوا الخطو نحو ساحة المسجد مع صلاة العشاء حتى تسلل وراءهم، وهناك أراد تلقف إحدى القوارير التي سلموها للناس مجانًا، لكنه لم يوفق في ذلك، لقد كان أولئك الرجال الذين سبقوه إليها أقوى منه، انتابه حزن عارم، بَيْد أنه لم يستسلم وقرر سرقة قارورة من أحدهم.

خوفًا من أن يغضب صاحب الشعر الفيروزي تجنب سرقة الرجال الذين يشع من أعينهم بريق فيروزي، لذلك فضل اللحاق بالرجال الآخرين من حزب الطبقة المحتقرة، اختار أضعفهم، راح يخطط لسرقة القارورة منه، هذا الأخير لم يلبث أن تخلى عن قارورته مع رجلين آخرين قبل أن يهتدي للخطة المناسبة لسرقته، تلقف القوارير الثلاث وركض عائدًا إلى بيت معشوقته وهو يكاد يطير من السعادة، وعرج على بيته فضمد جرح رأسه، ثم غمس سبابته في إحدى القوارير وهم بدهن رأسه بشيء من الخليط الذي تحتوي عليه، لكنه أحجم عن ذلك في آخر لحظة، أخذ ينظر إلى رأسه في المرآة بإعجاب، إنها صفراء بشكل طبيعي ولا يحتاج لدهنها بالخليط، وبذلك فهو أفضل من الآخرين.

وسرعان ما يمم بيت محبوبته، وهو يتمنى أن تكفي القوارير الثلاث لإسقاط شعرها وشعر والديها والشهود، حين وصل أدار المفتاح في الباب وفتحه فانتصبوا أمامه جميعًا ينظرون إليه بتطلع مؤلم، لو أراد تعذيبهم لقال لهم بأنه لم يحضر الدواء وبأن تخلصهم من شعرهم مستحيل، سيبكون من شدة الحزن، ولكن لا، يكفي ما فعله بهم، كما هو باد عليهم، لاشك أنهم تعبوا من كثرة ترديد كلمة: «مْيو»

وقال لهم:

ـ «كمية قليلة من الدهان الموجود في هذه القوارير كاف لإسقاط شعركم، فاطمئنوا»

سلم قارورة لـ(دليلة)، وفتح القارورة الثانية وراح يحمل منها بإصبعه ويضع على رؤوس البقية، بعجالة شرعوا يدهنون شعرهم ويفركونه، فكان يتساقط كأوراق الشجر المدوّدة، ولم تلبث أن التمعت رؤوسهم كبيض من ذهب، وهنا، هنا فقط انقشع ذلك الضباب الأسود الذي كان يغلف حبه لـ(دليلة)، واختفت كل تلك الكراهية التي شعر بها نحوها.

أخذوا يقفزون في أماكنهم ويرقصون تعبيراً عن فرحهم، ولم يبخلوا عليه بالشكر والامتنان، وفي هذه اللحظة تعالا طرق قوي على الباب، تجمدت قدماه خوفًا، تتابع الطرق والكل ساكن، استشاره حموه بعينيه عما إذا كان يريده أن يفتح، رخص له بذلك، أدار هذا الأخير مزلاج الباب فإذا بـ(سفيان) يخطوا داخل الدار هو وجمع غفير من الناس، كاد يغمى عليهم من شدة السعادة، استقبلوه بحفاوة، كانوا فرحين به وبرؤوسهم القرعاء التي كانوا متأكدين بأنها سوف تلقى إعجابه واستحسانه، وهو ما حدث بالفعل، إذ ما أن مثلوا بين يديه وانحنوا له حتى سألهم:

ـ «كيف أصبحتم قرعًا؟»

أجابه (قيس): «بفضل أطباء المدينة»

وحكى له حكاية القطط على مسامع الجميع، دون أن يهتم إلى كون زوجته ووالديها والشهود سيكتشفون بأنه كذب عليهم فيما يخص تقليد القطط، إن كل ما كان يهمه هو ألا يكذب على سيده، وعلى العموم فإن هؤلاء لم ينزعجوا من كذبه، فنظرات الغيرة والحسد التي كانت تسلط عليهم من طرف الناس المشعرين من حولهم خلبت لبهم وحولتهم إلى أشخاص ودودين ومتسامحين إلى أقصى الحدود.

وسرعان ما خرج (سفيان) وكل من في الدار، فكان (قيس) وزوجته ووالداها والشهود يمشون خلفه حاملين ما استطاعوا حمله من الشموع والأطعمة والمشروبات، والأرض لا تسعهم من السرور.

الفصل 23

لما أخذ ستار الظلام في الانتشار، كانت تجتاز البوابة الشرقية لبلدة زرهون تلك العربة التي يسافر على متنها أولع الناس بخضر الباذنجان على وجه البسيطة، توقف الحوذي غير بعيد ونزل للاطمئنان على أسياده. كان باب المقصورة مفتوحًا فرآهم مضطجعين على حبات الباذنجان يقتلعون شعرهم. سأل (إزم):

ـ «إلى أين أتجه يا سيدي؟»

ـ «انتظر، سأدلك على الطريق»

نزل من المقصورة، صعد إلى كرسي الحوذي، جلس قربه، استغرب الحوذي من تصرفه، ومن رأسه المليئة ببقع خالية من الشعر.

كان (إزم) معروفًا جدًا ببلدة زرهون، لذلك تلقى أحر الترحيب من حارس الباب الذي دخلوا منه، والذي دأب على نقده بضعة دراهم كلما فتح له الباب، بيد أنه هذه المرة لم يعطه شيئًا بسبب تقززه من عينيه الخضراوين.

وشرع يحيي هذا وذاك من أصحاب الحوانيت المنتشرة على الطريق الرئيسية التي تخترق وسط البلدة، دون أن ينزل عن العربة، كسبًا للوقت، حتى إذا بلغ الحانوت الأكبر لتاجر يدعى (معتصم)، وهو أشهر وألمع بائع للبذور في البلدة، ألفاه مقفلًا، فاستغرب أشد الاستغراب من ذلك، لأن الرجل لا يقفل حانوته عادة حتى وقت متأخر من الليل، سأل عنه تاجرًا بحانوت لصيق به يبيع المفروشات، فإذا به يصدمه قائلًا:

ـ «ألم تعرف ماذا حل به؟ لقد فقد عقله»

هتف بمرارة:

ـ «ماذا!؟»

ـ «المسكين.. منذ أسبوع فقد زوجته وابنته في يوم واحد، ويبدو أن عقله لم يحتمل الفاجعة فذهب في مهب الريح.. طرد كل من جاؤوا لتعزيته، اشترى الكثير من ريش النعام وصنع به أجنحة ووضعها على ذراعيه ثم صعد إلى قبة منزله، فقفز ناويًا التحليق كالحمام، لكنه سقط أرضًا بعد خطوتين خطاهما في الهواء، فكسرت رجله، وهو الآن يصنع أجنحة أخرى ليعيد الكرة كما أنهى إلينا طبيب البلدة، الشخص الوحيد الذي كان يسمح له بزيارته»

زفر (إزم) بغضب:

ـ «يا للمأفون! ولماذا يريد الطيران!؟»

ـ «لقد سأله الطبيب هذا السؤال، فأجابه بأن ابنته وزوجته لم تموتا، بل هما موجودتان في السماء ولقد طلبتا منه أن يصعد إليهما بواسطة أجنحة مصنوعة من ريش النعام»

وأراد أن يسأله عما إذا كان ما يزال يحتفظ بالبذور التي يبيعها في حانوته، لكنه أحجم عن ذلك في آخر لحظة، وعاد إلى أفراد أسرته الذين كانوا بانتظاره في العربة بصبر نافد، وأخبرهم بالقصة، واستشارهم فيما يجدر بهم فعله، وهنا هتفت ابنته كعادتها في التعجل في الكلام:

ـ «نساعده على الطيران بشرط أن يسلمنا البذور»

ونظروا إليها مبهوتين، أنفوها وتغيظوا منها حتى لم تعد لديهم طاقة أكبر لاحتمال المزيد من كلماتها الخرقاء، وخطرت للأب فكرة تقييدها وتكميم فمها كيلا تفوه بشيء إلى أن يعودوا أدراجهم غانمين سالمين، شرع يغزل العربة بعينيه، لاح بسقفها حبل متدل يبدو أنه يستعمل لحزم السلع كيلا

تسقط، تناوله وأمسك يديها ثم أدارهما إلى الخلف، حاولت الهرب لكن الآخرَين وقفا لها بالمرصاد وبطحاها أرضًا، لقد راقت لهما فكرة تقييدها، ربط يديها بقوة ووضع خرقة على فمها ثم صرخ في وجهها:

ـ «جنّنتِنا بلسانك الأعوج.. ألم أنصحك بالتفكير قبل التفوه بالحماقات ومضغ الكلام مائة مرة قبل التلفظ به؟ قُبْحًا وتَرَحًا لك من ابنة!»

وأخذت تئن وتبكي، لكن كأس ضيقهم منها كانت قد قَلَسَت وفاضت، لذلك لم يشفقوا عليها، أشاحوا عنها فقال الأب لزوجه وابنه:

ـ «لقد خطرت لي فكرة.. ما رأيكم أن ننتظر حتى ينام الناس وتخلوا الطرق من السابلة فنحطم أقفال الحانوت ثم نسرق البذور؟»

أشرق وجهاهما بهجة، وأشارا له بأنها فكرة سديدة، حتى أن الابن قال له بأنه يستحق عليها وسامًا، جلسوا القرفصاء مستأنفين نتف شعرهم، ريثما يمضي الجزء الأكبر من الليل، وعقب نصف ساعة صاح الحوذي بـ(إزم) من وراء باب المقصورة المقفل:

ـ «سيدي، هل يمكنني الذهاب لتناول بعض الطعام فأنا أشعر بالجوع؟»

وأراد أن ينقده مالًا فتذكر بأن تلك العصابة سرقت كل أموالهم، فقال له متأسفًا: «وددت لو أعطيتك ما تشتري به الطعام ولكن العصابة اللعينة أخذت كل ما كان في جيوبنا.. ولكن أتدري؟....»

توقف هنيهة، خلع عمامته، خرج إليه ومدها له قائلًا:

ـ «خذها، بعها واشتر بثمنها طعامًا»

فرد الآخر بخجل وهو يعيدها له:

ـ «لا يا سيدي، لا داعي لذلك، سوف أذهب إلى أحد أقاربي بالبلدة، وهو بلا شك سيرحب بي أحسن ترحيب وسيقدم لي أشهى طعام في مطبخه،

ولولا خوفي أن أتجاوز حدودي كعبد لكم لطلبت منكم مرافقتي إليه، فأنتم أيضًا وبلا شك تشعرون بالجوع مثلي ولسوف يرحب بكم قريبي بحفاوة ولن يدخر جهدًا في خدمتكم وتقديم أطيب طعام الأسياد لكم»

وقال (إزم) وهو يشعر بالامتنان لدعوته:

ـ «لولا انشغالنا بأمر أهم لما ترددنا في مرافقتك، فامض، ولكن ارجع قبل منتصف الليل»

ـ «السمع والطاعة يا سيدي»

فانحنى كعادته احترامًا لسادته ثم ذهب مسرعًا، لكنه قبل أن يختفي نادى عليه ابن (إزم)، فلما جاء إليه، وكان خارج العربة، سأله:

ـ «ألم تتذكر بعد كيف فقدت شعر مقدمة رأسك؟»

لقد سأله في بداية الرحلة هذا السؤال فأجابه في حرج أنه لا يتذكر، لم يكن يعرف أن صلعته هي السر في المعاملة الاستثنائية اللطيفة التي عامله بها (إزم) وزوجته وابناه طوال الرحلة، لقد كان يسمع أنهم متعجرفون ومتكبرون يعاملون الخدم كالبهائم، لم يسبق له أن احتك بهم مباشرة، فعمله في القصر كان يحول دون ذلك، والآن بعد الاحتكاك بهم بات متأكدًا بأن ما يشاع عنهم مجرد افتراء.

أجاب بصراحة وهو يرفع يديه تعبيرًا عن الأسى:

ـ «إنني في الأربعين من عمري يا مولاي، وفي هذا السن تبدأ الصلعة بالظهور كُفيتَ شرها!»

بيد أن الآخر زجره:

ـ «بل قل أُنعمتَها!»

فردد مستدركًا: «أنعمتها.. أنعمتها يا صاحب المعالي»

وأمره بالانصراف، فغادر حائرًا.

ولبث عند قريبه، وقبل منتصف الليل قفل إلى العربة، كانوا بانتظاره، قبل قليل شرعوا يتشاورون فيما إذا كانوا سيأخذونه معهم ليساعدهم في سرقة البذور أم لا، أجمعوا على الاستعانة به، فمن يدري ما قد يعترضهم من صعوبات؟ إنهم في حاجة ماسة لكل مساعدة ممكنة ومن أي كان، ولو ضمنوا أن الابنة المربوطة لن تتفوه بما يضايقهم لفكوا وثاقها لترافقهم، لكن ذلك غير مضمون البتة.

طرق باب المقصورة ليعلمهم بقدومه ويسألهم عما إذا كانوا يأمرونه بشيء ما، أدخلوه، رأى الفتاة مربوطة فاندهش، لكنه لم يسألهم عما دعاهم لربطها، لن يحشر أنفه في شؤون أسياده ويسأل عما لا يعنيه. تمهيدًا للمهمة التي سيكلفونه بها، أخبره الابن بأنهم ضبطوا هذه الأخيرة وهي تخطط للفرار مع شاب رعديد فضربوه ثم ربطوها كيلا تقدم على هذا الفعل الشنيع، وأمره أن يكتم الخبر ولا يطلع عليه أحدًا، حلف أغلظ الأيمان ألا يفوه بكلمة عن الموضوع لأي كان، وما لبث أن حدثه عن السرقة، فكر بضع ثوان، هذا خطير، قد يذهب إلى السجن، ولكنه إذا رفض سيفقد عمله، بئسًا! نكس رأسه موافقًا.

خرجوا مقفلين مقصورة العربة بالمفتاح، اتجهوا صوب الحانوت المعلوم. كان الشارع خاليًا وكان الليل هادئًا هدوء مزعجًا، تمنوا لو كان الجو مطيرًا عاصفًا كي يمنع الناس من الخروج من منازلهم، وأخذت القطط تتبعهم بموائها، وتصاعد مرة أخرى صوت تمزق من مَعِدَات أفراد الأسرة مذكرًا بأنها فارغة.

ذهب الخادم إلى زاوية الشارع الأمامية والأم إلى زاويته الخلفية يرقبان المارة، بينما تكفل الأب والابن بتحطيم الأقفال، لم يأخذ الأمر أكثر من دقيقة، فلقد استعار الأب مطرقة كبيرة من أحد التجار تكسر صخرة بضربة

واحدة، كان الحانوت فارغًا، أخذا يشتمان ويلعنان بائع البذور المجنون وزوجته وابنته اللتين لم تجدا وقتًا آخر تموتان فيه غير ذاك.

ـ «علينا الذهاب إلى منزل (معتصم)»

قال الأب ثم انطلق في الزقاق الأيسر، فلحقوا به. كان البيت يقع بعيدًا عن الحانوت بثلاثة شوارع، إنه منزل فخم محاط بحديقة واسعة وسور قصير مبني بالحجر الصلد، كانت بوابة الحديقة مقفلة حينما وقفوا قبالتها، تسلقوا السور، نزلوا، لا أحد على مرمى البصر، كان ضوء إحدى الغرف العلوية بالمنزل مضاء، تقدموا مختبئين خلف الأشجار. باب المنزل مقفل، راح الأب يطرقه، لا مجيب، عاد إلى الوراء، تناول حجرًا وراح يرشق به الغرفة المضيئة، لا أحد أطل أو أصدر صوتًا. «اللعين!»، قال الأب. وسرعان ما لفتت انتباهه شجرة زيتون عملاقة محاذية لإحدى النوافذ بالطابق العلوي، صعَّد فيها عينيه، ثم قال للجميع مبتسمًا: «لدي فكرة»

جرى نحوها فتسلقها، مد يده لعله يمسك بطنف النافذة، بعد محاولات متكررة، نجح في الإمساك به، رمى بنفسه من الشجرة، راح يتأرجح والكل، زوجته وابنه والخادم، يشجعونه على التماسك كيلا يسقط، أنشب أظافره في الحافة كالقط وكسر زجاج النافذة برجليه، ثم اندفع إلى الداخل.

وطفقوا يصفقون له بحرارة كما لو كان مصارعًا نجح في هزيمة منافسه العنيد بعد نزال طاحن، وهم ابنه بصعود الشجرة، لكنه طلب منه ألا يفعل وأن ينتظر ريثما ينزل فيفتح لهم الباب، وذهب مهرولًا لتنفيذ وعده، بيد أنه لم يلبث أن توقف فجأة بعد أن رأى (معتصم) في غرفة على يساره، أقبل إليه فوجده يصنع بالريش جناحين كبيرين، حياه، لم يرد عليه، فاقترب منه وأمسكه من يديه وقال له: «ألا تتذكرني يا (معتصم)؟»، فنظر إليه هذا الأخير بانزعاج ثم أجابه:

ـ «أنت (إزم) الجشع، ماذا تريد مني؟»

وقبل أن يمنحه الفرصة للإجابة أزاح يده عنه وصاح به: «انصرف ودعني أكمل عملي!»

وفي هذه اللحظة التحق الابن بأبيه من نفس الغرفة التي دخل منها بعد أن لم يستطع انتظاره أكثر، وهو الآخر وعد أمه أن يفتح لها الباب، لكن من شدة لهفته للحصول على تلك البذور نسي وعده لها كما نسي والده وعده له، فقال لوالده وهو ينظر إلى التاجر وقد انغمس مرة أخرى في خياطة جناحيه: «ما الذي يصنعه؟»

أشار إليه والده بالتزام الصمت، ثم قال للتاجر: «(معتصم) يا عزيزي، لقد جئتك كي تبيعني شيئًا من بذورك الرائعة، وأنا مستعد أن أدفع لك ما تريده»

لم يحر جوابًا، لكن عينيه التمعتا ببريق يدل على أن شيئًا ما خطر بباله، توقع الأب أن يحدد ثمنًا مرتفعًا، لا مال بحوزته الآن، لكنهما سيتكاتبان، فيسلمه البذور مقابل صك يعد فيه بدفع الثمن المتفق عليه خلال مهلة محددة، إنه مستعد لدفع كل ما يملكه مقابل الحصول على تلك البذور، مع ذلك خاف أن يطلب منه ثمنًا يفوق ثروته، مما سيضطره إلى السرقة.

وطال صمته، فخطر إلى الابن أن يقترح استعمال العنف معه، وقبل أن يفتح فاه، أشار إليه والده ألا ينبس بشيء، كما لو كان قد حزر ما سيقوله، وأن ينتظر.

وبعد دقائق، كانت بحجم ساعات، خرج (معتصم) من صمته، حيث قال موجهًا إليهما الكلام معًا: «هل تريان هذه الأجنحة؟»، أشار إلى الجدار وراءهما، كان زوجًا أجنحة مصنوعين من اللوح والريش مسندين إلى الجدار، أضاف: «والجناحين اللذين بين يدي؟»، ثم صمت مجددًا، فقال له الأب: «أجل، نحن نراها. ماذا عنها؟»، فقال: «أريد منكما أن ترتدياها وتحاولا الطيران بها من فوق منزلي، إن رجلي اليسرى مكسورة ولا أستطيع

تجربتها إلا بعد أن أشفى، وأنا لا أستطيع الصبر حتى ذلك الوقت فزوجتي وابنتي تنتظرانني، فإذا فعلتما ذلك فأنا سأعطيكما أفضل البذور، ولكن عداني ألا تهربا بأجنحتي بعيدًا حينما تنجحان في الطيران بها»

وهنا سأله (إزم): «بذور الباذنجان، أنت تملكها أليس كذلك؟»، فأجاب: «أجل، لدي مخزن لا يعرف مكانه أحد غيري أخبئ فيه مئات البذور، ومنها بذور الباذنجان»

وهنا قال له الابن: «ولكن، ماذا لو لم ننجح في الطيران بهذه الأجنحة؟»، فرد عليه: «أنا لا أطلب منكما سوى تجربة الطيران بها، وسواء نجحتما أم لا فأنا سأسلمكما ما تريدانه، لكن كما قلت، عداني ألا تسرقا أجنحتي إذا استطعتما التحليق بها في السماء»

وسرعان ما انفجر بالبكاء وأردف يقول وهو يشهق: «إن ابنتي وزوجتي بانتظاري في السماء فوق إحدى السحابات، وبين الفينة والأخرى تنزلان إليَّ وتحثانني على صنع أجنحة للحاق بهما، فإذا سرقتماها مني فأنتما بذلك تسرقان عمري»

وطمأنه الأب، وهو يشعر نحوه بالغيظ لجنونه الذي قد يكلفهم حياتهم إذا نفذوا ما يريده، وهو الأمر الذي يبدو بأنهم مجبرون عليه للحصول على تلك البذور: «لا تخف، لن نفر بأجنحتك، هذا لأننا إذا فعلنا ذلك فأنت لن تسلمنا مرادنا»

فالتمعت أساريره، وقال لهما: «إذن، هيا...»، وقبل أن يكمل جملته قاطعه الابن، مشيراً إلى نقطة مهمة: «ثمة ثلاثة أزواج من الأجنحة، ونحن اثنان، وكل واحد منا لا يستطيع تجربة إلا زوجًا واحدًا، هذا لأنه حينما يحاول الطيران به من فوق منزلك كما تطلب، سيسقط لا محالة كما سقطت، وسيكسر عظمًا على أقل تقدير من عظام جسده كما كسرت رجلك، هذا إذا لم يلق حتفه، لذلك يجب أن تعفينا من تجربة الزوج الثالث من الأجنحة»

لكنه صرخ رافضًا: «كلا!!»

وهنا التحقت بهما الزوجة، فاستفسرت عما دار بينهم، فحكيا لها قصة الأجنحة، وما أن انتهيا حتى هتفت كبطلة أسطورية: «أنا أجرب الزوج الثالث»

طلب منهم (معتصم) الانتظار حتى ينتهي من اللمسات الأخيرة لحياكة الأجنحة التي بين يديه، أمروه أن يسرع، طمأنهم أن ذلك لن يأخذ أكثر من دقائق قليلة. لما انتهى، بعد بضع دقائق كما وعد، أسندوه ثم صعدوا معًا نحو السطوح، وهناك ألبسهم تلك الأجنحة وشرع يعلمهم كيف يرفرفون بها في السماء، وما لبثوا أن خلعوها، أسندوه مرة أخرى ونزلوا السلالم فخرجوا من المنزل، ليجدوا خادمهم بانتظارهم أمام الباب.

بينما الزوجة والابن يبتعدان بالمجنون (معتصم) بضعة أمتار كما طلب منهم كي تتسنى له رؤيتهم وهم يحلقون في السماء، حكى (إزم) للخادم ما حصل، ثم أمره أن يأتي بالعربة إلى الحديقة، لأنهم لا شك بعد سقوطهم لن يقووا على المشي إليها.

وترجاه الخادم أن يسمح له بتجربة الأجنحة بدله، لكنه رفض، ثم ترجا زوجته وابنه، فرفضا هما أيضًا، فذهب لإحضار العربة وهو يحمد الله لأنهم لم يقبلوا وتساءل في حيرة: «من بحق الله يرمي نفسه من قمة عالية في سبيل الحصول على بذور الباذنجان؟ من بحق الله يفعل ذلك سوى من نخرت عقله دودة الجنون؟»

ورقى الثلاثة السلالم باتجاه السطوح المضاء بعشرات القناديل، وهناك لبس كل منهم زوج الأجنحة الذي لبسه قبل قليل، صعدوا على الجدار وراحوا يشيرون بأجنحتهم إلى (معتصم) الذي كان متكئًا على إحدى أشجار الزيتون البعيدة بخمسة أمتار تقريبًا عن باب المنزل، فقال لهم: «إلى السماء، إلى السماء يا طيور السنونو»

كانت تفصلهم عن الأرض عشرة أمتار، لم يشعروا بالخوف.

قال الأب وهم واقفون على الحافة بمحاذاة بعضهم البعض:

ـ «من أجلك أيها الباذنجان سأطير كالنسر»

وقالت الأم:

ـ «من أجلك أيها الباذنجان سأحلق كالحمامة»

ثم قال الابن:

ـ «من أجلك أيها الباذنجان سأحلق كالصقر»

وقفزوا دفعة واحدة، لكن أحدا لم يطر، لا كالنسر ولا كالحمامة ولا كالصقر، بل ولا حتى كالدجاجة. لحسن الحظ كان المنزل محاطًا بأشجار الزيتون، وهكذا سقطوا على بعد خطوات فوقها، ولولاها لتكسرت عظامهم، علقوا فيها كما تعلق حشرات في بيت عنكبوت. وأخذ (معتصم) يقهقه بصوت مرتفع ويصيح بهستيرية: «طيور مسكينة، طيور لا حول لها ولا قوة»، وطفقوا ينادونه لينقذهم ويلعنونه ويتوعدونه بالقتل إذا لم يعطهم تلك البذور الغالية.

ومازالوا على حالهم ذاك حتى جاء الخادم فتسلق الأشجار وفك أجنحتهم ثم أنزلهم، ويبدو أنهم تعرضوا لبعض الكدمات في أجسادهم فقط ولم يتعرضوا لأية كسور، جعلوا يئنون من شدة الوجع، لكنهم سرعان ما توقفوا عن ذلك عندما أجلسهم الخادم بقرب (معتصم) كما طلبوا منه فهنأهم هذا الأخير على شجاعتهم والتمس منهم مساعدته على العودة إلى المنزل ليعطيهم البذور.

متكئًا على الخادم اتجه نحو سرداب سري في الطابق السفلي من المنزل، والأم وابنها يسيران خلفه وهما يسندان (إزم) الذي وجد صعوبة في المشي على رجله اليسرى. فتح السرداب بمفتاحين مربوطين بخيط إلى عنقه مع

عشرات المفاتيح الأخرى، كان مليئًا بالسلع، قصد صندوقًا متوسط الحجم وسطه، تناول مفتاحًا من رزمة المفاتيح وفتحه به ثم رفع غطاءه، طلب منهم إلقاء نظرة إلى بذور الباذنجان الموجودة فيه.

ما أن نظر أفراد الأسرة إليها حتى وضعوا أيديهم على أفواههم معبرين عن انبهارهم من جمالها، وصاح الأب: «يا للذهب الخالص!»، فنظر الخادم إلى البذور شاعرًا بالفضول، لكنها بدت له عادية جدًا.

سلم (معتصم) لـ(إزم) الصندوق بمفتاحه وطلب منه حمله والخروج مع البقية، حتى إذا غادروا أقفل السرداب ثم قال لهم وهو متألق الأسارير:

ـ «إذا انتظرتم حتى الغد لتجربة المزيد من الأجنحة التي سأصنعها، فسوف أسلمكم ثلاثة صناديق أخرى، فأنا أخبئها في أماكن سرية لا يعلمها أحد غيري. ما رأيكم؟»

ولم يحيروا جوابًا لوهلة، لكن الأب هتف به أخيرًا:

ـ «هذه فكرة رائعة.. اصنع أجنحتك، وسنعود في الغد لتجربتها»

ـ «اتفقنا إذن.. هلا ساعدتموني قبل مغادرتكم على الوصول إلى غرفتي وأحضرتم لي تلك الأجنحة التي فشلت في جعلكم تطيرون؟»

حمل الخادم (معتصم) على ظهره وانطلق به صوب غرفته كما طلب منه سيده، وما أن وضعه فيها حتى قال له:

ـ «ما رأيك أن تكون خادمًا لي؟ سأدفع لك ضعف ما يدفعه لك (إزم)، لكن شرط ألا تكون خوافًا مثل الخدم الذين كانوا يعملون عندي فطردتهم»

راح الخادم يفكر في عرضه، إذا كان سيدفع له ضعف أجرته فما المانع من العمل عنده؟ لكن عليه أولًا أن يعرف سبب طرده لخدمه، سأله عن ذلك فأجابه:

ـ «الجبناء.. عندما عرضت عليهم القفز من علو شاهق بأجنحتي مقابل مضاعفة أجورهم وافقوا، لكنهم لم يلبثوا أن جبنوا وامتنعوا عن القفز معترفين بخوفهم من تكسر عظامهم.. بالله عليك، ماذا سيؤثر كسر أو كسران أو حتى عشرة في حياة الإنسان؟ لا شيء.. لا أظنك خوافًا مثلهم!»

لم يجبه، بل نزل بسرعة وأحضر تلك الأجنحة، وحينما وضعها بالقرب منه سأله (معتصم):

ـ «ما رأيك في عرضي؟»

فصرخ فيه بغضب، وهو يشعر بالأسى على أولئك الخدم الذين طردهم:

ـ «ليس إلا أحمقَ ذلك الإنسان الذي يرتدي أجنحة مزيفة ويرمي بنفسه من فوق مكان مرتفع ظانًا بأنه سوف يطير.. لا يستطيع مخلوق ما أن يطير إلا إذا خلقه الله طائرًا، كما لا يستطيع أن يمشي إلا إذا خلقه ماشيًا، فهل سبق لك أن رأيت سمكة تمشي أو كلبًا يطير؟ بالطبع لا، لأن الله لم يمنحهما تلك القدرة.. تُبْ إلى رشدك ودع عنك التفكير في الطيران قبل أن تموت أو تقتل غيرك.. أعد خدمك وجد لنفسك زوجة صالحة تنجب لك بنينًا وبناتًا، فالحياة لا تتوقف بموت زوجة أو ابنة، بل تستمر مادام في الروح رمق.. انسَ حزنك وتمسك بالأمل، ألا إن بعد الأتراح تأتي الأفراح، وبعد الليل يأتي النهار، وبعد الشتاء يأتي الربيع، وبعد الفشل يأتي النجاح، هكذا تدور عجلة الحياة، مر يحمل على ظهره حلوًا، وحلو يحمل مرًا، يترادفان يومًا بعد يوم، حتى يطوي الله الصحف، ويأمر الشمس بالتوقف، ليحاسبنا على ما كنا نقترف»

وصرخ (معتصم) في وجهه:

ـ «مه أيها الزنديق! ثكلتك أمك! إنك شر الخلق وأبعدهم عن الحق، فكيف تقول بأن الكلب لا يطير وهو والله أطير الطيور، وبأن السمكة لا تمشي

وهي تهرول أفضل من خالتك؟ لم يبقَ لك إلا أن تدعي بأن هذا الباب خلفك لا يتكلم وهو يتكلم بفصاحة ويحكي حكايات أروع مما تحلم به جدتك في أجمل لياليها»

وأخذ يكلم الباب ويقول له:

ـ «أخبره، أخبره أيها الحكيم بأنه على خطأ في ادعائه بأنني لا أستطيع الطيران إلى ابنتي وزوجتي»

وصمت للحظة، ثم قال وهو يضحك: «هل سمعت؟ لقد قال بأنك مجرد خادم أجرب.. ها، ها، ها.. خادم أجرب»

وراح الخادم يضرب كفًا بكف وهو يزم شفتيه إلى الأعلى ثم جلجل:

ـ «والله إنك أشد جنونًا مما ظننت!»

وخرج من غرفته متجهًا إلى أسياده، وجدهم بالسرداب، لقد قاموا بكسر قفله وقفل الغرفة اللصيقة به، غريب أن تكون لهم القدرة على تحطيم القفلين، مع كل الرضوض التي في أجسامهم، بلا ريب هم يبحثون عن المزيد من تلك البذور، هل يمكن أن تكون ثمينة إلى هذه الدرجة؟

ما أن رآه (إزم) حتى قال له وهو يزحف على الأرض:

ـ «لا أعلم أين يمكن أن يكون قد وضع ذلك اللعين البذور الأخرى التي قال أنه يملكها؟»

وأجابه ساخطًا:

ـ «سيدي، إنه يظن بأن الأبواب تتكلم، شخص مثل هذا لا يمكن معرفة ما يعشش في عقله»

ـ «فلتبتلعه الأرض! هيا يا عزيزي، خذنا إلى العربة، فلا شك بأننا لن نهتدي إليها حتى لو قلبنا البيت كله رأسًا على عقب»

بتؤدة، ساعدهم على الوصول إلى العربة وعلى صعودها، فانطلق بها، ووجدت الأسرة الابنة تبكي بحرقة، شعروا بالأسى نحوها، لذلك نزعوا عن فمها تلك الكمامة، فقال لها الأب بعد أن حكت لها أمها ما كان منهم مع ذلك المجنون:

ـ «هوني عليك يا بنيتي، لقد حققنا المطلوب ونحن نستحق رضى السيد...»

لكنها قاطعته:

ـ «بل أنتم من تستحقون رضاه وحدكم، أما أنا فلا»

ـ «ولِمَ لا يا باذنجانتي؟»

ـ «هذا لأنني لم أقاسِ الويلات التي قاسيتموها لإحضار البذور، فانظروا إلى أنفسكم، لكل منكم كدمة في جسمه، أما أنا فسليمة البدن.. كيف ألقى السيد وأنا أشعر بأنني مقصرة في حقه؟»

ـ «لا يا ابنتي، أنت لست مقصرة.. نحن من حبسناك»

وباغتته بطلب تجمدت له فرائصه:

ـ «هل تستطيع قول ذلك للسيد إذا سألك لماذا أنا سليمة البدن بينما أنتم مرضوضون؟»

فراح يفكر لوهلة ثم صاح:

ـ «وما الذي يدعوا السيد إلى طرح سؤال كهذا!؟»

صمت بضع ثوان ثم استأنف:

ـ «بالطبع لم أكن لأكذب على السيد، ولكن...»

وقبل أن يكمل كلامه هتفت به:

ـ «إذن فقوموا بضربي، وهكذا لن يغضب مني عندما يراني مليئة بالرضوض، وبالتالي لن يسألك هذا السؤال»

ـ «ولكن... لا شك أنك تمزحين!»

وصرخت: «أنا لا أمزح! اضربوني أو فكوا وثاقي لأرمي بنفسي من العربة لعلي أحصد بعض الكدمات!»

وقال لها أخوها: «لك ما تريدين»

ثم نزل عليها ضربًا، لينضم إليه الوالد والوالدة، فأخذت الفتاة تقول بسعادة خلال ذلك:

ـ «أجل، هكذا، هكذا، اكسروا عظامي، اكسروا عظامي...»

عندما فقدت وعيها، توقفوا عن ضربها، ظن الأب أنها ماتت، جسَّ نبضها، ما تزال على قيد الحياة، حمدوا الله، اتفقوا على ألا يوقظوها من إغمائها أو يطببوها إلا بعد وصولهم إلى القصر.

وجعلت الخيول تخب بكل ما أوتيت من قوة وسط ليل مقمر هادئ يقطعه من وقت لآخر عواء الذئاب، حين سمع الحوذي أصوات الضرب، لم يتوقف بالعربة، وذلك لأن سيده أمره ألا يتوقف إلا عند بلوغ القصر.

لكنه سرعان ما اضطر إلى ذلك حين لاح وسط الطريق في نفس المكان الذي تعرضوا فيه للسرقة ستة رجال يتحلقون حول نار كبيرة، راحت الخيول تخفف من سرعتها حتى توقفت أمامهم، إنهم لصوص، جذب الخادم أرسنة الخيول ليحثها على التقدم واختراقهم، إلا أنها قبل أن تتحرك انقض الرجال عليها وأمسكوا بها، خطر له أن يهرب، بيد أنه قبل أن يتحرك، ضرب حجر رأسه فهوى من فوق العربة.

في هذا الوقت فتح (إزم) النافذة الصغيرة بالمقصورة المطلة على مقعد الحوذي، فإذا به يرى هؤلاء الرجال يطوقون العربة، بسرعة أقفلها، أخذ يولول، فلما سألته زوجه وابنه عما يجري، أنبأهما بأن قطاع طرق استولوا على العربة. تولاهما خوف شديد. فهتف الابن:

ـ «كيف السبيل إلى إنقاذ البذور؟»

ورد الوالد وعيناه تقدحان شررًا:

ـ «الموت أهون علي من السماح لهم بأخذها.. فلأخبئ مفتاح الصندوق»

وضع المفتاح بفجوة وسط أحد ركائز المقصورة، فجأة ضجت العربة بصوت مهول يصم الآذان، أغمضوا أعينهم على نحو لا شعوري، فلما فتحوها فوجؤوا بالباب وقد خلع من مكانه، خطى نحوهم اللصوص مدججين بالسيوف، طلبوا منهم الاستسلام، فأجابوهم إلى ذلك، معلنين بأنهم لا يملكون مالًا ليعطوه لهم.

أخرجوهم بعنف، راحوا يئنون متوجعين، قال لهم الأب بأنهم محطمون وترجاهم أن يرفقوا بهم، أمروهم بالجلوس بجانب تلك النار ففعلوا، عاد أحد الرجال إلى الفتاة، بعد محاولات متكررة فاشلة لإيقاظها، حملها وألقاها بالقرب منهم. قلبوا العربة عاليها على سافلها، باحثين عن أشياء ثمينة، أخرجوا كيسي الباذنجان والجزر، ناهيك عن صندوق البذور، أفرغوا الكيسين فتدحرجت كرات الباذنجان وحبات الجزر، انتصب (إزم) واقفًا وهم بإحضار كرات الباذنجان، لكن أحد الرجال وجَّه سيفه نحوه وهدده بالقتل إذا لم يجلس، أطاع منفجرًا بالبكاء، راح ابنه وزوجه يبكيان أيضًا، أمسك أطول رجل في العصابة صندوق البذور بين يديه فأنشأ يحاول فتحه، لم ينجح، أخذ يحركه ويصيخ السمع إلى ما فيه.

فاقترب منهم وسألهم:

ـ «ماذا يوجد في الصندوق؟»

لم يجبه أحد، كانوا ما يزالون يبكون بحرقة، فصرخ فيهم:

ـ «كفى! قولوا لي ماذا يوجد في الصندوق وإلا قتلتكم!»

مرة أخرى لم يَنْدَ عنهم جواب، وضع الصندوق أرضًا، تناول حجرًا كبيراً، رفعه إلى السماء وألقاه عليه فتهشم وتناثرت منه البذور، أصيب بالخيبة، كان يظن بأنه يحتوي على جواهر ثمينة، حمل البذور وأخذ يديرها بين يديه، عرفها، قال لأصدقائه:

ـ «إنها بذور، في غالب الظن أنها بذور باذنجان»

سدد ركلة إلى الصندوق ثم أضاف:

ـ «فتشوا جيوبهم لعلكم تجدون فيها مالًا»

تألقت أسارير (إزم) وزوجه وابنه لما رأوا رجال العصابة تخلوا عن البذور. مع ذلك، ابتلعوا فرحتهم، مخافة إثارة ريبتهم فيغيرون رأيهم. كانت جيوبهم فارغة كجيوب المعدمين، لم يعثروا فيها على درهم واحد، غضبوا حتى هموا بضربهم، لولا أن توسلوا إليهم ألا يفعلوا لأن أجسامهم لا تحتمل ضربة واحدة.

عاد رجال العصابة إلى العربة وشرعوا بالدوران حولها.

سمع (إزم) وزوجه وابنه أحدهم يقول:

ـ «إنها عربة قوية.. إذا بعناها فسنحصل على مبلغ جيد»

أراد (إزم) أن يعرفهم بنفسه ويعدهم بمبلغ كبير إذا حملوهم على العربة إلى برتات، لكن ابنه همس له بعد أن فطن إلى ما يدور في ذهنه:

ـ «إنهم مجرمون.. لن يستنكفوا عن أخذنا رهائن وقتلنا مقابل المال.. أفضل شيء هو الصمت حتى ينخلعوا ومن ثم نتدبر أمرنا.. لا تقلق، المهم ألا يسرقوا البذور والباذنجان»

اقتنع (إزم) بكلام ابنه. لم يطل التفاف الرجال حول العربة إلا قليلًا ثم ركبوها وغادروا. نهض الابن وأمه وأنهضا (إزم)، اتجهوا إلى الصندوق الثمين،

وضعوا فيه البذور، خطوا نحو كيس الباذنجان، ملؤوه بالباذنجان، ثم اتجهوا صوب الابنة، فكوا وثاقها، أيقظوها من إغمائها، لم تعرف أين هي ولا ما حصل للعربة، فحكت لها أمها كل شيء بينما ذهب أخوها وأبوها للاطمئنان على الخادم.

لم تكن إصابة هذا الأخير بالخطيرة جدًا، لذلك سرعان ما استيقظ بعد إسناده على إحدى الأشجار وتحريكه قليلًا.

وبعد برهة اجتمع الخمسة حول تلك النار التي أوقدها اللصوص وطفقوا يفكرون فيما يفعلونه.

فلم تلبث أن صاحت الابنة: «ما رأيكم أن نمشي إلى المدينة، بانتظار أن نصادف وسيلة نقل نركب عليها؟»

وتبادلوا نظرات تساؤل فيما بينهم، فما هي إلا أن صاح الأب:

ـ «هذا عين الصواب»

ولم يجد الخادم بُدًا من القول له:

ـ «ولكنك تعرج على رجلك يا سيدي، ولن تقوى على المشي»

بيد أنه رد غاضبًا:

ـ «بلى، أقوى على المشي.. المهم هو أن نصل إلى المدينة بأقصى سرعة لكي نزرع الباذنجان»

واستغرب الخادم مرة أخرى من الحب الكبير الذي يكنه أسياده للباذنجان، وحرصهم الشديد على الوصول إلى المدينة بسرعة من أجل زراعتها، حتى لو كان ذلك على حساب صحتهم، فهَمَّ أن يقول لـ(إزم) بغضب: «فلينتظر الباذنجان اللعين إلى حين وصولكم سالمين!»، لكنه لم يقل شيئًا خوفًا من أن يضربوه.

وسرعان ما أقنع نفسه بأن حبهم للباذنجان ناتج عن أسباب مادية، فمن دون شك أن ثمنه سيرتفع في الأيام القادمة، لذلك حري به أن يستغل هذه الفرصة لزرعه في الحقل الذي يملكه شمال المدينة لعله يجني من ذلك ثروة.

وفي اللحظة التي تغلغلت فيها هذه الفكرة إلى أعماق روحه صاح بهم في فرح غامر: «نعم، زراعة الباذنجان فوق كل اعتبار، إذن هلموا بنا إلى المدينة فبانتظارنا حقول كثيرة لزرعها»

ومن شدة حماسه حمل (إزم) على ظهره، التقط شعلة من النار، ثم انطلق مهرولًا على الطريق. فلحق به الابن والابنة والأم حاملين كيس الباذنجان وصندوق البذور.

كان مشيهم سريعًا في البداية، لكن ما إن مرت ساعتان وذَرَّ الفجر قرنيه في السماء حتى انخفضت سرعتهم، وألمت بهم الأوجاع واشتدت عليهم وطأتها، فلم يعد الخادم يستطيع حمل سيده، وهكذا توقف وأفضى إليه بذلك، وعكس ظنه فـ(إزم) لم يغضب منه، بل أثنى على صلابته وصبره وهو ينزل عن ظهره، واقتنص الآخرون هذه الفرصة ليأخذوا قسطًا من الراحة، بيد أن صوت ارتطام عجلات قادم من ورائهم اخترق السماء في هذه اللحظة، فأتْلَعوا آذانهم وراحوا يصغون.

ـ «إنها عربة، قد يكون أصحابها أناس من المدينة نعرفهم فيحملوننا معهم»

قالت الأم، شعروا بالفرح، لكن الخادم هتف محذرًا:

ـ «ولعلهم لصوص.. سيقطعون رؤوسنا لا محالة عندما لا يجدون لدينا ما يسرقونه، فهلموا بنا نختبئ في مكان لا يروننا فيه»

وافقوا على رأيه، لكنهم قبل أن ينجحوا في الاختباء، ظهرت العربة، فلما نظروا إليها عرفوا أنها العربة التي سرقت منهم. يبدو أن الرجال الذين

سرقوها قرروا في البداية الذهاب إلى زرهون لبيعها هناك لكنهم سرعان ما غيروا رأيهم وقرروا بيعها في مدينة برتات. حين رأوا (إزم) ومن معه عرفوا أنهم ذاهبون في نفس اتجاههم فخافوا أن يشكوهم إلى والي المدينة ويتسببوا بحبسهم، لذلك انقضوا عليهم وربطوهم إلى مجموعة من الأشجار وكمموا أفواههم ثم أكملوا طريقهم.

الفصل 24

بعد المرور على عشرات البيوت، أمر (سفيان) الجمع الذي معه بمرافقته نحو المضمار، باعتباره أوسع مكان يستطيع تناول كل تلك الأطعمة والمشروبات التي يحملونها. طوال الطريق إلى المضمار، كان كل من يلتقيه يأمره بالذهاب إلى منزله وإحضار ما فيه من الأطعمة والمشروبات والقناديل والشموع ثم اللحاق به.

ولما بلغ المضمار صعد إلى المنصة المخصصة لأكابر الناس، جلس على الكرسي الذي تعود الوالي أن يجلس فيه، ثم أمر الناس بخلع باقي الكراسي في المنصة ووضع الطعام في الساحة ناهيك عن توزيع القناديل والشموع على كل أرجاء المضمار، فأنشأوا ينفذون أوامره وهو يقتعد ذلك الكرسي وينظر إليهم باستكبار.

ولم تمضِ دقائق حتى كان المضمار يتلألأ بمئات القناديل والشموع ويتضوع بمختلف روائح الأطعمة، أعجبه المنظر، طلب من الناس الصعود إلى المدرجات والجلوس فيها، وبينا يتأمل المضمار في سعادة إذ لفتت انتباهه في الساحة جرار مليئة باللبن، سال لعابه سيلانًا، أحزنه صغر حجم الجرار، لو كانت كبيرة لسبح فيها! أي رغبة هذه! ولم لا؟ إنه يستطيع فعل كل شيء.. لقد جرب آلام الحرمان طوال حياته، فما العيب في أن ينال شيئًا من السعادة؟

وتذكر صهريجي الماء الموجودين بحديقة المدينة، فعَنَّ له أن يأتي بهما ويملأهما باللبن، وهكذا أمر بعض الرجال بإحضارهما، كان يبلغ حجم كل صهريج مترين طولًا وثلاثة أمتار عرضًا، وهما مصنوعان من الخشب،

ويستعملان لسقي الأشجار والنباتات الموجودة بحديقة المدينة. بعد نصف ساعة جيء بهما على عربتين ضخمتين، فوضعا بالساحة وأحيطا بالسلالم، وملئ أحدهما باللبن والثاني بالماء.

صعد إلى الصهريج المليء باللبن، فارتمى فيه بثيابه وجعل يشرب ويسبح ويصرخ كالمجنون: «أنا غني! أنا غني!»، وحينما شعر بالتعب خرج من الصهريج، طلب من كل الأطفال بالمدرجات الذين يعرفون السباحة، الارتماء في صهريج اللبن والسباحة فيه، ففعلوا وهم من الفرح في غاية. انتقل إلى الصهريج المليء بالماء، اغتسل فيه ثم خرج مبلل الثياب، جعل يدير عينيه في الناس باحثًا عن رجل يرتدي ملابس أنيقة، فجأة سقطت عيناه على رجل غني يرتدي جبة جميلة، نادى عليه.

جاء هذا الأخير وهو في غاية السرور. سأله:

ـ «أين تسكن؟»

ـ «خلف المضمار»

ـ «اذهب إلى بيتك وأحضر لي ما تستطيع حمله من خيرة ملابسك.. ولكن أحضرها بسرعة.. سأعد حتى العشرين، فإذا لم أجدك أمامي حين أنتهي من العد سأعاقبك»

ـ «السمع والطاعة»

وما أن أشار إليه بالانطلاق حتى راح يعدو كالفهد، قصد منزله، صعد إلى الغرفة التي توجد فيها خزانة ملابسه، بلهفة استخرج منها أفضل ثيابه، وضعها في كيس ثم ركض عائدًا إلى المضمار والخوف يكاد يصعقه من الوصول متأخرًا.

وفرح أشد الفرح حين ألفى (سفيان) لم يبلغ العشرين في العد، سلمه الكيس، شكره (سفيان) وهم أن يطلب منه خلع جبته، لكنه أحجم عن

ذلك في آخر لحظة حينما وجد في الكيس جبة أفضل منها، وطلب منه الرجوع إلى المدرجات، ثم ذهب إلى إحدى الزرائب القريبة من المسار الدوار وارتدى هذه الجبة، وعاد إلى الساحة ثم طلب من الأطفال أن يغتسلوا في صهريج الماء ويذهبوا لمنازلهم ويغيروا ملابسهم ثم يعودوا بسرعة، فانطلقوا راكضين، ارتدوا ملابسهم وقفلوا راجعين، ألفوه يأكل بالساحة، دعاهم لمشاركته الطعام هم وكل الأطفال الموجودين بالمضمار، ومازال في أكل وشرب حتى شعر بالنعاس، فأمرهم بالنوم في أماكنهم حين يشبعون، صعد إلى المنصة، صرخ في الناس بحراسته وعدم لمس الطعام، ثم نام من فوره على الأرض الصخرية قرب ذلك الكرسي الوثير دون أن يتغطى بشيء.

وعندما انبلج النهار، استيقظ نشطًا جذلًا، كانت الساحة تغص بعشرات الأطفال القرع النيام، والمدرجات بمئات الناس القرع اليقظى. يبدو أنه ما إن نام ليلًا حتى دخل المضمار الأطباء الثلاثة بعربات تحمل خليطهم العجيب، فأخذوا يصيحون: «دواء الشعر! دواء الشعر!»، صاحوا في البداية بصوت مرتفع، ثم بصوت خافت حينما رأوه نائمًا، تحلق من حولهم الناس بهدوء، فوزعوا عليهم الدواء. وحينما أصبح جميع الناس بالمضمار قرعًا قام الأطباء بتلطيخ رؤوس الأطفال النيام بالخليط وأسقطوا شعرهم.

استغرب (سفيان) كيف تخلصوا من شعرهم، صاح باسم (مسعود)، فإذا بعشرة رجال يحملون نفس الاسم يهرولون إليه، سألهم جميعًا كيف صار الناس بالمضمار قرعًا، فأجابوه بأن أطباء المدينة هم من جعلوهم كذلك بواسطة مستحضر صنعوه، فاستدعى الأطباء الذين انتهوا للتو من دهن رؤوس قوم التقوا (سفيان) البارحة ودخلوا المضمار قبل ساعة، وما أن مثلوا بين يديه حتى شكرهم ومدحهم بالأذكياء وأمرهم أن يصنعوا على جناح السرعة المزيد من ذلك الدهان، وأن يقوم اثنان منهم بإحضار نصفه إليه

والنصف الآخر يأخذه الطبيب الثالث فيمر على البيوت التي على أبوابها علامة فيدخلها ويقرّع الحيوانات التي فيها ناهيك عن كل حيوان يصادفه في المدينة له عينان فيروزيتان، فانصرفوا في جد وحيوية.

ولما غادروا صاح سفيان: «أيها الناس!»، وفي هذه اللحظة استيقظ كل الأطفال من النوم وانتبهوا إليه كالآخرين، فاسترسل مبتسما في وجوههم: «أحضروا إلى هنا كل إنسان في المدينة ترون على رأسه شعرًا، إذا قبل القدوم معكم طوعًا فلا تؤذوه، وإذا رفض فاضربوه حتى يذعن»، وتوقف عن الكلام هنيهة، فكر ثم أضاف: «سأعين (مسعودًا) قائدًا عليكم، فأطيعوه، ومن وجدتموه في طريقكم بعينين فيروزيتين، فاطلبوا منه مساعدتكم»

فانصرفوا، كان فيهم من كل عمر نفر، ومع أن بعضهم كانوا مرضى إلا أنهم أبو إلا أن يشاركوا في المهمة، ومن استطاع المشي بين الشيوخ وقف على رجليه ورافق الركب، ومن لم يستطع طلب من أحد أبنائه أو أقاربه حمله على ظهره.

بمجرد أن يصادفوا أحدًا مختلفًا عنهم ينقض عليه ثلاثة من أقرانه ثم يقودونه إلى المضمار إما طوعًا أو كرهًا. والتقى الجمع بجنازة فيها رجال ونساء، عددهم قرابة الثلاثين، رؤوسهم ليست قرعاء، وأعينهم ليست فيروزية، كانوا يحملون ميتًا باتجاه مقبرة قريبة ليواروه الثرى في جو من البكاء والنواح. سدوا عليهم الطريق ووقفوا لهم بالمرصاد، فصاح بهم (مسعود): «قفوا! سلموا أنفسكم ولا تضطرونا لضربكم!»

بسبب رؤوسهم القرعاء وأعينهم الفيروزية، دهش منهم مشيعو الميت وفزعوا وتساءلوا هل هم إنس أم جان، وحينما حدقوا في وجوههم جيدًا بدوا لهم مألوفين، فبينهم أقارب وأصدقاء، وليتأكدوا من هويتهم نادوا عليهم بأسمائهم، بيد أن القرع أصموا آذانهم وطلبوا منهم مرة أخرى

مرافقتهم إلى السيد مهددين إياهم بالضرب في حالة الرفض، فسألوهم من هو هذا السيد، فلما أجابوا باقتضاب أنه صاحب الشعر الفيروزي زموا شفاههم إذ لم يعرفوا عمن يتحدثون ومضوا قُدُمًا لدفن الميت، الأمر الذي أغضب القرع فانقضوا عليهم انقضاض الجراد على أوراق الشجر، وداروا بهم كالعاصفة الهوجاء، فاصطدمت الجباه وتلاطمت الأيدي، وفر بعضهم لما رأى الشراسة التي يضربون بها، لكنهم لم يبتعدوا كثيراً، فلقد ركض خلفهم نفر من القرع وأحضروهم بالركل واللكم.

ولم تمضِ ساعة حتى كان كل واحد من موكب الميت مشدود اليدين والرجلين من طرف أقرعين أو أكثر. وتجدر الإشارة إلى أن الرجال كانوا يقبضون على الرجال والنساء على النساء والأطفال على الأطفال والشيوخ على الشيوخ، والحق أن منظر إمساك الشيوخ للشيوخ وإجبارهم على المشي كان منظرًا مضحكًا جدًا.

وبقي الميت المسكين مطروحًا أرضًا لا يوقره أحد، تطأ عليه الأقدام، كما لو كان مجرد جيفة على قارعة الطريق، ولكن ما أن انتهت المعركة وأمر (مسعود) القرع بقيادة المقبوض عليهم إلى السيد صاحب الشعر الفيروزي حتى صاح ابن المتوفى، وقد أصيب برضوض مؤلمة وبالكاد استطاع أن ينطق بما نطق به: «ولكن أرجوكم لا تنسوا أن تحملوا معنا والدي الميت»

وفي هذه اللحظة انتبه القرع إلى الميت المسجى على لوح، وراحوا يفكرون: «هل الموتى يدخلون في قائمة من طلب منهم سيدهم إحضارهم أم لا؟»

فسأل (مسعود) ابن الميت: «هل والدك أقرع؟»

واندهش هذا الأخير من سؤاله فلم يحر جوابًا، وجعل يفكر فيما يجدر به قوله، وخبرته نفسه أن يقول الحقيقة، لكنه تردد، فماذا لو فاه بما يدفع هؤلاء المجانين من حوله إلى إلقاء والده في يم أو إطعامه للكلاب! بعد أن نفد صبره، تهالك (مسعود) على والده أمام دهشته ونزع الكفن عن رأسه،

حتى إذا وجدها مليئة بالشعر، قام بتغطيتها ثم أشار لبعض الرجال في سن الميت قائلًا: «احملوه، سنأخذه معنا»

واندفعوا إلى المضمار، ولم يقاوم أحد، خوفًا من تلقي المزيد من الضرب، وما أن بلغوا السيد حتى راح ذوو الشعر يترجونه أن يشعّرهم، ولقد وصل قبلهم بدقائق الطبيبان (هشام) و(عبد القادر) مع عربتين محملتين بالخليط العجيب، ولقد كانا سعيدين جدًا بقدرتهما على صنع الخليط في ذلك الوقت القياسي بمساعدة زميلهما (حسن).

كان معهم المزيد من المال عندما خرجوا من المضمار لتنفيذ أوامر (سفيان)، فلقد حملوا البارحة ليلًا كل المال الذي يملكونه، إذ استخرجوه من الصناديق التي يخزنونه بها، دون أن يشرحوا شيئًا لزوجاتهم أو أولادهم الذين لم يلتقوا (سفيان)، ودون أن يعبأوا بالصدمة التي ارتسمت على وجوههم برؤيتهم قرعًا. تفرقوا، (عبد القادر) ذهب لإحضار التراب وعشبة القمرية، و(هشام) إلى سوق الخضر لإحضار الفواكه ثم أوراق التين، و(حسن) إلى المختبر لحلب تلك الحيوانات. ولم تكد تمر ربع ساعة حتى عاد (عبد القادر) و(هشام) بعربتين محملتين بالتراب والفواكه وأوراق التين والقمرية، فعبرا بوابة المختبر ثم أفرغا العربتين في الباحة.

وطفقا يناديان على صديقهما (حسن)، لم يجبهما، دلفا إلى الداخل وراحا يبحثان عنه، لا أثر له، وكانت تلك الحيوانات الثلاثة في الغرفة حيث ربطوها البارحة تتناول العلف، إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ راحا يفكران، الوقت يداهمهم، ويجب ألا يتأخروا.

واندفعا يحاولان حلب الحيوانات، لكن لم يحصلا منها ولو على قطرة حليب واحدة، وسمعا صوت عربة تدخل المختبر، خرجا إلى الباحة، ألفيا (حسن) يقود عربة محملة ببرميل خشبي، ومن شدة لهفتهما سألاه مرة واحدة ماذا في البرميل، فقال لهما في صوت مكدود:

ـ «لقد جفت ضروع الحيوانات، فلم يكن أمامي إلا البحث عن الحليب في حيوانات أخرى من نفس فصيلتها، وهكذا خرجت كالمجنون أركض باتجاه الحقول والأحراش، أنظر هنا وهناك، وأول راع لاح أمام أبصاري بقطيعه انطلقت نحوه كالصقر فاشتريت منه هذه الكمية الكبيرة من حليب الأبقار والنعاج والمعيز»

وتنفس نفسًا عميقًا، ثم استأنف:

ـ «آمل أن يكون له نفس المفعول»

وقال (هشام) مشيراً إلى حمولته:

ـ «وأتمنى أن يكون لهذه أيضًا نفس المفعول»

وقال (عبد القادر) نفس الشيء مشيراً إلى حمولته.

وشرعوا يجهزون الخليط، وما أن انتهوا حتى ملأوا به العربات الثلاث، خرجوا، رأوا بغلًا فيروزي العينين يهيم بالقرب من المختبر ويحك رأسه بالأرض، أقبلوا عليه، دهنوا شعر رأسه بالخليط فتساقط، فكان ذلك دليلًا قاطعًا على نجاعة الخليط، قصد (حسن) تلك البيوت المعلَّمة، فشرع يدخلها ويدهن بالخليط رؤوس الحيوانات التي فيها، فما أن تصير قرعاء حتى يمتلأ قلبه بهجة وسرورًا.

واتجه (هشام) و(عبد القادر) إلى المضمار، أمرهما (سفيان) بالمرابطة أمام العربتين وتوزيع الدهان على أتباعه الذين ما يزال الشعر يكسوا رؤوسهم، وفي هذه اللحظة لاح ذلك الجمع الذي يقوده (مسعود)، فهرول إليه الغرباء يطلبون رضاه، فمسح على رؤوسهم وغمز الطبيبين بالتكفل بهم، وأفضى إليه (مسعود) بأنهم أحضروا ميتًا ليس أقرعًا وسأله ماذا يفعلون به، فأخذ يضحك بصوت مرتفع حتى دمعت عيناه، ثم طلب من ذوي الميت، الذين صارت أعينهم فيروزية ورؤوسهم قرعاء، أن يأخذوه إلى

المقبرة، ويواروه الثرى، وبعدها يحضروا ما يستطيعون إليه سبيلًا من سكان المدينة غير القرع، ونهاهم عن التعرض للموتى.

وانطلق مع البقية يذرع المدينة شرقًا وغربًا، فلم يزل يشعّر هذا وذاك ويطلب من الطبيبين (هشام) و(عبد القادر) تقريعهم حتى انتصف الليل، ثم عاد إلى المضمار، قسم القرع إلى مجموعات وعين على رأس كل مجموعة قائدًا وكلفهم بالتفرق في المدينة وإحضار غير القرع، وأبقى مجموعة لحراسته، تناول بعض الطعام ونام على المنصة.

الفصل 25

لم تُقَدّر النجاة لأسرة (إزم) وخادمهم إلا حين ضربت الضحى، مرت بالقرب منهم عجوز تركب حمارًا وتجر وراءها أربعة حمير، فلما رأتهم هرولت نحوهم وفكت وثاقهم، تنفسوا الصعداء وراحوا يلهجون بشكرها، توسلوا إليها أن تحملهم على حميرها نحو برتات، لكنها رفضت قائلة أنها ذاهبة إلى قرية (الصالحة) الواقعة على بعد خمسة كيلومترات منهم وهي على عجلة من أمرها، وعلى الفور لكزت حمارها مودعة إياهم.

تجمدوا ولم يعرفوا كيف يتصرفون، لكنهم سرعان ما استفاقوا من تجمدهم وعدوا خلفها يأمرونها بالتوقف.

جفلت الحمير، حتى أن الحمارة التي كانت تركب عليها انحرفت بسرعة عن مسارها فرمت بها أرضًا.

سقطت العجوز المسكينة على ظهرها متوجعة، وراحت تهدر وتسب:

ـ «لا غفر الله لكم! ثكلتكم أمهاتكم! أهذا هو جزاء الإحسان!؟....»

لكن أحدًا لم يهتم بكلامها، فالجميع انقض على حمار وركبه، قفلوا إلى صندوق البذور وكيس الباذنجان، حملهما الخادم ثم اندفعوا مسرعين في اتجاه مدينة برتات. لكنهم لم يكادوا يتقدمون قليلًا حتى قال الخادم لـ(إزم):

ـ «أليس من الحكمة يا سيدي أن نعود إلى العجوز ونحملها معنا؟»

فسأله (إزم) منزعجًا:

ـ «لماذا نفعل ذلك؟ نحن لا نملك وقتًا نضيعه معها»

ـ «ولكن يا سيدي، ما أدرانا أنها مسافرة لوحدها؟ من المحتمل أن تكون مسافرة برفقة أهلها، فإذا لحقوا بها وأخبرتهم بما اقترفناه في حقها فسيطاردوننا لا محالة، وبالطبع -كما لا يخفى عليك- لن نقوى على نزالهم حتى لو كانوا أجبن الجبناء»

اقتنع (إزم) بكلامه، شد لجام الحمار الذي يركبه ثم جذبه صوب العجوز، صائحًا في الآخرين باللحاق به. حين بلغوها، كانت ما تزال تهذر وتئن متوجعة من سقوطها، ساعدها الخادم على النهوض كما أمره (إزم) أن يفعل، كانت عجوزًا معتدلة القد، هزيلة البدن، مقوسة الظهر، أدمة الوجه، بتجاعيد كالأخاديد في غورها، وكانت ترتدي أسمالًا بالية: قميصًا طويلًا أحمر مرقعًا وسروالًا فضفاضًا باهت اللون، وكانت تضع منديلًا على رأسها تبرز منه على فوديها خصلات بيضاء وأخرى بنية ميالة إلى الاحمرار.

اعتذر منها (إزم) ثم قال لها بمكر:

ـ «كيف تسافرين لوحدك في هذه الطريق الخطرة أيتها العجوز المسكينة؟»

وردت وهي تئن متوجعة من ظهرها: «ومن تسول له نفسه أن يتعرض لعجوز لا حول لها ولا قوة غير شياطين مثلكم لا يملكون ذرة من الرحمة!»

ـ «لا بد أنك لست من هذه البلاد»، قال لها ابن (إزم).

ـ «أنا من قرية (البرج)، قبحك الله يا وجه النحس!»

ونزل الابن عن حماره فرفع يده لضربها، شاعرًا بقمة الغضب منها على إهانته، لكن (إزم) رماه بنظرة محذرة، فأنزل يده في حنق، فقالت له متمادية:

ـ «أترفع يدك لتصفع عجوزًا في سن جدتك؟ ألا تخجل من نفسك؟ بئس الفتى أنت! وما أتعس والدك الذي لم يربك على احترام كبار السن وتوقيرهم!»

وقال لها (إزم) لتهدئتها:

ـ «هوني عليك يا أماه.. أنا أبوه وقد علمته كل قواعد الاحترام والأدب، وعلى رأسها توقير المسنين، ولكن أنت تعلمين شباب اليوم، إن دماءهم تغلي بسرعة، فإذا شتمهم أحد ما ثاروا كالبركان وانقضوا عليه حتى لو كان طاعنًا في السن، وصدقيني، إن ابني ألطف من إوزة، وأرزن من ملك، وأهدأ من حبة باذنجان، ولولا ما لاقاه هذه الليلة من متاعب وصروف مما يفت في العضد ويبلبل العقل لما سولت له نفسه رفع يده عليك.. وهو بالتأكيد نادم على ذلك أشد الندم، ولكي أثبت لك ذلك سيعتذر منك ويُقَبِّل هامتك»

وهنا وجه الكلام لابنه فقال له بعد أن غمزه:

ـ «هيا يا بني، اعتذر من الجدة واطلب الصفح منها»

وفي لمح البصر انحنى هذا الأخير عليها، ولثم رأسها وهو يقول لها في حزن مصطنع:

ـ «سامحيني أيتها الجدة العزيزة، أنا لم أقصد أذيتك، ولو تجرأت على صفع وجهك المضيء بنور الرحمة والحكمة والعفو فلا شيء كان سيطفئ نار الندم التي كانت حتما ستضطرم في نفسي جراء ذلك إلا قطع يدي»

وتمتمت وقد وقع من نفسها كلامه موقعًا مؤثرًا:

ـ «لا بأس عليك يا بني.. لا بأس عليك»

وهنا سألها (إزم) ذلك السؤال الذي سألها إياه قبل قليل بطريقة غير مباشرة: «هل تسافرين لوحدك؟»

كان ينوي أن يصفعها لو أجابت بـ(نعم)، لكنها كانت عجوزًا ذكية وعرفت كيف تنقذ نفسها، إذ قالت:

ـ «بل إنني أسافر مع خمسة من أبنائي، وهم رجال أقوياء، لهم قلوب الأسود، يضربون الصخر بأيديهم فينكسر، ويطؤون الأرض بأقدامهم فتهتز، وقد يصلون إلينا في أية لحظة»

وارتعدت فرائص (إزم) ومن معه فلم يجد بُدًا من القول لها في رجاء:

ـ «من الضروري أن نذهب إلى برتات في الحين، ناشدتك الله أن تبيعيني حميرك كي نسافر بها.. سأدفع لك ما تطلبينه مقابلها»

فهتفت بحيوية وهي تحدق في وجهه:

ـ «أحقًا تدفع لي ما أريده؟»

ـ «أجل»

ـ «إذن ادفع لي الآن مائة درهم فأبيعك إياها»

ـ «مائة درهم مبلغ كبير! لا بأس، أنا موافق.. لكنني لا أملك هذا المبلغ الآن، فلقد تعرضت للسرقة ولم يبقَ عندي درهم واحد في جيبي.. أعدك أن أسلمك المبلغ حينما نكون في برتات»

وجعلت تنظر إليه في ريبة فقال لها:

ـ «اطمئني، لن أخلف بوعدي.. إنك ترافقين واحدا من أغنى الرجال في المنطقة، لأجزلن لك العطاء وأقنونك قناوتك لحملك إيانا على دوابك»

شرعت تحدق إلى ثيابه وثياب أفراد أسرته الممزقة فشكت في كونه غنيًا كما يدعي. رأى منها ذلك فاستطرد:

ـ «لا يخدعنك منظرنا، فلقد اعترضنا نفر من قطاع الطرق، وسرقوا عربتنا، وهم من قيدونا»

وصمت للحظة ثم سألها:

ـ «ما اسمك؟»

ـ «اسمي (منَّانَة)»

ـ «إذا كنت من المنطقة يا سيدة (منانة)، فأنت تعرفين أغنياءها.. ألا تسمعين عن رجل اسمه (إزم)؟»

طبعًا سمعَتْ عنه، فهي عجوز تحب المال حبًا جمًا، وتعرف أسماء كل الأغنياء في المنطقة، وتعرف بأنه على رأسهم، لذلك أجابته بـ(نعم). ولما قال لها بأنه هو (إزم)، انبهرت وأشرق وجهها من شدة الفرح وقبلت بعرضه.

فنزل عن حماره وقال للخادم بلهجة صارمة:

ـ «ساعدها على الركوب»

فساعدها الخادم، وبينا يفعل ذلك إذ أمر ابنه أن يساعده على ركوب الحمار الذي كان يركبه الخادم ففعل، وهكذا رحلوا جميعًا باتجاه مدينة برتات.

ولم تلبث العجوز أن أخبرت (إزم) عن سبب سفرها قائلة:

ـ «إنني يا سيدي (إزم)، يا زهرة الأغنياء، ومشكاة الفضلاء، ما أسافر بهذه الحمير إلا لبيعها، فعلى عنقي دية لقوم قتل ابني البكر ابنهم خطأ، وإذا لم أنقدهم ثلاثة آلاف درهم قبل الأسبوع القادم سيسفكون دمه»

سألها (إزم) في أسف:

ـ «ثلاثة آلاف درهم؟ ولكن هذا مبلغ ضخم»

ـ «لقد بعت كل الفدادين التي بحوزتي، وأحتاج لمئتي درهم كي أكمل المبلغ.. لذلك أردت بيع هذه الحمير...»

وقاطعها:

ـ «ولكن لن يشتريها منك أحد بأكثر من عشرة دراهم»

وردت بحزن:

- «أعلم.. ولكن...»

فانفجرت بالبكاء، فقال لها مواسيًا:

- «هوني عليك، ألم أقل لك بأنني سأجزل لك العطاء على مساعدتك لنا؟ إذن فاعتبري أنني اشتريتها منك بضعف المبلغ الذي اتفقنا عليه»

فأخذت تلهج بشكره واقتربت منه حتى حاذته ثم تهالكت على يده تلثمها، تركها تفعل ذلك، لكنه لما لمس شعرها دفعها وطلب منها البقاء بعيدًا.

واستمر الجميع بالتقدم إلى الأمام في صمت، (إزم) وأسرته ينتفون شعرهم، والعجوز والخادم يحدقون إليهم في استغراب.

عند هبوط الظلام دخلوا برتات، لم يعترض سبيلهم أحد، حين وصلوا القصر وجدوه خاليًا. ونفذ (إزم) وعده للعجوز، إذ نقدها المال الذي وعدها به، فغادرت مع حميرها التي سمح لها بالاحتفاظ بها، قاصدة أختها القاطنة بحي شعبي جنوب المدينة لتبشرها بنجاحها في جمع مبلغ الدية وتسألها أن ترسل معها أحد أبنائها لمرافقتها إلى قريتها اتقاء اللصوص.

موازاة مع خروجها من القصر، هرول (إزم) وأسرته إلى الحقل المضاء بعشرات الفوانيس، وانهمكوا في حرث الأرض وزرع تلك البذور، دون أن يتوقفوا عن نتف شعرهم. والحق أنهم كانوا تقريبًا قد تخلصوا من ثلثه. واندفع ذلك الخادم الذي رافقهم في رحلتهم يساعدهم بنشاط وحيوية.

فجأة اجتازت جماعة من القرع الفيروزية الأعين باب القصر، لما رآهم (إزم) وأفراد أسرته توقفوا عن العمل، امتلأت نفوسهم بالبهجة والفرحة متوقعين أن يكون معهم (سفيان). أقبل إليهم قائد المجموعة ومد لهم دهان القرع، فشرعوا بدهنه برؤوسهم وهم في غاية السرور.

بخلافهم، كاد الخادم أن يموت من الفزع حين رآهم، فصاح بصوت مسموع:

ـ «لاشك أن هؤلاء قوم يأجوج ومأجوج»

لكن سرعان ما زال عنه الفزع لما بلغ (سفيان) في المضمار، فلقد ركض نحوه وترجاه أن يشعّره، وما أن حصل على ما يريد حتى عدا نحو الطبيب (هشام) وطلب منه أن ينعم عليه بذلك الخليط المقدس كما سماه.

وفي هذا الوقت كانت العجوز (منانة) تركب حمارها وتجر وراءها باقي الحمير متجهة نحو البوابة الجنوبية للمدينة، كان أبناء أختها كلهم مسافرين بعيدًا، أبت المبيت عند أختها وتأجيل السفر حتى صباح الغد كما راحت تلح عليها، لسوء حظها، لم تبلغ آخر عطفة تؤدي إلى البوابة حتى سمعت من ورائها صوتًا يأمرها بالتوقف، فلما التفتت إلى مصدر الصوت رأت خمس عربات مصطفة خلفها، فجأة نزل منها ثلاثة رجال، إنهم مطاردوا الحمير: (إيدير)، (حمو) و(حدو). اقترب منها (إيدير) بينما أخذ الآخران يرميان في العربة الحمير التي تجرها وراءها، لم تصدق عينيها، صاحت بهما:

ـ «قطع الله أيديكما أيها اللصوص!»

وقال لها (إيدير):

ـ «ترجلي عن الحمار.. تقضي أوامر السيد بالتخلص من كل الحمير التي في المدينة»

ـ «والله لا أفعل ولو قطعت...»

وقبل أن تكمل كلامها وجه إليها صفعة على خدها أسقطتها عن الحمار، ثم صرخ فيها:

ـ «أيتها العجوز الشمطاء، إنها أوامر السيد، ألا تسمعين!؟»

أحست كما لو أن رأسها دار حول عنقها عشر دورات، حاولت أن تنهض لكنها لم تستطع، فبقيت في مكانها تتألم بصمت دون أن تنبس بكلمة،

خافت أن يسرقوا أموالها، تلقى الحمار الذي كانت تركبه نفس مصير الحمير الأخرى، حزموا قوائمه ثم وضعوه على إحدى العربات، ولما غادروا حمدت الله لأنهم لم يقتلوها أو يسلبوا مالها، وراحت عبثًا تحاول النهوض، وما زالت على ذلك الحال حتى ظهر أمامها جمع غفير من الناس، شعرت بفرحة عارمة، لا شك أنهم يبحثون عن أولئك اللصوص، أبصرت رؤوسهم القرعاء فخبى فرحها، استرجعت كلام (إزم) حين سألته عما يدعوه لنتف شعره، لم تنفعها هذه الذكرى في فهم ما يجري. بل زادت من حيرتها وارتباكها.

التفوا حولها، قبل أن ينطق أي أحد منهم قالت لهم:

ـ «أيها الناس، لقد سرق بعض المجرمين للتو حميري وفروا.. ساعدوني على استعادتها.. لابد أن أشكوهم للوالي فيودعهم السجن»

وراحوا يتهامسون فيما بينهم، ثم قال لها أحدهم:

ـ «السيد هو الذي كلفهم بذلك»

وصاحت غاضبة:

ـ «ومن هو هذا السيد الحقير الذي...»

قبل أن تكمل كلامها، انقضوا عليها انقضاض السباع الجائعة على فريسة عجفاء، هذا يصفع من هنا، وهذا يركل من هنا، حتى إذا فقدت وعيها تركوها، ولولا خوفهم من غضب السيد منهم لقتلوها.

وفي هذه اللحظة هرولت (لطيفة) صوبهم، الخادمة في قصر (إزم) التي أرسلها (سفيان) مع (سهام) و(ابتسام) و(نجاة) للبحث عن أفضل طباخ بالمدينة، هرولت صارخة: «أبو قنافذ، أبو قنافذ...»

الفصل 26

في اليوم الأول من تكليف (سفيان) لهن بمهمة البحث عن أمهر طباخ بالمدينة، خرجت (لطيفة)، (ابتسام)، (نجاة) و(سهام) يسألن عنه كل من هب ودب. ولم يزلن كذلك حتى قررن أنه من الأفضل أن تتكفل كل واحدة بالتحري عنه في جهة معينة من المدينة، لذلك قسمن المدينة إلى أربع مناطق فذهبت كل واحدة إلى منطقة للاستقصاء فيها، ويبدو أنهن أنفقن في هذه العملية وقتًا أطول مما كن يتوقعنه، ذلك أنهن لم ينتهين ويجتمعن مرة أخرى حتى ليلة الغد. الحاصل، كانت نتائج الاستجواب تشير إلى نفس الطباخ الذي أشارت إليه البارحة: (أحمد المراكشي).

بعد التقائهن ركضن في حماس منقطع النظير نحو بيت هذا الطباخ الواقع جنوب المدينة، والذي أخبرهن بمكانه أغلب المستجوبين الذين زكوه، ركضن وهن لا يتوقفن عن اقتلاع شعرهن بأيديهن. وتجدر الإشارة إلى أنهن حين كن يجرين تلك الاستجوابات لم يكن ينتفن شعرهن إلا أمام الناس الذين لهم أعين فيروزية، وذلك لأنهن حين أخذن ينتفنها في البداية أمام الذين ليست لهم أعين فيروزية رفضوا الإجابة عن سؤالهن وابتعدوا عنهن ظانين بأنهن مجنونات.

الأمر نفسه حدث مع كثيرين ممن كلفهم (سفيان) بمهمة معينة، ذلك أنهم ما أن اكتشفوا أن قيامهم بنتف شعرهم أمام هذا النمط من الناس يعيق إنجازهم للمهمة، حتى توقفوا عن نتفه، الأمر الذي كبدهم الكثير من الآلام، لكنهم في سبيل المهمة المقدسة الموكلة إليهم صبروا على هذه الآلام بعزيمة قوية.

كان الطباخ (أحمد المراكشي) رجلًا أسمر الوجه، طويل القامة، نحيفًا، حسن الصورة، ويبلغ من العمر الأربعين. كان يعمل في أكبر مطعم شعبي بالمدينة، ويُشاع أنه تلقى عرضًا مغريًا من طرف رجل ثري بمدينة فاس للعمل طباخًا في قصره مقابل أجر مرتفع، فأبى ذلك مفضلًا أن يطبخ للفقراء والمساكين.

إنه يحتفل هذه الليلة بزفافه. وجدت الباحثات عن أفضل طباخ بالمدينة البيت الذي يقطن فيه مزركشًا ومزخرفًا ويصدح بالأغاني والأهازيج، سألن امرأة عن مناسبة الاحتفال فأخبرتهن بأن الطباخ يتزوج، استبدت بهن الحيرة ولم يعرفن هل يفرحن أم يغضبن، ثم جعلت كل منهن تدلي بدلوها عن كيفية إخراجه من بيته وأخذه إلى صاحب الشعر الفيروزي على جناح السرعة.

قالت (ابتسام): «نهدده بإخبار كل من في العرس بأنه كان على علاقة غير شرعية بي وأنني حامل منه.. هذا سيجعله بالتأكيد يأتي معنا»

وعقبت (لطيفة): «وماذا لو رفض؟ أرى أن الحل هو اختطافه»

وأمنت (سهام) على كلامها:

ـ «أجل، هذا أفضل، ولكن قبل ذلك يجب أن نشتت انتباه كل من يحيطون به فينفضوا من حوله، وعندئذ ننقض عليه ونقيده ثم نفر به»

وقالت (نجاة) في حماس:

ـ «والله إنها فكرة سديدة، ولكن.. كيف السبيل إلى تشتيت انتباههم؟»

فهتفت (سهام) كما لو وجدت كنزًا:

ـ «حريق.. لن نجد أشد منه تشتيتا للانتباه.. لنشعل النار في أحد بيوت الجيران وما أن تتصاعد ألسنة اللهب في السماء حتى نركض إليهم ونصرخ مستنجدين»

لكن يبدو أن هذه الفكرة لم تقنع صديقاتها، صمتن لوهلة يفكرن في إيجاد فكرة أخرى. حتى إذا تعذر ذلك، حركن رؤوسهن في إشارة على القبول. وبعد برهة أخذن بالالتفاف حول منزل العريس والمنازل المحيطة به، لاختيار المنزل المناسب الذي يحرقنه، وبينا يفعلن ذلك إذ اقترحت عليهن (سهام) حرق أكبر عدد من البيوت لخلق بلبلة كبيرة في الحي، تبادلن النظر ثم وافقن، لاحظن وجود أربع منازل مظلمة فقط بالقرب من منزل العريس بينما الأخرى مضاءة، فقررن إحراقها لأنها لاشك خالية من أهلها. ولما كان الحي الذي يقطن فيه الطباخ حيًا فقيراً، فالمنازل الموجودة فيه كانت مبنية من الطين ومسقوفة بالقصب وأغصان الزيتون والصفصاف، ولئن كانت غير قوية إلا أن أبوابها الخارجية كانت مغلقة بإحكام بواسطة أقفال حديدية كما لو أن أصحابها يحتفظون فيها بثروة طائلة، الأمر الذي أزعجهن كثيراً.

أمام البيت الرابع، رحن يناقشن أفضل السبل لفتح هذه الأقفال، فجأة أعلنت (نجاة) بأنها تستطيع فتحها، نظرن إليها مستغربات غير مصدقات، أكدت لهن أنها لا تمزح ثم حكت لهن كيف أن زوجها، وهو لص معروف في المدينة سبق له أن سجن مرات عديدة بسبب السرقة، قد علمها طرقًا مختلفة لفتح الأقفال.

ما كانت لتعترف لهن بهذا الأمر لو لم تكن مضطرة، وذلك خوفًا من احتقارها ونعتها باللصة، لكن بدل أن تجدهن يرمقنها -كما ظنت أنهن سيفعلن بعد اعترافها- بسخرية واستصغار، ألفتهن ينظرن إليها بفخر واعتزاز، بل وبحسد.

ولم تلبث أن أبدت حاجتها إلى مسمار وسكين ومطرقة لإتمام مهمتها، فانطلقت (لطيفة) إلى بيت من البيوت المجاورة المضاءة، طرقته، خرج إليها شيخ طاعن في السن، أخبرته أنها موفدة إليه من أصحاب العرس وهم

يترجونه أن يسلمها مسمارًا وسكينًا ومطرقة لأنهم في حاجة إليها.

دخل إلى بيته، غاب لدقائق ثم عاد حاملًا تلك الحاجيات، مدها لها، تسلمتها منه وركضت باتجاه صديقاتها دون أن تكلف نفسها عناء شكره نظرًا لكونه ينتمي للحزب الأدنى، الحزب الذي لم يرَ (سفيان).

وانهمكت (نجاة) في العمل، فلم تمضِ زهاء عشر دقائق حتى فتحت القفل، دخلن المنزل، كان بابه يؤدي إلى باحة صغيرة، بيمينها غرف أهل الدار، وباليسار زريبة للمواشي، مليئة بالتبن وخالية من الحيوانات. فجأة وهن يتجولن فيها وجدن أمامهن أربعة قنافذ فلم يعرفن هل كانت بالبيت أم دخلت إليه معهن، راحت (سهام) تركض وراء القنافذ ولم يهدأ لها بال حتى قبضت عليها ووضعتها في كيس من الحلفاء عثرت عليه في ركن الباحة الأيسر، فاستغربت الأخريات من تصرفها هذا، وازددن استغرابا لما قالت لهن بأنها تحب هذه الحيوانات، وتحتفظ بعشرة منها في بيتها.

وقالت لها (ابتسام) مازحة:

- «تبدين مثل (أبو قنافذ)»

وضحكن جميعا من ذلك، فجأة صمتن، وقد خطرت لهن نفس الفكرة، فقالت (سهام) جاهرة بها:

- «ما رأيكن أن نستعين بهذه القنافذ ونصرخ بأن (أبو قنافذ) يهجم على المدينة؟»

فأومأن إليها موافقات.

كان (أبو قنافذ) هذا أكبر قاطع طريق بالمنطقة في تلك الحقبة، وكان يغير على المدن والقرى ليلًا ونهارًا فيسلب ويقتل ويحرق، وكان لديه جيش من ألف رجل، فباءت بالفشل كل محاولات الموحدين لاستئصال شأفته، حتى أنهم في الكثير من الأحيان قضوا على جيشه بالكامل ولم ينج منه أحد غيره،

فإذا مضت شهور قليلة فقط على ذلك نجح في جمع عدد من المنبوذين والصعاليك وكوّن بهم جيشًا قويًا جديدًا واستأنف غاراته على القرى والمدن.

أما اسمه، (أبو قنافذ)، فيُحكى بأنه قد أطلق عليه لأنه منذ نعومة أظفاره كان يربي القنافذ، وأنه يتقن التحدث إليها، بل وأنه هو نفسه في بعض الأحيان يتحول إلى قنفذ، كما يُحكى بأن قنافذه كانت تلحق بجيشه أينما ذهب، وأنها أول من يُنبه لوجوده في المكان الذي يغزوه، وأنها تقتل معه وتنقذه وتنجيه من الموت حينما يحاصر، ومع أن هذه الحكايات تبدو أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وبعيدة عن التصديق كل البعد، إلا أن معظم الناس في تلك الأقطاب كانوا يؤمنون بها ويعتبرونها حقائق لا غبار عليها.

من غرائب الصدف أن مدينة برتات كانت تتعرض فعلًا للهجوم من طرف (أبو قنافذ) في تلك الساعة من الليل، ولم تكن القنافذ الأربعة التي وجدها هؤلاء النسوة بتلك الدار تعود لأصحاب الدار، بل تعود له، والحق أن قاطع الطريق هذا كان يختبئ بإحدى الغابات غير البعيدة منذ شهر، وكان خلال ذلك يرصد المدينة ويدرس مداخلها ومخارجها، لكنه ظل مترددًا في الهجوم عليها، وذلك لأن عددًا كبيرًا من جنود الموحدين كان مرابطًا بمدينة فاس.

ولما علم بأنهم غادروا قبل أسبوع للمشاركة في إخماد إحدى الثورات في تلمسان وابتعدوا كثيرًا، قرر الليلة تنفيذ هجومه، وهذه المرة لم يكن ينوي السلب والنهب فقط، بل والحصول من السكان على البيعة، لينطلق بعد ذلك نحو المزيد من المدن لإجبارها بحد السيف على موالاته، بهدف تكوين دولته الخاصة بالمغرب والقضاء على دولة الموحدين.

وهكذا دخل من باب المدينة الجنوبي القريب من منزل الطباخ (أحمد المراكشي) في تلك الساعة قاتلًا حارسه، ولما كان صحيحًا ما يشاع عنه بأنه

يطلق قنافذه في كل مكان يغزوه، فقد انتشرت هذه المخلوقات بالمئات حول المنزل.

بعد اتفاق الباحثات عن أفضل طباخ في برتات على استغلال تلك القنافذ التي عثرن عليها للادعاء بأن (أبو قنافذ) يغزو المدينة، تعالى صوت نسوي من الخارج يصرخ: «(أبو قنافذ)!»

لم يصدقن آذانهن، على الفور هرولن نحو الزقاق، كان يعج بالقنافذ والفرسان والناس المفزوعين، رجعن إلى ذلك البيت وهن بين الفرحة والخوف.

فقالت (سهام) لصديقاتها في حماسة:

ـ «هذا ما لم نكن نتوقعه أو نتصور حدوثه أبدًا.. إن الحظ إلى جانبنا، لن نحتاج إلى إحراق أي بيت، فمن السهل اقتناص العريس التعس وسط هذه البلبلة»

وردت (لطيفة) متشائمة: «بل قولي إن الحظ يعاكسنا، فماذا لو قتلوه؟»

لكن سرعان ما هتفت (ابتسام) بتفاؤل:

ـ «لا لن يقتلوه، فنحن سنصل إليه قبلهم.. وأنا أعرف كيف أجعله يفعل ما نريده.. هيا فلتحمل كل واحدة منكن قنفذًا بين يديها ولا تتركه، فلقد سمعت بأن جنود (أبو قنافذ) لا يقتلون من معه هذا الحيوان.. ألم تسمعن بذلك؟»

أشرن إليها بالنفي، وفي الحال نفذن أمرها ثم اتجهن نحو منزل العريس، وهناك ألفين البيت في هرج ومرج، فالجميع كان يبحث عن مكان آمن يختبئ فيه.

أخذن يبحثن عن الطباخ ويسألن هذا وذاك حتى أخبرتهن عجوز بأنه يختبئ في مخزن البيت الواقع بمحاذاة باحته الخلفية، ركضن إليه، وضعن

القنافذ في الكيس الذي تحمله (سهام) ثم حطمن باب المخزن، وبالداخل عثرن على الطباخ مختبئا خلف كومة من التبن مع عروسه وأبويهما.

وقفن لدقيقة تقريبًا يتبادلن النظرات معهم، فقالت لهم (ابتسام):

ـ «ماذا تفعلون؟ هل جننتم؟ إنكم باختبائكم هنا تسهلون على رجال (أبو قنافذ) الإمساك بكم وقتلكم»

قال لها والد العريس متضايقًا منهن، وكان شيخًا طاعنًا في السن:

ـ «وماذا بوسعنا أن نصنع؟ إذا خرجنا فسيقطعون رؤوسنا أيضًا.. ليتكن فقط لم تحطمن هذا الباب!»

وردت عليه ببرودة:

ـ «كان سيحطمه جنود (أبو قنافذ) على أية حال.. نحن نعرف طريقة لإنقاذكم ولذلك جئنا إليكم.. ولكن لن نخبركم بها حتى نأخذ عهدًا من العريس بأن يحقق لنا طلبًا»

وقال لها هذا الأخير متلهفًا:

ـ «مريني وأنا أفعل ما تريدينه، المهم أن نخرج من هنا أحياء»

ـ «هل تعدني أن تعمل طباخًا هذه الليلة في قصر (إزم)؟»

ـ «هذه الليلة!؟ وهل ستكون لـ(إزم) شهية لتناول طعامي؟ من المحتمل جدًا أن يكون قد قتل، أو فر من المدينة، هذا إذا كان محظوظًا وعلم بغارة (أبو قنافذ) قبل أن يلقى عليه القبض، فمن المعروف أن (أبو قنافذ) يكره الأغنياء كراهية مميتة، وهم أول من يبدأ بقتلهم ونهبهم واستحياء نسائهم حين يجتاح مكان ما»

وهتفت به (ابتسام) في حدة: «أجب بنعم أو لا»

ـ «نعم.. المهم، كما قلت لك، أن نخرج من هذا المكان سالمين»

ـ «إذن، فاسمعوا ونفذوا ما أقوله لكم بالحرف الواحد دون تردد.. لقد بلغني أن (أبو قنافذ) من شدة حبه للقنافذ لا يلمس أحدًا بأذى إذا كان يحملها.. لذلك فالطريقة الوحيدة التي تستطيعون النجاة بها هي أن تخرجوا ممسكين قنافذ بين أيديكم.. هل هذا مفهوم؟»

ولم يستطع أحد منهم أن يخفي استغرابه، وبعد برهة قال لها الطباخ متجاوزًا اندهاشه: «ولكن كيف نحصل على هذه الكائنات؟ أليس من المحتمل أن تقطع رقابنا قبل الإمساك بها؟ ثم.. إنها متوحشة وتعض كالأفاعي»

وردت عليه (سهام) مخرجة القنافذ من ذلك الكيس: «بهذه القنافذ سنأتي بقنفذ لكل منكم»

وفي الحال خرجن، كما توقعن، لم يكن من الصعب عليهن الإمساك بتلك الكائنات، رحن يعترضن طريقها، يحاصرنها، يحملنها ثم يرمينها في الكيس، والحق أنها لم تكن تعض كما يشاع، حتى إذا انتهين فر من (سهام) قنفذها وطفقت تطارده، فلفتت انتباه فارس من جيش الغزاة، كانت أوامر سيده واضحة في مثل هكذا وضعية: من أبصر أحدًا يطارد قنفذًا فعليه ألا يتردد في قتله. تناول قوسه فأطلق سهمًا نحو (سهام) فأصابها في مقتل، ولما رأت زميلاتها ذلك حملن الكيس وفررن إلى منزل الطباخ.

أسفن أشد الأسف على وفاة (سهام)، لكن ذلك لم يثبط عزيمتهن أو يمنعهن من المضي قُدُمًا في إتمام مهمتهن المبجلة، دخلن المخزن، فتحت (ابتسام) الكيس وحملت قنفذًا فمدته للعروس، لكن هذه الأخيرة لم تكد تلمسه حتى أغمي عليها فورًا.

بحنان وليونة، شرع العريس يحاول إيقاظها.، بقيت على حالها، ونفد صبر (ابتسام) و(لطيفة) و(نجاة)، فما عدن يستطعن تضييع المزيد من الوقت معها، وهكذا تهالكت عليها (نجاة) صارخة في وجهها بغضب:

ـ «انهضي أيتها الحقيرة! انهضي!»

ورمت فوقها قنفذًا، فإذا بها تنتصب وتعول:

ـ «أبعدوه عني! أبعدوه عني!»

ويبدو أن ذلك قد أغضب العريس فارتمى على (نجاة) وصفعها على خدها بقوة، لم تقم بأية ردة فعل عنيفة تجاهه، بل قالت له بهدوء:

ـ «لقد أردت مساعدتها فقط.. لا ينبغي أن نبقى هنا لمدة أطول فقد يدخل علينا رجال (أبو قنافذ) في أية لحظة ويقتلوننا.. إذا لم تتعود زوجتك على هذه المخلوقات فكيف تحملها وتتمسك بها؟ ليكن في علمك بأنها إذا أفلتتها من يديها فسوف يقتلونها كما قتلوا صديقتنا الرابعة التي خرجت معنا قبل قليل.. ولهذا، أفضل شيء نفعله الآن هو أن نرميها بالقنافذ عسى أن تتغلب على خوفها منها»

ما أن سمعت العروس هذا الكلام حتى شعرت بأن حياتها مهددة فتجلدت وتصلبت، وأبدت استعدادًا أكبر للتغلب على خوفها، وهكذا أغمضت عينيها وانقضت على أحد القنافذ وحملته من الكيس وتشبثت به، وحذت أمها وكنتها حذوها، ثم زوجها ووالدها وحموها، حتى إذا كان كل واحد منهم يحمل قنفذًا سألتهم (ابتسام) عما إذا كانوا مستعدين للخروج بها، فأومأوا إليها، فاندفعت نحو الخارج وهي توصيهم بحكمة:

ـ «لا تفلتوها وإلا فقدتم حياتكم»

خرجوا من البيت واخترقوا الشارع متجهين نحو قصر (إزم) دون أن يوقفهم أحد، بيد أن خمسة من رجال (أبو قنافذ) كانوا يلحقون بهم خلسة منتظرين أن يضعوا القنافذ أرضًا ليحيطوا بهم ويقتلوهم، فلقد كانت مهمتهم في الجيش حماية القنافذ.

ومازالوا يعدون باتجاه قصر (إزم)، فإذا بهم يصطدمون بجمع القرع الذي ضرب تلك العجوز التي سبت صاحب الشعر الفيروزي، كانوا يحملون العجوز ويتجهون نحو المضمار، أبلغوهم بتعرض المدينة لغزو (أبو قنافذ)، فانطلقوا جميعًا للمضمار لإخبار السيد بهذا الخبر، لكن رجال (أبو قنافذ) هاجموهم وقتلوهم، فلم ينج منهم إلا من كانوا يحملون القنافذ معهم.

الفصل 27

أقبل على (سفيان) الطباخ (أحمد المراكشي) وأهله، التمسوا رضاه وتشعيرهم فمنحهم ذلك، وأقبل عليه أيضًا رجال (أبو قنافذ) المكلفين بحماية قنافذه الذين كانوا يلحقون بهم، فصنع معهم الأمر نفسه. ولفتت انتباهه في غضون ذلك القنافذ التي كانت بحوزة الطباخ وأهله و(لطيفة) و(ابتسام) و(نجاة)، والتي أفلتوها بمجرد رؤيته، وقفت قبالته تحدق فيه وتحرك رؤوسها، حينما انتهى من تشعير رجال (أبو قنافذ) مسح عليها بحذر كيلا تخزه بأشواكها، ومثلت بين يديه (لطيفة) و(ابتسام) و(نجاة)، فقالت له هذه الأخيرة بأنهن نجحن في إحضار أفضل طباخ بالمدينة كما أمرهن، وأشارت إلى (المراكشي) فخطى إليه وانحنى والأرض لا تسعه من السعادة، فأثنى عليه وعليهن، وعقبها مباشرة أفضت إليه (لطيفة) بأن المدينة تتعرض لغزو (أبو قنافذ)، ولما كان (سفيان) قد سمع الكثير من القصص عن هذا الرجل فلقد ارتاع من الخبر، وازداد خوفًا حين خبرته نفسه أن هذا المجرم قد لا يتأثر بقَصَّة شعره العجيبة، لذلك طلب من الناس وضع كل ما يحملونه وحمل المشاعل فقط ومرافقته نحو (أبو قنافذ) للقضاء عليه قبل أن يلتف حوله سكان المدينة، فمضوا معه، ومروا على دكان لبيع السيوف، فاستخرجوا كل السيوف التي فيه ثم وزعوها فيما بينهم ومنحوه أفضلها.

وكان كل من يصادفه في الطريق سواء بشرًا أم حيوانًا يضمه إلى من حوله، وحينما بلغ منزل الطباخ (أحمد المراكشي) ألفى عشرات الجثث تسبح في بركة من الدماء، وركض نحوه في هذه اللحظة شيخ نجح في الهروب من

رجال (أبو قنافذ) أثناء هجومهم على بيته، شعّره ثم سأله: «أين ذهب (أبو قنافذ)؟»، أخبره بلهجة مليئة بالحزن والأسى أنه لا يعرف، وفي ذات اللحظة أعلمه جنود (أبو قنافذ) الذين شعّرهم في المضمار بأنه من المؤكد ذهب للاستيلاء على منجنيق المدينة.

محاطًا بعشرة كلاب وأربعة ثيران وثلاثة بغال، وبأزيد من مائة شخص، من مختلف الأعمار، مدججين بالسيوف، حث الخطى، وهو يشد على سيفه بعنف، نحو الحصن الصغير الذي يوجد به منجنيق المدينة. الحق أنها ليست المرة الأولى التي يحمل فيها سيفًا، فهو يملك واحدًا في البيت، وإن كان غير حاد كالذي معه الآن، ولقد اشتراه بعد وفاة أمه وكان يتدرب به من وقت لآخر.

حين بلغوا الحصن، كان (أبو قنافذ) ورجاله ما يزالون يحاولون فتح بوابته، سمعوا صوتهم، فالتفتوا إلى الوراء، حتى إذا رأوا النور الذي يشع من رأس (سفيان) أهرعوا إليه يطلبون رضاه.

عنَّ له ألا يمسح على رؤوسهم ويأمر الرجال بقتلهم، كما فعل بعصابة (بوشتا)، لكنه تراجع عن ذلك وفعل ما يرضيهم، مفضلًا أن يستمع إليهم أولًا، وبعدها يقرر كيف يعاقبهم. راح ينظر إلى (أبو قنافذ) بتمعن، أعجبه شكله وزيه، لقد كان مربوع الجسم، أحمر الوجه، أشقر الشعر وأزرق العينين، وكان يرتدي عباءة عليها رسم قنفذ كبير. من شدة الفضول سأله:

- «ما قصتك مع القنافذ؟»

فأجاب هذا الأخير فرحًا، لأنه آثره بالحديث دون غيره:

- «إنها لسعادة ما بعدها سعادة أن أحكي لك قصتي يا سيدي.. ولدت في أسرة صغيرة تتكون من أب وأم وأختين تكبرني إحداهما بعام والأخرى بثلاث سنوات. كنا نقطن في بيت جميل، تحيط به مزرعة مليئة بالأشجار

والمواشي، ويقع على بعد فرسخ تقريبًا من مدينة وجدة. وفي الخامسة عشر من عمري صادفت أنا وأصدقائي في رحلة صيد قنفذًا مصابًا، فأحضرته معي إلى البيت منقذًا إياه منهم بعد أن عزموا على قتله. وفي البيت قمت بتضميد جراحه، حتى إذا مر شهر على ذلك شفي تمامًا وتعافى. ومنذئذ صار يرافقني حيثما أذهب. ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفت بأنه قنفذ في غاية الذكاء، فمهما حاولت التملص منه والخروج بدونه أفشل، كما اكتشفت بأنه يحبني ومستعد للموت من أجلي، فكل من تعاركت معه يهاجمه ويعضه. بعد عام، جلب أهل مدينة وجدة على أنفسهم سخط سلطان الموحدين بنقض بيعته، فأرسل إليهم جيشًا جرارًا يقوده مجرم سفاك لا يفرق بين بريء أو مذنب. البيوت التي صادفها في طريقه قبل دخول المدينة قتل أهلها كما يُقتل الذباب. من سوء الحظ، كان أهلي جميعًا في البيت لما بلغه، وكنت وحدي وقنفذي غائبين، فلقد خرجنا كما العادة نهيم في البيداء للاستجمام والصيد. حين رجعنا، وجدناهم كلهم مقتولين. لم أستطع تحمل النظر إليهم فخرجت وتهالكت على مصطبة قرب البيت وانخرطت في البكاء والصراخ، ولازلت كذلك حتى وقف عليَّ جندي من جنود الغزاة، فرفع سيفه ناويًا قتلي فإذا بقنفذي يعضه في رجله بقوة حتى رمى بسيفه من شدة الألم، فاستغللت هذه الفرصة وحملت السيف وضربته به فقتلته. دفنت عائلتي ثم رحلت، ذهبت للعيش عند خالي في مدينة تازة، لكنني سرعان ما غادرت بيته بعد معاملة أسرته السيئة لقنفذي، همت على وجهي، فجعلت أصطاد ما آكله، ولم يمضِ شهر على سفري حتى انضممت إلى عصابة لقطاع الطرق، بعد أن عرفت بأنهم يكرهون دولة الموحدين، وهدفهم الأسمى القضاء عليها. مرت خمس سنوات، فمات زعيم العصابة، وصرت أنا الزعيم، ولم أزل أهجم على كتائب الموحدين فأكبدهم الخسائر تلو الأخرى، وذات يوم كنت مع جيشي في غابة بالقرب من رباط الفتح، فهاجموني وقضوا على كل رجالي واعتقلوني،

حكموا عليّ بالإعدام، وفي نفس الليلة، تسلل قنفذي إلى السجن ليلًا وفك وثاقي، فهربت.. جمعت بعض الرجال الصعاليك، كل منهم يتخذ له قنفذًا رفيقًا، واستأنفت حملاتي»

وصمت فسأله (سفيان) وهو متغيظ منه لأنه يقتل الأبرياء:

ـ «لماذا تقتل الأبرياء؟»

ورد بأريحية:

ـ «لأنني شرير يا سيدي»

وزاد من غيظه هذا الجواب فقال له:

ـ «إنك تستحق الموت، ليس وحدك فقط، بل أنت ورجالك»

وهنا أمر بعضًا ممن حوله بأن ينتزعوا من (أبي قنافذ) ورجاله سيوفهم ويقتلوهم بها، وبينما يفعلون ذلك عاد مع البقية إلى المضمار.

الفصل 28

مع إشراق شمس الغد استيقظ (سفيان) من النوم، نظر من حوله، أطفال قرع نائمون بالساحة بين مئات الأطباق المليئة بالطعام وأناس قرع منتصبون على المدرجات، أقبل عليه بعضهم والتمسوا منه أن يشعّرهم، هؤلاء قبضت عليهم الفرق التي أرسلها البارحة، مسح برأسه على رؤوسهم، أيقظ الأطفال، تناول معهم الفطور، لما شبع نادى في الناس أن اخرجوا وأحضروا البشر والمخلوقات الأليفة بالمدينة التي ليست لها أعين فيروزية، انفضوا فلم يبق إلا هو والأطفال والطبيبان (عبد القادر) و(هشام).

جعل بالمسار الدوار يعلم الأطفال الذين يخطون خطواتهم الأولى كيفية المشي، وسط هتاف وتصفيق الأطفال الآخرين، والذين كانوا يصطفون عن يمينه وشماله. وكلما جاء جمع من ذوي الأعين غير الفيروزية شعّرهم وأمر الطبيبين بتقريعهم، حتى إذا صاروا قرعًا أمرهم بالانضمام إلى فرق البحث والتفتيش.

على الساعة الثالثة زوالًا، أقبل إليه قُوَّاد هذه الفرق، والذين أرسلهم كلهم منذ ساعة للتأكد مرة ثانية من أنه لم يبقَ في المدينة أي إنسان أو مخلوق أليف لون عينيه ليس فيروزيًا، وكان عددهم عشرين رجلًا، انتصبوا على أحد أبواب المسار ينظرون إليه بإعجاب وحب وهو يعلم الأطفال المشي، حتى إذا انتبه إليهم اقترب منهم وسألهم ما خطبهم، فأخبروه أنهم أعادوا تفتيش المدينة زاوية بزاوية كما أمرهم ولم يجدوا فيها بشرًا أو حيوانًا أو طائرًا أليفًا لون عينيه ليس فيروزيًا، وأن كل سكان المدينة يوجدون

بالمضمار، وأعينهم فيروزية ورؤوسهم قرعاء، فالتفت من حوله فألفى مدرجات المضمار ممتلئة عن آخرها.

نادى على عشرة رجال يقفون قرب المسار لا يعرفهم ثم أمرهم بالذهاب إلى أبواب المدينة لحراستها وإحضار كل داخل أو خارج منها، وفي الوقت الذي انصرفوا فيه فرحين أمر (مسعود) والقُوَّاد الذين معه بأخذ الأطفال الذين كان يعلمهم المشي إلى المدرجات وإقعادهم يمين المنصة الخاصة به، فدخل هؤلاء المسار الدوار وحملوا الأطفال بينما اندفع هو نحو جموع القرع بالمدرجات، جعل يمر وسطهم، وهم يتطلعون إليه بحب وتقدير، متمنين أن يقترب منهم أكثر.

ماذا يفترض به أن يفعل بكل هؤلاء الناس؟ هل يزحف بهم نحو قصر سلطان الموحدين بمراكش فيخلعه ويتربع على عرشه؟ هه، إنه ليس في حاجة إليهم لكي يحقق ذلك، فيكفي أن يذهب إليه لوحده، وما أن يقف أمامه حتى يبهت ويطلب رضاه ويتخلى له عن سلطانه بكل أريحية. على العموم، هو الآن لا يشعر برغبة في القيام بذلك وإن كانت هذه هي النهاية المحتومة لمن صار لديه كل هذا التأثير على الناس، إنه الآن يريد الاستمتاع بسيادته على أبناء مدينته، الذين كان في نظرهم منذ وقت قريب فقط أحقر من عبيدهم، ألا إن الأوان قد حان للانتقام من كل الإهانات والإساءات التي تلقاها على أيديهم.

وما زال يمشي بين الصفوف، فجأة اصطدم بمطاردي الحمير، فسأل تاجر الحيوانات (إيدير):

- «هل أخرجتم كل الحمير من المدينة؟»

ورد عليه بسرور:

- «أجل يا سيدي»

ـ «وأين أخذتموها؟»

ـ «لقد أقفلنا عليها في بيت لا يبعد كثيراً عن المدينة»

ـ «أحسنتم، اعتنوا بها جيدًا»

ـ «سمعًا وطاعة»

ـ «اذهبوا إلى الساحة وكلوا ما شئتم»

فانطلقوا في قمة الفرح إلى الساحة ونزلوا على الطعام كالضباع الجائعة، في هذه اللحظة لفت انتباه (سفيان) نجار وخياط غير بعيد عن المكان الذي كان يجلس فيه مطاردو الحمير سبق أن طلب منهما يوما أن يعلماه حرفتهما فطرداه بقسوة. دعا (مسعود) ثم قال له:

ـ «نادِ في الناس بأنني أطلب حضور كل الحرفيين إلى المنصة»

ففعل (مسعود) ذلك، فاندفعت جموع الحرفيين صوبه، وكانت بعض النساء بينهم، ومعظمهن تقريبًا يمارسن الخياطة، أتين في تردد، فرغم أن كلمة (حرفيين) تشير إلى المذكر فقط فهن خفن أن يقصد بها المؤنث أيضًا، شأن الكثير من الكلمات المذكرة التي ينعت بها الرجال والنساء إذا كانوا معًا.

وحين اقتربوا، قال (سفيان) لـ(مسعود):

ـ «دعهم يمرون أمام المنصة واحدًا تلو الآخر»

وشرع الحرفيون يمرون أمامه، وكان عددهم أربعين، فقسمهم إلى مجموعتين، الأولى أمرها بالصعود إلى المنصة على يساره، وفيها أربعة عشر حرفيًا، رفضوا تعليمه حرفهم أو طلبوا مقابل ذلك ثمنًا مرتفعًا، والثانية أمرها بالذهاب إلى الساحة وتناول ما تسد به جوعها، وفيها ستة وعشرون حرفيًا، لم يسبق أن قصدهم بغرض تعليمه حرفهم.

انتصب الأشرار يسار المنصة، يرين عليهم الخوف واليأس، وبعد فترة من الصمت، تعمد أن يتركهم فيها ليحرق أعصابهم من شدة القلق والتوتر، جلجل فيهم: «لقد جمعتكم هنا لكي أعاقبكم.. أتدرون لماذا؟»

أشاروا برؤوسهم نفيًا والكرب يلتهم قلوبهم. أضاف:

ـ «هذا لأنكم قساة القلوب لا تفكرون إلا بأنفسكم، لقد طرقت أبوابكم لتعليمي حرفكم، لكنكم أقفلتموها في وجهي.. ثمة من طلب مني أجرًا مقابل تعليمي، ومن رفض تعليمي بشكل قاطع.. فلماذا هذه القسوة والأنانية؟ لماذا؟»

ونفوا إقدامهم على شيء فظيع كهذا، حتى تداخلت أصواتهم بشكل مزعج، فصرخ فيهم مثيرًا الرعب في قلوبهم:

ـ «اخرسوا! اخرسوا! لا يتكلمن أحدكم إلا بعد أن يرفع يده فآذن له!»

فرفعوا جميعًا أيديهم كتلاميذ مجتهدين، فأعطى الإذن لخياط شيخ وسطهم سبق له أن طلب منه مبلغًا خياليًا مقابل تعليمه الخياطة. قال بصدق:

ـ «يا سيدي، أقسم لك أنني لم أتشرف برؤيتك قبل الآن وإلا لكنت انكببت على تعليمك الخياطة بكل تفانٍ، دون أن تدخل اللقمة إلى فمي أو يغمض لي جفن حتى أراك تخيط أفضل مني»

ـ «وهل سبق لك أن علّمت شخصًا ما غيري حرفتك بالمجان؟»

ـ «لا والله»

ـ «ولماذا؟»

ـ «إن تعليم أحد يقتضي اقتسام الدكان معه طوال النهار لمدة عام تقريبًا، وأنا لن أتحمل ذلك دون مال.. هكذا أنا يا سيدي، لا أفعل خيرًا بالمجان»

وبعد ذلك أذن لخمسة غيره بالكلام، فقال الذين يطلبون أجرًا مقابل تعليم حرفهم نفس كلام هذا الشيخ، والذين يرفضون تعليم حرفهم قالوا بأنهم يخافون كثرة عدد الحرفيين في المدينة وانقطاع أرزاقهم.

فصاح بهم جميعًا:

ـ «أيها الأنانيون! كان بوسعكم إنقاذ الكثير من الناس من التسول لكنكم لم تفعلوا، بسبب جشعكم وقلة إيمانكم! ألا قُبْحًا وتَرَحًا لكم! لتندمن على صنيعكم!»

صمت قليلًا، ثم قال لـ(مسعود) الذي لم يكن بعيدًا عنه:

ـ «خذهم إلى المسار الدوار واطلب من حداد أن يشعل نارًا فيكوي راحتهم اليمنى بالأداة الأساسية التي يستعملونها في حرفهم»

فانطلق بهم (مسعود) إلى المسار، أمرهم بإحضار تلك الأدوات من ورشاتهم على جناح السرعة لكيهم بها، فركضوا كالفهود وهم يبكون بمرارة لأن (سفيان) ساخط عليهم، ونزل (مسعود) إلى الساحة حيث يأكل الحرفيون الآخرون، اتجه نحو حداد ماهر يعرفه، أدلى إليه بأوامر (سفيان)، فهب هذا الأخير واقفًا وهرول فرحًا نحو دكانه الذي كان يبعد بشارعين عن المضمار، ولم تمض إلا دقائق حتى جاء بمعداته وأشعل نارًا بالقرب من المسار، تناول من أولئك الحرفيين الذين وصلوا قبله الأدوات التي جلبوها وجعل يكوي راحاتهم بها.

حين فرغ من عمله أشار (سفيان) إلى الحرفيين الأشرار بالعودة إلى أماكنهم بالمنصة، فسألوه وهم يفعلون ذلك ما إذا كان راضيًا عنهم، فأومأ إليهم بالإيجاب، فتألقت وجوههم سعادة وتوقفوا عن البكاء.

الفصل 29

بعودة آخر حرفي إلى مكانه بالمدرجات، طفق (سفيان) يفكر فيمن يستحق انتقامه تاليًا، رمى بطرفه إلى جموع الناس، فلفتت انتباهه فتاة باهرة الجمال مغرورة متكبرة نعتت أمه يومًا بالمتسخة حين طلبت منها صدقة.

قرر الانتقام منها ومن كل الفتيات الجميلات المغرورات بالمدينة اللواتي يسئن للمتسولين، إنه يعرفهن، لطالما اشتكى المتسولون منهن. طلب من تلك الفتاة الصعود إلى المنصة، ثم نزل وطفق يبحث عن البقية وسط الجموع، بعد نصف ساعة تقريبًا قفل إلى المنصة غاضبًا، فهو لم يجد إلا اثنتين بسبب القرع الذي حال دون تعرفه على الأخريات، وهكذا صرخ في المضمار:

ـ «كل فتاة جميلة مغرورة سبق لها أن أساءت لمتسول ما، فلتحضر إلى هنا»

وتقدمت في الحال ستون فتاة، وتعجب من أن قلة منهن فقط جميلات، فتذكر ما قاله له أحد المتسولين بأن كل الفتيات يعتبرن أنفسهن جميلات حتى لو لم يكن كذلك، ولم يعرف ما يفعله، هل يعاقبهن جميعًا؟ أم يكتفي باللواتي ذاع صيتهن بين المتسولين؟ ولم يلبث أن قرر معاقبتهن جميعًا ما دمن اعترفن بذنبهن.

أخذ يبحث عن طريقة للسخرية منهن واحتقارهن، ولما خطرت له فكرة، قال لـ(مسعود) مشيراً إلى جفنة كبيرة في الساحة كان فيها لبن:

ـ «اذهب أنت والقُوَّاد الذين عينتهم سابقًا لمساعدتك واملؤوا تلك الجفنة بالطين وأحضروها لي»

ثم استدار إلى الفتيات وصاح فيهن:

ـ «لطالما مشيتن في الشوارع والدروب على رؤوس أصابعكن من شدة الغرور والتكبر، وصرفتن الدراهم في شراء المساحيق لتزددن جمالًا على جمال، ولم تستطعن مد درهم واحد لمتسول يتضور جوعًا، بل لم تتحرجن عن شتمهم وطردهم، فلماذا هذه العنجهية والتنطع؟ لماذا؟»

وفي الحال رفعن أصابعهن وقد استفدن مما وقع للحرفيين، فسمح لبعضهن بالحديث، فذكرن حججًا زادته حنقًا عليهن، من قبيل تشاؤمهن من المتسولين وخوفهن من تأذي جمالهن بلمسهم، وحين كانت الجفنة جاهزة قال لهن جميعًا:

ـ «هيا أيتها المغرورات.. لطخن وجوهكن بذلك الطين»

وركضن نحو تلك الجفنة وتنافسن في تلطيخ وجوههن بطينها، وبعد دقائق كان وجه كل واحدة منهن مملوء بالطين لا يظهر منه إنش واحد من الجلد، فجعل يضحك عليهن، وضحك الجمهور معه، ضحك حتى أقارب الفتيات، وما هي إلا أن أمرهن بمسح الطين عن أعينهن وأنوفهن والعودة إلى أماكنهن والبقاء على ذلك الحال، ففعلن وهن يكدن يطرن من الفرح لما طمأنهن بأنه راضٍ عنهن.

وشَخَصَ ببصره إلى الجمهور باحثًا عمن يسخر منه بعدهن، فلفت انتباهه تاجر يبيع المواد الغذائية لم يسبق له أن نقده ريالًا واحدًا أو تصدق عليه بسلعة من دكانه، وكلما استعطاه قال له هازئًا أنه بدوره متسول مثله ويستحق الصدقة.

وأمره أن يأتي إليه، ثم نادى في المضمار بأن يُقْبِل كل التجار الذين يبيعون المواد الغذائية. بعد دقيقتين اصطفوا أمامه، كان عددهم ستة عشر، منهم الرجال والنساء والشيوخ. سألهم:

ـ «هل سبق لكم أن تصدقتم على متسول؟»

أجابوا كما أمرهم بالترتيب بدءًا باليمين، قال بعضهم بأنهم لم يتصدقوا أبدًا، والبعض الآخر بأنهم تصدقوا. سمح للمجموعة الثانية بتناول ما يسدون به جوعهم من الطعام، بينما صرخ في المجموعة الأولى:

ـ «أيها الشياطين البخلاء! إذا أنتم لم تساعدوا الفقراء، فمن يساعدهم يا ترى؟»

ومضى يبحث عن طريقة للانتقام منهم، وحين خطرت له فكرة، رماهم بنظرة شزراء وزأر فيهم:

ـ «لماذا تشترون السلعة بثمن ثم تبيعونها بعشرة أضعافه؟»

فكان جوابهم واحدًا:

ـ «لأنها الوسيلة الأسهل للربح»

وصاح بهم:

ـ «أولو كان ذلك على حساب المساكين! يا عقول البغال، وبطون الجمال، ومطارح الأزبال، وددت لو أن كل تلك السلع التي بعتموها بعشرة أضعاف ثمنها تصير لهبًا فيحرق جنوبكم وقلوبكم! يا شر التجار! وأفظع الفجار! يا من يأكل عرق الناس ويستحل أموالهم باسم التجارة! ألا سحقًا لكم!»

راحوا يبكون. قال لـ(مسعود):

ـ «أحضروا بعض المواد الغذائية من أقرب دكان في الحال»

فانطلق مع مساعديه بسرعة صوب دكان يقع بمحاذاة المضمار، اقتحموه، جاؤوا منه بكومة من المواد الغذائية، أمرهم أن يضعوها فوق المنصة، وحين فعلوا أضاف بحدة:

ـ «هيا فلنبدأ بالزيت.. أفرغوها فوق رؤوس هؤلاء الطماعين!»

صبوها على رؤوسهم. ثم أمرهم أن يفرغوا عليهم باقي السلع من دقيق وتوابل وغيرها، فطفقوا يصنعون ذلك، فأصبح مظهر التجار مثيراً للسخرية، فضحك هو والجمهور بشدة، ولما انتهى الرجال من إفراغ آخر سلعة فوق رؤوس التجار البخلاء، أمرهم بأخذهم للحداد ليكوي راحاتهم اليمنى بمفتاح.

وجعل يستمتع بمنظر كَيِّهَم، فلما كُوِيَ آخر رجل منهم، أخبرهم أنه أصبح راضيًا عنهم، وسمح لهم بالعودة إلى أماكنهم.

نزل عن المنصة وأخذ يتجول بين الصفوف.

فجأة توقف أمام فلاح مر عليه يومًا وهو في حقله يجني الطماطم فطلب منه أن يمنحه حبة طماطم واحدة فأبى، كان رجلا مفتول العضلات، في الخامسة والأربعين من عمره، دميم الوجه، أشار إليه بالصعود إلى المنصة، فصرخ في الناس: «فليلحق به جميع الفلاحين!»

وعلى الفور، التحق بالمنصة أزيد من مائة رجل وامرأة. انتبه إلى أن بينهم بعض تجار المواد الغذائية والحرفيين الذين عاقبهم، فصرفهم. ثم قال للآخرين:

ـ «الذين لا يمنعون المحتاجين مما تنبت حقولهم، فليخرجوا على جناح السرعة إلى دكاكين الخضاريين الأقرب من المضمار وليحضروا منها بعض الخضر والفواكه»

كان يعرف بأنهم لن يكذبوا عليه، لقد صدقه جميع المفتونين بشعره منذ البداية، كما توقع، لم ينصرف من الفلاحين والفلاحات إلا عدد قليل، لا يتجاوز عدد أصابع اليد. فراح يقول للذين بقوا:

ـ «يا أنوف الخنافس، تظنون أنكم وحدكم من تستحقون الأكل مما تنبته أرض الله! يا أنياب البخل، وجباه السحت! لماذا لا تساعدون المتسولين؟»

هم أيضًا كانت حججهم واهية بالنسبة إليه، فثمة من يخاف القحط، ومن يحتقر المتسولين لأنهم لا يعتمدون على أنفسهم... عاد الفلاحون الطيبون بصناديق فيها خضر وفواكه فأمرهم أن يضعوها على الساحة، ثم قال للآخرين: «فليضع كل منكم حبة من هذه الفواكه أو الخضر في فمه دون أن يقضمها بأسنانه ثم يتبادل الصفع مع أقرب شخص إليه ويحرص ألا تفلت الحبة من فمه»

فشرعوا في تنفيذ هذه المهمة، وتشابك الرجال مع الرجال والنساء مع النساء، وراح (سفيان) يضحك عليهم مع الجمهور.

ولما مل من هذا العرض قال لـ(مسعود) ومساعديه:

ـ «خذوهم إلى الحداد ليكوي راحاتهم اليمنى بشيء مما يزرعونه»

انقضوا عليهم، سحبوهم إلى الحداد فجعل يكوي راحاتهم. ولما انتهت هذه العملية، عادوا إلى أماكنهم سعداء بعد أن أخبرهم بأنه راض عنهم.

انتبه للوقت، الليل قد اقترب من منتصفه، يجب أن يتناول العشاء وينام، أشار للطباخ (أحمد المراكشي) بإعداد مائدة كبيرة في الساحة تسعه هو والأطفال، والحق أنه كان قد كلفه منذ ساعة بتحضير بعض الأطباق اللذيذة، نزل إلى الساحة بعد دقائق، تناول مع الأطفال تلك الأطباق، والتي استساغها كثيراً، فلم يفته التعبير عن ذلك للطباخ والإثناء عليه، ثم كلف (مسعود) ومساعديه بأن يحضروا في الحال فراشًا وثيراً له وللأطفال، فأهرعوا إلى الخارج، طفقوا يدخلون المنازل الفخمة ويحملون منها أجمل ما فيها من فراش ثم يأتون به ويضعونه إما في المنصة أو ساحة المضمار. وحين فطن (سفيان) إلى أن الفراش كافٍ، أمرهم ألا يحضروا المزيد، دعا الأطفال للنوم في الساحة، فتمدد في الفراش الذي على المنصة، وقبل أن يغمض عينيه أمر كل الناس من حوله بالمضمار بحراسته.

الفصل 30

في الصباح استيقظ مع الساعة العاشرة تقريبًا بعد أن لمسته أشعة الشمس، شَخَصَ ببصره من حوله فألفى الناس ينظرون إليه بفرح، الأطفال ما يزالون نائمين، الحق أنهم كانوا يستيقظون من وقت لآخر، حتى إذا ألفوه لم يستيقظ بعد، عادوا إلى النوم. وسرعان ما قال لهم: «هيا يا أعزائي، انهضوا»، فهبوا من الفراش الواحد تلو الآخر. طلب من (مسعود) والرجال الذين معه بأن يعيدوا الفراش إلى البيوت التي أحضروها منها، وبينا يجمعون الفراش، اتجه نحو الساحة وجعل يفطر مع الأطفال، ولما انتهى عاد إلى المنصة وجلس على كرسيه الوثير وأشار للأطفال بالجلوس في المدرجات قريبًا منه، وعقبها سأل طفلًا في العاشرة من عمره:

- «ما هو أشد شيء تكرهه؟»

فأجابه قائلًا:

- «أنا أكره الدراسة والمدرسين»

وفي الحال نادى على المدرسين الذين بالمضمار، فلم تمرَّ إلا دقائق حتى اجتمع أمامه عشرون رجلًا تقريبًا، فقال لشيخ فيهم:

- «لماذا يكرهكم الأطفال؟»

فرد مبتهجًا؛ لأنه سأله شخصيًا:

- «لأننا نملأ رؤوسهم بأشياء يمقتونها يا سيدي»

- «ولماذا لا تجعلونهم يحبونها؟»

ـ «ذلك صعب جدًا.. فهم لا يحبون إلا اللعب»

ـ «إذن فدرسوهم باللعب»

ـ «هذا مستحيل لأنهم كثر ونحن قلة»

ـ «ليس هذا هو السبب.. بل السبب هو أن التعليم باللعب شاق، وأنتم من الكسل بحيث لا تستطيعون الصبر عليه.. من منكم لم يسبق له أن ضرب طفلًا؟»

فرفع يده شاب في العشرين من عمره يرتدي ملابس أنيقة، فقال له (سفيان):

ـ «بارك الله فيك يا مشكاة المعلمين!»

وقال للأطفال: «قبلوا رأسه»

فانحنى الشاب بعد أن رأى عشرات الأطفال متجمهرين حوله، أخذوا يلثمون رأسه القرعاء، لما انتهوا، قال له (سفيان):

ـ «كل ما طاب لك من الطعام فأنت مصدر فخر لنا»

بعد أن شكره جزيل الشكر، اتجه المعلم نحو الساحة وهو يكاد يطير من البهجة وأخذ يلتهم فيها الطعام بنهم.

قال (سفيان) للأطفال: «يا عصافيري الجميلة، ليحضر كل منكم عصى، ويضرب معلمه عشر ضربات»

ووجه خطابه للمعلمين قائلًا:

ـ «وأنتم أيها المعلمون غنوا تلك الأناشيد التي تدرّسونها»

انفض الأطفال صوب مجموعة من الخمائل خارج المضمار، التقط كل منهم غصنًا ورجع به، ألفوا المعلمين يغنون، فجعلوا يضربونهم على أيديهم في فرح وسط قهقهة (سفيان) والجمهور.

ونصح (سفيان) المعلمين بعد أن انتهى الأطفال من ضربهم ألا يقسوا مرة أخرى على تلامذتهم أثناء تعليمهم لكيلا يحقدوا عليهم ولا ينفروهم من العلم وأمرهم بالعودة إلى أماكنهم مبشرًا إياهم أنه مسرور منهم، ثم نصح الأطفال بأن يحبوا العلم مهما كان مضجرًا.

نزل من المنصة وشرع يتجول بين الجموع. وإذا به يصطدم بمتسولين، ففطن إلى أنه قد جوّع متسولي المدينة، إخوانه، لثلاثة أيام تقريبًا، فعض أنامل الندم على هذا التقصير والتفريط، وقرر إصلاح خطئه على الفور، فأشار لهؤلاء المتسولين باللحاق به، فتبعوه وهم من السعادة في غاية، صعد المنصة ونادى على كل المتسولين في المضمار. فلما أتوا أمرهم أن يأكلوا ما طاب لهم، ناويًا أن يحقق لهم كل رغباتهم حين يشبعون. وفي اللحظة التي انطلقوا فيها لتناول الطعام تذكر الوالي.

فنادى على (مسعود)، فلما أتى إليه طلب منه أن يحضر الوالي، وقام هذا الأخير بالاستعلام عنه، ولما عرف مكانه، ذهب إليه فجاء به، وما أن اقترب من (سفيان) حتى أمره بربطه إلى أحد أبواب المسار الدوار القريبة وجلده أربعين جلدة.

ومازال في كرسيه يستمتع بجلد الوالي. وسرعان ما خطر له أن ثمة فقراء في المدينة ما أحوجهم للتسول لكنهم لا يتسولون حفاظًا على كرامتهم، فقرر أن يجزيهم على ذلك أحسن جزاء. ولكي يعرفهم صرخ في الناس: «فليتقدم إلى هنا من لا يجد أحيانًا كثيرة ما يطعمه لكنه مع ذلك لا يستعطي أبدًا صونًا لماء وجهه»

فتقدم أمام المنصة جمع من الرجال والنساء، ثيابهم رثة جدًا، لكن وجوههم مشرقة، أشفق عليهم أيما إشفاق، فسأل (مسعود) عن عددهم، وبعد أن عدهم (مسعود) ثلاث مرات أخبره بأنهم ثلاثة وستون.

وهتف (سفيان) بالناس:

ـ «فليتقدم إلى المسار الدوار ثلاثة وستون غنيًا بخيلًا»

وتقدم ثلاثة وستون من الأغنياء، دون زيادة أو نقصان. وقال للفقراء مشيراً لهم:

ـ «ألم يكن هؤلاء البلهاء مصدر حسدكم وحقدكم بملابسهم الغالية، ومشيتهم المتعجرفة، وكلامهم المتصنع، ودوابهم السمينة، وأبنائهم المتكبرين؟»

فأجابوا مرة واحدة: «بلى»

وسألهم: «هل سبق لأحد منهم أن أدخلكم إلى بيته، أو أشرككم في طعامه، أو جعلكم بأي شكل من الأشكال تحسون بأنه لا فرق بينكم وبينه؟»

وبنفس الطريقة ردوا: «كلا»

ـ «إذن فقد آن الأوان أن تعاقبوهم على عجرفتهم.. هيا اجلدوهم على ظهورهم»

وطلب من (مسعود) إحضار ما يكفي من السياط، فهرول إلى دكان قريب فجلبها، وأعطاها للفقراء الشرفاء كما سماهم (سفيان) فنزلوا بها على الأغنياء البخلاء، كانت كل فئة عمرية من الفقراء تجلد أختها من الأغنياء، وبعد قليل أمر (سفيان) بإيقاف الجلد، ثم طلب من الأغنياء حمل الفقراء على ظهورهم والتسابق بهم بالركض لدورة كاملة حول المسار الدوار، فحملت كل فئة عمرية من حزب الأغنياء أختها من حزب الفقراء، وقبل أن ينطلق المتسابقون طلب من الفقراء الشرفاء ضرب الأغنياء البخلاء على رؤوسهم القرعاء بأيديهم لحثهم على الجري بسرعة، ثم وعد الرابحين الثلاثة الأوائل من كل فئة عمرية من البخلاء بالسماح لهم بتناول الطعام.

وما أن أعطى إشارة الانطلاق حتى اندفع المتسابقون يركضون بكل ما أوتوا من قوة، وكان منظر تلقي البخلاء للضرب على رؤوسهم مثيراً للضحك،

لاسيما الشيوخ والعجائز، ولما انتهى السباق سمح بالفائزين الثلاثة الأوائل من كل فئة عمرية من البخلاء بتناول الطعام، كما سمح أيضًا لجميع الفقراء الشرفاء بتناول الطعام. ولما ركضوا للساحة، قرر فعل المزيد لإسعادهم، فأخذ يبحث عن وسيلة لتحقيق ذلك، وفي النهاية خطر له أن يتبرع عليهم بكل أموال الوالي، فسأل (مسعود) ومساعديه بإيقاظه من إغمائه، ذلك أنه بمجرد أن أمر (سفيان) بجلده أغمي عليه من شدة الحزن، وما أن فتح الوالي عينيه حتى أمره بمرافقتهم وتسليمهم كل ما يملكه من دراهم وجواهر، وهكذا انطلق المسكين كالسهم وكله أمل أن يرضى عنه سيده عندما يفعل ما أمره به.

بعد نصف ساعة تقريبا قفل مع (مسعود) ومساعديه يحملون أكياسًا كبيرة من الدراهم والمجوهرات، فطلب منهم (سفيان) أن يفرغوها فوق المنصة، فإذا انتهوا سأله الوالي هل هو راض عنه، لكنه صرخ فيه بأنه ما يزال غاضبًا منه وتوعده بعقاب شديد، ثم طلب من (مسعود) إعادة ربطه.

نظر (سفيان) بانبهار إلى تلك الكومة الكبيرة من الدراهم والمجوهرات التي كانت تتربع فوق المنصة على امتداد ستة أمتار، هذه أكبر كمية من المال يراها في حياته، يا له من منظر يخلب اللب! وبرقت في ذهنه أمنية لطالما استهوته واستبدت به في أحلام نومه ويقظته: أن يسبح في الدراهم، يحملها بيديه ويفرغها على رأسه ويصيح: «أنا غني! أنا غني!»

ولكن قبل أن يحقق أمنيته هذه فضل أولًا إسعاد أولئك الفقراء الشرفاء أكثر، فقال لهم:

- «هيا اسبحوا في هذه الكومة وصيحوا بأنكم أغنياء»

ونفذوا أمره، ولم يزل ينظر إليهم بفرح وحبور، وبعد مدة أمرهم بالتوقف والعودة إلى تناول الطعام، وهم بالذهاب إلى الكومة للارتماء فيها، فلمح (إزم)، فتذكر جبة زرقاء مرصعة بالجواهر رآه يلبسها السنة الماضية في عيد

الأضحى فأعجبته وخلبت لبه إلى حد أنه راح يحلم نفسه يلبسها ويتبختر بها للأيام الخمسة التي تلت، تمنى أن يرتديها الآن ويسبح بها في الكومة، وهكذا نادى على (إزم) وأمره بإحضارها فذهب مسرعًا، جاء بها في دقائق، لبسها فوق الملابس التي كان يرتديها ونط إلى تلك الكومة من الدراهم والمجوهرات وجعل يسبح فيها ويصيح بأنه أغنى رجل في العالم، مدخلًا رأسه من جهة ومخرجًا إياها من جهة أخرى.

ومازال كذلك حتى أحس بوخز مؤلم في مقدمة رأسه، لمس موضع الوخز بيده اليسرى ونظر إليها فإذا عليها دم، لقد جرحت رأسه، وعلى حين غرة استبد به فزع مهول وخبرته نفسه أنه سيموت في الحال، فنادى على الأطباء الذين كانوا مقعين أرضًا غير بعيد يشاهدونه بإعجاب وهو يسبح في تلك الكومة.

إلا أن أحدًا منهم لم ينهض من مكانه، ظن أنهم لم يسمعوه، وفي الوقت نفسه تعالت في المضمار كله أصوات وهمسات، ثم صخب، وسرعان ما رأى الجمهور ينقض على الطعام بالساحة ويأكله، فصرخ بصوت مرتفع:

ـ «(مسعود)!»

وكان هذا الأخير قريبًا منه، نظر إليه ببرودة بعينين سوداوين ثم ركض هو الآخر نحو الطعام.

ثم صرخ في الناس:

ـ «توقفوا!»

لكن صرخته ضاعت في الهواء!

الجزء الثاني : مدينة القرع

الفصل 1

كانت شمس الظهيرة تلقي أشعتها الحارة على جموع الجوعى بالساحة، لكن أحدًا لم يحس بحرارتها، فالكل كان منهمكًا بالأكل.

ولم يلبث الجنود أن انتبهوا للوالي مقيدًا بالمسار الدوار، فهرولوا نحوه فزعين وفكوا وثاقه. فقال لهم بعصبية:

ـ «ما بال رؤوسكم قرعاء ثكلتكم أمهاتكم!؟»

ردوا بأن جميع الناس قرع، بمن فيهم هو، فوضع يده على رأسه هلعًا، ولما اكتشف بأنهم على صح، شرع يصرخ ويعول، حتى إذا عضه الجوع، قفز إلى أقرب طعام إليه بالساحة، وراح يلتهمه. وفوجئ بالناس ينفضون من حوله راكضين، وإذ نظر إلى حيث يركضون، رأى المنصة ممتلئة بالمال والمجوهرات، وخبرته نفسه أن ينهض ويمنعهم من لمس هذه الأموال والمجوهرات، لكنه كان من الجوع بحيث لم يستطع أن يفعل ذلك.

وحين أخذ الناس آخر قطعة من تلك الكومة لمح (سفيان) جالسًا على كرسي وثير لوحده فوق المنصة. شاحبًا كان (سفيان) بعينيه البنيتين يحدق من حوله، واضعًا يده على رأسه لإيقاف نزيف جرحه. وحين التقت نظراتهما شعر بخوف مهول بعد أن تأكد بأن مفعول قصة شعره السحرية قد بطل، وذلك لأن الناس لم تعد أعينهم فيروزية. ولقد عزى ذلك للجرح الذي أصاب رأسه.

نظرة الوالي باتت مختلفة عن السابق؛ فإذا كانت قبل قليل مليئة بالحب والإخلاص، فهي الآن مليئة بالحقد والكراهية والتجبر والغطرسة.

نهض الوالي وتقدم إليه، وقال له والجنود يحيطون به:

ـ «أيها البغل، لماذا قيدتني؟»

اقشعر بدنه من الهلع. بغل؟ قبل قليل كان سلطانًا والآن صار بغلًا؟ كم هي الدنيا متقلبة! ولكنه فعلًا بغل، وذلك لأنه لم يقتله.

أجابه متلعثمًا: «أنا لم أفعل ذلك»

ونهره: «بلى أيها الحقير!»

وهنا تعالى صوت (إزم) قادمًا من الساحة، مخترقًا جموع الشرهين أمثاله الذين منعهم جوعهم الفظيع من الالتفات إلى الدراهم والمجوهرات فوق المنصة:

ـ «أيها الوالي! أيها الوالي! ذلك الرجل لص.. إنه يرتدي جبتي.. لقد سرقها مني»

وأخذ عقب ذلك كل الناس الذين في الساحة يشتكونه للوالي: أفراد أسرة (إزم) الذين ذهبوا في تلك الرحلة لإحضار الباذنجان وقفزوا بتلك الأجنحة حتى كادت تكسر عظامهم، اتهموه بأنه هو من ضربهم. الناس الذين تعرضوا للكي في أيديهم اتهموه بأنه هو من كواهم. ابنة الوالي الكبرى وباقي الجميلات اللواتي أمرهن أن يملأن وجوههن بالطين، اتهمنه بأنه هو من طيّن وجوههن...

كل من كان هناك راح يشتكيه، ما عدا الأطفال.

غاضبًا مما فعله به وبابنته وأهل المدينة الذين اشتكوه، أمر الوالي رجاله مشيرًا إليه: «اخلعوا جبته وخذوه إلى سجن قصري وأقفلوا عليه هناك ولا تسمحوا لأي كان بزيارته»

انقض عليه الجنود، خلعوا جبته، ثم اقتادوه إلى السجن بالصفع والركل.

سلم الوالي لـ(إزم) جبته، ثم أمر الجميع بالمغادرة فأطاعوه بعد أن وعدهم بأنه سيعاقب المجرم في حضورهم.

يبدو أن تأثير قصة (سفيان) زال ليس فقط عمن كانوا حوله، بل وحتى عمن كانوا بعيدين عنه، كحراس أبواب المدينة، والحيوانات المتأثرة بقصته.

أما الحراس فأخذوا يتساءلون مع أنفسهم ماذا يفعلون أمام أبواب المدينة، وقبل قليل فقط كانوا يتداولون ويتناقشون ويتنافسون حول أفضل طريقة لحراسة هذه الأبواب. ولما فشلوا في معرفة سبب وجودهم هناك، تفرقوا، حزانى على شعرهم الذي اختفى. وبدورها الحيوانات من كلاب وقطط ودجاج... أفاقت، وهي الأخرى شعرت بالأسى لأن رؤوسها باتت قرعاء، فراحت ترفع أصواتها حزنًا، حتى إذا برم بها أصحابها وانهالوا عليها ضربًا صمتت غصباً عنها.

وحينما خلا المضمار من الناس، اندفع الوالي رفقة جنوده يجوب المدينة بهدف استتباب الأمن فيها، فجأة اصطدم بجثث (أبو قنافذ) ورجاله. انتابه الفرح. على الأقل هذا خبر سعيد سيفضي به إلى السلطان من شأنه أن يرفع منزلته عنده. أمر أحد جنوده بحراسة الجثث ومضى نحو قصره.

وفي الطريق راح يفكر. ما الذي يحدث من حولي؟ ماذا جرى لمدينتي؟ لماذا كل الناس والحيوانات قرع؟ ما هذه العلامات الحمراء على الأبواب؟ هل هو طاعون؟ بلا ريب هو مرض من نوع خطير، أشاع البلبلة بين الناس، وأفسد عقولهم، ولاشك أن الذي تسبب بهذا الطاعون هو ذلك المجرم، ولعل كونه الشخص الوحيد الذي لم يفقد شعره لدليل قاطع على ذلك. سأعاقبه، لكن أولا، لا مناص من إقفال أبواب المدينة لكيلا يتسرب الطاعون إلى الخارج، ولا مناص من كتابة تقرير مفصل عن الوضع إلى جلالة السلطان ثم انتظار الجواب.

في الحال أرسل جنديين نحو حراس أبواب المدينة؛ ليطلبوا منهم إقفال

الأبواب وعدم السماح لأي كان بالدخول أو الخروج منها.

حينما بلغ القصر ألفى مئات الناس على بابه، فما أن رأوه حتى أقبلوا عليه يتكلمون مرة واحدة. نهرهم، فصمتوا، وطلب منهم الدخول عليه في مكتبه بسجن قصره واحدًا بواحد.

ولج السجن من الباب القريب من بوابة القصر. كان المفتاح على هذا الباب كما هو الشأن بالنسبة لكل الأبواب في المدينة. قبل أن ينزل السلالم نحو السجن فطن إلى أن مفتاح المخزن الذي يضع فيه ثروته غير موجود في جيبه حيث تعود أن يضعه، مما جمد الدماء في عروقه. هل سرق المجرم ثروته؟ في الحال عدا نحو المخزن، الواقع قرب غرفة نومه، ألفى المفتاح على بابه، فتحه بهستيرية، فإذا به أمام مشهد رهيب كاد يصعقه: المخزن فارغ.

وفي هذه اللحظة هجمت على مخيلته ذكرى الدراهم والمجوهرات التي رأى الناس يتهافتون عليها فوق منصة المضمار، فصرخ صرخة قوية سمعها كل من في القصر: «الأوغاد!». لقد تعرض للسرقة، فقد كل ثروته التي جمعها منذ أربعين سنة. خطر له أن يخرج الآن ويفتش المدينة بحثًا عنها، لكنه لم يلبث أن فطن إلى عدم جدوى ذلك، فإذا عثر في أي بيت على مال أو مجوهرات فإن أصحابه -حتى لو كانوا فقراء- سيدعون بأنه ملك لهم.

وما زال يفكر لعله يهتدي إلى حل أفضل، فقرر الإعلان في المدينة بأن المجوهرات والدراهم التي حملها الناس من المنصة تعود ملكيتها للسلطان وهو يضع علامة عليها يعرفها بها حق المعرفة وسيقبل على المدينة في أية لحظة فيفتشها بيتًا بيتًا وكل من ألفاها عنده سيقطع رأسه.

وفي الحال أقفل المخزن واستدعى بعض الجنود، فكلفهم بالصياح في المدينة بذلك.

وطفق الناس يدخلون إليه بالسجن ليستمع إلى شكواهم. كان أولهم تاجر غني طاعن في السن أمره (سفيان) بكي راحته اليمنى لبخله. التمس منه

السماح له برؤية المجرم. فخطرت له فكرة: لماذا لا يستغل المجرم لجمع شيء من المال لعله يسترد جزءاً من ثروته؟ بصوت خافت أخبر الشيخ بأن السلطان منعه من السماح لأي كان بزيارة المجرم، فأخذ يتوسل إليه، حتى إذا صرّح بأنه مستعد لدفع مال كثير مقابل ذلك، طلب منه أن يدفع مبلغ ألف درهم، فوافق ثم غادر ليحضر المال. وفعل نفس الشيء مع الذين دخلوا إليه بعده. ولم تمر نصف ساعة حتى بدأ الزوار الأغنياء يأتونه بالمبلغ المطلوب، لكنهم لم يكونوا يأتون لوحدهم، بل بصحبة أسرهم، فسمح لهم جميعًا برؤية المجرم بعد أن وعدوه بدفع ضعف المبلغ.

بمجرد أن يرى الزوار (سفيان) حتى ينطلقوا نحوه بغضب فيشتمونه ويطلبون منه إخبارهم بالدواء لاسترجاع شعرهم، فإذا لم يخبرهم، جعلوا يهزون قضبان زنزانته في محاولة لخلعها والفتك به، لكن الجنود كانوا يحولون بينهم وبين ذلك.

وكان الوالي يقول لهم بحكمة:

ـ «علينا ألا نقتله حتى يخبرنا بالدواء الذي يعيد إلينا شعرنا»

ولكم أحب الوالي امتناع (سفيان) عن الاعتراف لزواره بالدواء، مقرراً إجباره على الاعتراف له هو بذلك عندما ينقطع سيل الزوار، فيبيع هذا الدواء ويجمع أضعاف الثروة التي فقدها.

ولكيلا يلين ويقر لغيره تحت الضغط، فتضيع منه هذه الفرصة الذهبية، وعده بإطلاق سراحه إذا لم يخبر أحدًا سواه عن كنه الدواء، ومن جهة أخرى أخذ يطلب من الزوار الانصراف بعد برهة فقط من رؤيته، مؤكدًا لهم أنهم سيكونون أول المستفيدين من الدواء بمجرد حصوله عليه.

استقبل كل الذين جاؤوا لتقديم شكوى ضد المجرم، لكنه لم يسمح لأحد منهم بزيارته إلا إذا دفع المبلغ المحدد. ومع غروب الشمس، حينما انتهى

من الإنصات لشكاوي الناس وصرفهم إلى بيوتهم سأل (سفيان) بصرامة:

ـ «ألن تعترف بأنك السبب في فقداننا شعرناَ؟

لم يجبه. فأضاف وهو يحد النظر إليه:

ـ «هل تعلم أن المدينة كلها أصبحت قرعاء بسبب المرض المشؤوم الذي نشرته؟ وأن الجميع يحقد عليك ويطالبني بقطع رأسك؟ قل لي، ما هو دواء ذلك المرض؟»

ولم يجد (سفيان) محيصًا عن القول: «اعلم أنني أعرف الوصفة التي تخلص رؤوسكم المثيرة للشفقة من القرع ولن أدلي بها إلا بعد أن تطلق سراحي»

لقد قرر (سفيان) الضغط على الوالي ليطلق سراحه، فيذهب إلى منزل (تسي تسن) ويرسم تلك القصة السحرية على رأسه مرة أخرى، ثم يعود إليه ويقتله.

إلا أن الوالي انفجر فيه بصوت ارتعد له قلبه:

ـ «هل تظن بأنك تستطيع تهديدي بذلك الدواء أيها الحقير العفن!؟ أنا لا يهمني أن تبقى المدينة كلها قرعاء ما دمت قد قبضت عليك»

وفي هذه اللحظة انتبه الوالي لشَعر (سفيان)، فاستبد به حسد حارق، وهكذا نادى على الحراس وقال لهم:

ـ «جزوا شعره.. لا أريد أن أرى زغبة واحدة على رأسه»

وهرول (سفيان) باتجاه باب الزنزانة وأمسك به لعله يمنع الحراس من فتحه، لكنهم كانوا أقوى منه بحيث دفعوه بعنف حتى ارتطم بالحائط، بطحوه أرضًا، ثبتوه ثم جزوا شعره.

في قمة الحزن، أخذ يبكي على ضياع ملامح تلك القصة العجيبة التي رفعت شأنه في المدينة وجعلته يحيا حياة لم تخطر له حتى في الأحلام.

الفصل 2

أولئك الأغنياء الذين زاروا (سفيان) بصحبة أسرهم، لم يكونوا كلهم حاقدين عليه ويرغبون في تصفيته. بصراحة، في الوقت الذي همّ فيه الكبار بإيذائه، هرول الصغار -الذين يستطيعون المشي- نحوهم لمنعهم من ذلك. ألا إنهم جعلوا يذودون عنه باستماتة، دون أن يعبأوا بالضرب الذي تلقوه بسبب ذلك.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي رفع من معنويات (سفيان) وهو خلف القضبان، لاسيما قبل أن يفقد شعره. لقد فرح كثيراً لأن الأطفال لم ينسوا حبهم له.

وإذا كان أطفال الأغنياء قد حظوا بفرصة رؤية (سفيان)، فإن أطفال الفقراء لم يحظوا بها، رغم كل محاولاتهم المصرة لإقناع والديهم بدفع ثمن الزيارة، ذلك أن خبر قبول الوالي رشوة مقابل زيارة (سفيان) سرعان ما انتشر في المدينة كالنار في الهشيم. وعندما لم يغير أولياؤهم رأيهم ومنعوهم من الحديث مرة أخرى عن الرجل الذي تسبب بقرعهم، لم يستسلموا، بل خرجوا على الفور بغية تدبير ذلك المبلغ بأنفسهم.

فإذا بأطفال فقراء المدينة يجتمعون، تحدوهم نفس الرغبة. انزووا في شارع لا يبعد كثيراً عن قصر الوالي، يتشاورون لإيجاد حل لمشكلتهم. في البداية طفقوا يناقشون كيفية تدبير المبلغ الذي يسمح لكل طفل بزيارة (سفيان)، فإذا بدفة النقاش تتحول نحو وجهة أخرى؛ هدف آخر، ألا وهو إخراج (سفيان) من السجن.

ولم يلبث أن انضم إليهم حتى الأطفال الذين زاروه، أطفال الأغنياء. وكانت بينهم بنت الوالي الصغيرة. إنها أول طفل يزور سفيان، وهي فتاة في ربيعها العاشر، وكانت طيبة ومتواضعة، بعكس أختها الكبرى التي كانت متكبرة ولا تحب إلا نفسها. بمجرد أن أخذ الجنود (سفيان) من المضمار إلى السجن كما أمرهم والدها حتى لحقت بهم، فإذا بها تصطدم بأختها وأمها على باب القصر، فحملتها هذه الأخيرة وهي تبكي وقالت لها:

ـ «كيف أتحمل رؤيتك هكذا؟ من سيتزوج بك يا ابنتي إذا بقيت قرعاء؟».
لكن الفتاة قالت لها مبدية الرغبة الوحيدة التي كانت تقض مضجعها:

ـ «لا بد أن نلحق بالرجل ذي الشعر إلى السجن لرؤيته»

وصرخت الأم: « أجل، لابد من رؤية اللعين.. سأصفعه ألمًا لن ينساه على تسببه في قرعنا»

وهنا لكزتها الفتاة الصغيرة والغضب باد عليها، ثم قالت لها:

ـ «لا تشتميه.. إنه رجل طيب»

ـ «ويحك.. انظري إلى رأسك الشبيهة بحجر أصفر.. أتدافعين عنه أيتها الخنفساء وهو السبب في فقدانك شعرك!؟»

لكنهن لم يدخلن السجن حتى جاء الوالي، وذلك لأن الجنود أقفلوا على أنفسهم بداخله ولم يفتحوا الباب إلا له. قالت البنت الكبرى لأبيها وهم يلجون السجن:

ـ « أبتاه، ابنتك الجميلة صارت قرعاء ولن تتزوج.. سأعيش عانسًا إلى الأبد.. أو أتزوج رجلًا أقرعَ مثلي، وهو ما لن أفعله أبدًا»

وقال لها مواسيًا:

ـ « كلا يا حبيبتي، ستتزوجين أحسن الرجال شعرًا.. أعدك»

ونظرت إلى المجرم بحقد، ثم نهرته:

ـ «أيها المتوحش! اقتله يا أبي!»

وما لبثت أن ندمت على ما فاهت به، فصاحت مستدركة:

ـ « ولكن ليس قبل أن يخبرك بالدواء الذي يعيد إليّ شعري»

وهنا تعلقت البنت الصغرى بتلابيب الوالي وراحت تتوسل إليه:

ـ «أرجوك يا أبي أطلق سراحه فهو بريء!»

مندهشًا، رد عليها: «يا بنيتي، إنه ليس بريئًا.. فهو الذي جعل رأسك جدباء.. وهو الذي ملأ وجه أختك بالطين»

وراحت تصرخ وتبكي بدموع حارة:

ـ «بل هو بريء! بريء! هي التي أمرت الناس بملء وجهها بالطين لكي يزداد جمالًا.. حرره أرجوك!»

ولم يعبأ بها، فلقد ظن بأن السحر الذي مارسه (سفيان) على سكان المدينة فأقنعهم بتجربة ذلك الدواء ما يزال مؤثرًا فيها. واستمرت في البكاء فصفعتها أمها وطلبت من أحد الحراس حملها إلى غرفتها، فحملها وهي تبكي وتضرب برجليها ويديها محاولة بشراسة التخلص منه.

وفي هذا الوقت قفزت الأم إلى زنزانة (سفيان)، وسألته من خلف القضبان:

ـ «ما هو دواء القرع الذي تسببت لنا به؟ تكلم، ما هو؟»

ولما لم ينطق بشيء، قالت للوالي: «أريد أن أشبعه ضربًا»

وقبل أن يجيبها قالت ابنتهما الكبرى وقد تغلب عليها غضبها لأن (سفيان) أبى أن يعترف بالدواء:

ـ «وأريد أن أجلده على ما فعله بوجهي.. أرجوك أبتي لا تحرمني من هذا»

شفقة عليهما، لاسيما على ابنته التي كان وجهها شاحبًا ومنكمشًا، اقترب منهما وهمس في أذنيهما لكيلا يسمعه (سفيان):

ـ «سأسمح لكما بجلده كما تشاءان، لكن بعد أن نحصل منه على العلاج لرؤوسنا.. هيا اذهبا واتركاني أقوم بعملي حتى أنادي عليكما»

وفي الحال صعدتا إلى غرفتيهما.

لم تبقَ الفتاة الصغيرة مكتوفة اليدين في غرفتها الواقعة في الطابق العلوي من القصر. بعد أن أقفل عليها ذلك الحارس الباب بالمفتاح، انتظرت حتى غادر وطفقت تحاول فتحه. فشلت بعد محاولات متكررة وأخذت تضرب الحائط برأسها القرعاء من شدة الغضب حتى أوجعها.

جعلت تفكر في طريقة أخرى للخروج. ووجدت الحل المناسب بعد أن تذكرت بأن إحدى نوافذ غرفتها لا تبعد إلا بمترين عن النافذة اليسرى لغرفة والدها. لقد سبق لها العام الماضي أن مشت إلى هذه النافذة عبر الطُّنُف الضيق الموجود أسفلهما، لكنها توقفت في منتصف الطريق ولم تستطع التقدم أكثر بسبب خوفها من السقوط. هذه المرة، لن تخاف. سوف تكمل الطريق دون أن تنظر إلى الأسفل.

على الطُّنُف مشت بشجاعة حتى بلغت النافذة، كانت مفتوحة، دلفت منها. على رؤوس أصابعها تسللت خارجًا في غفلة من بعض الجنود الذين كانوا يقفون غير بعيد. نزلت السلالم ثم هربت، دون أن يراها أحد. قررت البحث عن أطفال يساعدونها في إنقاذ (سفيان) من السجن. ولم تلبث أن اهتدت إلى المكان الذي اجتمع فيه كل ذلك العدد الكبير من الأطفال لنفس الغاية.

لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الخطة المناسبة، جميع الخطط المقترحة كانت غير محكمة. من الغرابة أن هؤلاء الأطفال كانوا منظمين جدًا وهم

يتشاورن. حينما لاحت لهم، فرحوا كثيراً. وأخيراً جاء الفرج. لقد كانوا قبيل قدومها صامتين يبحثون عن مقترح جديد بعد أن لاقت كل المقترحات السابقة الرفض. وبعد الترحيب بها سألتها الطفلة التي كانت تسير ذلك الجمع، وهي ابنة أحد الفقراء، وكانت مجتهدة جدًا وفصيحة اللسان:

ـ «(سلمى)، ألا تنجدينا بالطريقة الأنجع لإخراج ذلك الرجل الصالح من السجن؟»

(سلمى) هي ابنة الوالي الصغرى وكانت تعرف الحل، فطوال الطريق وهي تفكر حتى اهتدت إليه. قالت وأعين الجميع مصوبة إليها:

ـ «الحل الوحيد هو أن أسرق من والدي مفاتيح الزنزانة حينما يخلد إلى النوم، فأهبط إلى السجن، ثم أطلق سراحه»

وسألتها تلك الفتاة:

ـ «ولكن، ماذا عن حرس السجن؟»

ـ «أنتم ستتكفلون بهم.. سوف أخبئكم في الزريبة القريبة من السجن، وعندما أحصل على المفاتيح أخرجكم ونتجه نحو الزنزانة التي يوجد فيها الرجل الصالح، وأنا لا أظن أنه سيكون من الصعب علينا أن نغلب هؤلاء الحرس باستعمال العصي والهراوات»

ـ «وكيف تستطيعين إدخالنا؟ فأسوار القصر مرتفعة ثلاثة أمتار عن الأرض، وليس ثمة إلا بوابة واحدة فيه، ويحرسها الجنود ليل نهار»

ـ «لا تخافي.. أثناء تناول والدي العشاء لا يحرسها إلا جنديان، سوف آتي إليهما عندئذ وأخبرهما بأنه يطلبهما، فما أن يذهبا إليه حتى أفتح لكم فتدخلون»

ولم يبدِ أي طفل رفضه أو حتى تحفظه على هذه الخطة. وحينما أرخى الظلام سدوله على المدينة قصدوا القصر. فإذا بهم يصطدمون بمنظر غريب.

بعض الناس ينامون بالشوارع والأزقة. ترى لماذا ينامون هناك؟ لم يعرف أي منهم الجواب.

راحت ابنة الوالي تطرق بوابة القصر، فيما اختبأ الآخرون غير بعيد. ظلت تطرق وتطرق لكن أحدًا لم يفتح لها. عادت إلى الأطفال وأخبرتهم بالأمر، فاتفقوا معها على ضرورة إحضار سلم طويل للنزول إلى القصر وفتح البوابة. هرول مجموعة من الأطفال مع طفل يسكن بالجوار لجلب سلم من منزله، لم يغيبوا إلا خمس دقائق تقريباً، ثم عادوا حاملين سلمًا يبلغ طوله خمسة أمتار. صعدت عليه. صعد وراءها ثلاثة ذكور. فوق الجدار تعاونوا جميعًا على انتشال السلم من الأرض ووضعه بالجهة الأخرى. بعد ذلك نزلوا منه إلى الداخل. أطلت (سلمى) على الحرس بغرفة محاذية للبوابة فألفتهم نيامًا. اندهشت. هذه أول مرة يفعلونها، فهم عادة ما يبقون ساهرين حتى الصباح ليحرس بدلهم رجال آخرون عقب ذلك. ليس لديها الوقت للتفكير في أمرهم. عليها أن تتحرك بسرعة.

فتحت البوابة. أدخلت جميع الأطفال طالبة منهم التزام الصمت. قادتهم إلى أقرب زريبة، وضعتهم فيها بين دزينة من الأبقار والبغال ثم مضت نحو القصر.

كما لم تتوقع، ألفت الخدم ينامون أرضًا. كيف تجرأوا على فعل شيء كهذا؟ أليسوا خائفين من والدها؟ إذا رآهم، أقل ما قد يفعله بهم لمعاقبتهم هو أن يجلدهم بقسوة. فما الذي دفعهم إلى النوم وترك العمل؟ ما أغرب أمرهم. صعدت إلى غرفة والدها. أطلت من بابها فرأت أمها على السرير تتوسد يدها وتنام فاغرة فاها مصدرة شخيراً قويًا كما لو أنها تسحب آخر أنفاسها. والدها غير موجود هناك.

بتؤدة نزلت إلى السجن. الحراس نائمون. والدها أيضًا نائم قرب زنزانة (سفيان). يا لحسن الحـظ! مستيقظًا، نظر إليها (سفيان) في حب. بابتسامة

أشارت إليه بالتزام الصمت.

في هدوء اتجهت نحو والدها. إنها تعرف بأنه يحزم مفاتيح الزنزانة في صدره. حاولت نزعها لكنها ألفت خيطها معقودًا بطريقة لا يمكن نزعها إلا بالقوة. لذلك أحضرت مقصًا من غرفتها وقطعت الخيط، فأصدرت صوتًا حادًا. اختبأت أسفل المكتب خوفًا من أن يستيقظ فيراها. لبثت هناك دقيقة تقريبا تنتظر أن يند عنه أي صوت أو حركة لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. استغربت. نوم والدها خفيف جدًا. كيف لم يستيقظ؟ خرجت من مخبئها فألفته ما يزال يغط في نوم عميق. كان يبدو عليه كما لو أنه يستمتع بنومه أشد الاستمتاع، فلقد كان شبح ابتسامة يجري على سحنته.

الحق أنه ما كان له أن يستيقظ حتى لأشد الأصوات قوة، بسبب الحاجة الشديدة إلى النوم التي هبطت عليه، هو وكل سكان المدينة، ما عدا الأطفال، بمجرد حلول الليل، فاستسلموا لها دون أدنى مقاومة.

فتحت الزنزانة، خرج (سفيان) فعانقته بحرارة. قادته إلى باقي الأطفال الذين كانوا بالزريبة. ما أن رأوه حتى ارتموا عليه يعانقونه بحماس وعنفوان. وبينما يفعلون ذلك إذ شعر (سفيان) بالخوف من أن تقفز إليه الأبقار والبغال التي في الزريبة فتنتقم منه لأنه تسبب بقرعها، لكنها لحسن الحظ لم تفعل شيئًا ما عدا التحديق فيه بغرابة.

ولم تلبث بنت الوالي أن أشارت للجميع بالمغادرة، وهكذا ساروا بهدوء صوب البوابة الخارجية.

بمجرد خروجهم من القصر، قالت لـ(سفيان):

- « عماه، عليك مغادرة المدينة والبقاء بعيدًا عنها ريثما يهجع أهلها وينسون أمرك»

كان يعرف أنها ابنة الوالي، علق على كلامها:

ـ «أنت على حق، ولكن، وددت لو أبقى هنا حتى أجد الدواء الذي يخلصكم من قرعكم»

ندم لأنه لم يمنع الأطفال من دهن ذلك الخليط برؤوسهم. ولكن هل كانوا سيسعدون بذلك؟ بالطبع لا؛ فأي إنسان، بل وأي حيوان أيضًا، ما عدا الحمير، ما أن يرى القصة العجيبة حتى يضيق بشعره، ويحس أنه يخزه كالشوك، فلا يرتاح حتى يتخلص منه.

رافقوه لمغادرة المدينة، وفي الطريق تذكر الكتاب الذي توجد به تفاصيل القصة السحرية، فمال إلى بيت (تسي تسن). كان المفتاح في الباب. أداره، دخل لوحده، أحضر الكتاب ثم خرج وشق طريقه مع الأطفال نحو أقرب أبواب المدينة. في جو من البكاء ودعه الأطفال متمنين له حظًا سعيدًا، ثم أعطوه كيسًا مليئًا بالطعام وسراجًا.

دون أن يحدد وجهة معينة يذهب فيها، ركض مفكرًا: «سوف أحصل على تلك القصة الفيروزية الخالبة للألباب من جديد، فأرجع إلى برتات وأنتقم من الوالي، ثم أقضي على التسول بها وبالعالم كله»

الفصل 3

رغم أن جل أهل المدينة استيقظوا في الغد، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك في نفس الوقت. بعضهم استيقظ بمجرد شروق الشمس، الفلاحون بالتحديد الذين تعودوا على النهوض في هذا الوقت، والبعض حتى الساعة الثامنة، والبعض في العاشرة... عمومًا، لقد نهضوا في الساعة التي دأبوا على الاستيقاظ فيها.

لكن، ولا واحد منهم كانت له رغبة في العمل. أول ما فعلوه قبل حتى أن يـ غسلوا وجوههم هو الإسراع نحو المرآة ليروا ما إذا كانوا قرعًا أم لا. وما أن تطلعوا إلى رؤوسهم الصفراء بفزع وقرف حتى هرولوا باتجاه منزل الوالي ليعطيهم الدواء الذي يعيد لهم شعرهم، وهم متيقنون بأن المجرم الذي تسبب بقرعهم والذي يملك هذا الدواء قد سلمه له.

وما زالت الجموع تتوافد منذ وقت مبكر على قصر الوالي حتى صارت بوابته تغص بالنساء والرجال والرضع والشيوخ والشباب. وحدهم الأطفال لم يكونوا هناك. لقد استيقظوا متأخرين من النوم، إذ ما أن ودعوا (سفيان) البارحة حتى دلف كل منهم إلى بيته ونام نومًا ثقيلًا.

كانت الريح تزفر بقوة حينما استيقظ الوالي مع الثامنة صباحًا، هو الآخر أراد الاتجاه نحو المرآة ليتأكد مما إذا كان أقرعَ أم لا. لكن سرعان ما لفتت انتباهه الزنزانة التي وضع فيها البارحة الرجل الذي يكرهه أكثر من أي إنسان آخر على البسيطة، إنها فارغة. أحس بضيق في التنفس وألم حاد في الرأس.. «يا إلهي أين ذهب المجرم!؟»

صرخ مناديًا على الحراس.

كان هؤلاء قد استيقظوا قبله ووقفوا على حقيقة هرب السجين، فراحوا يتساءلون كيف حصل ذلك، إذ لم يسبق لهم أن ناموا أبدًا أثناء الحراسة. لعلمهم بأن الوالي لن يتردد في سلخ ظهورهم عقابًا لهم على تقصيرهم، لم يبقوا جامدين في أماكنهم طويلًا، بل اندفعوا يبحثون عن السجين الفار في كل أرجاء القصر، حتى إذا لم يعثروا عليه عادوا إلى السجن وجعلوا يفكرون فيما يقولونه للوالي ليبرروا به ما وقع.

وكانوا في بهو السجن حين نادى عليهم، فهرولوا إليه وقلوبهم ترتعد من الخوف، ولما مثلوا أمامه سألهم:

ـ «أين السجين؟»

أجابه حارس يوثره عليهم لاتصافه بالشدة والقسوة:

ـ «سيدي، لقد كان في الزنزانة.. وطوال حراستنا لها لم يخرج منها»

وصرخ فيه: «ماذا تقول!؟ وكيف خرج!؟ هل تبخر!؟»

ولفتت انتباهه نوافذ السجن من حوله. إنها ضيقة جدًا ولا يمكن لإنسان المرور منها. راح يتفحصها، لم يجد فيها أي شيء يدعو إلى الريبة. مشط السجن والقصر دون جدوى.

غاضبًا انقض على الجنود والخدم والحرس يضربهم، ثم زأر فيهم:

ـ «اخرجوا للبحث عنه أيها الأوغاد!»

وركضوا بسرعة نحو البوابة يتعثرون في أذيالهم، وأخبروا الناس بالخارج بما حصل، ففغروا أفواههم وارتسمت على وجوههم نظرة توحي بالمرارة والضياع، وبعض النساء، ويبدو أنهن لم يكن يملكن شعرًا جميلًا في الماضي على أية حال، ارتمين أرضًا وأخذن بالتمرغ والبكاء، لكنهن سرعان ما نهضن لما رأين الرهط يتحرك للبحث عن الهارب، فانضممن إليه.

وأخذ الوالي يضرب كفًا بكف وهو يغمغم:

ـ « لا أمَّ لي! لقد قُضي علي! ذهبت ثروتي أدراج الرياح.. يا للتعاسة! ماذا بوسعي أن أفعل؟ الحمد لله أنني لم أخبر السلطان بأمر المجرم وإلا عاقبني على فراره»

وانطلق كالسهم، عازمًا على تفتيش المدينة زاوية بزاوية، حتى إذا فتح بوابة القصر، ألفى أمامه ثلة من الناس، وصلوا الساعة، ولم يصادفوا ذلك الجمع الذي غادر قبل قليل. تساءل: «ماذا يريد هؤلاء الحمقى؟ آه، من دون شك يعتقدون بأنني حصلت على الدواء الذي يعيد إليهم شعرهم وجاؤوا لأسلمه لهم أو حتى أبيعه، ألا بُعدًا وسحقًا لهم! الظاهر أن رؤوسهم ستبقى صفراء إلى الأبد»

رفع عقيرته بالصراخ كي يسمعوه:

ـ «يا قوم، يؤسفني أن أخبركم بأن المجرم الذي تسبب في قرعنا قد هرب من السجن! إذن هلموا للبحث عنه.. تفرقوا في كل أرجاء المدينة، ومن عثر عليه فليسلمه لي دون أن يمسه بأذى، وأعدكم مرة أخرى أنني لن أرتاح حتى أحصل منه على الدواء الشافي.. فهيا، لا تضيعوا الوقت.. فتشوا المدينة بيتًا بيتًا وركنًا ركنًا!»

قلبوا المدينة رأسًا على عقب، فتشوا في كل مكان، حتى في الأمكنة التي من المستبعد أن يختبئ فيها، كأعشاش الحمام والدجاج. وفُتحت كافة المنازل وغرفها، بما فيها الغرف السرية المخصصة لتخزين الأموال، دون معارضة أصحابها، بمن فيهم البخلاء الحريصون أشد الحرص على إبقاء مكان ثروتهم مجهولًا كيلا يتعرض للسرقة. على أية حال، لا أحد اهتم بأمواله. الوالي نفسه فتح مع جنوده الغرفة التي خبأ فيها الأموال التي جناها البارحة وفلاها وهو لا يهمه إلا العثور على المجرم.

وما أن هبط الظلام حتى نام كل واحد في المكان الذي كان يبحث فيه. نام الناس نومًا ثقيلًا مرة أخرى. تثاءبوا ثم اضطجعوا أرضًا وأغمضوا أعينهم. وبقي الأطفال، الذين استيقظوا متأخرين اليوم ولم يشاركوا في البحث، يلعبون حيثما شاءوا حتى ساعة متأخرة من الليل وهم في غاية السرور.

وفي الصباح، استيقظ أهل المدينة في الوقت الذي دأبوا على الاستيقاظ فيه، وأول ما فعلوه هو التفكير في المجرم الذي تسبب بخسارتهم شعرهم، وهكذا اندفعوا للبحث عنه، وهذه المرة لم يقتصروا على المدينة فقط بل راحوا يبحثون في المناطق المجاورة لها بأمر من الوالي.

وحينما جن الليل، ناموا في أماكنهم خارج أسوار المدينة غير مهتمين لما قد يلحقهم من أذى.

وفي صباح اليوم التالي، استأنفوا البحث، لكن سرعان ما توقف بعضهم عن البحث وعاد أدراجه للمدينة وقد استبدت به نفس الهموم التي استبدت به قبل وقوعه تحت تأثير القصة العجيبة. ألا إن كلًا منهم توقف عن الرغبة في البحث عن (سفيان) في نفس الوقت الذي رآه فيه أول مرة.

كان تأثير القّصة السحرية مزدوجًا؛ فهو يجعل الناس يكرهون صاحب القّصة نفس المدة التي أحبوه فيها، ثم بعد أن يتوقفوا عن كراهيته سوف ينسون أمره نهائيًا!

شيئًا فشيئًا بدأ كل الناس يستأنفون حياتهم العادية، لكن لم يختفِ حزنهم على شعرهم الذي فقدوه. ولئن كانوا كلهم من قبل عزوا فقدان شعرهم إلى (سفيان)، فهم الآن يعزونه إلى أسباب مختلفة: منهم من يعزوه إلى تلوث في مياه الشرب، ومن يعزوه إلى دودة في الثمار، ومن يعزوه إلى الذباب...

قبيل الظهر، بمجرد أن قفل الوالي إلى قصره، بعد انتهاء تأثير القصة، لم يسأل نفسه عما كان يفعله خارج المدينة، لا أحد سأل نفسه هذا السؤال من

أهل المدينة، بل تساءل، شأنه شأن الجميع، عن السبب في قرعه. وبدر إلى ذهنه أطباء المدينة على الفور، إنهم المؤهلون للإجابة عن هذا السؤال. أليسوا أطباء؟ ألا يتقاضون أجرًا من الدولة للقيام ببحوثهم الطبية؟ إذن، لابد أن يكون عندهم الجواب. أرسل إليهم بعض الجنود ليحضروهم.

قصد الأطباء الثلاثة مختبرهم مباشرة بعد توقفهم عن البحث عن (سفيان). لاح بعض الناس أمام المختبر، أقبلوا عليهم يترجونهم أن يسلموهم دواء القرع، شعروا بالكراهية نحوهم جراء ذلك، وإن كانوا هم أيضًا قد اكتشفوا قرعهم، إلا أنهم، عكسهم، لم يكلفوا عقولهم عناء التفكير في علاج له، لقد أحسوا بنفور مهول تجاه الموضوع ككل.

بدا أن كل من كلفه صاحب الشعر الفيروزي في الأيام التي سحره فيها بمهمة معينة- سيمقت موضوع تلك المهمة بعد زوال السحر عنه، ما عدا الأطفال والحيوانات؛ ولذلك شعر الأطباء، الذين كلفهم بإيجاد دواء يسقط الشعر، بمقت كبير تجاه كل ما يمت بصلة للشعر. أخبروا أولئك الناس أنهم لا يملكون دواء. ترجوهم أن يخترعوه. فلم يتركوهم يدخلون إلى المختبر حتى وعدوهم بفعل ذلك.

راحوا يذرعون المختبر بحثًا عن حل لهذه المشكلة، فالناس الذين يحيطون بالمختبر لن يتزحزحوا من أماكنهم إلا إذا سلموهم الدواء، فلفتت انتباههم الأدوات التي أعدوا بها أول مرة ذلك الخليط المسقط للشعر. كانت موضوعة فوق منضدة بغرفة التجارب. كما نسي كل أهل المدينة ما فعلوه في الأيام التي تأثروا فيها بقصة (سفيان)، نسوا هم أيضًا ما تجشموه في صنع هذا الخليط، بيد أنهم شعروا بحقد لا حدود له تجاه تلك المعدات. شرعوا يشمون رائحتها ويتساءلون عما هو عالق بها ثم أحرقوها على عجل. استأنفوا تجاربهم الطبية التي كانوا منشغلين بها قبل اللقاء بـ(سفيان)، غير مبالين بالناس الذين ينتظرونهم خارجًا.

ولما أقبل الجنود وأنهوا إليهم أن الوالي يطلبهم، لم يجدوا مناصًا من تلبية الدعوة، فأوامر الوالي لا تُناقش. وفي الطريق أزعجهم الجنود إذ راحوا يسألونهم عن الأسباب التي جعلت شعرهم يسقط على حين غرة. لم يجيبوهم في البداية عن سؤالهم، لكنهم حين أصروا على الإجابة، قال لهم الطبيب (هشام) في غضب:

ـ «لا شك أنها لعنة من السماء نزلت على رؤوسنا!»

فهتف أحد الجنود خائفًا:

ـ «ولكن، ما الذي فعلناه!؟»

ـ «هذا قدر الله، ويبدو أن الله ابتلانا لكي يرى أينا يصبر وأينا يكفر، فإذا كنتم تريدون نصيحتنا، فارضوا بحكم الله، ولا تعودوا إلى الحديث عن هذا الموضوع حتى يأتي الشفاء من عنده»

ونزل هذا الجواب على الجنود كالضربة القاضية فلم يستطع أحد منهم مناقشته. وأعجب الطبيبان (حسن) و(عبد القادر) بما قاله زميلهما، والحق أنهما كانا متأكدين من أنه لم يقل ما قاله إلا لكي يحمل الجنود على عدم الخوض معهم مرة أخرى في هذا الموضوع المزعج المثير للكرب.

وكانوا شبه متأكدين من أن الوالي سوف يسألهم نفس السؤال، لذلك قرروا أن يجيبوه نفس الجواب. وبالفعل، ما أن وقفوا أمامه حتى قال لهم مشيراً إلى رأسه ورأس الجنود من حوله ناهيك عن رؤوسهم هم أيضًا:

ـ «ألا تخبروني ما سبب هذا البلاء الذي حاق بنا؟»

فنطق الطبيب (هشام) بمثل ما نطق به للجنود، لكن الوالي لم يكن بمثل ورع جنوده، إذ لم يلبث أن صرخ فيه:

ـ «كيف تتفوه بكلام غبي كهذا!؟ ألم تكن بالأمس فقط تصرخ بأن أمراض البـدن لها أسباب مادية معلومة!؟ فـما الذي غيّر موقفك هذا!؟ وأنتما، ما

رأيكما فيما قاله؟»

وتبادل (عبد القادر) و(حسن) النظرات، ثم قالا مرة واحدة:

ـ «لعنة من الله»

ونهرهم: «لعنة تصيبكم يا أعداء الله! اغربوا عن وجهي.. جدوا دواء وإلا سجنتكم! هيا!»

وقال له (حسن) في خبث:

ـ «ثمة جمهور يحيط بالمختبر يمنعنا من العمل في راحة»

ـ «لا تهتموا.. أنا سأتكفل بهم..»

نهض ورافقهم إلى المختبر مع دزينة من الجنود، فطرد كل من كان هناك، واعدًا باستفادة كل سكان المدينة من الدواء حين يعثر عليه الأطباء. ثم غادر مكلفًا بعض الجنود بحراسة المختبر.

حين صار الأطباء لوحدهم داخل المختبر، غمغم (عبد القادر):

ـ «ماذا تقترحون أن نفعل؟ هل لدى أحدكم رغبة في إيجاد ذلك الدواء؟ أما أنا فأكره مجرد التفكير فيه»

ـ «أنا مثلك.. الموت أهون عليّ من البحث عنه.. إنني أكره كل ما يتعلق بشعري»

قال (حسن)، ثم أمّن (هشام) على كلامه: «وأنا أيضًا.. يا للوالي الغبي! لمجرد كوننا أطباء يظن بأننا نستطيع إيجاد الدواء لسائر الأمراض»

ـ «ولكن ما العمل؟»، سأل (عبد القادر).

ـ «المختبر مليء بالأدوية.. كلما جاء إلينا أعطيناه دواء يطلي به رأسه.. وهكذا نسلم من شره»

رابطوا فـي الـمختبر حتى هبط الظـلام، وبعد ذلك مضـوا محاطين بالجنود

الذين يحرسونهم إلى منازلهم آخذين معهم بعض القوارير التي تحتوي على دهان لعلاج شد المفاصل، فسلموها لأهلهم مخبرين إياهم أنها ستنبت شعرهم في بضعة أيام، وهكذا ناموا في هناء وراحة سالمين من إزعاجهم.

وفي الصباح لم يكادوا يدخلون المختبر حتى أقبل الوالي، قال لهم:

ـ «أظن أنكم وجدتم الدواء»

وراحوا يتبادلون النظر. ولما لم يجبه أحدهم عوى:

ـ «ما بكم لا تتكلمون؟ هل أكلت الكلاب ألسنتكم؟»

وقفز الطبيب (عبد القادر) باتجاه قارورة زجاج تحمل زيتًا أخضر، وقال له في ثقة العباقرة:

ـ «لقد أمضينا الليل بطوله يا سيدي ونحن نبحث عن الدواء فاستطعنا بحمد الله صناعة هذه القارورة.. لنا الشرف بأن تكون أول من يجربها، إن بداخلها زيتًا مستخلصة من الكثير من النباتات، وتساعد الشعر على النمو بسرعة، ادهن رأسك بها كل ليلة قبل النوم لمدة شهر فيعود رأسك إلى سابق عهده»

ـ «شهر؟ ألم تجدوأ دواء يأتي بنتيجة في وقت أسرع من ذلك؟»

ـ «خذ، بالهناء والشفاء.. جربها في انتظار أن نهتدي إلى علاج أسرع»

وفتح الوالي فاه في جشع وتناول القارورة وأخذ ينظر إليها في إعجاب، وجعل يديرها ذات اليمين وذات الشمال، حتى إذا أشبع نظره منها وضعها في جيبه بكياسة كما لو كانت بيضة يخشى انكسارها، ثم قال لهم وهو يربت على كتف الطبيب (هشام)، الذي كان أقربهم إليه:

ـ «أريد منكم ألا تسلموا مثلها لأي كان، دعوني أولًا أجربها، فإذا نجحت في إعادة شعري، فسأجزل لكم العطاء، وبعدها أخبركم ماذا تفعلون»

وغير لهجته اللطيفة إلى لهجة قاسية ثم أضاف:

- «إذا اكتشفت بأنكم سلمتموها لأحد غيري، فلن يحصل لكم خير»

وطمأنه الطبيب (حسن):

- «قر عينًا يا سيدي، تعرف بأننا لن نجرأ على عصيان أوامرك»

غادر فرحًا أشد الفرح، فانفجروا ضحكًا ساخرين منه؛ لأنهم خدعوه وسلموه زيتًا مسكنًا لأوجاع المعدة لا علاقة له بالشعر.

الفصل 4

في سائر بيوت المدينة وأماكن العمل بعد عودة أهلها إليها عمت الفوضى بسبب القرع. وفي بعض البيوت عمت الفوضى لسبب إضافي. إن سكان المدينة، باستثناء الأطفال، الذين أمرهم (سفيان) بالقيام بما تعودوا القيام به، أو كلفهم بمهمة محددة، شعروا عقب توقفهم عن البحث عنه بكراهية لا تطاق تجاه ما أمرهم به. وكانت المدينة لتعرف فوضى أكبر لو أن (سفيان) طلب من كل سكانها القيام بما تعودوا القيام به، لكن لحسن الحظ أن السواد الأعظم التقى بهم في منازلهم وأمرهم بحمل الطعام والمشاعل ومرافقته.

كان بعض الجنود والخدم والحرس في قصر الوالي ينتمون إلى الفئة التي أمرها (سفيان) بالقيام بما تعودت عليه. باستئناف حياتهم، شعروا بالاشمئزاز من عملهم فتبادلوا فيما بينهم مهامهم. عندما لاحظ الوالي ذلك جمعهم وأنبهم وأمرهم بالعودة إلى مناصبهم السابقة، بيد أنهم رفضوا وترجوه أن يتركهم كما هم، فغضب منهم بشدة، إلا أنه انصاع لهم في النهاية، مؤجلًا عقابهم إلى حين العثور على دواء القرع.

الخياطون من هذه الطبقة الذين دأبوا على تخييط كل شيء لم يجدوا بُدًا من التخلي عن حرفتهم. وحدهم الذين كانوا يخيطون ملابس محددة، كالسراويل مثلًا، لم يتركوا الإبرة والخيط، وذلك بانتقالهم إلى خياطة ملابس غير تلك التي كانوا يخيطونها سابقًا، فمن كانوا يخيطون ملابس الرجال انتقلوا لخياطة ملابس النساء أو ملابس الأطفال أو البرادع... ونفس الأمر حدث مع باقي الحرفيين والتجار والفلاحين. ولا ننسى أن أولئك الذين

تعرضوا للكي على راحاتهم اليمنى واجهوا صعوبة كبيرة في الاشتغال بها، فطفقوا يعتمدون على أيديهم اليسرى.

عقب عودة الجميع إلى قصر (إزم)، طلب هذا الثري من الخدم تحضير مائدة كبيرة له. فانكبوا على تنفيذ أمره بكل حيوية ونشاط. وحين جلس على المائدة لفت انتباهه أمر غريب. الطباخون هم الذين يأتون بالأطباق، مرتدين ملابس الخدم المكلفين بهذه المهمة. فَهِمَ من ذلك أن الخدم المكلفين بالمائدة تغيبوا عن العمل، لذلك صرخ في طلبهم للتأكد من ذلك. بيد أنهم جاؤوا على الفور، مرتدين ملابس الطباخين. عجب لأمرهم فنهرهم:

ـ «ما الذي تفعلونه أيها الحمقى؟ هل أنتم من حضر الطعام؟»

أجابه أحدهم: «أجل يا سيدي»

ونادى على الطباخين، وحين أقبلوا سألهم لماذا لم يعدوا الطعام، فأجابوه بأنهم لا يتقنون الطبخ. شعر بالغيظ، وهم أن يطردهم كلهم، لكن إحساسه المضاعف بالجوع منعه من ذلك، فقرر أولًا ملء بطنه ثم النظر في أمرهم فيما بعد. ولم يكد يمد يده إلى قصعة مليئة بالأرز، وهو طعامه المفضل، حتى انتفض ابنه من مقعده كالملدوغ وطوح حبة باذنجان كان قد التقطها من صحن مليء بالباذنجان المقلي، ثم زمجر قائلًا:

ـ «باذنجانة حقيرة، عفنة، نتنة»

فكان ذلك كافيا ليزداد غضب (إزم) على أولئك الخدم، فانتصب واقفًا وصرخ في وجوههم:

ـ «اخرجوا من بيتي!»

خرجوا. لم يترجوه بأن يعدل عن قراره، بل انصرفوا بلا مبالاة، وتفرقوا، كل منهم ذهب في طريقه بحثًا عن عمل آخر. ولقد كان بينهم (مسعود)

وأفراد من الفرقتين اللتين عهد إليهما (سفيان) بالبحث عن أفضل طعام في القصر والمدينة.

عمت البلبلة في تلك المائدة، ابتعد عنها الجميع، الأب وزوجته وابناهما، ولم يعد أحد منهم قادرًا على لمس أي شيء فيها، وذلك خوفًا من أن يلمس حبة باذنجان، فلمسها كان بالنسبة إليهم أمرًا مقززًا، بل وخطيراً وقد يسبب الموت، أو الإغماء على الأقل، وما برح الابن يمسح بمنديل يده التي أمسك بها حبة الباذنجان تلك ثم هرول إلى طست من الماء وجعل يغسلها وهو يقول لوالده:

ـ «أقطع يدي ولا أشم فيها رائحة الباذنجان النتنة»

ونصحه (إزم): «اغسل يدك بزيت الزيتون.. ستقضي على رائحته لا محالة»

ووجه الكلام لابنته وزوجته مشيراً إلى الطعام الذي على المائدة:

ـ «أتمنى ألا نكون نحن أيضًا قد لمسناه دون أن نشعر»

فقالت زوجته: «أنا متأكدة أنني لم ألمسه.. يا للباذنجان اللعين!»

وعقبت الابنة ذات الأطوار الغريبة وهي الأخرى تشعر باشمئزاز تجاه هذه الخضر:

ـ «ليست كل حبة باذنجان تحافظ على شكلها فوق النار»

وهنا مرق (إزم) بسرعة إلى الحديقة ونادى على الخدم المسئولين عنها، والذين رآهم يشذبون بعض الأشجار على مرمى البصر، لكن ما أن اقتربوا منه حتى اكتشف بأن بعضهم لم يكلفهم بالاعتناء بحديقته أول مرة استخدمهم فيها. من بين الخدم الذين بقوا محتفظين بعملهم في الحديقة كانت الخادمات اللواتي عهد إليهن (سفيان) بالبحث عن أفضل طباخ في المدينة: (ابتسام)، و(نجاة)، و(لطيفة).

همّ (إزم) أن يسأل أولئك الخدم الذين غيروا أماكنهم عما حملهم على ذلك، لكنه أحجم عن ذلك في آخر لحظة، معتبراً الموضوع تافهًا مقارنة مع المهمة التي ينوي تكليفهم بها، فأمرهم في المقابل بأن يفرغوا الحقول من الباذنجان ويلقوا به بعيدًا، ولما انصرفوا مال نحو مستودع المطبخ، وقد لحق به ابنه وزوجته وابنته من الخلف، فألفى على بابه الخادم المكلف بالمستودع. وهو نفسه ذلك الخادم الذي أخذهم في تلك الرحلة الشاقة نحو زرهون، ويبدو أنه لم يغير موقع عمله.

فتح المستودع كما طلب منه (إزم)، ليدخل هذا الأخير مع أسرته، مضى يذرع المكان، حتى إذا سقطت عيناه على كيس مليء بالباذنجان، عاد إليه وقد التصقت به ابنته وهي تردد خائفة: «يا إلهي كم يبدو شكله مفزعًا»، وقال له بصوت مرتفع:

ـ «أريدك أن تفرغ المخزن من الباذنجان.. لا تترك فيه حبة واحدة وإلا حاسبتك حسابًا شديدًا.. هل فهمت؟»

وتمتم الخادم في طاعة: «فهمت يا سيدي»

وحين همّ بالمغادرة سأله: «وأين آخذ هذا الباذنجان؟»

ـ «ارمِ به خارج القصر»

ولم يلبث أن التفت (إزم) إلى أفراد أسرته، وقال لهم: «فلنأكل في الخارج ريثما نعثر على طباخين جدد»

اتجهوا نحو إسطبل العربات. هناك كان خادم يطعم الأحصنة. تذكر (إزم) أنه عهد إليه أول مرة استخدمه فيها بالعمل في الحديقة، فسأله في استنكار: «ما الذي حملك على الخروج من الحديقة والعمل في الإسطبل دون إذن مني؟»

ولـم يعرف الخادم ما يقوله، وكان متأهبًا لـمغادرة القصر ببـرودة الأغنياء،

وبعد ثوان من الصمت هتف به (إزم):

ـ «هيا جهز عربتي، سأتناول الطعام مع أسرتي في مطعم المدينة الراقي»

وبسرعة البرق ربط الأحصنة بإحدى العربات الجميلة التي كثيراً ما رأى (إزم) يخرج فيها، فتح باب مقصورتها، صعدت الأسرة، أقفل الباب، رقى إلى مكان القيادة ثم ساط الأحصنة نحو البوابة الخارجية، فما إن تجاوزها بخطوات حتى طلب منه (إزم) التوقف. أطل من النافذة ونادى على حارسي البوابة.

إنهما الحارسان (حدو) و(حمو) اللذان كلفهما (سفيان) بالتخلص من الحمير التي في المدينة، وهما لم يغيرا موقع عملهما على ما يبدو. مستقبلًا إياهما بابتسامة عريضة لأنهما لم يعصياه كباقي الخدم، أوصاهما بتفتيش كل عربة قبل ولوجها القصر، وإذا عثرا فيها على باذنجان، فليلقياه بعيدًا ولا يسمحا بإدخال حبة منه إلى القصر. مستغربان، طمأناه بالقيام بذلك. ومنذئذ كلما أقبلت عربة على القصر، صارا يوقفانها ثم يفتشانها، فإذا عثرا فيها على باذنجان يخرجانه منها، لكن لا يلقيان به بعيدًا بل يقتسمانه فيما بينهما في غرفة الحراسة الخاصة بهما ثم يأخذ كل منهما حصته إلى بيته.

بخفة مضت العربة تخيط أزقة وشوارع المدينة. خبرت (إزم) نفسه أنه سيلقى الاستهجان في المطعم الذي يتجهون صوبه بسبب قرع رأسه هو وأفراد أسرته، فمن يدري، ربما شفي الناس كافة وبقوا هم وحدهم قرعًا. ولكن، ما إن وقفت العربة أمام المطعم حتى حف به الخدم من كل جانب وأمطروه بعبارات الترحيب والتذلل. «المال هو الذي يجعل الناس يحترمونك حتى لو لم يكن على رأسك شعر»، قال في نفسه ساخراً وهو ينزل من العربة.

ظن أنه سيتناول طعامًا لذيذًا في هذا المطعم مثل كل مرة يغشاه فيها، فإذا به يفاجأ بكون أغلب الأطباق المقدمة إليه، والتي اشترط على النادل منذ

البداية ألا تحتوي على الباذنجان، سيئة المذاق. لكنه لم يسكت عن الأمر. بعد أن تذوق عشرة أطباق دون أن يحب واحدًا منها، ضرب بيديه على الطاولة ونادى على صاحب المطعم.

هرول إليه هذا الأخير. كان رجلًا نحيلًا، ذا رأس قرعاء مكورة كالبرتقالة، وكتفين ضيقتين ككتفي دجاجة مسلولة، وقد ورث هذا المطعم عن زوجته، وهو يعتني به جيدًا، ويرابط فيه من ساعة فتحه صباحًا -مع السابعة- حتى ساعة إغلاقه ليلًا -مع الحادية عشرة- ولا يغادره مهما كانت الظروف قاهرة. والحق أنه لم يكن من الفرقة التي طلب منها (سفيان) القيام بما اعتادت على القيام به، وإلا لشعر الآن بالنفور من مطعمه.

كان (إزم) واحدًا من أفضل زبائنه، ورغم أنه كان يتعامل معه ببخل، ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة في الأثمنة قبل الدفع، إلا أنه كان يفرح كثيراً بقدومه، وذلك لمعرفته بأنه شخص أكول وسيطلب أجود الطعام، وبكميات وافرة. لما نادى عليه، عرف أنه سيشكو إليه سوء الطعام المقدم له، على العموم ليس هو أول زبون اليوم يشكو ذلك.

وقف أمامه باحترام، فسأله (إزم) رافعًا صوته إلى أقصى درجة كما لو كان يحدث أحد خدمه:

ـ «ما بال طعامك اليوم كروث البقر؟»

ـ « عذرًا يا صاحب المقام الرفيع (هكذا كان يدعو زبائنه الأغنياء).. في نفس اليوم الذي حطت فيه هذه المصيبة على رأسي (أشار إلى رأسه بيده) حطت مصيبة لا تقل عنها خطورة على مطعمي، فقد فوجئت بطباخي الخمسة الذين يعتبرون من أحسن الطباخين في المدينة، والذين ظلوا يخدمونني لأكثر من تسع سنوات، يرفضون الطبخ، ويتبادلون أمكنتهم مع كناسي وحرس المطعم ، فظننت أنها لعبة يريدون بها الضغط عليّ لرفع أجورهم، فرضخت لهم بسهولة وأخبرتهم أنني سأرفع من أجورهم، لكنهم قالوا لي

بقسوة أنهم لن يطبخوا في مطعمي مرة أخرى حتى لو دفعت لهم كنوز الدنيا، فطردتهم.. وفي الحال خرجت وأتيت بخمسة طباخين بدلهم، لكن تبين من طعامهم كما ترى أنهم لا يملكون خبرة كبيرة»

تذكر (إزم) ما حدث له مع طباخيه وخدمه، فرثى له وتعاطف معه، وخمن أن السبب فيما حصل راجع إلى تأثير ذلك الطاعون الذي أفقد جميع الناس بالمدينة شعرهم ثم أفقد بعضهم عقلهم، فقال له:

ـ «لا بأس، سآكل طعامك وإن كان سيئًا»

فانحنى الآخر على يديه يقبلهما امتنانًا له، ولم يسحبهما (إزم)، بل تركه يلثمهما، ثم وَجّهَ كلامه لأفراد أسرته في لهجة آمرة:

ـ «هيا كلوا! يبدو أننا لن نهتدي إلى طعام أفضل من هذا!»

وأشار لصاحب المطعم بالانصراف، فراح يخطو إلى الخلف وهو ينحني شاكرًا، حتى إذا ارتطم بأحد الكراسي وكاد يسقط، انفجروا عليه ضحكًا.

كانت تتواجد حينئذ أسر قليلة فقط بذلك المطعم، لكن لم تنقض دقائق حتى تقاطرت عليه المزيد من العائلات الغنية التي عانت نفس المشكلة.

لما انتهى (إزم) وأسرته من الأكل نادى على صاحب المطعم ودفع له نصف الثمن الذي طلبه مقابل تلك الأطباق التي تناولوها، فتسلم هذا الأخير المال بفرح وانحنى له احترامًا دون أن ينبس بكلمة. وخرجت الأسرة إلى العربة، وما أن رآهم الخادم مقبلين حتى فتح الباب مبتسمًا، فسأله (إزم) قبل أن يصعد:

ـ «هل تعرف أحدًا يطبخ جيدًا؟»

ولم يكد الخادم يفكر قليلًا حتى قفز إلى ذاكرته ابن عم له كان يعمل طباخًا عند رجل غني في مدينة طنجة، لكنه فقد عمله بعد أن أفلس سيده، وهو الآن يعمل خياطًا في برتات ، فأومأ إليه قائلًا:

ـ «أجل يا سيدي.. لدي ابن عم يحسن الطبخ»

ـ «إذن خذنا إليه الساعة، فأنا لا أريد العودة مع العشاء إلى هنا لتناول طعام سيئ كالذي تناولته للتو»

ركبت الأسرة. ساط الخادم الأحصنة باتجاه حي شعبي. بعد دقائق توقف أمام منزل مهترئ. أخبر (إزم) بأنه منزل قريبه الطباخ، فأمره بإحضاره على جناح السرعة.

في هذه الأثناء كان الطباخ يتجادل مع زوجته في حدة. لقد أفضى إليها بقراره النهائي بإغلاق دكان الخياطة والبحث عن عمل آخر، لكنها رفضت الفكرة، وطلبت منه سببًا واحدًا يدعوه إلى ذلك، مذكرة إياه بالأموال التي يربحها من هذه الحرفة، والمشاق التي كابدها حتى أتقنها، فصمت لوهلة لا يعرف كيف يبرر قراره هذا، والذي اتخذه بناء على إحساسه المفاجئ بالنفور من حرفة الخياطة. حين سمع الباب يطرق، تنفس الصعداء، إن الطارق سيمنحه فسحة من الوقت ليجد مبررًا مقنعًا لزوجته.

هرول للباب وفتحه فارتطم بقريبه. قال له بصوت مرتفع فاتحًا ذراعيه لعناقه:

ـ «(دحمان).. عزيزي، كيف حالك؟ أوه يا لرأسك! المسكين أنت أيضًا فقدت شعرك»

وأحس (دحمان) بانزعاج كبير لهذه الملاحظة، فهو يفعل ما بوسعه لكيلا يفكر في قرعه، فرد عليه:

ـ «(أبا سهيل)، كيف حالك يا ابن عمي الغالي؟»

دخل وسلم على زوجته، فإذا بها تقول له في رجاء:

ـ «أدركنا يا (دحمان)، إنه ينوي هدم كل ما بناه طوال سنين.. لا تكفيه حالة رأسي المزرية فيسعى لتجويعي أيضًا...»

ونهرها زوجها:

ـ «سحقًا لك! ألا تكفين!؟»

وقال له (دحمان) لائمًا: «هدئ من روعك!»

ووجه (دحمان) كلامه للمرأة في اهتمام:

ـ «ما الخطب يا (أم سهيل)؟»

ـ «إنه يريد إقفال دكان الخياطة والبحث عن عمل آخر، أليس هذا هو الجنون بعينه؟»

وابتسم (دحمان) ابتسامة واسعة حتى أدخل الشك في نفس المرأة فقالت له: «لعلك تعلم بالموضوع من قبل؟»

ـ « بصراحة، لقد طرقت بابكم لهذا الموضوع بالذات، فلقد فَقَدَ سيدي (إزم) كل طباخيه وسألني إن كنت أعرف شخصًا يطبخ جيدًا وأول من بدر إلى ذهني هو زوجك»

وقال (أبو سهيل) معبراً عن فرحه:

ـ «الحمد لله.. ألم أقل لك أن الله سيدبرها؟»

فقالت غير مقتنعة:

ـ «ولكن هل ستربح نفس المال الذي كنت تربحه في دكانك؟»

وأجابها (دحمان):

ـ «إذا كان يطبخ بمهارة فسيجزل له سيدي العطاء، إنه ينفح الطباخين أعلى أجر مقارنة مع باقي الخدم»

وتذكر أن (إزم) بانتظاره، لذلك بادر ابن عمه:

ـ «فما رأيك؟ هل تقبل بهذا العمل أم لا؟ فسيدي ينتظرني»

وقالت الزوجة: «ولكن...»

غير أن الزوج نهرها ولم يتركها تكمل:

ـ «مه! أنا موافق.. ومستعد أن أبدأ العمل منذ الآن»

- « وسيدي في أَمَسِّ الحاجة إليك الساعة فلقد تناول غداء سيئًا قبل قليل.. ومن المؤكد أنه سيدفع لك الأجر الذي تطلبه إذا أعددت له ولو طبقًا لذيذًا واحدًا.. هيا، هيا، سيفرح بك أشد الفرح»

ترافقا إلى العربة وقدمه بتذلل إلى (إزم) وأثنى عليه أشد الثناء واصفًا إياه بالطباخ الفذ، فأمره هذا الأخير بأن يصعد إلى جانبه، وأن يتجهوا مباشرة إلى البيت ليعد لهم وجبة سريعة، منبها عليه أن تكون خالية من الباذنجان، ومحذرًا إياه من استعمال هذه الخضر أبدًا في الطبخ.

ما أن توقفت العربة بالقصر حتى أهرع (أبو سهيل) إلى المطبخ. وبسرعة أعد طبقًا لذيذًا جعل أسياده يأكلونه كله ويلعقون أصابعهم وراءه. واستغل هذه الفرصة فطلب أجرًا مرتفعًا، فقبل (إزم) دون تردد مثنيًا عليه بحرارة، ومنذئذ صار الطباخ الأول في القصر، ورغم أن أربعة طباخين انضموا إليه في الغد، فهم لم يكونوا في مستوى مهارته وإتقانه لفن الطبخ.

الفصل 5

لعل أكبر رابح من البلبلة التي حدثت في قصر (إزم) بسبب القصة العجيبة هو الخادم السكير (شاكر)، الذي كلفه (سفيان) بطريقة غير مباشرة بجلب أفضل خمر للقصر.

كان يقطن بعيدًا عن قصر (إزم)، وكان متزوجًا وله بنت وولد، لسنوات مضت لم تدخر أسرته جهدًا في إقناعه بالإقلاع عن الشرب، لكن دون جدوى، ومن جهته فلقد حاول عديد المرات أن ينفذ رغبتهم، بيد أنه فشل، لم يكن ينقطع عن الشرب سوى نهارًا، وما أن يخيم الليل حتى تجره رجلاه نحو أحد الخمارين، يقتني منه قنينة فيشربها بتلذذ وهو هائم في دروب المدينة لوحده أو بصحبة بعض السكارى، ومع انبلاج الفجر يقفل إلى البيت مخمورًا، يندس في الفراش قريبًا من زوجته وينام محاولًا ألا يصدر أي صوت مزعج.

لم يهتم أحد من الأسرة، ولا هو نفسه، بانقطاعه عن الشرب في الأيام الثلاثة الماضية، حينما كانت المدينة كلها مشغولة بالبحث عمن تسبب بقرعها. لكن عندما أخذ الكل يعود إلى حياته العادية، إلى التفكير في نفسه وما يقض مضجعه، كانت زوجته أول من أشار إلى هذا الحدث الفريد.

فطنت إلى رائحة العطر التي كانت تنبعث منه بمجرد أن دخل إلى البيت زوالًا، هذه الرائحة التي التصقت به حين كان اليوم صباحًا يبحث عن (سفيان) في محل لبيع العطور.

قالت له مادحة: «تنبعث منك رائحة جميلة»

فرد عليها: «إنها رائحة الورد»

ابتسمت. لكن سرعان ما تغيرت ملامح وجهها فقالت بحزن:

ـ «للأسف، هذه الرائحة ستختفي خلال الليل»

ـ «ولماذا؟»

ـ «أنت تعرف...»

ـ «ماذا أعرف؟»

ـ «تعرف ماذا تفعل كل ليلة»

ـ «وماذا أفعل؟»

وخيم الصمت عليها للحظات، ثم قالت في رجاء:

ـ «ليتك تتوقف عن شرب الخمر»

فشعر كما لو أنها طعنته برمح في صدره، فهتف بها:

ـ «لا تذكري اسمها أمامي فأنا أمقتها مقتًا»

ففوجئت من ردة فعله غير الطبيعية هذه، فلطالما فر من أمامها بمجرد أن تذكر له سيرة الخمر واعدًا أنه سيبذل قصارى ما في وسعه لتركها، وهكذا سألته بصوت ضارع وهي تحدق في وجهه بحنان:

ـ «حقًا؟ أفعلًا تكرهها؟ ألن تغير رأيك مع هبوط الظلام؟ أتعدني؟»

ـ « لا تحدثيني عنها أبدًا.. هيا أحضري لي طعاما أتناوله كي أذهب إلى العمل»

وهرولت بسعادة إلى المطبخ وحضرت له أكلة شهية. تناولها ثم ذهب إلى قصر (إزم) وأمضى ما تبقى من النهار هناك، ينجز أعمال الصيانة كما العادة، ذلك أنه لم يغير موقع عمله، فحين التقى (سفيان) كلفه بمهام لا

تمت بصلة للعمل الذي يزاوله في القصر. وما أن أظلم الليل حتى قفل إلى البيت، تناول العشاء، ثم أخلد إلى النوم، أمام استغراب زوجته، وابنيه. ومنذئذ لم تقتصر كراهيته للخمر على انقطاعه عن شربها، بل تعدته إلى أكثر من ذلك، فقد بات يرتعد قرفًا من سماع اسمها، ولا يمر أبدًا بالقرب من منازل الخمارين، وإذا ما شمها يسارع إلى استنشاق أي شيء ليذهب عن أنفه رائحتها، وإذا ما التقى أحدًا مخمورًا فإنه لا يسلم عليه، بل يبتعد عن طريقه، ولا يأكل أو يشرب معه أو حتى قربه.

ولما كانت زوجته قد عزت توبته إلى المرض الذي حل بالمدينة فأسقط شعر أهلها، فلقد حمدت الله على هذا المرض، ولم تعد تشتكي من قرعها، ما دام تحقق حلمها وأضحى زوجها لا يأتي إلى البيت مخمورًا كل ليلة.

لم تكن الشخص الوحيد في المدينة الذي حمد الله على هذا المرض. الأقرع العاشق (قيس) فعل ذلك أيضًا. كيف لا وهو الذي ظل طوال حياته يتمنى إما أن ينبت له شعر أو أن يصير كل الناس في المدينة قرعًا مثله، فتحقق الشق الثاني من أمنيته، على صعوبته، وشبه استحالته.

في اليوم الذي استيقظ فيه الناس من تأثير القصة، فتملكهم الحقد تجاه (سفيان) لأنه تسبب بقرعهم، سيطر على (قيس) نفس الإحساس حياله، لكن ليس لأنه تسبب له بالقرع، فقد كان واعيًا بقرعه من قبل، بل لأنه تسبب بقرع محبوبته. كانت بمحاذاته حينئذ. لقد ظل مرابطًا بالقرب منها، يتبعها أينما ذهبت.

وعند انتهاء رحلة البحث كان غير بعيد عنها أيضًا. فسمعها تبكي بحرقة وتردد:

ـ «سأبقى عانسًا طوال حياتي بسبب رأسي»

فقفز إليها وقال لها: «لا.. فأنا أحبك ومستعد أن أتزوجك من الآن»

نظرت إليه بتلك الكبرياء المعهودة، لكنها بدت له مختلفة شيئًا ما عن السابق، فكبرياؤها الآن خالية من الاحتقار والكراهية، ولم تلبث أن قالت له:

ـ « إذا كنت فعلًا تحبني، وتريد الزواج بي، فجد لي دواء يعيد لرأسي الصفراء سوادها»

وصرخ بحدة:

ـ «لأفعلن ذلك!»

وسألها في استجداء:

ـ «هل تتزوجين بي عندئذ؟»

فردت بشكل آلي:

ـ «بالطبع»

ولكي تشجعه على بذل المستحيل لإيجاد الدواء، أضافت قائلة:

ـ «سأكون عبدة لك.. وسأحبك حبًا لا يمكن لامرأة أن تكن لرجل حبًا مثله.. فهيا، أسرع، ولا تعد إليّ إلا وفي يدك قارورة الهناء»

وغمره إحساس وضاء بالحبور، فأطلق ساقيه للريح باتجاه أطباء المدينة، فهؤلاء من بمقدورهم توفير الدواء، وهو لن يتزعزع من أمام مختبرهم حتى يسلموه له، وإلا فالويل ثم الويل لهم منه.

ولازال يركض حتى بلغ المختبر، ألفاه محاطًا بجمع غفير، سأل شابًا طويلًا عما يفعله الناس هناك، فرد عليه في سخرية بأنهم ينتظرون خروج الأطباء من المختبر لمنحهم دواء القرع. شعر بالنفور من تلك الرؤوس القرعاء الكثيرة حوله، فأقر واعترف لنفسه بأن كل لحظة كانت تعجبه فيها رأسه القرعاء حين كان وحده أقرعَ بالمدينة كان يسيطر فيها عليه الوهم فقط،

وعجب كيف أن الإنسان يمكن أن يكون في نظر الناس سيئ المنظر لكنه مع ذلك يكون في نظر نفسه جميلًا وسيمًا، وتساءل كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا وما الذي يمنع من أن تكون نظرته مطابقة لنظرتهم، وأي النظرتين مطابقة للواقع، فلم يعرف الجواب، وشعر بأن الدنيا مجرد أوهام بصرية، وبأن الإنسان سوف يستيقظ منها عند الموت، فسيطرت عليه غمامة سوداء جعلت الانتظار عسيراً.

وحين طرده الوالي هو ومن كانوا معه، لم يستسلم. غير بعيد اختبأ خلف شجرة وطفق يبحث عن طريقة لولوج المختبر. فقرر أن يرتدي خمارًا ويتجه نحو الجنود فيدعي بأنه زوجة أحد الأطباء ويطلب منهم أن يتركوه يدخل إلى زوجه ليخبره بأمر خاص ومستعجل. خف صوب دكاكين الثياب، اشترى الخمار الذي يحتاج إليه ثم مضى إلى دكانه ليرتديه فيه كيلا تراه ع ين. وشعر بالنفور من السلعة التي في دكانه وقرر ألا يتاجر بها أبدًا ويتاجر بغيرها.

استخرج الخمار من الكيس الذي كان ملفوفًا فيه، فتبادر إليه أن الطبيب الذي سيدعي أنه زوجته قد يكتشف منذ الوهلة الأولى هويته المزيفة انطلاقًا من قامته أو صوته، لذلك من الأفضل أن يزور زوجات الأطباء الثلاث ليرى أيهن أقرب إلى حجمه وأسهل عليه لتقليد صوتها.

ومن توه، أعاد الخمار إلى الكيس، خرج من الدكان، فلم يكد يبتعد خطوتين حتى سمع صوتًا يناديه من الخلف. استدار فإذا به أمام عمة الوالي، إنها عجوز فضولية سليطة اللسان، يكرهها أشد الكراهية، ونظرا لقرابتها من الوالي، لم يكن يجد محيصًا عن اتقاء شرها، شأنه شأن كافة أهل المدينة. دون مقدمات أمرته بالعودة إلى دكانه لأنها تريد شراء مكنسة. يا لسوء الحظ، سوف تؤخره هذه الشمطاء. ناهيك أنه لم تعد لديه رغبة في بيع أية سلعة في دكانه.

قال لها في أسف:

ـ «اعذريني يا سيدتي فسلعتي ليست...»

لكنها نهرته قبل أن يكمل كلامه:

ـ «يا رأس البصلة، ألم تسمعني؟ إذا لم تبعني المكنسة التي أريدها فسأتجه إلى الوالي اللحظة وأخبره أنك اعتديت عليّ!»

ومضى في البداية مبتعدًا وغير عابئ بكلامها، لكن تهديدها ما فتئ أن جمد الدماء في عروقه. إنها تقصد ما تقوله ولن تتردد في تنفيذ وعيدها. يا إلهي! إن أمله في الزواج بمحبوبته معلق بخيط واهن.

عاد إليها وقال لها متذللًا:

ـ «لا تغضبي يا سيدتي.. كنت أمزح معك فقط.. هلمي إلى الدكان وخذي ما شئت من المكانس، ولكي أثبت لك حسن نيتي، فأنا لن أقبض منك فلسًا واحدًا»

لكنها صرخت في عصبية:

ـ «هل أبدو لك متسولة؟ أنا أريد أن أشتري مكنسة بمالي الخاص أيها الوغد الأقرع»

فتح باب الدكان وأشار إليها بالدخول وهو يتقدمها مهرولًا كالخادم المفزوع من سيده المتعجرف. لحقت به. ببطء قاتل طفقت تفلي المكانس واحدة تلو الأخرى، ملقبة إياه بالغشاش لأنه يعرض بعضها للبيع مع أنها مهترئة، فيعتذر لها، صابرًا، يغلي صدره من الغضب، لاعنًا الحظ الذي جاء بها إليه في هذه اللحظات الحرجة.

وقالت له فجأة وقد أعادت مكنسة إلى مكانها بعد أن كانت تحملها لمدة طويلة حتى ظن أنها أخيرا سوف تشتريها وتغرب عن وجهه:

ـ « لا شك أنك سعيد كثيراً لأن الجميع صار أقرعَ مثلك»

فلم يرد بشيء وتضاعف غضبه وأحس بأنه لم يعد يتحكم في أعصابه وقد يقدم على قتلها. فإذا بها تضيف مدققة عينيها الشريرتين في عينيه المتعبتين:

ـ «إنك أنت المسؤول عما جرى لسكان المدينة.. أليس كذلك؟ اعترف، لن أقولها لابن أخي، أنا فقط أريد أن أعرف كيف فعلت ذلك، هل هو سم وضعته في آبار المدينة؟ أم ذروته مع الرياح؟»

وما زال متجمدًا في مكانه يحس بأوصاله تتمزق، مما أغاظها، فحملت مكنسة ولطمته صارخة: «تكلم أيها الوغد!»

وفي رمشة عين انقض عليها، أمسك عنقها بيديه بكل ما أوتي من قوة ثم جرها إلى غرفة صغيرة بالدكان يحتفظ فيها بسقط المتاع، راحت تجذف برجليها كالدجاجة التي علق رأسها في سياج حديدي، لكن قبضته كانت أقوى من أن تتملص منها، أنزلها أرضًا فأخذ يهمس لها وهو ينظر إليها بتكبر:

ـ «موتي أيتها الشمطاء! موتي! لن ينقذك مني الآن حتى الشيطان الذي يسكنك»

لما تأكد بأنها فارقت الحياة سحب يديه واتكأ على بعض الأخشاب القديمة المغبرة، فأخذ قلبه ينبض بقوة، ويداه ترتعدان، وأحس بفرح لا حدود له لأنه أنهى حياة هذه العجوز التي لطالما سخرت منه. وبعجالة، أزال كل الركام الذي في تلك الغرفة، اتجه نحو باب الدكان، أقفله من الداخل، عاد إلى الغرفة، تناول فأسًا وحفر حفرة عميقة. طوال ذلك لم يشعر بأي ندم لقتل المرأة، بل بالعكس، أحس بأنه كان عليه أن ينفذ هذه الجريمة منذ زمن طويل. ومن ناحية أخرى نسي تمامًا تلك المهمة التي خرج من أجلها ولم يعبأ بالوقت الذي يضيعه الآن.

لما انتهى من حفر الحفرة وضع فيها العجوز وبصق عليها ثم أهال التراب فوقها، حتى إذا انتهى من ذلك، أعاد الركام الذي أزاله من قبل إلى مكانه فوق القبر، أقفل الدكان، وغادر حاملًا في يده اليسرى ذلك الكيس الذي يحتوي على الخمار.

أخذ طريقه بهدوء نحو منزل الطبيب (هشام)، والذي كان أقرب لدكانه من منزلي الطبيبين الآخرين، طرقه، خرج إليه ابنه، طلب منه أن ينادي على أمه ويخبرها بأنه مبعوث إليها من والده، فذهب مهرولًا. بعد ثوان خرجت إليه امرأة قصيرة الطول، سمينة، دميمة، ترتدي ثيابًا شبه بالية. لم يضيع وقته بالتحدث إليها لسماع صوتها، فهي أقصر منه وأسمن. دار على عقبيه دون أن يكلمها، لاعنًا الطبيب الذي تزوجها، متسائلًا ماذا أعجبه فيها، فبقيت المسكينة تنادي عليه من الخلف، وقد خرجت إليه وقلبها يكاد ينفجر من التوتر، لأن نفسها خبرتها بأن زوجها أرسل إليها معه دواء من شأنه أن يعيد إليها شعرها في الحال. ولم تزل تنادي عليه وهو لا يبالي بها حتى نفد صبرها فركضت نحوه وأمسكته من تلابيبه وهتفت به:

ـ «ما بك لا تجيب؟»

فقال لها متوسلًا غير قادر على إضاعة دقيقة واحدة:

ـ «دعيني أرجوك فأنا في عجلة من أمري»

ـ «أدعك!؟ ليس قبل أن تقول لي ماذا أرسل معك زوجي؟»

ورمت بطرفها إلى الكيس الذي يحمله في يده، فخطفته وركضت به ثم فتحته في لهفة وهي تردد:

ـ «لقد أعطاك دواء، أليس كذلك؟ إذن فأين هو؟ أين خبأته؟»

رمت الخمار وطفقت تبحث في الكيس، ركض نحو الخمار، حمله وقال لها معاتبًا: «هل اطمأننت؟»

وبلهفة مدت يديها إلى جيوبه وهي تقول:

ـ «أتريد أن تسترد شعرك لوحدك فأبقى قرعاء مدى الحياة!؟»

تركها تفتش في جيوبه كما تشاء فلما لم تجد شيئًا اغرورقت عيناها بالدموع وتهالكت على ركبتيها تنوح وتولول، خاف أن يجتمع الناس حولهما فهرب كالثعلب.

مضى صوب منزل الطبيب (عبد القادر)، طرقه، خرجت إليه امرأة جميلة في نفس طوله، فسألها للتأكد من أنها الزوجة المعنية:

ـ «هل أنت زوجة الطبيب (عبد القادر)؟»

ـ «أجل» قالت مترقبة والتوتر باد عليها.

ـ «أنا موفد من والي المدينة إليك»

ـ «والي المدينة؟ هل حدث خطب ما؟»

ـ «ستعرفين كل شيء في وقته.. ولكن أولًا أخبريني باسمك وأسماء أبنائك»

ـ «اسمي (رجاء) ولدي ثلاثة أبناء، ولدان اسماهما (توفيق) و(رضوان)، وبنت اسمها (سميرة)»

ـ «ليكن في علمك بأن زوجك يرفض التعاون مع زميليه لصنع الدواء الذي يشفي المدينة من الوباء الذي أصابها، وقد أرسلني الوالي بنفسه إليك لكي تخبريني بسر خطير عن زوجك تعرفينه لوحدك بمقدورنا نحن استغلاله للضغط عليه كي يتعاون مع زميليه.. ويعدك الوالي بأن تكوني أول من يستفيد من دواء القرع بعد اكتشافه.. ويتوعدك بقتل زوجك إذا لم ينفع معه هذا السر أو إذا أبيت الإدلاء به»

قالت ضارعة: « لا، أرجوكم لا تقتلوه، إنه لا يستحق ذلك، وهو طيب جدًا.. وسوف يتعاون مع زميليه»

ـ «هيا، لا تضيعي وقتي، لقد تركت الوالي ينتظر على نار حامية وأخاف أن ينفد صبره قبل أن أصل إليه فيقتل زوجك»

وهنا قالت بحدة وهي ترمقه بنظرات منكسرة:

ـ «لقد قتل قبل عام عن غير قصد امرأة مريضة بالزكام، فبدل أن يسلمها دواء الزكام سلمها سمًا زعافًا ماتت على الفور بعد شربه، وما زالت هذه الحادثة تؤرق جفونه وتعذبه، فهو من وقت لآخر يرى هذه المرأة في أحلامه تحاول الانتقام منه»

وسألها بعد أن صمتت:

ـ «ما اسمها؟»

ـ «(ثرية)»

ـ «هل لديك سر آخر؟»

وبدا أنها ما تزال تريد كشف سر ثان لكنها مترددة، وحتى يشجعها قال لها:

ـ «هيا، أنقذي زوجك من الهلاك!»

ـ «زوجي لص.. لقد سرق الشهر الماضي من رجل كان يعالجه مبلغ ألف درهم وقلادة ثمينة»

ـ «ما اسم الرجل؟»

ـ «رضوان الزروبي»

ـ «بائع الخضر؟»

ـ «أجل»

ـ «أما يزال يحتفظ بالقلادة؟»

ـ «نعم.. ويخبئها في خزانة النقود التي يدفنها في مكتبته»

ولم تلبث المرأة أن انفجرت بالبكاء. فاقترب منها وأخذ يهدئ من روعها ثم شكرها وغادر في فرح، عالماً بأن هذين السرين سيجعلان زوجها لا يتردد في تسليمه الدواء المطلوب.

ارقَدَّ صوب المختبر. وفي الطريق ارتدى الخمار الذي ستر جسده كله، كما جعل يتدرب على تقليد صوت هذه المرأة، ناهيك أنه اقتنى حذاء نسوياً في مقاس قدميه الطويلتين وانتعله دون أن يعرف هل هو نفس مقاسها، وخبرته نفسه أن يعود إليها ليتأكد من ذلك إلا أنه لم يلبث أن طرد الفكرة من رأسه نظراً لضيق الوقت ولبعد المسافة بينه وبينها.

ألفى المختبر محاطًا بالجنود كما تركه. اقترب منهم. قال له أحد الجنود قبل أن يبلغهم:

ـ «قفي عندك أيتها السيدة، ممنوع الاقتراب من المختبر!»

شعر بالفرح لأن شكله انطلا على هذا الجندي. أجابه بذلك الصوت النسوي الذي تمرن عليه:

ـ «أنا زوجة الطبيب (عبد القادر)»

قال له الجندي بلطف:

ـ «تشرفنا بك يا سيدتي ولكن يؤسفنا أن نخبرك بأن الأوامر تقضي بألا

يقترب أي أحد من الأطباء ويزعجهم، فهم منغمسون في العمل لصناعة الدواء الذي ينقذ المدينة من القرع»

ـ «أريد زوجي لأمر مستعجل مرتبط بالأبحاث التي يقوم بها.. لقد أوصاني بشراء عشبة نادرة يحتاجها في صناعة ذلك الدواء، لكن يبدو أن العشبة تساوي ثلاثة أضعاف المبلغ الذي بحوزتي، وأنا هنا لكي يسلمني بقية المال لشرائها، لذلك لا تترددوا في إدخالي إليه وإلا اتجهت إلى الوالي الساعة فأشكوكم له وأتهمكم بعرقلة عملية صناعة الدواء»

ولوهلة أخذ الجنود يتبادلون النظر فيما بينهم في ريبة، ثم أسرعوا إلى الباب وفتحوه له، فرافقه اثنان منهم إلى داخل المختبر.

لكن من سوء حظ (قيس) أن الأطباء الثلاثة كانوا قد صبوا على دهليز المختبر زيتًا زلقًا، وذلك لكي يمنعوا الجنود الذين كلفهم الوالي بحراستهم من التجسس عليهم، وهكذا ما أن وضع قدمه في الدهليز حتى تزحلق في السماء وسقط أرضًا، فانخلع الخمار عن وجهه وظهرت ملامحه الذكورية جلية للجنديين اللذين دخلا معه، واللذين سقطا مثله، فارتميا عليه، كبلاه، وناديا على بقية الجنود.

قادوه إلى الوالي، فلما أخبروه بما صنعه، أمرهم برميه في أوسخ زنزانة بسجن قصره، ففعلوا ذلك.

الفصل 6

مرت سبعة أشهر دون أن تنبت شعرة على رأس أحد في مدينة برتات. عم اليأس والتبرم. لم يكن يسمح لأهل المدينة بالخروج منها، ولا للغرباء بدخولها. وكانت التجارة مع العالم الخارجي تمارس على بوابتها الغربية يوم الثلاثاء فقط، إذ يقبل تجار الجملة من مدن مختلفة إلى هذه البوابة ويبيعون سلعهم تحت أنظار الجنود.

كان التجار الخارجيون وحدهم من يسمح لهم بارتداء شيء على رؤوسهم، أما تجار المدينة فلم يكن يسمح لهم بذلك. لقد أمر الوالي منذ الأيام الأولى من الواقعة أهل المدينة -سواء كانوا رجالًا أو نساء- بألا يضعوا شيئًا على رؤوسهم.

فعل ذلك حينما ذاعت شائعة تفيد بأن الأطباء قد اكتشفوا دواء القرع ووزعوه على أقاربهم فاستعادوا شعرهم وهم يغطونه لكيلا يراه سكان المدينة فيطالبوا بالدواء. انتشرت بين سائر الناس هذه الإشاعة كالنار في الهشيم. لما سمعها الوالي غضب أشد الغضب. وعلى الفور ذهب بنفسه إلى الأطباء واستجوبهم فأكدوا له بأن الدواء الذي سلموه إياه هو الدواء الوحيد الذي استطاعوا الوصول إليه وبأنهم بصدد اختراع دواء آخر أسرع منه، وهو أول من سيجربه حين يفرغون منه.

فخرج من عندهم والشك ما يزال يخالجه حول صدقهم، استدعى بعض أهلهم. ألفاهم كلهم يغطون رؤوسهم، مما زاد من شكه. بلهفة عرى رؤوسهم. لكنه ألفاها ما تزال قرعاء. سألهم لماذا يغطونها، فأجابوه بأنهم

يشعرون بالبرد. الحق أن الأطباء هم من نصحوهم بفعل ذلك بدعوى أنه سيسرع من مفعول الدواء الذي سلموه لهم، وبالطبع طلبوا منهم كتمان الموضوع. فصرفهم الوالي رغم أنه لم يصدقهم وأرسل مناديًا ينادي في المدينة بأن كل من غطى رأسه سيتعرض للحبس والتعذيب.

في البداية تلقى الرجال المحافظون هذه الأوامر بسخط، إلا أن سخطهم سرعان ما زال واقتنعوا بأنه لا ضرر في عدم ارتداء نسائهم وبناتهم وقريباتهم للحجاب، فلئن كان الله قد فرض الحجاب على النساء لستر شعرهن كيلا يفتن به الرجال، كما فرض عليهن ستر باقي مفاتنهن، فالآن وقد فقدن شعرهن لم يعد هناك من سبب يدعوهن إلى حجب رؤوسهن، والحق أن جمهور الفقهاء في المدينة رخصوا بذلك.

خلال سبعة أشهر الماضية لم يدخل غريب إلى المدينة. واليوم، الثلاثاء، يوم السوق، عنَّ لتاجر لا يسكن في برتات دخولها لربح بعض المال.

إنه رجل يسمى (شَمّاع)، قليل البنية، قصير القامة وقبيح الوجه. في الصباح جلب إلى السوق مجموعة من المستحضرات المزيفة لإنبات الشعر، أراد بيعها لتجار المدينة لكنه فوجئ بهم يخبرونه بأن الوالي يمنع شراء هذه المستحضرات وبيعها إلا إذا صنعت من طرف أطباء المدينة ويعاقب من يفعل ذلك بثلاثمائة جلدة.

تجدر الإشارة إلى أن الوالي أصدر هذه الأوامر ليستولي على الدواء الشافي وبيعه بنفسه لجني ثروة طائلة. وعلى أية حال فقد جنى أموالًا وافرة حتئذ ببيع الأدوية التي كان الأطباء يسلمونها له حتى لو لم تكن شافية. هؤلاء كانوا يسلمونه دواء كل شهر مع ورقة تحتوي على مكوناته، فيكلف رجالًا بصناعة آلاف القوارير الشبيهة به، ثم يبيع القوارير بأثمنة باهظة، مدعيًا أن المال الذي يجنيه من بيعها يرسل إلى بيت مال الدولة بمراكش. ورغم أن الناس الذين يشترون تلك الأدوية كانوا يشعرون بالخيبة ويغضبون بشدة

بعد أن لا تأتي بنتيجة ويقررون ألا يشتروا دواء آخر يصنعه الأطباء، إلا أنهم سرعان ما يتهافتون على شراء الدواء التالي، حتى أن الكثيرين أفلسوا تمامًا على إثر ذلك.

في الحقيقة، الوالي بنفسه كان يشعر بالخيبة كلما تبين بأن الدواء الذي سلمه الأطباء لم ينفع، وذلك بسبب ابنته الكبرى وزوجته اللتين ظلتا حزينتين على قرعهما، ولكم تمنى لو كانتا مثل ابنته الصغرى التي لم تكن متذمرة أبدًا من قرعها.

أحس التاجر (شماع) بالغضب لأنه لم يتمكن من إيجاد أحد يشتري منه تلك المستحضرات، لكنه لم ييأس، بل أخذ يدير عجلات تفكيره لعله يصل إلى حل. وفجأة برقت في ذهنه فكرة بأن يتسلل إلى المدينة ويبيع المستحضرات فيها، فقفز من مكانه طربًا.

في الحال نزل إلى حفرة بمكان قصي عن السوق لا يوجد فيه أحد، خلع العمامة وجز شعره، لكنه حين نظر إلى رأسه في المرآة لم يقتنع بلونها، فلقد كانت ما تزال مختلفة عن رؤوس سكان المدينة، فلئن خلت من الشعر إلا أنها كانت تميل إلى اللون الأخضر بينما رؤوسهم تميل إلى اللون الأصفر. عقله المدبر لم يتأخر إلا بضع ثوان حتى أمده بهذا الحل: أن يخلط شيئًا من التراب مع زيت الزيتون والزعفران الفاسي وعشبة الجبلية فيدهن المرهم برأسه ثم يغسله بالماء. لقد تذكر أن جدته دهنت شعر أخته بهذه الخلطة وغسلته بالماء فصار لونه أشقرًا بعد أن كان أسودًا. أعاد العمامة التي كان يرتديها إلى رأسه ورجع إلى السوق فأحضر كل ما يحتاج إليه لصناعة هذه الخلطة، وحين جربها نجح الأمر، مال لون رأسه إلى الأصفر بدل الأخضر. ولبث في مكانه عقب ذلك ناويًا ألا يتجه إلى السوق حتى يحل الغروب، الوقت الذي ينفض فيه السوق.

وحينما زورت الشمس إلى المغيب، حمل كيس مستحضراته على كتفه

واتجه نحو باب السوق برأسه الصفراء العارية. مشى بخطى ثابتة تنم عن ثقة كبيرة في النفس. تمنى ألا يكون الحراس يحفظون وجوه تجار المدينة حتى لا يكتشفوا أمره. يعلم أنه إذا عرفوه فسيجلدونه ثلاثمائة جلدة على ذلك الباب، كان هذا هو عقاب كل من لم يصب بذلك الوباء في رأسه وتجرأ على دخول المدينة.

يبدو أن بعض سكان برتات كانوا مسافرين خلال الأيام التي تأثرت فيها المدينة بالقصة العجيبة، فلما عادوا من سفرهم، بعد زوال تأثير القصة، مُنعوا من الدخول، حتى العثور على دواء لذلك المرض. حاول بعضهم التسلل إلى المدينة لزيارة ذويهم أو حمل أموالهم عقب أسبوع من الواقعة فقبض عليهم وجلدوا بقسوة. ومنذئذ لم يجرؤ أحد على تكرار المحاولة، ولم تطأ تراب المدينة قدما غريب، وحتى أولئك الجنود الذين كان يرسلهم السلطان إلى المدينة كانوا يبقون خارجًا، كالجنود الذين جاؤوا لحمل جثث (أبي قنافذ) وأصحابه.

وبالمقابل، أولئك الذين جاؤوا زوارًا للمدينة خلال الأيام التي كانت واقعة فيها تحت تأثير القصة العجيبة ففقدوا شعرهم، لم يسمح لهم

بالمغادرة، فاستسلموا لقدرهم، مقاومين آلام الغربة.

والظاهر أن تلك القلة التي تزامن قدومها للمدينة في فترة انشغال الناس بالبحث عن (سفيان)، لم تلبث أن فرت بعيدًا خوفًا من الإصابة بمرض القرع.

تجاوز (شماع) البوابة بسلام، شعر بالفرحة والانتصار. وفي هذه اللحظة فقط فطن إلى أنه لم يخطط بعد إلى أين يذهب أو كيف يتصرف، إنه لا يعرف أحدًا في هذه المدينة ولم يسبق له زيارتها. بعد لأي قرر أن يكتري منزلًا لبضعة أيام ويقطن فيه حتى يدبر خطة يبيع بها مستحضراته. بعد

بحث قصير عثر على منزل متوسط الحجم، رخيص الثمن، فاستأجره من صاحبه، وهو شيخ اسمه (حمدان) يقطن في البيت المجاور له مع زوجه.

شرع بجمع المعلومات عمن يبيع مستحضرات إنبات الشعر بالمدينة، فعلم أن الوالي وحده يفعل ذلك كما قال له من قبل أولئك التجار بالسوق، وبأنه جمع ثروة طائلة، وهو يبيع كل شهر مستحضراَ جديدًا، وأغلب سكان المدينة يشترونه، حتى بعض الفقراء منهم، ذلك أنه يخفض لهم ثمنه قليلًا مقارنة مع الأغنياء.

ولقد نمى إليه بأن رجلين ضبطا قبل شهرين وهما يبيعان بشكل سري مستحضراَ غير الذي يبيعه، فجلدا ثلاثمائة جلدة.

لم يعرف (شماع) ما يفعله. ظل حائراَ في الطريقة المثلى التي يبيع بها مستحضراته بثمن باهظ، ثم يخرج من المدينة سليمًا معافى.. أيذهب مباشرة إلى الوالي بعد نمو شعره ويعرض عليه مستحضراته، ثم يساومه في ثمنها؟ هو لن يكتفي بالمساومة عليها وحدها، بل وسيساومه أيضًا على وصفتها، لاشك أنه سيستغل سلطته ويقدم له ثمنًا بخسَا مهددًا إياه بقطع رأسه إذا رفض عرضه، وحتى إن لم يفعل ذلك ودفع له المبلغ الذي طلبه فما الضامن بأن يسمح له بالخروج من المدينة سالمًا بعد ذلك؟ فلقد سمع بأنه أشد الناس جشعًا وحبَا للمال.. لماذا إذن لا يبيع مستحضراته لغيره؟ لأناس ليسوا في جشعه؟ لقد بلغ إلى مسامعه أن ثمة بالمدينة أغنياء كثر ومن بينهم واحد اسمه (إزم) يتصدر قائمة كبار الأغنياء في البلاد قاطبة، لماذا لا يذهب إليه ويبيعها له؟ هو لن يطالبه بالوصفة، إنه سيشتري منه بضع قوارير فقط، بالثمن الذي يريده، ولن يفكر بأذيته.. ولكن لا، قد يضبطه الوالي وهو يفعل ذلك فيجلده ثلاثمئة جلدة.. إذن فليس أمامه إلا حل واحد وهو بيع المستحضرات والوصفة لهذا الوالي البخيل.. لذلك يتوجب عليه تدبير خطة محكمة لضمان سلامته بعد إتمام الصفقة.

وسرعان ما اهتدى إلى الخطة المناسبة، وهي تقضي بأن يكتري بيتًا ثانيًا ويدفن فيه كل مستحضراته، فلا يترك في متناوله إلا قارورتين، يدفنهما في البيت الذي اكتراه أولًا، فيرابط بهذا البيت حتى تنمو شعرات رأسه، وحينئذ يستخرج هاتين القارورتين فيبيع واحدة للشيخ (حمدان)، وذلك مقابل شهادته أمام الوالي بأنه يكتري له بيته منذ ثلاث سنوات، ويبيع الأخرى للوالي مع وصفتها، ولكيلا يشك الوالي أبدًا في أنه غريب عن المدينة وتسلل إليها فقط سوف يعزز شهادة الشيخ (حمدان) بشهادة عجوز تدعي له بأنها أمه، وعندما يقبض ثمن القارورة والوصفة يفر من المدينة، يضع المال عند أسرته ويقفل راجعًا، يبيع باقي المستحضرات ثم يرحل إلى غير رجعة، ولكي يتمكن من الدخول إلى المدينة والخروج منها بسهولة سوف يقوم برشوة الحراس بواسطة هذه المستحضرات.

مستعينا بالمتسولين والفقراء، عثر على امرأة بالأوصاف التي أرادها لتدعي للوالي بأنها أمه. إنها عجوز عمياء فقيرة لا أهل لها تسكن بعيدًا عن منزل الشيخ (حمدان). وافقت في الحال على طلبه وإن كرهت الشرط الذي اشترطه عليها بأن تقيم معه لأيام ولا تسأله عما يفعله طوال مدة إقامتها. أخذها معه للمنزل وأسكنها بغرفة بعيدة عن غرفته وراح يعتني بها كأنها أمه.

وحين نبتت الشعرات الغالية واسود رأسه بعض الشيء انتقل إلى تنفيذ الشق الثاني من الخطة. في غبش الليل خطا خارجًا بعد أن أمن خلو الزقاق من السابلة ثم طرق بيت الشيخ (حمدان). كان الليل قد جاوز منتصفه. كان متأكدًا من أنه سيجد الشيخ نائمًا. لا يهم، لابد أنه سيتضايق من إيقاظه في هذه الساعة المتأخرة من الليل في البداية، لكنه حين يرى رأسه المزغبة لن يلبث حتى يشكره لأنه اختاره لمساعدته من دون كل باقي الخلق القرع بالمدينة.

وبالفعل، بعد الطرق قليلًا جاءه صوت الشيخ من الداخل صائحًا في انزعاج:

ـ «من يطرق الباب في هذا الليل؟»

فرد في صوت منخفض لكيلا يسمعه أحد غيره:

ـ «إنه أنا.. جارك (خميس)» [هذا هو الاسم الذي أعطاه لنفسه]

وراح الشيخ يفكر محاولًا تذكر صاحب هذا الاسم، وفتح الباب قبل أن ينجح في تذكره، فتجمدت ركبتاه وفغر فاه من عجب ما رآه. يا إلهي، إنه رجل بشعر. لم ير رأسًا بشرية فيها شعر منذ سبعة أشهر تقريبًا.

لم يصدق عينيه، لذلك امتدت يداه إلى رأس (شماع) وأخذ يلمسها وهو يردد:

ـ «أهو شعر حقيقي!؟ أهو شعر حقيقي!؟»

وأجاب (شماع) في حماس:

ـ «أجل.. أجل»

ودمعت عينا الشيخ من شدة السعادة، فلقد كانت أمنيته الأخيرة ألا يموت أقرع، وأحس الآن بأن أمنيته ستتحقق قريبًا، ومن توه سأل (شماع) في لهفة وسط دموعه:

ـ «قل لي بالله عليك.. كيف شفيت؟»

ولم يحر (شماع) جوابًا ليلهب حماسه ويجعله أشد تلهفًا لمعرفة الدواء لكيلا يتردد في تنفيذ أوامره. فصاح الشيخ في لهجة تستدر الشفقة:

ـ « ناشدتك الله أن تجيبني.. ارحم شيخًا على مشارف الموت، كل أمنيته ألا يحمل على نعش برأس صفراء مصقولة.. واطلب ما شئت.. إذا أردت المال فخذ كل ما أملك منه، وإذا أردت غير ذلك فمرني.. أنت السيد وأنا العبد»

ـ «حسنًا.. سأعطيك قارورة تسود رأسك»

التمعت عينا الشيخ فرحًا حتى صارتا تشعان مثل عيني طفل يجلس على حجر والده الذي يقدم له وعودًا بشراء ألعاب جميلة يوم العيد.

واستطرد (شماع) في لهجة مغايرة، خالية شيئًا ما من اللطف الذي كان يتكلم به معه منذ قليل:

ـ « ولكن، لابد أولًا أن تصنع لي معروفًا»

فأجابه الشيخ بثقة جندي مخلص وشجاع:

ـ «مرني بأي شيء، لأمضين إليه ولو حال بيني وبينه شوك الهراس»

ـ « أعرني أذنيك واستمع إليّ جيدًا وعِ قولي: سوف تخرج من هنا وتتجه رأسًا إلى قصر الوالي، تطرقه، وتطلب لقاءه، سيعلن لك الحراس بأنهم لن ينادوا عليه دون أن تذكر لهم سبب الزيارة، فتصر على عدم ذكر السبب قائلًا بأنه سر خطير خاص بالوالي إذا عرفوه فمن شأن ذلك أن يهدد حياتهم، وأخبرهم أنك مستعد لتلقي ألف جلدة إذا تبين في النهاية بأنك تكذب عليهم فقط.. عندما يأتي إليك الوالي أخبره بأنني استرجعت شعري وبأنني ألتمس منه المجيء إلى بيتي الساعة لأبيعه الدواء.. هل فهمت؟ لاحقًا سيسألك الوالي عن هويتي، فأخبره أنني أستأجر بيتك منذ ثلاثة أعوام أنا وأمي وزوجتي وابنتي.. والراجح أنه سوف يجلدك لكي تعترف بمكونات المستحضر الذي أنبت شعري، فكن مستعدًا للجلد»

ـ «أنا مستعد»

قال بحزم، ثم ما عتّم أن سأله في حيرة:

ـ « عندما يشتري منك الوالي الدواء فهو بالتأكيد لن يتركك تذهب حرًا طليقًا، سوف يعزلك عن الناس كيلا تبيعه لغيره، وبالتالي لن يتسنى لك إعطائي تلك القارورة التي وعدتني بها»

وطمأنه وهو يربت على كتفه:

ـ « لا تخف، لقد عملت حساباً لهذا، لذلك دفنت القارورة في بيتك الذي أكتريه، فما أن تأتي بالوالي وتطرق الباب حتى أرمي بورقة إلى حوش دارك تشير إلى المكان الذي دفنت القارورة فيه.. فأوصِ زوجتك بألا تقوم بتمزيق الورقة»

وهنا استفسر منه: «هل تكفي القارورة لشخصين أم لشخص واحد؟»

ـ «إنها تكفي لشخص واحد.. عليك دهن رأسك بالسائل الذي فيها كل ليلة قبل النوم وذلك لمدة عشرين يومًا تقريبَا، وفي اليوم الواحد والعشرين سوف تنبت على رأسك غابة من الشعر»

وقال الشيخ متحسراَ:

ـ «ليت النتيجة تظهر في الحال.. وليت القارورة تكفي لشخصين، فزوجتي المسكينة متلهفة أكثر مني لاسترجاع شعرها.. ولكن يا للأسف، ليس باليد حيلة»

وصمت لوهلة ثم سأله:

ـ «ألا يمكنك أن تسلمني قارورتين؟ أرجوك، بل أتوسل إليك، سأعطيك عشرة آلاف درهم.. ناهيك عن بعض جواهر زوجتي.. إنها كل ما بقي لدي بعد أن صرفت ثروتي كلها في شراء تلك القوارير العقيمة التي صنعها أطباء المدينة الفاشلون»

وأخذ (شماع) يفكر مليَا في عرضه، لقد اشتاق إلى الإمساك بمبلغ كبير من المال بين يديه. ما زال يتذكر -وكيف له أن ينسى؟- يوم قبض نصف هذا المبلغ. كان ذلك قبل ثلاثة أعوام تقريباَ، عندما حدثت الفاجعة التي غيرت مجرى حياته.

الفصل 7

كان (شماع) يقطن بقرية تبعد عن مدينة (تازة) بنحو عشرين كيلومتراَ، وينحدر من أسرة تمارس الفلاحة أبًا عن جد، لما تزوج عزم على تغيير حرفة أجداده هذه بعد أن تأكد بأنها لن تحقق طموحاته في عيش حياة باذخة خالية من آلام الفاقة وهمومها التي لا تنتهي، وما زال يفكر في بديل لها من شأنه التحليق به في سماء الغنى حتى استقر اختياره على التجارة. «أجل، التجارة..» -قال لنفسه وهو يطأ مجموعة من السنابل- «.. إنها أسهل طريقة للاغتناء».

لكن ثمة مشكلة، إنه لا يملك رأس مال فيشتري بضاعة يتجار بها، عليه بيع فدادينه إذن، بل وفدادين زوجته كذلك. انتصب واقفًا، دعك تلك السنابل بقوة، كما لو ليؤكد لها ولنفسه وللعالم كله بأنه بات تاجراَ وانتهى من مزاولة الفلاحة، ثم مضى نحو البيت ليقنع زوجته بقراره. بعد محاولات جاهدة استطاع إقناعها. وهكذا باعت كافة فدادينها إلا واحدًا احتفظت به خوفًا من غدر الزمان. فصار لديه رأس مال محترم.

جعل يسافر يوميَا إلى تازة فيسأل تجارها عن أربح تجارة للاستثمار فيها. هذا يقول له الفواكه، وذاك الأثواب، وذاك الأحذية وذاك التوابل... ما أكثر ما يمكن للمرء التجارة فيه وتحقيق الربح! داخ ولم يعرف ما يختاره.

كثّف من بحثه فعرف بأن إنتاج زيت الزيتون ضعيف في المنطقة تلك السنة، وإذا اشترى كمية كبيرة منه من مكان آخر وجاء بها إلى (تازة) فسوف يربح الكثير، فقرر القيام بذلك.

لشراء الزيت، اتجه نحو فاس. طفق يسأل هنا وهناك عن ثمنه، رصده لص محترف ينصب على التجار المبتدئين، لا سيما الغرباء منهم عن المدينة، فمر بمحاذاته على عربة تحمل عشرة براميل ضخمة، مناديًا بصوت مرتفع بأنه يبيع زيت الزيتون بثمن مناسب، فاستوقفه، وقبل أن ينطق بكلمة، أعلمه هذا الأخير بأنه لن يبيعه زيته بثمن أرخص من ثمن السوق إلا إذا اشترى منه كل الكمية التي معه، وهي ألف لتر، ناهيك عن العربة والبراميل، فابتسم (شماع) فرحًا لأنه وجد ضالته؛ فهو ينوي شراء هذه الكمية تقريباَ، ولما سأله عن الثمن ازداد فرحًا وشعر بأنه محظوظ جدًا، ذلك أن المال الذي بحوزته يساوي هذا الثمن.

تذوق طعم الزيت في البراميل بواسطة مغرفة صغيرة سلمه إياها، طعمه جيد؛ لقد عثر على صفقة رابحة وعليه أن يعجل بإبرامها قبل أن يسلبها منه تاجر آخر؛ فلقد بدأ المكان من حوله يعج بالتجار. لم يترك لأحد الفرصة بالأخذ والرد مع البائع، وسرعان ما أعلن لهم بصوت مرتفع بأنه اشترى البضاعة وأبرم الصفقة، فلما عرفوا منه المبلغ أبدوا دهشتهم وحسدهم، فشعر من ذلك بنشوة كبيرة.

وما هي إلا أن عاد أدراجه إلى قريته.

لكم فرحت زوجته حين دخل عليها حاملًا تلك البراميل، والحق أنها ظلت جزعة عليه طوال فترة غيابه خائفة من تعرضه للسرقة. وسرعان ما ذاع في القرية بأن البراميل التي جاء بها (شماع) إلى بيته مليئة بالزيت وبأنه اشتراه بثمن بخس وينوي التجارة فيه، فحسده البعض واستهزأ منه البعض الآخر معتبراً بأن الزيت الذي اشتراه بذلك الثمن الرخيص فاسد، وحتى لو لم يكن كذلك، فهو لن يستطيع بيعه كله خلال سنة واحدة، وهي المدة المعروفة التي تبدأ بعدها جودته بالانخفاض.

ولم يعبأ (شماع) بكل هذا الكلام، وظل مخزنًا سلعته لخمسة أشهر حتى

نفد الزيت من تازة تقريبًا وارتفع ثمنه ارتفاعًا ملحوظًا، فرأى أنه الوقت المناسب لبيعه. استخرجه من المخزن الذي خبأه فيه، وضعه في العربة التي نقله عليها من فاس، وقبل أن ينطلق بالعربة، نصحته زوجته أن يتذوقه، ففعل، طعمه لم يتغير. بسرور وفخر رحل إلى تازة، وهناك تقاطر عليه التجار. ابتاع منه زبون نصف برميل بثمن مرتفع. فتناول مغرفة وراح باعتزاز يملأ له القنينات التي أحضرها. وما زال يفعل ذلك حتى اصطدمت المغرفة بشيء صلب في البرميل الذي يستخرج منه الزيت، تساءل لماذا لا تنزل المغرفة عميقًا في البرميل، وطفق التجار الذين من حوله يتهامسون ويتوشوشون. شرع بإفراغ البرميل من كل الزيت الذي فيه ليعرف ما يحصل. مصعوقًا اكتشف أن البرميل مسقوف بالخشب على بعد سنتيمترات فقط من الأعلى، والمساحة التي بين ذاك السقف والسطح وحدها المليئة بالزيت، بينما المساحة التي بينه وبين القعر مليئة بالماء.

لما أفرغ جميع البراميل تبين بأنها لا تحتوي كلها إلا على لترات قليلة من الزيت. كاد أن يصاب بالجنون وأخذ يضرب كفًا بكف ويندب حظه ويلعن اللص الذي خدعه.

في النهاية باع تلك اللترات وقلبه يكاد يتفطر من الحزن. لم يعرف ما يفعله! هل يعود إلى زوجته بالدراهم الزهيدة التي نالها؟ كيف ينظر إلى وجهها!؟ سيكون محط سخرية أهل القرية، وسيرته ستكون على لسان الصغير والكبير، فيشمت فيه الشامتون.

وبعد تفكير طويل قرر ألا يعود إلى القرية إلا وهو غني. وهكذا باع تلك العربة وأحد البغلين اللذين يجرانها، وسافر إلى فاس على البغل الآخر. اكترى بيتًا متواضعًا، وطفق يتاجر في مواد العطارة، يشتريها بالجملة ويبيعها في القرى المجاورة بالتقسيط.

هو الرجل الصادق، بعد تعرضه للنصب من طرف بائع الزيت ذاك، والذي

بحث عنه دون جدوى، صار يعتبر كل الناس بفاس والقرى التي تحيط بها ماكرين وخداعين، وأقسم ألا يرحم فيهم أحدًا، لذلك جعل يبيعهم مواد ضارة على أنها أدوية نافعة.

وتصرمت شهور على ذلك، ورغم أنه كان يربح من تجارته إلا أن ذلك لم يكن كافياَ بالنسبة إليه لينكفئ إلى قريته، ولطالما حن إلى أسرته وهم بالسفر إليهم، إلا أن ذكرى براميل الزيت المزيفة كانت تدفعه إلى العدول عن ذلك.

وما زال يمارس التجارة حتى انسلخت ثلاث سنوات وجمع نصف المبلغ الذي فقده في تجارة الزيتصن فقرر السفر إلى أهله، وبينا يحزم أغراضه إذ نزل عليه خاطر كالصاعقة أوحى إليه أن الفرصة قادمة بعد أيام قليلة فقط ليضرب ضربته الكبرى ويجني ثروة طائلة فيصير فاحش الثراء، مما جعله يعدل عن السفر مرة أخرى.

وبعد أربعة أيام سمع عن مدينة برتات التي أصيب أهلها جميعًا بالقرع، فالتهب حماسًا وطمعًا، وفكر على الفور في السفر إليها وبيع مستحضرات مزيفة لأهلها مدعياَ لهم بأنها تنبت الشعر بسرعة، بالفعل انطلق من توه وأعد مستحضراَ من أعشاب جمعها بشكل عشوائي وملأ بها عشرات القوارير ثم رحل إلى برتات.

وها هو ذا الآن على وشك الحصول على ضعف ما فقده في صفقة الزيت السوداء تلك مقابل قارورتين فقط من ذلك المستحضر.

قال للشيخ (حمدان) بعد بضع ثوان من عرضه:

ـ «لا بأس، أحضر لي المبلغ الآن»

وهرول هذا الأخير إلى بيته، غاب لعشر دقائق ثم عاد ومعه كيس مليء بالنقود وأعطاه إياه. أمسكه (شماع) وهو لا يصدق نفسه من الفرح. وأخيراً حقق حلمه. الآن يستطيع العودة إلى قريته مرفوع الرأس، لكنه لن يفعل ذلك قبل الحصول على أضعاف هذا المبلغ، وفكر كيف ستكون أمه وزوجته سعيدتين برؤيته غنياَ فامتلأ صدره سرورًا وحبورًا. وسرعان ما قاطع خواطره الشيخ راجياَ:

- «هلا أريتني الآن مكان القارورتين أرجوك»

ورد عليه بحزم:

- « كلا، ليس بعد، أولًا ينبغي أن أخبئ هذه النقود في مكان آمن، وبعدها تتجه إلى الوالي، وأعدك وعد شرف، ما أن تأتي به وتطرق الباب حتى أرمي إلى بيتك بالخريطة التي تشير للمكان الذي توجدان فيه»

وزفر مسلمًا: «كما تريد»

- «عد إلى بيتك وانتظرني هناك»

وخاف الشيخ (حمدان) أن يخدعه فغمغم: «ولكن...»

وعرف أنه يشك فيه فطمأنه:

- «لا تخف، لن أفر بالمال دون أن أسلمك تلك الورقة.. ثق بي»

ولما وجد أنه مازال مترددًا، صاح به في غضب مصطنع:

- « إذا لم تكن قادرًا على الوثوق بي فخذ مالك ودعني أبع القارورتين لشخص آخر.. كن على يقين بأنني أستطيع الحصول مقابلهما على أضعاف مالك هذا»

وشعر الشيخ بالخطر، لن يسامح نفسه ولن تسامحه زوجته إذا ضيع هذه الفرصة من بين يديه لاستعادة شعرهما، لذلك اعتذر منه قائلًا:

ـ «اعذرني أرجوك.. أنا لم أقصد ذلك.. كل ما في الأمر أنني أخاف حدوث مكروه لك قبل أن تعطيني تلك الخريطة»

ـ «لا داعي للخوف من شيء كهذا فأنا لن أعرض نفسي للخطر.. هيا نفذ ما قلته لك»

وهرول الشيخ باتجاه بيته وهو يردد: « سمعًا وطاعة، سمعًا وطاعة...»

وأخذ (شماع) الكيس وقصد البيت الثاني الذي اكتراه معتمراً عمامة على رأسه. كان الظلام دامسًا، من السهل أن ينفذ خطته في هذا الظلام. لعل ما أعجبه في ذلك البيت هو كونه يقع قريبًا من باب المدينة الغربي وسط منازل قديمة مهدمة غير مأهولة، رغم أنه آيل للسقوط هو الآخر ولم يسبق لأحد أن سكن فيه منذ سنوات طويلة، ولقد دهش صاحبه كثيراً لما طلب منه كراءه له للاستقرار فيه لشهر أو شهرين، وازداد دهشة بإصراره على كرائه حتى بعد أن أخبره بأنه قد ينهار في أية لحظة.

وقد بحث (شماع) جاهدًا عن بيت آخر غيره بالمواصفات نفسها، أي لا يحيط به جيران ويتواجد قريبًا من أحد أبواب المدينة، لكن عبثًا. ولا عجب أنه تخوف بعض الشيء من تحذيرات صاحبه بانهياره، لكنه في النهاية أقنع نفسه بأنه من المستبعد جدًا ألا يسقط إلا في إحدى المرات القليلة التي يزمع فيها على دخوله.

كانت الطريق خالية من الناس، وصل البيت دون أن يلتقي أحدًا، خبأ فيه الأموال، استخرج قارورتين من ذلك المستحضر وقفل راجعًا. طرق بيت جاره الشيخ (حمدان)، لما خرج إليه هذا الأخير طلب منه الذهاب إلى الوالي، فانطلق نحو قصره بسرعة كالذئب.

وما زال يركض في ظلام دامس حتى وصل القصر، فطلب من الحراس المناداة على سيدهم في الحال، فسألوه عن علاقته به وعما يريده منه، منبهين إلى

أنه لا شك غارق في النوم، فأخبرهم أنه شخص لا يعرفه، لكنه جاء إليه بأغلى خبر سمعه في حياته، فأخذوا يتبادلون النظر فيما بينهم، وسألوه أن يفضي إليهم بهذا الخبر حتى يعرفوا هل يستحق إيقاظه في هذا الوقت أم لا، لكنه رفض وحذرهم من أنه خبر خطير وسري بحيث إذا ألقاه على مسامعهم فلا شك أن الوالي سيقطع رؤوسهم ورؤوس ذويهم عند معرفته بذلك لكيلا يتفشى هذا الخبر ويذيع.

وعلى إثر هذا التهديد صعد أحدهم إلى غرفة الوالي وهو يرتعد من الخوف، متأكدًا بأنه أول من سيتعرض إلى عقاب سيده إذا كان الرجل كاذبًا.

واستيقظ الوالي منزعجًا مكفهرًا ومرتعبًا في نفس الوقت، فحرسه لا يوقظونه ليلًا من النوم لتبشيره بخير، بل بشر يستدعي تدخله الفوري، كحدوث تمرد في المدينة أو فرار أحد السجناء أو غيرها من المصائب التي قد يتقيأها الليل الغدار، خرج إلى الحارس وسأله عما يجري، فأنهى إليه بكلمات متقطعة أن شيخًا مجهولًا يطلبه الساعة ليفضي إليه بخبر وصفه بالأسعد في حياته دون أن يدلي لهم به، فزم شفتيه مستغربًا ونزل معه في عجلة.

وما أن رآه الشيخ حتى سلم عليه السلام الذي يليق به، واستفرد به، وقال له: «سيدي، لقد تحقق الحلم الذي يراود المدينة منذ شهور.. لقد تم اكتشاف الدواء...»

وقاطعه فرحًا:

ـ «هل عثر هذه المرة الأطباء على الدواء الناجع؟»

أجاب كارهًا أن يسمع سيرة أطباء المدينة:

ـ «لا.. اعذرني يا صاحب السعادة إذا قلت لك بأنهم أغبى من أن يفعلوا ذلك.. إن من عثر عليه رجل لا أظنه يمت للطب بصلة وقد استطاع أن

ينجز ما عجز عن إنجازه ثلاثة أطباء يدعون النبوغ في الطب لا غفر الله لهم!» وانفرجت أسارير الوالي، لكنها لم تلبث أن انقبضت بعد أن داهمه خوف بأن يكون الشيخ كاذبًا، لذلك قال له محذرًا:

ـ «أتدري العقاب الذي ينتظرك إذا كنت تكذب علي؟»

فرد في فرح غير عابئ بتحذيره:

ـ «شهد الله أنني أقول الحقيقة، لقد رأيت نتيجة الدواء بأم عيني.. رأيت رأسًا اسودت بعد اصفرار»

وسأله بانبهار وهو يرى نفسه أغنى مما هو عليه بعد صنع قوارير من هذا الدواء وبيعها بثمن باهظ وتزاحم الناس على شرائها حينما يرون فعاليتها:

ـ «هل أنت متأكد؟»

ـ «أجل يا سيدي.. كل التأكد، كل التأكد.. وذلك الرجل هو الذي أرسلني إليك لكي أبشرك بهذا الحدث العظيم.. وهو يرجو منك أن تتفضل بزيارته الساعة»

ـ «وهل يعلم بالأمر شخص غيركما؟»

ـ «كلا معاليكم، لا أحد غيرنا يعرف»

ورافقه مع عشرة جنود، ولما كانوا أمام بيته، طلب الوالي من الجنود انتظاره على بعد مائة متر. كان لا يريدهم أن يعرفوا شيئًا عن ذلك الدواء، ليقينه بأنهم لن يتورعوا عن إخطار أسرهم بأمره، فينتشر الخبر في المدينة كالجير في الماء، وهو لا يحب أن يذيع هذا الخبر إلا بعد أن يشفى، فيرى الناس نتيجة الدواء على رأسه، وهكذا لا يترددون في شرائه بالثمن الذي يحدده.

وطرق الشيخ الباب تلك الطرقة المتفق عليها مع (شماع)، فتحه هذا الأخير، انسل إلى الداخل مع الوالي، فأقفل الباب. وفغر الوالي فاه من الدهشة لما

رأى الشعر نابتًا على رأس (شماع)، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها شخصًا في المدينة بشعر منذ أن حدثت المصيبة، وألفى نفسه يمد يده إلى تلك الرأس ويلمسها، وقال لـ(شماع) في نشوة:

- «كم هي جميلة!»

وقال له (شماع) مشجعًا إياه على دفع المبلغ الذي سيطلبه منه مقابل البوح له بسر الدواء:

- «ستكون رأسك أجمل منها يا صاحب السعادة»

- «حقًا؟»

- «بالطبع»

وبشراهة جأر الوالي: «هيا، أخبرني بالوصفة الغالية»

وتمتم (شماع) بصوت خافت ينم عن الإحراج:

- «لابد أن نتفق أولًا يا سيدي»

وسأله في غضب: «علام نتفق؟»

أجاب في هدوء التجار الماكرين:

- «الثمن»

وراح يربت على رأسه كما لو كان قطه المدلل قائلًا:

- «أجل من حقك، من حقك.. أتدري؟ المهم عندي هو النتيجة، فهل أنت صادق أولًا؟.. هل أنت من أهل المدينة؟»

- « لا يا سيدي.. لقد سكنت هنا منذ ثلاث سنوات فقط، آتيًا من الشمال، وهذا الشيخ شاهد على ما أقوله لأنني اكتريت بيته منذ أول يوم وطئت فيه قدماي المدينة»

- «وما حرفتك؟»

- «أبيع العطور»

- «ومن أين لك بتلك الوصفة؟»

- «لقد صنعتها بنفسي يا صاحب السعادة.. لا يخفى عليك أن كل واحد في المدينة يحاول إيجاد دواء القرع منذ أن ابتلانا الله به، فيلطخ رأسه بالمرهم الذي يصنعه، فإذا يئس منه اندفع إلى إعداد مرهم آخر، وهذا الأمر ينطبق حتى على أولئك الذين يشترون المستحضرات التي يصنعها الأطباء، فهم لا يجربون هذه المستحضرات وحدها بل ويجربون بالإضافة إليها أخرى يحضرونها بأنفسهم.. ومن جهتي يا صاحب الفخامة، فأنا أفقر من أن أشتري مستحضرات الأطباء، مثل الكثيرين في المدينة، لذلك رحت أجتهد لصناعة الدواء بنفسي، ولقد صنعت وصفة في البداية من الأعشاب والزيوت وأخذت بتجريبها لمدة شهر تقريباَ، لكن دون جدوى، وجربت ست وصفات أخرى بعدها فكانت السابعة هي النافعة، هي الوصفة السحرية.. وها هي رأسي أمام عينيك وقد اكتحلت وسيطول عليها الشعر ويطول كنبات اللبلاب»

وسأله الوالي في تلهف: «إذن، كم تطلب مقابل هذه الوصفة؟»

وأخذ يفكر ملياَ، ثم قال له:

- «أريد مائة ألف قطعة ذهبية»

- «ماذا!؟ هل جننت!؟»

وهنا انقض الوالي على (شماع) وأمسكه من خناقه وهزه صائحًا:

- « سوف تعترف بتلك الوصفة غصباَ عنك! سأجعل الجنود يجلدونك ليل نهار.. وسوف يأتون بأسرتك ويجلدونهم واحدًا واحدًا أمام عينيك!»

وقال (شماع) في هدوء:

ـ «إذا فعلت ذلك فلن تحصل على الوصفة، لقد أوصيت زوجتي وابنتي اللتين أخذتهما إلى مكان آمن في المدينة ببيع الوصفة لشخص آخر غيرك إذا حدث وتعرضت إلى مكروه.. لذلك، الأحسن لك ألا تلمسني بسوء»

وطفق الوالي يفكر مليَا، فأضاف الآخر مشجعًا إياه على دفع المال:

ـ «إنك ستربح أضعاف هذا المبلغ يا سيدي.. فبعد أن تجرب الدواء ويرى الناس الشعر نابتًا على رأسك، لن يترددوا في شرائه مهما كان غاليَا، وإذا كنت لا تملك هذا المبلغ فاسمح لي أن أبيع الدواء إلى أغنياء المدينة فأقتطع مائة ألف قطعة ذهبية منه لنفسي وأسلمك الباقي، وصدقني، سأسلمك مالًا كثيراً، وهكذا نربح معًا»

لكن الوالي شعر بالإهانة من هذا الكلام فنهره:

ـ « ويحك! هل تظنني فقيرًا!؟ أنا فقط حريص على ألا تخدعني وتسرق مالي وتهرب.. واعلم أنك إذا فعلت ذلك فسوف أعثر عليك حتى لو كنت مختبئًا في القمر.. وعندئذ سأسلخ جلدك»

وقال الآخر في ذل مصطنع:

ـ «وكيف أجرؤ على خداعك يا صاحب السعادة وأنت في المدينة كالأسد في الغابة، كلنا نهابك ونخافك.. إنني فقط أريد استغلال هذه الفرصة لكي أخرج من الفقر الذي أتمرغ فيه منذ صغري مثل كلب أجرب.. أليس هذا من حقي؟»

وشرع يبكي، فأحس الوالي بالندم على تهديده، وقرر ألا يجادله أكثر، لذلك قال له بعد أن أرخى يده التي كان يمسكه بها وأخذ يربت على كتفه الأيسر: «يكفي.. يكفي.. سأسلمك المال.. سوف آتيك به إلى هنا.. وأنا أتوقع منك تسليمي تلك الوصفة بالمقابل»

ورد عليه في أسف:

ـ «ولكنني لن أسلمك الوصفة حتى أنقل النقود إلى مكان آمن خارج المدينة.. لن يأخذ مني ذلك أكثر من أسبوع»

فاربد وجه الوالي حتى صار أسود، لكن (شماع) أضاف:

ـ «ولكنني مع ذلك سأسلمك قارورة تحمل الدواء، فتستعملها ريثما أعود»

وهنا استخرج قارورة وسلمها له، فأمسكها الوالي بين يديه في جشع، فتحها، غرز بداخلها سبابته مستخرجًا لزيجًا أخضر اللون فلطخ به رأسه وجعل يدهنها به.

وأضاف (شماع):

ـ «كل ليلة يا سيدي ادهن بها رأسك، وفي الليلة العشرين بإذن الله سوف ترى خيوط الشعر تخترق رأسك كالسيوف»

وسأله الوالي في غمرة الفرحة:

ـ «تقول بأنك سوف تغيب لأسبوع، وما الذي يضمن لي بأنك ستعود؟»

ـ «سأترك أمي رهينة بين أيديكم»

وفكر الوالي لوهلة ثم صاح:

ـ «موافق.. لا حاجة لإخبارك بأنك إذا لم تعد فسوف نشنقها»

ـ «سأعود إن شاء الله»

ـ « أمر آخر.. لا أريد لأحد أن يعرف شيئًا عما دار بيننا وعن مسألة شفائك سواء داخل المدينة أو خارجها.. فهمت؟»

ـ «فهمت يا صاحب المعالي»

ـ «هل تملك قرطاسًا وريشة؟»

ـ «أجل»

ـ «أحضرهما»

وهرول إلى الداخل فجاء بقرطاس وريشة، تسلمهما الوالي منه وأنشأ يكتب على القرطاس، حتى إذا انتهى من الكتابة استخرج من جيبه ختمه الشخصي فختم به على القرطاس وسلمه إياه قائلًا:

ـ «في هذه الورقة إذن مني بأن ترتدي على رأسك عمامة في المدينة عكس كل سكانها، وقد أشرت إلى أنك مصاب بجرح غائر في رأسك يهدد حياتك إذا لم تغطها من البرد.. لذلك إياك أن تظهر أمام أهل المدينة برأس عارية.. مفهوم؟»

ـ «مفهوم»

وهنا استدار الوالي نحو الشيخ (حمدان)، وقال له في لهجة قاسية:

ـ «أما أنت، فإذا تحدثت بشيء مما دار بيننا فسوف أقطع لسانك»

وأخذ ينظر إلى رأسه القرعاء شزرًا، فجأة انقض عليها وطفق يشمها ويشم الدهان الذي سلمه (شماع) للتو ليعرف هل دهنت به، حتى إذا لم يشم فيها شيئًا، دفعها وقال في ابتسامة:

ـ « أعدك يا شيخ أن أبيعك قارورة بثمن مناسب جدًا، ولكن شريطة أن تبقي فمك مغلقًا»

وعلق (حمدان) والفزع لا يزايله: «اطمئن يا صاحب المقام الرفيع، لن أتحدث عما رأيت وسمعت هنا، لأنني حريص على لساني أحرص مني على شعري، وإذا تفضلتم وبعتموني الدواء، الذي لا شك بأنه سوف يعيد لكم شعركم، بالثمن الذي أقدر على دفعه، فهذا من دواعي كرمكم وإحسانكم، وأنا لا أملك إلا أن أشكركم عليه وأبدي طاعتي العمياء وإخلاصي اللامحدود لكم»

وأمره الوالي معجبًا بكلامه:

ـ «هيا غادر إلى بيتك، ولا ترني وجهك إلا بعد أن ترى هذا الدواء وقد صار يباع في الأسواق»

فانحنى احترامًا وتواضعًا، ثم غادر وهو لا يصدق بأنه نجا.

بمغادرته أمر الوالي (شماع) بإخراج أمه، ترجاه هذا الأخير ألا يقول لها شيئًا عن الموضوع برمته لأنها إذا عرفت فسترفض أن تتركه يسافر، وافق، فارتدى (شماع) عمامة على رأسه، وهكذا دخل إلى البيت وأخرجها.

كانت الأم المزيفة فرحة جدًا بالإقامة في بيت (شماع) تلك الأيام، ولقد كانت تنفق الوقت في تناول كل ما لذ لها وطاب وعد المال الكثير الذي أعطاها مقابل المهمة السهلة التي كلفها بها، متشوقة إلى عد ضعفه حين تنهي المهمة.

ما أن دخل إليها (شماع) حتى أخبرها أنهما سيتجهان إلى قصر الوال،. أومأت إليه برأسها، لقد اتفق معها من قبل على هذه الخطوة، ولم يلبث أن تقدم منها الوالي حين رآها، سلم عليها ثم سألها:

ـ «أهذا ابنك؟»

فردت بثقة:

ـ «أجل يا صاحب السعادة»

ـ «هل هو ابن بار؟»

ـ «أجل يا صاحب الفخامة، إنه ابن بار وصالح»

ـ «سوف تنزلين ضيفة عندنا لأنه سيعمل في قصرنا خلال الأسبوع القادم ولن يكون لديه متسع من الوقت لكي يأتي إليك ويرعاك في بيتك»

ـ «هذا شرف كبير»

وسرعان ما صعدت إلى عربته الشخصية هي و(شماع). وبعد لحظات كانت العربة تشق طريقها نحو القصر في صمت.

وفي هذا الوقت دخل الشيخ (حمدان) وزوجته إلى البيت الذي أجره لـ(شماع) وفي يده الورقة التي رماها إلى باحة بيته، والتي دون فيها بأنه دفن القارورتين على بعد خطوتين من الباب.

لم تواجههما أية صعوبة في العثور على المكان المعلوم، ذلك أن آثار الحفر كانت بادية على الأرض. وسرعان ما شرعا بنبش التراب، حتى إذا لمسا القارورتين أحسا بقمة السرور، وقال الشيخ لزوجته في غمرة السعادة:

ـ «ستسود رأسانا يا عزيزتي كأيام الشباب»

وردت عليه في شبه الحلم:

ـ «وسيطول شعري حتى يبلغ خصري فألوح به كالصبية وأرقص وأغني»

وعندما استخرجا القارورتين هرولا إلى بيتهما وأقفلا الباب على نفسيهما بالمزلاج. فتحا قارورة في انبهار كما لو كانت شيئًا عجيباً، ثم اندفعا يدهنان رأسيهما ويسبحان في خيالات لا أول لها ولا آخر.

وفي ذات اللحظة كان الوالي يحمل أكياس المال التي في خزائن بيته ويأخذها إلى صالة قصره حيث ينتظره (شماع). فتحها هذا الأخير ليتأكد مما بداخلها مسترجعًا بضيق حادثة براميل الزيت الفارغة، حتى إذا رأى القطع الذهبية انقض على بعضها وعض عليها، ولما تأكد بأنها ليست مزيفة التمعت عيناه بفرح لا نظير له وأحس كما لو أن جناحين قد نبتا له، وهم أن يعدها لكنه فطن إلى أن ذلك قد يأخذ منه اليوم كله، وهو لا يملك وقتًا، فلابد أن يسرع بالفرار قبل أن تشي به العجوز، أمه المزيفة، التي وضعها الوالي في غرفة خاصة بقصره. سد الأكياس وأخذها إلى عربة سلمها له الوالي. فما أن صعد عليها حتى سأله هذا الأخير:

ـ «هل أرسل معك من يرافقك؟ إنها أموال وافرة وقد تتعرض للسرقة»

رد في ثقة:

ـ «شكرًا يا صاحب السعادة، سأتدبر أمري»

وتوقف لوهلة ثم قال له مهددًا:

ـ «لا أحتاج أن أذكر معاليكم أنه لا داعي لإرسال أحد ما لتعقبي، أو سرقتي، فإذا وقع شيء من هذا القبيل فأنا لن أسلمكم وصفة الدواء»

وضغط الوالي على أسنانه غيظًا، لو لم يكن يملك الوصفة الغالية لداس عليه كالحشرة، لكن لا بأس، سوف يوادعه ويهادنه، وحينما يحصل منه على مبتغاه سيعذبه شر تعذيب وينكل به أسوأ تنكيل ويستعيد منه نقوده ثم يقتله.

وطمأنه وهو يخفي النار التي تستعر بداخله:

ـ «لا تخف.. لن أفعل ذلك.. تجنب رجال الدولة، وركز على شيء واحد فقط وهو أن تعود سالمًا لإنقاذ أمك»

وقال (شماع) ممثلًا دور الابن البار: «أحسنوا إليها ريثما أعود»

ـ « لا تقلق.. سنكرمها إكرامًا.. هيا، انطلق وعد بعد أسبوع كما اتفقنا»

ـ «بإذن الله»

وساط الأحصنة فانطلقت تخب نحو بوابة المدينة الغربية. وكانت هذه الأحصنة قرعاء شأنها شأن جميع الحيوانات والطيور الداجنة في المدينة التي فقدت شعرها قبل سبعة أشهر.

الفصل 8

اتجه (شماع) إلى قريته بتلك العربة المحملة بأكياس الذهب، لم يعترض طريقه أحد، طوال الرحلة جعل يضحك ويصرخ كالمجنون، ها هو ذا قد حقق حلمه أخيراً، إنه فاحش الثراء. ألا إن زوجته وأمه وابنه سيطيرون من الفرح لرؤيته، لقد مرت ثلاث سنوات على غيابه، ترى ما الذي حل بهم؟ كيف عاشوا في فترة اختفائه؟ لا شك أنهم تعذبوا وبحثوا عنه كثيراً. لا بأس، عندما يرونه محملًا بكل هذه الأكياس من المال سوف ينسون ما كابدوه.

ما أن فتحت أمه الباب ورأته حتى قفزت من شدة الفرح وارتمت عليه تعانقه وتزغرد وتبكي، فانضم إليها ابنه وزوجته بعد برهة، لقد كانوا يظنون بأنه قد مات، وحين أطلعهم على الأكياس اللامعة ازدادوا سروراً وحبوراً. وكاد أهل القرية أن يحترقوا حسدًا لما اشترى عشرات الفدادين واستأجر من يعتني بها، ولم يستنكف بعضهم أن يسأله من أين له بالمال، فردد عليهم الحكاية التي قصها على أسرته، وهي أنه قد سافر إلى بلاد من بلدان إفريقية البعيدة مع تاجر مراكشي فأحضرا منها بضائع نفيسة، لكن اللصوص اعترضوا طريقهما وهجموا عليهما، فاستبسل في القتال وأنقذ البضاعة والتاجر من موت محقق، وهكذا قام هذا الأخير بتسليمه البضاعة عرفانًا له.

في البداية قرر ألا يعود إلى مدينة برتات. لكن لم يلبث أن تراجع عن هذا القرار؛ لقد ألقى الطمع القاتل في نفسه أنه يستطيع الحصول على ضعف تلك الأكياس التي جاء بها، فأناخت عليه هذه الفكرة بكلكلها وحرمته الطمأنينة ليلًا ونهارًا. ألا إن رغبة جامحة في جمع المزيد من المال أخذت

بخناقه وشجعته على ركوب كل الأهوال والمخاطر.

بعد أسبوعين من وصوله، شيع أسرته في رائعة النهار وأخذ طريقه نحو مدينة برتات. أخبرهم أنه ذاهب لإبرام صفقة تجارية، وقد يغيب لأيام. ترجته زوجته ألا يغادر مبدية خوفها من أن يصيبه مكروه، لكنه طمأنها بأنه سيكون على ما خير ما يرام.

كان الجو هادئًا، لكنه تعكر في ليلة وصوله إلى برتات، فلقد هبت رياح قوية، كان يرتدي عمامة على رأسه، شرع يطرق باب المدينة الغربي الذي كان مقفلًا كجميع الأبواب الأخرى. أطل حارس البوابة، سأله عن لبانته. أخبره أنه يقطن في المدينة ولديه ترخيص من الوالي بالدخول والخروج منها متى شاء. مد له الترخيص من أسفل البوابة، قرأه الحارس وطلب منه أن يدخل البوابة راجلًا أولًا لكي يتأكد من هويته وبعدها يمكنه إدخال عربته. فعل ذلك، فإذا بالحارس ينقض عليه ويبطحه أرضًا ويهدده بخنجر صارخًا:

ـ «الوالي يبحث عنك منذ أيام أيها المجرم.. ما الذي اجترحته في حقه لكي يقلب المدينة رأسًا على عقب بحثًا عنك؟»

تذكر الجندي أوامر الوالي القاضية بألا يخلع أحد عمامته إذا قبض عليه لأن رأسه مريضة مرضًا معديًا، فأبعد وجهه عنه. كان (شماع) لا يستبعد أن يقبض عليه الحارس وهكذا كان محضّرًا وسيلة النجاة. هتف به في حماس:

ـ «ألا تعلم أنني وجدت الدواء؟»

لم يفهم الحارس قصده. سأله مستفسرًا: «عن أي دواء تتحدث؟»

ـ «الدواء الذي ينبت الشعر»

وأحس الحارس كما لو أن أحدًا ضربه على يافوخه، وفي الحال التهبت نفسه بتلك الرغبة المحمومة باستعادة شعره التي ما فتئت تحرق أوصاله، فسأله غير مصدق: «أهذا صحيح!؟»

ـ «أجل، ولكي أثبت لك ذلك، اخلع عمامتي.. إن رأسي صارت مشتعلة شعراً»

ـ «رأسك مريضة.. لذلك لن أخلع العمامة عنها»

ـ «ومن قال لك هذا؟»

ـ «الوالي؛ فلقد أمرنا ألا نخلع العمامة عن رأسك لكيلا نصاب بالعدوى»

ـ «ولماذا يبحث عني في ظنك؟ لأنني وجدت الدواء، وجربته فشفيت.. لسوء حظي أنني ذهبت إليه وسلمته إياه فحبسني خوفًا من أن أعطيه لأحد آخر غيره، إنه جشع ولا يريد لأهل المدينة أن يشفو، لأنهم لن يشتروا قواريره العقيمة بعد ذلك، لكنني استطعت الفرار، والحق أنني خاطرت بالعودة الآن إلى المدينة لكي أشفي كل الناس فيها و...»

قاطعه: «إذن فالتصريح الذي أريتني للتو مزور»

ـ «كلا.. لقد اشترطت على الوالي قبل أن أعطيه قارورة من ذلك الدواء بأن ينقدني مبلغًا من المال ويسلمني تصريحًا بالدخول والخروج من المدينة وقتما أشاء»

ـ « ولكن على حد علمي، ما يزال الوالي أقرعَ!»

ـ «أجل، لأنه خبيث وطماع، فهو لم يجرب الدواء بعد، وقرر ألا يجربه حتى يستنزف أموال أهل المدينة بتلك الأدوية غير النافعة التي يبيعها لهم.. وبعدما يحس أنه لم يعد لديهم مال، سيشفي نفسه بدوائي ويبيعه في الأسواق بثمن غال لكي يدفعهم للتنازل له عن منازلهم وكافة أملاكهم مقابله.. اسمعني جيدًا.. هذه فرصتك لكي تشفى بالمجان، إنها فرصة لا تعوض.. إذا سلمتني للوالي فلن تستعيد شعرك.. على الأقل ليس قبل أن تتنازل له عن بيتك.. هيا ابتعد قليلًا ودعني أزيل العمامة لكي ترى أنني شفيت ولا أكذب عليك.. لا تخف، فأنا لن أهرب»

فكر الحارس قليلًا، ثم اتخذ قراره مبتعدًا ثلاث خطوات إلى الخلف. خلع (شماع) عمامته. رأى رأسه السوداء، فغر فاه متعجبًا، ما أجملها من رأس! ليت رأسه تسود مثلها! أيقن بأنه يقول الحقيقة، بهستيرية هرول نحوه، شده بقوة وصاح به:

ـ «سلمني الدواء، وبعدها أطلق سراحك»

وهتف (شماع) في بهجة: «ابحث في جيبي الأيسر.. توجد فيه قارورة»

أدخل الحارس إحدى يديه في جيبه الأيسر فاستخرج قارورة ذات لون أسود، فتحها، غمس فيها إبهامه وأخرج لزيجًا أصفر، فطفق يدهن به رأسه والدنيا لا تكاد تسعه من البهجة.

وقال له (شماع):

ـ «هيا، دعني أوزع الدواء على أهل المدينة ثم أرحل قبل انبلاج الصبح.. سوف أعطيك عشر قوارير حينما أعود لتشفي بها كافة عائلتك»

ولمعت عينا الحارس طمعًا، لكن ذلك لم يمنعه من تشديد قبضته عليه وإبداء شكوكه في وعده هاتفًا:

ـ «وما الضامن أنك ستخرج من هذا الباب حينما تعود؟»

ورد (شماع) بشكل آلي:

ـ « هذا خوفًا من أن أتعرض للقتل على يد حراس الأبواب الأخرى»

وقال الحارس بلهجة خبيثة:

ـ «لابد من تسليمك للوالي»

وهدده (شماع):

ـ «إذا سلمتني للوالي فسأخبره بأنك سرقت مني الدواء، وهو لن يكذبني حينما يشم رأسك، ولسوف يجلدك عندئذ حتى الموت.. هل فهمت؟ هيا

دعني أدخل العربة أو ناد على الجنود.. إن أول ما سيلفت انتباههم بعد رؤيتي هو الخليط الذي على رأسك»

م رعوباً من تهديده، أرخى قبضته عليه. نهض (شماع) وارتدى عمامته. أدخل العربة. انتبه الحارس للأحصنة التي تجرها، رؤوسها مشعرة عكس رؤوس أحصنة المدينة، سأله:

ـ «هل دهنت رؤوسها هي الأخرى بذلك الدواء؟»

فنظر (شماع) إلى رؤوس الأحصنة، إنها نفس الأحصنة التي أعطاها له الوالي مع العربة، رؤوسها كانت قرعاء من قبل وباتت الآن ممتلئة شعراً، كيف حصل ذلك؟ ومتى؟ لم يجد (شماع) جواباً. أومأ للحارس. قاد العربة نحو البيت الذي دفن فيه كيس النقود الذي سلمه له الشيخ (حمدان) ناوياً الاستقرار فيه حتى ينتهي من بيع كل تلك القوارير التي بحوزته. أدخل العربة إلى باحة البيت وخطى إلى الداخل، كانت الرياح ما تزال تزفر بقوة، مد بإحدى الغرف الفراش الذي أحضره معه ونام فوقه، فإذا بسقف الغرفة ينهار عليه فجأة ويقتله!

الفصل 9

مرت قرابة السنة على قرع سكان مدينة برتات..

بقيت المدينة على حالها: أغلب سكانها وحيواناتها قرع، ما عدا بعض الكلاب والقطط وتلك الأحصنة بقصر الوالي التي وجدها جنده بباحة البيت الذي تهدم فوق (شماع) وأرداه قتيلًا.

كان ما يزال الحصار مضروبًا على المدينة خوفًا من أن ينتشر المرض الذي أصاب أهلها في ربوع الدولة كلها. قبل أربعة أسابيع من مهرجان سباق الحمير، أقيم يوم الاثنين الاجتماع الأول الذي يحدد فيه ثمن الرهانات وتنطلق فيه الاستعدادات الرسمية لتنظيم المهرجان.

وأقبل مع صباح الغد على سوق الحمير المقام ببوابة المدينة الشرقية البائعون من مناطق متفرقة من البلاد، وتجدر الإشارة إلى أنه طوال المدة التي تلت إصابة الناس بالقرع كانت المدينة تخلو من الحمير تمامًا. فالناس لم يجدوا من يبيعهم إياها سواء داخل المدينة أو بسوقها، حتى السيد (إيدير)، أكبر تاجر للحيوانات في المدينة، لم يجدوا الحمير عنده.

لما استيقظ (إيدير) من تأثير القصة العجيبة، شعر بنفور مقيت تجاه الحمير. بخلاف (حدو) و(حمو)، اللذان كرها الحمير مثله، فاكتفيا بتجنب رؤيتها، راح هو يمنع دخولها إلى المدينة وسوقها. لما كان يصادفها أكثر منهما، لكونه تاجر حيوانات، لم يجد غير هذا الحل لعدم رؤيتها. شرع يبيع بغلًا بثمن بخس لكل من يأتي إليه لشراء حمار، ويشتري الحمير التي يصادفها أو يسمع بأنها موجودة في المدينة ويمنحها لتاجر أجنبي يأخذها

بعيدًا عن المدينة، وبالإضافة إلى ذلك ينقد بائعي الحمير الذين يأتون إلى سوق بوابة المدينة كل ثلاثاء مبلغًا من المال مقابل ألا يبيعوا حميراً في هذا السوق ويبيعوا بدلها بغالًا.

وتجدر الإشارة إلى أن أحد هؤلاء التجار وهو قادم إلى السوق، عند أول مرة يقام فيها بعد الواقعة، مر أمام ذلك المنزل الذي ترك فيه (إيدير) و(حدو) و(حمو) تلك الحمير التي أخرجاها من المدينة بطلب من (سفيان)، فلما سمع نهيق الحمير قادمًا من المنزل طرق بابه، وفي ظنه أن (إيدير) بداخله، ذلك أنه كان يعرف بأنه منزله، فلما لم يفتح له، أطل من السور وجعل يناديه، ليرى كل ذلك العدد الهائل من الحمير، وحين التقى (إيدير) في السوق عقب ساعة من ذلك، سأله عن الغاية من احتفاظه بتلك الحمير، فاستغرب من الأمر، وبدون التفكير طويلًا في الموضوع، منحه الحمير بالمجان.

حينما نادى المنادي في المدينة أنه ابتداء من الغد، الثلاثاء، ستبدأ عملية التسجيل في الرهانات، شعر (إيدير) بحزن مهول. فكر أن يفعل المستحيل ليمنع إقامة المهرجان، لأن عشرات بائعي الحمير سوف يتقاطرون على السوق غدًا ويبيعون حميرهم فيه، ومن الصعب جدًا عليه منعهم من ذلك. فذهب بنفسه إلى الوالي لإقناعه بإلغاء سباقات المهرجان، وطوال الطريق وهو يفكر في عذر يقوله له ليحمله على ذلك دون أن يهتدي إليه.

لما كان تاجراً كبيراً من أعيان المدينة، كان الوالي يحترمه ويقدره. قال له بانفعال بعد تحيته حين استقبله في دار القضاء:

- «لا يجب إقامة تلك السباقات هذا العام»

وفوجئ الوالي بكلامه، كان يظن بأنه سيحدثه عن موضوع آخر، شعر بالفضول والانزعاج، إنه ما يزال حزيناً وغاضباً على تعرضه للنصب على يد (شماع)، وهو يعول كثيراً على رهانات هذه السباقات لعله يسترد جزءاً من

المال الذي سرقه منه، ولولا أنه قتل أمه -وإن ظلت تنفي أنها أمه حتى آخر لحظة من حياتها- ثم بعد أيام وجده مطمورًا تحت الأنقاض، لكان أشد حزنًا وغضبًا.

سأله في ترقب مشحون بالقلق: «ولماذا يا سيد (إيدير)؟»

وهنا فقط أشرق على (إيدير) العذر الذي ظل طوال الطريق يبحث عنه دون جدوى، فقال له في عجلة:

- «لقد بلغني من بعض التجار بأن مرضًا مهلكًا يذهب البصر ينتشر بين الحمير، وهو يصيب كل من يقترب منها سواء كان إنسانًا أو حيوانًا.. يكفينا المرض الذي يعشش فوق رؤوسنا، إذا انضاف إليه العمى فسلام على الدنيا.. بصراحة يا صاحب السعادة، أنا خائف على نفسي وأسرتي وحيواناتي»

وخامر الوالي شعور باليأس والمرارة والضياع، ها هو ذا المهرجان الذي يعول عليه لاسترداد المال الذي ضاع منه مهدد بالإلغاء، لماذا كل هذا الحظ العاثر؟ ما الذي اجترحه في دنياه حتى تنزل عليه كل هذه المصائب تباعًا؟ ألا يكفي أن الناس لم يعودوا يشترون تلك المستحضرات التي يصنعها أطباؤه الفاشلون؟ وأن التجارة في المدينة قد كسدت بسبب الحصار اللعين المضروب عليها مما جعل دكاكينه لا تربح في اليوم إلا دراهم قليلة؟ فما هذا المرض المشؤوم الذي يريد أن يلقي به في حمأة الفقر والخسران؟ ألم يجد إلا هذا الوقت الحرج لكي يلتصق بالحمير؟ عبث، عبث.. كل شيء صار عبثًا.. وحين تأتي المصائب فهي لا تأتي فرادى كما قال القدامى لعنة الله على أمثالهم البغيضة!

صرف (إيدير) بعد أن وعده بفتح تحقيق في الأمر وإلغاء السباقات إذا تبين أن هذا المرض موجود حقًا. نادى على الأطباء وطلب منهم الكشف غدًا على الحمير قبل إدخالها إلى السوق.

خرج الأطباء إلى باب السوق مع الفجر. امتلأ المكان بالمشاركين في الرهانات وبعض تجار المدينة الذين راحوا ينتظرون على مضض ما ستسفر عنه فحوصاتهم. لم يكادوا يفحصون أربعة حمير ويتأكدوا من أنها غير مريضة حتى أرسلوا جنديًا نحو دار القضاء ليبشر الوالي بذلك. لم ينزل الوالي إلى السوق للوقوف على عملية الفحص هذه بنفسه، مع الأهمية التي كان يوليها لها، وذلك خوفًا من أن يمرض إذا تبين بأن الحمير مريضة فعلًا. كان ينتظر على أحر من الجمر حين أقبل إليه الجندي وأنهى إليه البشرى، فكاد يطير من الفرح، شعر بأنه لم يسمع في حياته أروع من هذا الخبر، فلقد ظل طوال الليل يدعو للحمير بالصحة والعافية، هو الذي لم يكن يدعو بذلك حتى لأمه المريضة المقيمة عند أخته بطنجة. ومن توه اتجه إلى السوق ليشتري بنفسه حميراً قوية كي يشارك بها في كل الرهانات.

عزم (إيدير) على ألا يستسلم حين رأى الأطباء يسمحون لأول تاجر بعبور بوابة السوق، عكس (حمو) و(حدو) اللذين قررا حين سمعا لاحقًا المنادي ينادي في المدينة بأن الحمير بخير ألا يحضرا المهرجان وألا ينظرا إلى هذه الحيوانات أبدًا إذا ما صادفاها. ولعل استسلامهما هذا راجع إلى فقرهما وقلة حيلتهما.

تقاطر المشاركون والتجار حول أول بائع عبر بوابة السوق يعاينون حميره ويسألونه عن ثمنها. لم يلبث أن اقترب منه (إيدير) وهمس في أذنه شيئًا ثم ابتعد، فصاح البائع بعد دقائق بأن حميره قد بيعت، ثم غادر السوق، دون أن يجيب عن أسئلة المستفسرين عن هوية الشاري وثمن البيع. الحق أن (إيدير) وعد هذا البائع بثمن خيالي مقابل مغادرة السوق مع حميره.

كل بائع يدخل السوق بعد ذلك جعل (إيدير) يصنع معه نفس الشيء، فيرحل بحميره. عم الغضب في أوساط تجار المدينة والمشاركين في الرهانات، لم يحتملوا الموقف. لسوء حظ (إيدير)، سرعان ما سمع أحدهم ما كان

يهمسه لباعة الحمير فأخبر الوالي الذي كان في السوق عندئذ وصدم هو الآخر برحيل هؤلاء الباعة هكذا، قرر الوالي مراقبة (إيدير)، حين أقبل على السوق تاجر جديد رآه بأم عينه يقترب منه، غمز لقائد سري لا يعرف (إيدير) هويته بالتنصت عليه، حتى إذا انتهت الوشوشة وأومأ القائد إلى الوالي انقض عليه واتهمه أمام كل الحاضرين بالسوق بأنه يريد إفساد المهرجان ثم أمر جنده بجره إلى سجن قصره، حاكمًا عليه بالسجن حتى انتهاء المهرجان.

رغم ذلك أصر (إيدير) على منع الحمير من دخول المدينة، فما أن أودع السجن حتى طلب من رئيس الحرس بأن يستدعي أحد خدمه ليعهد إليه بقضاء مهمة عائلية لا تحتمل التأجيل أو التأخير، ولما أمر الوالي رئيس الحرس بالاستجابة إلى طلباته ما عدا طلب الإفراج عنه، فهو لم يجد مانعًا من إرسال من يأتيه بذلك الخادم. والحق أن الوالي كلف رئيس الحرس أيضًا بالتجسس على كل ما يدور بين (إيدير) وزواره، لذلك جعل يتنصت عليه هو والخادم من شق بحائط الزنزانة، فسمعه يطلب منه دفع أموال طائلة لتجار الحمير كي يغادروا السوق، فما أن رحل الخادم حتى اعتقله ثم أودعه زنزانة بعيدة عن زنزانته بنفس السجن، ومضى بعد ذلك إلى الوالي وحكى له ما حدث، فأمره بمنع الزيارة عنه.

مساء، أمر الوالي باستمرار إقامة سوق الحمير يوميًا حتى بداية المهرجان. وهكذا صار المرء منذ ذلك الثلاثاء يلتقي الحمير بين الفينة والأخرى في دروب المدينة وشوارعها، ولقد صدرت ردة فعل غريبة عن حيوانات المدينة حين رأت الحمير أول مرة: طفقت تردد أصواتًا لا يعلم مغزاها إلا الله، أصواتًا اتفق الناس لاحقًا بأنها تعبير عن البهجة وحفاوة الاستقبال، وعقب ذلك هرولت إليها فراحت الحمير تلعق رؤوسها القرعاء بألسنتها.

قلة من الناس وقفوا على هذا السلوك وقوف المتسائل، وأغلبهم اعتبره

مجرد حماقة من حماقات الحيوانات التي لا حصر لها. ولقد كان الشيخ (حمدان) أول من حذا حذو هذه الحيوانات، كاد المسكين أن يموت بسبب المائة جلدة التي تلقاها من الوالي لدفعه إلى الاعتراف بمكان (شماع)، متهماً إياه بالتواطؤ معه في سرقة أمواله، ولولا ابن أخيه القائد في حرسه الذي أقنعه ببراءته مؤكدًا له أنه هو الآخر نصب عليه، لما توقف عن جلده حتى يلفظ أنفاسه، كتلك العجوز التي لم تنفعها معه كل الدلائل التي أوردتها لتثبت له أنها ليست أمه.

البارحة استلف مبلغًا من المال لشراء حمار كي يشارك به في سباق الرهانات الدنيا لعله يربح السباق فيعوض شيئًا مما خسره.

وهو ينظر إلى تلك الحيوانات في زريبته من دجاج ونعاج وماعز، والتي ما أن يلعق الحمار الواحدة منها على رأسها جيدًا حتى تترك السبيل لغيرها ليلعقها، خطر له أنها من المؤكد تفعل ذلك لاسترداد شعر رأسها، فأمسكت بخناقه هذه الفكرة وسيطرت عليه، فلم يلبث أن اندس بين مجموعة من الدجاجات التي كانت تصطف وتمد رؤوسها للحمار بانتظام منقطع النظير.

من الغريب أن الدجاجات لم تفسح له الطريق أو تبتعد حين رأته مقبلًا، بل كانت عنيدة ومتمسكة بدورها ولم تتزحزح من مكانها قيد أنملة، فخاف إذا طردها أن يغضب منه الحمار فيأبى لعق رأسه، لذلك مد رأسه وانتظر دوره خلفها بصبر نافد، وحين صار رأسا لوجه مع الحمار أحس في البداية بمزيج من القشعريرة والتقزز والاحتقار نحو الحمار، كيف ينحني، هو الإنسان، المخلوق الأسمى في الأرض، الأذكى، الأجمل، لهذا المخلوق الغبي، القبيح، عديم القيمة! لكن ما أن جعل الحمار يمرر لسانه على رأسه حتى أخذ يتخيل نفسه قد استرد شعره من جديد، فاختفى إحساسه بالاحتقار تجاهه وعمر مكانه إحساس قوي بالامتنان وعرفان الجميل.

وبينما يلعق الحـمـار رأسه إذ دخلت زوجته الزريبة، حين رأته عصفت بها

الدهشة، وهكذا هتفت به:

ـ «هل جننت!؟ ماذا تفعل بحق الله!؟»

وشعر بالخجل من نفسه، ولم يعرف ما يقوله، فتراجع الحمار فزعًا، فصاح بها غاضبًا:

ـ «ما بك تدخلين بهذه الطريقة الفظة؟ لقد أفزعت الحمار!»

ـ «ولكن بالله عليك، ماذا كنت تفعل؟»

ـ «ماذا كنت أفعل بظنك؟ رأسي الصفراء أمدها للحمار يلعقها لعلها تسود أو حتى تبيض»

وانفجرت ضحكًا حتى دمعت عيناها، ثم قالت بحنو:

ـ «يا لك من زوج فريد.. لم نجد شفاء في العسل والثوم والبصل وغيرها من الأدوية المعروفة بفعاليتها، فكيف نجده في لسان الحمار؟ لو كان في الحمار كل هذا الخير لما رمت به المدينة في ذلك السباق المميت.. ما أغباك!»

وانبرى يدافع عن نفسه:

ـ «ولم لا؟ لو رأيت كيف استقبلته الحيوانات حين رأته يدخل المدينة! لقد كانت تصيح بطريقة غريبة.. لا شك أنها كانت سعيدة برؤيته، ولقد أقبلت عليه بكثرة فأخذ يلعق رؤوسها حتى لم أوصله إلى الزريبة إلا بمشقة الأنفس...»

وقاطعته في دهشة:

ـ «حقًا!؟»

وقال بفرح:

ـ «بالطبع.. وهل تظنينني مددت رأسي له من وحي نفسي؟ لو خطر لي أن الدواء في لسان أحد الحيوانات لكان الحمار آخر حيوان أفكر فيه.. على

العموم، ها أنا ذا قد جربت.. وليكن ما يكون، إذا شفيت فذلك هو ما أريده، وإذا لم أشف فانسي ما رأيته هنا وإياك أن تذكريه لأحد!»

وراحت زوجته تفكر ساهمة، ثم قالت له بدلال: «أنا أيضًا لا مانع لدي بأن أجرب»

وصاح في ظفر: «ها، إذن اقتنعت بكلامي!»

- «دعني أجرب.. فمن يدري؟»

- «هيا.. اقتربي من الحمار بروية ولطف ومدي له رأسك وسيقوم بلحسه لا محالة»

وخطت نحو الحمار الذي انتبذ ركنًا من الزريبة، حتى إذا بلغته مدت رأسها أسفل فمه وهي تشعر بالخوف من أن يعضها، لكنها فوجئت به يلعق رأسها، شعرت بالتقزز وقطبت حاجبيها وأخرجت لسانها معبرة عن قرفها، لكن زوجها شجعها بقوله:

- «أنا أيضا أحسست بالتقزز في بادئ الأمر، لكنني طردت هذا الإحساس بالتفكير في الشعر الذي سينبت لي، فافعلي مثلي»

أخذت تتصور رأسها ممتلئة بشعر أسود فاحم طويل ورطب يهتز لأقل حركة تقوم بها، وعلى الفور اختفى تماما إحساسها بالاشمئزاز.

لم يغادر الزوجان الزريبة، ناما على بابها. خلال اليومين التاليين رأيا الحيوانات التي فيها تقترب من الحمار خمس مرات للعق رؤوسها، صنعا مثلها، انقطعا عن العالم وصار شغلهما الشاغل هو مراقبة الحمار، فإذا غاب أحدهما، كان الآخر يلبث قريبًا لرصده.

لكن سرعان ما دب اليأس في قلب (حمدان) لما لم يحصل أي شيء في اليوم الثالث وبدأ يفقد الأمل ويلوم نفسه على اتباعه حيوانات غبية لا تفقه شيئًا، وفي الليل قال لزوجته وهي تعد الفراش على باب الزريبة:

ـ « دعينا نضطجع في غرفتنا، أنا لم أعد قادرًا على شم هذه الرائحة الكريهة»

وفوجئت بكلامه وسألته باستنكار:

ـ «ولكن، ماذا لو لعق الحمار الحيوانات مرة أخرى ولم نره؟»

ـ « فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. لقد فكرت مليًا في الأمر ووجدت بأن تقليد تلك الحيوانات مجرد فكرة حمقاء»

وهمت أن تقول شيئًا لكنه رفع يده وقاطعها:

ـ «دعينا نذهب إلى غرفة نومنا وننسى الأمر.. هيا..»

مكرهة، حملت الفراش إلى غرفة النوم. لكنها باتت مسهدة لا يعرف النوم إلى جفنيها سبيلًا، عكسه، فهو ما أن وضع رأسه على الوسادة حتى أخذ شخيره يعلو، أحست بحزن عميق، ضاع أملها في استرداد شعرها، ولكن هل ضاع فعلًا؟ ولِمَ عليها أن تستسلم كما استسلم زوجها؟ إذا كان يظن أن الأمر لن ينجح، فهو حر، ليصنع ما شاء وليحتفظ برأسه البائسة العنيدة جدباء، أما هي فستستمر بمد رأسها للحمار حتى تتشعر.

ونهضت من مكانها بهدوء، مشت على رؤوس أصابعها إلى الصالة، حملت بعض الفراش، خرجت نحو الزريبة، ورقدت هناك وعينها على الحيوانات، بيد أنها سرعان ما نامت بعد دقائق من ذلك فقط.

وفي الصباح، استيقظت على وقع كلمات زوجها الرنانة وهو يحركها بقوة:

ـ «معجزة، معجزة.. لقد استرددت شعري.. استرددت شعري .. وأنت أيضًا استرددته.. وهو شعر أسود»

ونظرت إليه بإمعان فألفت صلعته قد اختفت وعمرت فوقها زغبات سوداء صغيرة، فلم تصدق ما تراه، وظنت أنها تحلم، وسرعان ما انتصبت واقفة كما لو كانت طفلة لا عجوزًا، هرولت باتجاه المرآة التي في غرفة النوم،

نظرت إلى رأسها، فأبصرت زغبًا أسود، أمر لا يصدق! أحست بسعادة لا توصف، سقطت دمعتان على خديها، ثم راحت الدموع تسيل من عينيها كالنهر.

وقال لها زوجها من شدة الفرح: «ما أجمل رأسك!»

ولم تملك نفسها فاندفعت تزغرد بقوة، تبكي وتزغرد في نفس الوقت، فكان صوتها أشبه بلحن غريب يخرج من فتحة مزمار تخنقها نحلة مليئة بالعسل. لم يوقفها زوجها عن الزغردة رغم إحساسه أن في ذلك بعض الخطورة.

على الفور اتجه (حمدان) صوب الحمار وراح يعانقه ويقبله ويصيح:

ـ «ما شاء الله! ما شاء الله! كم أنت حيوان رائع! كم أنت حيوان جميل! كم أنت حيوان مبارك!....»

ولفت انتباهه أن الحيوانات التي في الزريبة، من دجاج وغنم ومعيز، هي الأخرى لم تعد قرعاء، ابتسم واستمر بتقبيله على وجنتيه بحرارة. بعد برهة طفق الحمار ينهق بقوة، فراح ينصت إليه بمتعة كما لو كان ينصت لموسيقى تخلب الألباب، وما إن انتهى حتى قال لزوجته:

ـ «والله لن أدفع به إلى ذلك السباق المميت أبدًا»

وتوقف لوهلة ثم أضاف: « بل وسأفعل ما بوسعي لألا يُقتل حمار واحد بعد اليوم في المدينة.. وهو الأمر الذي لن يكون عسيراً إذا استرد أهل المدينة شعرهم بفضل لسانه المبارك»

وقالت له زوجته: «نعم، نعم.. يجب ألا تقتل هذه الحيوانات الغالية»

وفرقع الشيخ أصابعه كعادته كلما خطرت له فكرة فذة، ثم صاح:

ـ « ولكن، لابد أولًا من كسب بعض المال»

ـ «ماذا تقصد؟»

ـ «سأذهب إلى الوالي وأخبره كيف استرددت شعري مقابل مبلغ كبير من المال»

وعارضته: «لا، الوالي آخر واحد تفكر فيه.. هل نسيت أنه بالأمس فقط كاد يقتلك جلدًا؟ اذهب إلى (إزم).. لقد سمعت أنه وعد بدفع كيس مليء بالذهب لمن يأتيه بدواء القرع»

وأعجبته الفكرة، وبشكل عفوي أزلق رجليه في حذائه وهم بالخروج من المنزل، لكنها أوقفته صائحة:

ـ «إلى أين!؟»

ـ «إلى قصر (إزم)»

ـ «هل جننت؟»

ـ «لماذا؟»

ـ «الشمس مشرقة الآن وتريد الظهور أمام الناس بهذه الزغبات على رأسك؟ سيتقاطرون حولك كالذباب ليسألوك كيف استرددت شعرك، مما سيجلب الأنظار إليك، وهكذا يُقبض عليك فتضيع منك فرصة الحصول على ذلك المال»

وتراجع إلى الخلف، ثم قال لها مقتنعًا:

ـ «أنت على صواب.. لا يجب أن يراني أحد»

وأردفت: «انتظر حتى يهبط الظلام ثم تسلل بين الأزقة والدروب الخالية إلى قصر (إزم)»

الفصل 10

رابط (حمدان) النهار بطوله في البيت مع زوجته. طُرق الباب غير مرة، لكنه لم يفتحه. وفي الجوز الأخير من الليل لبس عمامة على رأسه ومضى باتجاه قصر (إزم).

كان الليل حالكًا، تنوح فيه الرياح كأنها ذئاب شرسة، والأزقة مقفرة، إلا من بضعة حراس يجوبون المدينة كدأبهم كل ليلة حفاظًا على الأمن. كان ينوي الفرار من الحراس إذا ما صادفهم وذلك لكيلا ينزعوا عمامته فينكشف سره. لحسن الحظ، لم يصادف منهم أحدًا، طرق بوابة قصر (إزم) بهدوء، خرج إليه البوابان اللذان يتناوبان الحراسة مع (حدو) و(حمو)، اليوم يحرسان ليلًا و(حدو) و(حمو) يحرسان نهارًا، سألاه عن حاجته، أخبرهما أنه يريد لقاء (إزم) الآن لأمر سري، قالا له أنه نائم ولا يستطيعان إيقاظه دون أن يعرفا هذا الأمر السري ليحددا ما إذا كان يستدعي مقاطعة أحلامه السعيدة، رفض الإفصاح عن الأمر السري وكرر طلبه، حتى إذا همّا بإقفال البوابة نزع العمامة عن رأسه ففغرا فاههما في اندهاش، هذه أول مرة يريان فيها شخصا برأس مشعرة منذ عام تقريبَا، تهالكا على يده اليمنى يقبلانها راجيين منه أن يدلهما على الدواء الذي استرد به شعره، متذمرين أشد التذمر من قرعهما المقيت، رفض إخبارهما، صارحهما بأنه لن يفعل ذلك خوفًا من أن يخبرا سيدهما بالدواء ويأخذا الجائزة التي وعد بها.

وفي الحال صاح أحدهما: «نحن مستعدان أن ندفع لك كل ما لدينا من مال!»

وانفجر الآخر بكاء وقال متوسلًا:

ـ «أرجوك، من أجل ابنتي الكبرى، إنها تعيسة منذ فقدانها شعرها»

ولما كان الشيخ (حمدان) رجلًا طيباً فلقد رثى لهذا الرجل، فقال لهما:

ـ «سلماني ما في جيوبكما من مال»

فاستخرج كل منهما ما في جيبه من دراهم، قدماها له. قال لهما:

ـ «أخبراني بصراحة، هل لديكما في البيت الكثير من المال؟»

ردا بصدق أن المال الذي ادخراه طوال السنوات الماضية صرفاه في شراء الأدوية الفاشلة التي يبيعها الوالي، ولم يبقَ لديهما إلا دراهم معدودة، لم يكذبهما، ذلك شأنه هو أيضًا، وشأن الكثير من سكان المدينة.

طلب منهما الاقتراب أكثر، فعلا، همس لهما:

ـ « عداني ألا تخبرا أحدًا بما سأبوح به لكما، على الأقل حتى أحصل على الجائزة التي خصصها سيدكما لمن يسلمه الدواء»

وجعلا يتمتمان: «والله لن نفوه بشيء!»

وقال لهما في ثقة:

ـ «سوف تصابان بالدهشة حين تعرفان كيف استرددت شعر رأسي وستظنان لا محالة بأنني أسخر منكما.. لذلك، يجب أن تصدقاني وتطبقان ما أقوله لكما بالحرف الواحد إذا أردتما أن تشفيا، هل هذا مفهوم؟»

ردا مرة واحدة وصبرهما يكاد ينفد: «أجل، أجل»

حكى لهما ما جرى له هو وزوجته مع الحمار وطلب منهما أن يحذوا حذوهما. رغم اندهاشهما الكبير، صدقاه. رافقاه إلى القصر، طلبا من خادم بالداخل إيقاظ (إزم) وإخباره بأنه استطاع أن يجد دواء القرع وجاء يعرضه عليه، وفي الوقت الذي نزل فيه (إزم)، غادرا.

أسرعا نحو أقرب زريبة. الحق أن زرائب القصر امتلأت منذ الأيام الثلاثة الماضية بعشرات الحمير، ذلك أن (إزم) كان ينوي المشاركة ببعضها في رهانات المهرجان كدأبه كل سنة، والبعض الآخر اشتراه بطلب من الفلاحين. وجدا دزينة من الحيوانات تتحلق حول الحمير بالزريبة، تلعق حوافرها. لفت انتباههما أن جميع الحيوانات قد استردت شعر رأسها، مما لم يدع لديهما أي شك في حكاية الشيخ.

بمقربة من حمارين، انبطحا على ركبتيهما، وفي عينيهما تلمع نظرة الاستجداء والتوسل. قرأ الحيوانان هذه النظرة، مدا لسانيهما، بدورهما مدا رأسيهما الصفراوين، بدأ اللعق، في البداية شعرا بشيء من التقزز، لكن سرعان ما تبدد هذا الإحساس حينما أخذا يفكران في المستقبل.

كان (إزم) قد أوصى كل من في القصر إذا ما عرفوا دواء القرع ألا يترددوا في إخباره به حتى لو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان نائمًا تلك الليلة حين أقبل خادم على غرفته ليبلغه البشرى، زوجته لم تكن نائمة بعد، سمعت الباب يطرق فاستغربت: «من يا ترى يسمح لنفسه بإزعاجهما في هذه الساعة!؟» نهضت من السرير منزعجة، فتحت الباب، أخبرها الخادم بالأمر فأشرقت نفسها كالصباح المشمس، لكنها سرعان ما أظلمت كالليل البهيم حين تذكرت أن رجلًا سبق له منذ ستة أشهر أن ادعى الأمر نفسه، وبعد الاختبار تبين بأنه كاذب.

رغم ذلك لم تجد بُدًا من إيقاظ زوجها، تنفيذًا لأوامره. بصعوبة فتح (إزم) عينيه وسط ضوء الفانوس القوي الذي أشعلته في الغرفة للتو، نظر إلى النافذة فألفى الظلام في الخارج، وقبل أن يسألها عما تريده، أفضت إليه بالخبر، فهب من الفراش كالقط الجائع الذي شم رائحة الطعام فجأة،

مهرولًا بملابس النوم إلى الدور السفلي حيث ينتظر الضيف. وفي الطريق رأى رأسه الجدباء في إحدى المرايا المعلقة على الجدران، فزفر: «اللهم سودها فإني بت لا أطيق النظر إليها!»

ما أن رآه الشيخ (حمدان) مقبلًا حتى خلع عمامته، كاد يغمى على (إزم) من شدة الفرح، على الفور طلب منه أن يخبره بالدواء، وقبل أن ينطق صاح به:

ـ «لعلك لست من المدينة وجئت إلي لكي تسرقني!؟»

هم بالدفاع عن نفسه، لكن (إزم) مضى يقول:

ـ «هل تعرف العقاب الذي ينتظرك إذا اكتشفت ذلك؟ مؤكد أنك سمعت بما حدث لرجل سبق له أن حاول خداعي للحصول على الجائزة التي خصصتها لمن يأتيني بالدواء»

كان قد انتشر في المدينة كلها خبر هذا الرجل الذي تلقى ستمائة جلدة على أيدي خدمه حتى كادت تزهق روحه. وأومأ له الشيخ (حمدان) لكي يطمئنه ثم قال في انكسار:

ـ «لا تقلق يا سيدي.. أنا من سكان المدينة وأعرف دواء المرض الذي حط على رؤوسنا، فصدقني.. ألا ترى أنني شيخ لا يقدر جسدي على احتمال ضربة واحدة بالسوط؟ فكيف أحتمل ستمئة؟ ولكن اعذرني يا سيدي إذا قلت لك أنني أنا أيضًا أريد منك تأكيدًا على الوفاء بوعدك وتسليمي الجائزة بمجرد شفائك»

رد (إزم) غاضبًا:

ـ «ويحك! هل تظن بأنني سأخلف بوعدي!؟ ألا تعرف مع من تتحدث!؟ إن تلك الجائزة لا تعادل في ثروتي إلا ما تعادله شجرة في غابة كثيفة.. إذا نجحت فعلًا في دلنا على السبيل إلى استرجاع شعرنا، سأعطيك ضعف المبلغ

الذي وعدت به.. هل سمعت؟ ضعفه؟ وزوجتي وهذا الخادم شاهدان على ما أقوله»

وانبرى يحكي له ما حدث معه وزوجته دون أن تغادر الابتسامة محياه، وحينما انتهى، سأله (إزم) في استهزاء بعد أن لم يصدق كلامه:

ـ « هل تريد إضحاك المدينة علي؟ لا شك أن أحدًا ما قد أرسلك لهذا الغرض»

فدافع الشيخ (حمدان) عن نفسه:

ـ «أقسم بالله يا سيدي أنني ما جئت لهذا وأن ما قلته لك هو ما حصل دون زيادة ولا نقصان، وإذا كنتم لا تصدقونني فأحضروا إلي حمارًا، بالإضافة إلى حيوان فقد شعره مثلنا بسبب ذلك المرض الغريب ولم يستعده بعد، وعندئذ سترى بأم عينيك كيف سيلعق الحمار رأس الحيوان، وبعد ثلاثة أيام سيكسو الزغب رأسه كما يكسو الورق أغصان الشجر في فصل الربيع»

وهنا أمر (إزم) الخادم:

ـ «هيا خذنا إلى تلك الحمير التي اشتريناها من أجل الرهانات»

فاتجهوا أربعتهم إلى الزريبة التي وضعت فيها الحمير المزمع مشاركتها في المهرجان، يتقدمهم الخادم، وفي الخلف زوجة (إزم) التي شعرت بالذهول مثل زوجها مما سمعته ولم تصدقه، وفي الطريق راحت تفكر: «أهذا معقول؟ هل علي أن أنحني لحمار كي أسترد شعر رأسي؟ كم هذا مخز وبغيض! ولكنه إذا كان ضروريًا فلا مانع لدي أن أقوم به من أجل شعري، ألا إنني مستعدة للانحناء للشيطان نفسه إذا كان سيشفيني من قرعي!»

على دهليز الزريبة وقفوا على منظر أكد لهم أن كلام الشيخ (حمدان) إذا لم يكن كله صحيحًا فبعضه على الأقل كذلك. كانت الحمير تلعق رؤوس بط

ودجاج ومعيز ونعاج منبطحة أرضًا. وازدادوا تأكدًا حينما خطوا بالداخل فرأوا في الركن الأيسر من الزريبة ابنة (إزم) يلعقها حمار.

هتف الشيخ فرحًا بذلك: «ألم أقل لكم؟»

كاد (إزم) وزوجه أن يغمى عليهما.

كانت الحيوانات التي تلعقها الحمير ملكًا لابنته، لقد كانت هذه الأخيرة تربيها منذ صغرها، ولم تكن تؤول جهدًا في الاعتناء بها، والحق أنها حزنت أيما حزن على قرع هذه الحيوانات أكبر من حزنها على قرعها هي. وكانت تحتفظ بها في زريبة لا تبعد كثيراً عن الزريبة التي يحتفظ فيها والدها بالحمير التي اشتراها من أجل المهرجان، ويبدو أن حيواناتها ما أن شمت رائحة الحمير في القصر وسمعت نهيقها حتى أخذت تصيح بقوة وتحاول تحطيم باب الزريبة، مع منتصف الليل، بعد تظافر جهود بعضها البعض، استطاعت حفر فتحة في الحائط الطيني بجانب الباب الخارجي، وخرجت منها، لتتراكض نحو زريبة الحمير.

ألفت الباب مقفلًا، راحت تحفر، بعد ساعة دخلت، رآها خادم تفعل ذلك فلحق بها، وإذا به يبصر الحمير تلعق رؤوسها، اندهش أشد الاندهاش، عرف أنها حيوانات السيدة، حاول أن يعيدها إلى زريبتها، لكنها بدأت تصدر أصواتًا قوية وتضربه، فخاف أن يأتي أحد ما فيظن بأنه ينوي سرقتها وهكذا تركها هناك وغادر.

وفي مساء اليوم التالي عندما جاءت ابنة (إزم) للاطمئنان عليها ألفت زريبتها خالية، وبعد بحث مضن وجدتها في هذه الزريبة، استشاطت غضباَ، كانت تحتقر الحمير، شأنها شأن جميع أهل بيتها، فظنت أن أحد الخدم وضعها معها للسخرية منها، لذلك ركضت إلى والدها رأسًا وأخبرته بالأمر طالبة منه أن يجد الفاعل ويعاقبه. هذا الأخير دون تردد فتح تحقيقًا في النازلة، إذ استدعى جميع من في القصر واستجوبهم، لكنه لم يعثر على

الفاعل، وسرعان ما اتجه بنفسه مع ابنته ونفر من فلاحي القصر إلى تلك الزريبة وراحوا يخرجون حيواناتها، أبت الخروج وأخذت ترفع صوتها وتتشبث بالأرض وتضربهم، أعادوها إلى زريبتها بالقوة وشدوا وثاقها كيلا تفر، ولم تنقطع عن الصياح، تركتها الفتاة ولم تعد إليها حتى منتصف الليل، وحين زارتها، كانت ما تزال تصيح، أشفقت عليها وفكت قيدها لتندفع باتجاه زريبة الحمير التي أخرجت منها غصبًا، كان باب هذه الزريبة قد رُمم وأقفل بإحكام، باستماتة شرعت تحاول فتحه، الدجاجات والبطات تنقره بمناقيرها، والمعيز والنعاج تنطحه بقرونها، وصياحها يرتفع كما لو كانت جماهير غاضبة.

شعرت بالشفقة عليها، أدارت رتاج الباب وفتحته، مرقت الحيوانات بسرعة، مدت رؤوسها للحمير، فشرعت هذه الأخيرة تلعقها، اندهشت الفتاة، تساءلت عما تفعله حيواناتها، وبعد تفكير غير مطول، خطر لها أنها تلعب، وهنا شعرت بالعطف تجاه الحمير لأول مرة في حياتها وتساءلت عما يجعل الناس يحتقرونها، ببراءة، أقفلت الباب ثم انبطحت أرضًا بين الدجاجات مادة رأسها هي الأخرى إلى أحد الحمير لتلعب معه، استمتعت كثيراً بلعق الحمار لرأسها، ولكي تجعل اللعبة أكثر متعة، أخذت تقلد أصوات حيواناتها.

وبعد دقائق، لم تلبث حيواناتها أن تراجعت إلى الخلف، وقد اكتفت من اللعق، هي الأخرى صنعت مثلها، وفي ظنها أنها شبعت لعبًا، وسرعان ما شعرت بالنعاس وخطر لها الذهاب للنوم، أمسكت حيواناتها من حبالها وحاولت إخراجها من الزريبة، لكنها رفضت، حارت ماذا تفعل معها، خطرت لها فكرة، لماذا لا تخرج معها حمارًا؟ قادت أحد الحمير في مقدمتها، نجحت الخطة، خرجت حيواناتها دون مقاومة، شبه مخدرة، تنظر في إعجاب للحمار كما لو كان مخلوقًا فضائيًا.

أودعتها الزريبة وذهبت إلى غرفة نومها ونامت وهي تبتسم من غرابة اللعبة التي لعبتها للتو، وقبل أن تنام سمتها بلعبة (الدغدغة على الصلعة).

في اليوم التالي لعقها الحمار، واليوم الذي بعده أيضًا، ومع منتصف الليل من هذا اليوم، فوجئت حينما زارت حيواناتها باختفاء الحمار من الزريبة، يبدو أن الفلاحين أعادوه صباحًا إلى الزريبة التي أخذته منها، لقد ظلوا يبحثون عنه منذ اليوم السابق، واستغربوا كيف وصل إلى هناك. وجدت حيواناتها مقيدة تصيح بصوت مبحوح يثير الشفقة، لقد قيدها الفلاحون لأنها التصقت بالحمار حين هموا بإخراجه كما لو كان والدها وأبت أن تتركهم يأخذوه، هتفت: «لا أحد يستطيع منعي أنا وحيواناتي من اللعب مع الحمير». فكت وثاق حيواناتها وقادتها إلى زريبة حمير المهرجان وهي تزفر من الغضب، فتحت باب هذه الزريبة والصمت يطبق على المكان. الحمد لله، ما تزال مليئة بالحمير. دخلت مع حيواناتها واستأنفت لعبة (الدغدغة على الصلعة)، فجأة سمعت والدها يصيح:

ـ «أيتها البغلة! ألا تخجلين من نفسك!؟ كيف تمدين رأسك لحمار هكذا!؟»

فتراجعت إلى الخلف، لم تتراجع حيواناتها. شعرت الفتاة بالخجل الشديد والعار وقالت بعفويتها وغرابتها المعهودة حين تحاصر:

ـ «كان لا بد لي أن أستفز تواضعي»

ـ «يا لك من غبية! هيا انصرفي من هنا!»

وهمت بالمغادرة، لكنها تراجعت عن ذلك لما قال لها الشيخ (حمدان):

ـ «تمهلي يا ابنتي»

ثم قال لـ(إزم): «سيدي، هلا سمحت لي بسؤالها بضعة أسئلة؟»

فصرخ فيه واجمًا: «ولماذا؟»

أصر في توسل:

- «أرجوك يا سيدي.. الأمر مهم.. واسمح لي أن أقول لك بأن ابنتكم الموقرة لم تفعل شيئًا سيئًا وهي ليست غبية، بل ذكية، وسوف تتأكدون من ذلك بأنفسكم حين ترون الشعر ينبت على رأسها»

وأحست الأم بالشفقة على ابنتها حين نعتها والدها بذلك النعت الذي تكرهه أشد الكراهية، فقالت لزوجها في ضراعة:

- «دعه يسأل الفتاة»

وقال (إزم) رافعًا يده بغير اكتراث: «حسنًا»

وسأل الشيخ الفتاة في كياسة:

- «منذ متى والحمار يلعق رأسك؟»

فردت في حماسة:

- « منذ ثلاثة أيام.. أي أسبوع ناقص أربعة أيام، أو لنقل شهراً إلا سبعة وعشرين يومًا.. أو عدد أسرتي إلا أخي.. أو...»

فهتف بها والدها: «اخرسي! ردي على قدر السؤال!»

كان يعرف أنها لن تفعل ذلك، فهي عادة تحب التكلم بالألغاز، وإذا رأت الاهتمام باد في عيون الناس حول موضوع معين، تكون رغبتها في التكلم بها أكبر.

وقال الشيخ: «هذا غريب»

وفي الحال سأله (إزم): «وما الغريب في الأمر؟»

- «كان من المفروض أن ينبت لها شعر»

وسرعان ما سألها مستفسراَ: «كم مرة في اليوم كانت الحمير تلعق رأسك؟»

فأجابت: «عدد رأسي»

فقال مستنتجًا: «مرة واحدة، إذن لهذا لم ينبت لك شعر، لو كانت تلعق رأسك خمس مرات في اليوم لكنت الآن قد استرددت شعرك...»

وقفزت من مكانها صائحة: «هل هذا صحيح؟ هل سمعت يا أمي؟ سوف أسترجع شعري بواسطة ألسنة الحمير، سوف أسترجع شعري.. ما أروع الحمير!»

وارتمت على الحمار الذي كان يلعقها وراحت تقول له:

ـ «العق رأسي أيها الغالي»

وجفل الحمار فتراجع إلى الوراء مفزوعًا. وفي ذات اللحظة هجم عليها والدها، حملها من يدها ثم صرخ في وجهها:

ـ «ابتعدي أيتها المجنونة، هيا اخرجي من هنا، على غرفتك مباشرة!»

وجرجرها إلى القصر، أقفل عليها في غرفتها ثم عاد إلى الزريبة.

أمر الخادم أن يمد رأسه لأحد الحمير لكي يلعقه، لكن هذا الأخير تجمد في مكانه ولم يحرك ساكنًا، ولم يلبث أن شجعه صائحًا:

ـ «تقدم، لا غضاضة في ذلك، إذا نجح الأمر فسوف أسلمك مائة قطعة ذهبية»

والتمعت عينا الخادم ببريق من الطمع والجشع، وراح يفكر بأنه سيصير غنيًا، وبالتالي لن يضطر بعد ذلك للعمل خادمًا، لكنه سرعان ما تساءل مع نفسه في فزع: «وماذا لو لم ينجح الأمر واتضح في النهاية بأن هذا كله مجرد مزاح سمج؟ إنه لن يربح شيئًا، وبالمقابل، سيكون محط سخرية العالي والواطي في القصر، بل وفي المدينة كلها، فأين يخبئ وجهه من الناس عندئذ؟ وماذا يقول لزوجته؟»

ولما لمس فيه (إزم) مزيدًا من التردد قال له:

ـ «أعرف بأنك خائف ألا ينبت لك شعر فيستهزئ منك الجميع.. لا تقلق.. سوف أمنحك نصف المبلغ في حالة الفشل.. هل أنت راضٍ؟»

وقفز من مكانه فرحًا، هرول نحو حمار، مد له رأسه، فبدأ هذا الأخير بلحسه، لا مزيد من التردد، إنه مال وفير لم يكن يحلم به يومًا، من أجل الحصول عليه هو مستعد لفعل ما هو أخزى وأفظع، لا يهمه إذا لامه أحد أو تهكم به، ومن ذا، على الأقل بين السفلة من بني جلدته، يسخر منه؟ على العكس، سوف يحسدونه، والخدم الذين في القصر من دون شك سيعضون أنامل الندم على سوء طالعهم لأنهم لم يحظوا بالفرصة التي حظي بها.

وما لبث أن تذكر أنه من الممكن أن يضرب عصفورين بحجر واحد، يصير غنيًا وفي نفس الوقت يسترد شعر رأسه، فغمره إحساس مضاعف بالحبور والجذل.

ولم يزل الحمار يلحس رأسه حتى اكتفى فتراجع إلى الخلف، وفي ذات اللحظة قال الشيخ لـ(إزم) الذي كان مندهشًا من هذا المنظر، متسائلًا لماذا بدأ الحمار بتمرير لسانه على رأس الخادم بمجرد أن اقترب من فمه كما لو كان يعرف بأنه ما اقترب منه إلا لذلك الغرض:

ـ «لا بد أن يلعق الحمار رأس الخادم يا سيدي خمس مرات في اليوم، وصدقني بعد انصرام ثلاثة أيام سوف تبدأ الزغبات بالانتشار في رأسه كالسنابل»

وقال (إزم) في حيرة:

ـ «نتمنى ذلك»

ثم أضاف في حدة: «وإلى ذلك الحين، سوف تنزل ضيفًا عندنا»

تملك (حمدان) الجزع فقال له راجيًا:

ـ «أرجوك يا سيدي، دعني أذهب إلى زوجتي فلقد تركتها في البيت وحيدة وسوف تقلق علي إذا لم أعد»

لكنه صرخ في وجهه: «وما أدراني أنك صادق!؟»

ـ «أنا لم آخذ منكم درهمًا واحدًا فما الداعي إلى الفرار؟»

ـ « قد تكون مرسلًا من طرف شخص ما لتصنع مني أضحوكة في المدينة؟»

ـ «أتوسل إليك، إن زوجتي عجوز...»

ـ «سوف نرسل إليها خدمًا يطمئنونها عليك»

ـ « ولكنها لن تصدقهم، وبالمقابل ستقلق علي أكثر وتظن بأن مكروهًا أصابني.. ناشدتك الله أن ترسلني إليها مصحوبًا بمن شئت من خدمك، أطمئنها عن حالي ثم أعود من توي»

وأخذ (إزم) يفكر مليًا، وفي هذه اللحظة تهالك الشيخ على يديه يلثمهما، فسحبهما بضيق وقال للخادم الذي مد رأسه للحمار للتو:

ـ «نادِ على أربعة خدم»

ركض هذا الأخير إلى أكواخ الخدم المكلفين بأعمال الزراعة، أيقظ أربعة منهم ثم جاء بهم. ما أن انتصبوا بين يدي (إزم) حتى أخذتهم الدهشة من رأس الشيخ حمدان، فأمرهم مشيرًا إليه:

ـ «قيدوا يديه إلى الخلف»

لم يتحرك منهم أحد، كانت الدهشة من منظر رأسه المسود قد جمدت ركبهم، فصرخ فيهم لأنهم لم ينفذوا أوامره:

ـ «استيقظوا أيها الحمير! ألم تسمعوا ما قلت لكم؟ قلت، قيدوه، هيا افعلوا ذلك وإلا جلدتكم!»

وكان صوته المدوي كافياً ليوقظهم، أحاطوا بالشيخ من كل الجوانب، راحوا ينظرون من حولهم بحثًا عن حبل، كان ثمة حبل معلق على حائط قريب. أحضره أحدهم، قيدوه. قال لهم (إزم):

ـ «ضعوه في عربة وخذوه إلى بيته، لا تقفوا لأحد حتى لو كان الوالي نفسه.. حين تبلغون منزله أحضروا زوجته للعربة، وبمجرد أن تراه عودوا به إلى القصر وأودعوه في مخزن الأمتعة ثم احرسوه، والويل لكم إذا فر»

على الفور ساق هؤلاء الخدم الشيخ (حمدان) إلى الخارج. فرحوا أيما فرح إذ أتيحت لهم الفرصة بالانفراد به والتحدث إليه. ركبوا عربة مغطاة، صعدوا جميعًا إلى جانب الشيخ، أبا أي أحد منهم التطوع للجلوس في كرسي القيادة، في النهاية اتفقوا على إجراء القرعة، باستياء صعد من وقع الاختيار على سهمه إلى مقعد الحوذي وانطلق بالعربة بينما ركب الآخرون في حماس مع (حمدان).

الفصل 11

لم تكد العربة تنطلق حتى سأل خادم في مقتبل العمر، كان له شعر جميل من قبل، (حمدان) ذلك السؤال الذي تبادر إليه وإلى زملائه المرافقين له أول مرة رأوه فيها:

ـ «كيف نبت الشعر على رأسك؟»

لم يكن الشيخ منزعجًا من (إزم) لإرساله مقيدًا في هذه العربة إلى زوجته ليطمئنها على نفسه، مع علمه أنها إذا رأته بتلك الحالة لن تقر عينًا مهما قال لها، وذلك لأنه كان متأكدًا بأن هؤلاء الخدم سوف يحررونه من قيوده لمعرفة سر شفائه.

قال للخدم الثلاثة من حوله والانتظار المشحون بالقلق يمزق أوصالهم:

ـ «وماذا تقدمون لي بالمقابل إن أخبرتكم؟»

وفي الحال توقفت العربة وانضم للنقاش الخادم الذي كان يقودها، مصرًا على عدم العودة لمقعد القيادة حتى الانتهاء من الحديث حول هذا الموضوع.

أجاب الشاب الذي طرح السؤال أولًا:

ـ «نفعل كل ما تطلبه منا»

وسأله (حمدان):

ـ «هل تطلقون سراحي؟»

رد بإصرار: «أجل، نفعل ذلك»

فصرخ فيه خادم في السادسة والأربعين، قبيح الوجه، متزوج، وكان رأسه نصف أقرع في السابق، ولولا بناته الأربع لتمنى بقاء أهل المدينة قرعًا إلى الأبد:

- «هل جننت!؟ سوف يجلدنا سيدنا ويطردنا من العمل»

ورد عليه الشاب بحدة:

- «فليفعل.. أكثر ما يهمني الآن هو استعادة شعري.. وأنا سأحطم كل من يقف في وجهي لتحقيق ذلك»

فتشابكا بالأيدي، وانضم الخادمان الآخران إلى الشاب، فأشبعوا الخادم المعارض ضربًا وهموا بتوثيقه، لكن (حمدان) قال لهم فرحًا:

- «توقفوا.. أتركوه وشأنه»

ابتعدوا عنه. أضاف:

- « سأقول لكم ما تودون سماعه، لكن ليس الآن، فكوا يدي أولًا، فأدخل إلى بيتي وأتحدث قليلًا مع زوجتي، وبعدها أرجع إليكم وأخبركم.. اتفقنا؟»

فقال له الشاب بلا تردد:

- «اتفقنا»

وحين شرعوا بفك وثاقه، قال لهم الخادم المعارض بصوت ممزوج بالألم وهو ما يزال ملقى على إحدى زوايا العربة:

- «سوف تتحملون المسؤولية لوحدكم إذا هرب»

فصرخ فيه أحدهم:

- «إذا لم تصمت فسوف نحطم أسنانك»

فانكمش على نفسه، خوفًا من أن يضربوه. وفي نفس الوقت صعد الخادم المكلف بالقيادة إلى مقعد الحوذي وانطلق بالعربة في هدوء. وصل إلى بيت

الشيخ بعد دقائق، دلف إليه هذا الأخير لوحده، طالبًا منهم انتظاره في الخارج. هشت العجوز لرؤيته فأقبلت إليه مهرولة، طمأنها عن نفسه، حكى لها ما حدث في قصر (إزم)، فرحت كثيراً، وحين أبدت استعدادها للعيش وحيدة في البيت بدونه طوال الأيام الثلاثة القادمة، ودعها وانصرف.

حين خرج، فرح الخدم الأربعة كثيراً برؤيته، لقد كانوا خائفين من فراره. الخدم الثلاثة الذين حرروه خافوا أن تضيع منهم فرصة معرفة الدواء الذي شفاه إذا هرب، في حين خاف الخادم الرابع المخالف لهم أن يطرده (إزم) من العمل، ركب العربة، فقال لهم:

ـ «أنتم تعلمون لماذا طلب (إزم) منكم تقييدي واحتجازي في قصره، أليس كذلك؟»

هزوا رؤوسهم نفيًا. أضاف:

ـ «إنما فعل ذلك لأنني أخبرته بالدواء الذي شفاني من القرع، لكنه شك في كلامي وقرر الاحتفاظ بي حتى يجرب هذا الدواء ويرى نتيجته على رأسه ويتأكد من صدقي.. سأفضي إليكم أنتم أيضًا به، لكن شريطة أن تعدوني بمساعدتي إذا احتجت إليكم»

وقالوا له مرة واحدة باستثناء الخادم الآخر:

ـ «سنساعدك، سنساعدك»

ـ «إذن فأنصتوا إلي.. الدواء هو...»

وقبل أن يكمل كلامه ويبوح بالسر أمر الخادم المتمرد بالابتعاد معلنًا له بأنه لن يخبره بالدواء مادام لا ينوي مساعدته، فإذا به يتوسل إليه:

ـ «أرجوك، أطلعني أنا أيضًا على هذا الدواء، ناشدتك الله، إذا لم يكن ذلك من أجلي فمن أجل بناتي، إنهن فقيرات ودميمات»

ـ « إذا كنت تحبهن فعلًا فعدني أن تساعدني إذا احتجت إليك»

ـ «أعدك، أعدك»

وهنا همس لهم جميعًا:

ـ «يدين لي (إزم) بمبلغ كبير من المال، ولقد وعد أن ينقدني إياه مباشرة بعد شفائه، ومن المحتمل جدًا ألا يفعل ذلك ويبقيني سجينًا في قصره.. إذا أخبرتكم بالدواء، هل تقسمون بإخراجي من السجن إذا لم يف بوعده وانتزاع هذا المبلغ منه بالقوة؟»

وقالوا معًا:

ـ «أجل»

ـ «إذن، اعلموا أن الله قد جعل الدواء لذلك الداء الذي ابتلانا به في لسان مخلوق لطالما احتقرناه وعذبناه.. لسان الحمار»

وجلجلوا مستغربين:

ـ «الحمار!؟»

وأضاف بحدة لكن بصوت منخفض:

ـ «لا تصرخوا، أجل الحمار، إنه السبيل الوحيد لعلاجكم على ما يبدو، صدقوا أو لا تصدقوا فلقد ظل يلعق رأسي لثلاثة أيام على التوالي حتى أزال السم الذي عليها فنبت شعري من جديد كالعشب النضر.. ألا إن الشعر الذي على رأسي هو نتاج بركة لسان الحمار، فإياكم والظن بأنني أسخر منكم، فأنا لست الوحيد الذي استرددت شعري بفضله، زوجتي أيضًا، ناهيك عن كل الحيوانات التي في بيتي، فإذا أردتم أن يطلع الشعر على رؤوسكم من جديد، دعوا الحمير تلعقها كل يوم خمس مرات، وذلك لمدة ثلاثة أيام متتالية.. هل فهمتم؟»

وظهر في وجوههم الاستغراب، لكنهم مع ذلك صدقوه، فهم لم يجدوا سببًا يدفعه إلى الكذب، لاسيما أنه في حاجة ماسة إليهم. قصدوا القصر، أودعوه ذلك المخزن، والذي تعود (إزم) أن يسجن فيه كل من يسيئ التصرف من خدمه، وما أن أقفلوا عليه حتى ذهبوا على الفور ليطبقوا ما أخبرهم به، ناسين أن (إزم) طلب منهم حراسته، كان لدى أحدهم حمار قد اشتراه للمشاركة به في سباق الرهانات الدنيا، وهكذا رافقوه إليه.

لم تكن له زريبة، شأنه شأن باقي الخدم، لذلك كان يربط الحمار في شجرة قرب كوخه، فتح باب الكوخ، أدخل الحمار ومد له رأسه، فراح الحمار يلعق رأسه بنهم كما لو كانت تحتوي على سائل لذيذ، وقبل أن يسمح للآخرين بأن يصنعوا مثله أخذ عليهم عهدًا بأن ينقدوه مبلغًا من المال بمجرد استرداد شعرهم.

بعد ساعتين ونصف تقريبًا، كان (إزم) هو الآخر يمد رأسه لأحد الحمير، لقد ظل طوال الليل سهدًا، فلم تزل أمواج الهواجس والمخاوف والآمال تقذفه عن اليمين وعن الشمال كالقشة في عرض البحر.. ماذا عليه أن يفعل؟ هل ينتظر النتيجة التي سيسفر عنها لعق الحمار لرأس خادمه؟ وماذا لو نجح الأمر ثم مات بعدها كل الحمير على الغبراء؟ وماذا لو مات هو قبل أن يرى الشعر ينبت على رأسه؟ لابد أن يجرب هذه الطريقة.. ولكن.. سيكون مسخرة للمدينة كلها إذا فشلت، سيلقبونه ذا الرأس النتنة، ذا الصلعة النجسة، رضيع الحمير...

وفي النهاية عقد العزم على خوض غمار التجربة، دون إخبار أحد بذلك، حتى زوجه، بهدوء نهض من الفراش وشخير هذه الأخيرة يرتطم بجدران غرفة النوم، على أصابع قدميه قصد أقرب زريبة، كانت خالية لحسن حظه، من شدة حماسه لم يقفل الباب، بل اندفع نحو حمار ومد رأسه له فأخذ يلحسه، وإذ ذاك سمع صوتًا يقول له:

ـ «أيها الأناني.. تريد أن تستعيد شعرك لوحدك؟»

رفع رأسه فرأى زوجته، شعر بالخجل حتى هم أن يقف على رجليه، لكنها قالت له مشجعة إياه على البقاء في مكانه:

ـ «لا بأس يا عزيزي.. لقد جئت كي أنضم إليك»

وهكذا انبطحت أرضًا تحت حمار فأخذ يلعق رأسها، وما أن اكتفى الحماران من لعقهما حتى قفلا راجعين إلى غرفتهما في هدوء كيلا يراهما أحد، لكن ما لم يعلماه أن ابنتهما كانت تختبئ خلف الزريبة، بعد أن استطاعت الفرار من غرفتها حيث أقفل عليها والدها، ولقد رأتهما من كوة بالجدار حين كان الحماران يلعقانهما، فراحت تضحك كالفأرة، ولما ابتعدا دخلت وأخذت معها حمارًا إلى زريبتها فجعل يلعق رأسها هي وحيواناتها حتى سرقها النعاس.

مع العاشرة صباحًا قصد زريبة حمير المهرجان (إزم) وزوجه مع الخادم الذي وافق أولًا على تجربة الدواء الجديد، وجعل (إزم) وزوجه يحدقان في إعجاب إلى هذا الخادم والحمار يلعقه، حتى إذا اكتفى الحمار من لعقه طلبا منه العودة إلى كوخه، أقفلا الباب، ومدا رأسيهما لحمارين آخرين.

حين غادرا الزريبة كانت باستقبالهما ابنتهما، راحت تعدو نحوهما كالمجنونة، عندما استيقظت قبل قليل في زريبتها انتبهت إلى أن الزغب قد نبت على رؤوس حيواناتها، على الفور وضعت يدها على رأسها، يا إلهي! إنها ليست ملساء كالعهد بها! إذن لقد شُفيَت. ركضت إلى غرفة والديها وفتحتها لتخبرهما بالبشرى السارة، لكنها لم تجدهما، فنزلت السلالم ثم سألت عنهما الخدم فقالوا لها بأنهما في زريبة حمير المهرجان، وهكذا جرت باتجاه الزريبة وهؤلاء الخدم يلحقون بها ليتأكدوا مما إذا كان السواد الذي على رأسها شعر أم دهان.

وقالت لوالديها حين رأتهما:

ـ «لقد نجح الأمر.. ها هو الشعر ينبت على رأسي من جديد.. انظرا»

عانقتهما، فأخذا يمرران راحتيهما على رأسها، إنها خشنة. فيها شعر، هذا غير معقول! إذن فذلك الشيخ لم يكذب، لسان الحمير هو الدواء لقرعهم الذي دام زهاء سنة، وكبدهم الكثير من الأموال والأحزان.

وسرعان ما التف الخدم حول الأسرة السعيدة يهنئونها، فقال لهم (إزم) في سرور:

ـ «أتعلمون كيف استردت ابنتي شعرها؟ لقد فعلت ذلك بواسطة لسان حمار، إذا أردتم استرداد شعركم فمدو رؤوسكم للحمير كي تلحسها»

توقف لوهلة ثم صاح بهم لأنهم ظلوا متجمدين في أماكنهم لا يحركون ساكنًا من شدة المفاجأة:

ـ «حتى الحمير التي اشتريتها من أجل المهرجان هي رهن إشارتكم، فلتلعق رؤوسكم خمس مرات في اليوم، وبعد انصرام ثلاثة أيام سوف تستعيدون شعركم لا محالة كما حصل مع حبوبتي.. هيا اذهبوا إلى الزريبة (أشار إلى زريبة حمير المهرجان التي كان فيها للتو هو وزوجته).. وعندما تشفون اخرجوا إلى المدينة وأشيعوا هذه البشرى في كل الشوارع والدروب»

فاندفعوا كالمجانين نحو الزريبة، ومدوا رؤوسهم للحمير فأخذت تلعقها، ولحقت بهم الأسرة وطفقت تنظر إليهم باستمتاع، وقالت لإزم زوجته:

ـ «أليس من الأفضل أن تستفيد من هذه الحادثة لربح بعض المال؟»

ـ «ماذا تقصدين؟»

ـ «أقصد... بيع سر الدواء؟»

قال في رحمة لم تعهدها فيه:

ـ «المدينة في فقر مدقع والناس محتاجون إلى المساعدة»

وتوقف لوهلة ثم قال في نبرة جامدة:

ـ «وما أن يستعيد الناس شعرهم حتى يزول الحصار عن المدينة وتسترد نشاطها التجاري كما في السابق وربما أفضل.. ولكن، على العموم، أنت على صح، سوف أربح شيئًا من المال، لكن بطريقة أخرى، وذلك من خلال...»

وقاطعته كما العادة كلما وجدت الفرصة لتثبت له أنها هي الأخرى لا تقل عنه ذكاء في أمور التجارة:

ـ «من خلال شراء أكبر قدر من الحمير ثم بيعها بثمن أعلى من ثمنها العادي»

ـ «لكنني لن أزيد على ثمنها إلا قليلا حتى يكون باستطاعة الفقراء أيضًا شراؤها.. وأنا أعلم بأنني إذا لم أفعل ذلك فثمة من سيفعله»

وهنا هم أن يخرج، فقال لها:

ـ «سأمر على ابننا في المتجر وآخذ المال الذي أحتاجه، وقبل ذلك بالطبع سأخبره بالنبأ السار»

الفصل 12

كما قال لزوجته، قصد (إزم) متجره الكبير لبيع الثياب، وأخبر ابنه، المكلف بإدارته، عما جرى، وبقدر ما كان هذا الأخير مستغربًا من الخبر بقدر ما كان فرحًا.

سلم الابن لوالده كل الأموال التي في الدكان، وعلى الفور انطلق إلى القصر، لتجربة الدواء. دخل زريبة حمير المهرجان، فإذا به أمام سبعة خدم، كل منهم مغمض عينيه تحت حمار يلعقه، سعل ليشعرهم بوجوده، لا أحد أحس به ، لم يرد إزعاجهم، كان منظرهم غريبًا، في البداية بدا له مقززًا ومتوحشًا، لكنه سرعان ما تحول إلى منظر جميل يدعو إلى الإعجاب بعد أن تذكر الفائدة التي في لسان الحمير.

بعد ثوانٍ انتهى أحد الحمير من مهمته وتراجع إلى الخلف، فتح الخادم الذي كان يلعق رأسه عينيه ففوجئ به، أحس بالإحراج والتوتر، لقد كان ابن (إزم) أكثر من يعامل الخدم برفق في القصر وهكذا كانوا جميعهم يحبونه. قال له معتذرًا:

ـ «سامحني يا سيدي.. لم أكن أعرف بأنك هنا»

وصاح بالخدم الآخرين:

ـ «هيا انهضوا وغادروا المكان فالسيد يريد الاطمئنان على الحمير»

فتح بقية الخدم في الزريبة أعينهم، رأوه، قاموا بتحيته في احترام، هموا بالنهوض والمغادرة احترامًا له ولو على كره منهم، لكنه أمرهم بالبقاء، أطاعوا فرحين، استأنفت الحمير لعق رؤوسهم، هو الآخر مد رأسه للحمار

الشاغر فطفق يمرر لسانه عليه، أغمض عينيه وطفق يتصور نفسه قد استرد شعره الجميل فشاع في نفسه سرور عذب.

في الوقت نفسه كان والده يشتري حميراً في سوق الحمير على باب المدينة، اشترى كل الحمير، استغرب التجار منه، سأله أحدهم عن السبب في ذلك. أخبره أن الحدس يقول له بأن سعرها سوف يرتفع جدًا في الأيام القادمة. ساق الحمير إلى القصر بمساعدة بعض العبيد الذين استأجرهم من السوق، وضع بعضها، القوية منها، في زريبة حمير المهرجان، ثم وضع البقية في الزرائب الأخرى.

بعد ثلاثة أيام من أول حصة لعق بلسان الحمير، نبت الشعر فوق رأسي الحارسين اللذين كانا أول من التقى الشيخ (حمدان) بقصر (إزم)، كانا في بيتهما حينئذ، وكان الليل قد حل منذ مدة، فأخذا يصيحان فرحًا بعد رؤية الزغب على رأسيهما مثل متسولين عثرا على صندوق من الذهب.

وبعد نصف ساعة، استعاد شعره أيضًا ذلك الخادم الذي وعده (إزم) بمائة قطعة ذهبية إذا جرب دواء لسان الحمير، كان في كوخه، على عجل هب من مكانه وركض نحو القصر.

محاطًا ببعض الخدم الذين عادو للتو من زريبة الحمير بعد أن لعقتهم للمرة الخامسة، والذين فرحوا به أيما فرح وأبوا إلا أن يرافقوه إلى السيد ليفضي إليه بالبشرى، طرق باب غرفة نوم (إزم) بقوة مرددًا:

ـ «سيدي.. سيدي.. افتح»

فخرج إليه (إزم) الذي كان يحسب الثواني بصبر نافد منتظرًا أن ينبت شعره، حين رأى رأسه ازدادت ثقته بأن شعره سينبت قريباً، فقال له الخادم:

ـ «سيدي، لقد نجح الأمر.. لقد استعدت شعر رأسي.. انظر.. انظر..»

ووضع (إزم) يده على رأسه وراح يمسح عليها، فقال له في بهجة:

ـ «أجل، إنها سوداء وخشنة.. هنيئًا.. هنيئًا لك.. هذا يعني أنني أنا أيضًا بعد ساعات سوف أستعيد شعر رأسي، أليس كذلك؟»

أصبح شائعًا في القصر بأن الحمار لعق رأس (إزم) في نفس الليلة التي لعق فيها رأس هذا الخادم، لذلك أكد له هذا الأخير في حماسة:

ـ «أجل يا سيدي، أجل»

ـ «هيا اذهب ودعني أنتظر هذه اللحظة الرائعة»

أراد أن يحدثه عن الجائزة لكنه سرعان ما أقفل الباب، لذلك لم يجد محيصًا عن النزول إلى الدور السفلي والانتظار في غرفة أحد الخدم، لم يكن لديه أدنى شك بأن سيده سيفي بوعده، لكنه كان ملهوفًا على تلك القطع الذهبية بشدة وتمنى الحصول عليها في أقرب وقت ممكن، متأكدًا بأنه حين يستعيد شعره سيخرج ليخبر الجميع بذلك، راح يترقب هذه اللحظة، معتبراً أنها الأنسب ليذكره بالمبلغ الذي وعده به.

ولم يزل مرابطًا في مكانه حتى سمعه هو وزوجه ينزلان السلالم ويصيحان:

ـ «شفينا.. شفينا..»

فتح الباب، فإذا بكل الخدم في القصر يركضون نحوهما، الحق أنهم بدورهم كانوا يترقبون وينتظرون هذه اللحظة لتقديم التهاني، وقف غير بعيد متربصًا، بعد تهنئته أمر (إزم) الخدم بضرب الدفوف والرقص ثم توزيع أطيب الطعام والشراب فانفضوا من حوله، وهنا اقترب منه هذا الخادم وقال له بعد أن خطرت له الفكرة المناسبة التي يفتتح بها الحديث معه حول جائزته الغالية:

ـ « سيدي، هنيئًا لكم، أظن أن الشيخ الذي كان السبب في هذه النعمة التي أنعمها الله عليكم يستحق الحرية»

فقال له متذكرًا الشيخ (حمدان) الذي كان قد نسيه تمامًا والذي كان ما يزال قابعًا في السجن:

ـ «بالطبع، بالطبع، إنه يستحق أفضل تكريم.. هيا اذهب وأحضره..»

وقبل أن يرمي الخطوة الأولى استدرك (إزم): «أنت أيضًا لديك عندي مبلغ من المال.. كلاكما فأل خير علي وتستحقان كنوز الدنيا»

لا تكاد الأرض تسعه من السعادة، جرى الخادم المحظوظ باتجاه ذلك المستو دع الذي كان الشيخ (حمدان) مسجونًا فيه. كان الشيخ متأكدًا بأن (إزم) لن يطلق سراحه إلا بعد أن يستعيد شعره، كان يحرسه أولئك الخدم الأربعة الذين رافقوه إلى زوجه تلك الليلة، ولقد استعادوا شعرهم قبل قليل، وهمّوا بإطلاق سراحه، لكنه منعهم من ذلك، وأكد لهم بأن (إزم) سيفي بوعده، فما أن رأى هذا الخادم الذي وعده جائزة مالية هو الآخر حتى عرف بأنه موفد من طرفه.

حرره ثم ترافقا إلى (إزم)، نقدهما المال الذي وعدهما به فذهب كل منهما إلى بيته جذلانًا يغمره سرور ساحر، وأضاء في السماء هلال فضي، ولمعت النجوم، واستمر الاحتفال في القصر حتى الفجر، وقد حضره بعض الجيران والأحباب والأصدقاء أيضًا.

وفي اليوم التالي، خرج (إزم) وكل الخدم الذين استعادوا شعرهم يتجولون في المدينة ويصيحون بأنهم شفوا بواسطة لحس الحمير لرؤوسهم، فصدقهم جميع من رآهم، ثم نقلوا خبرهم لأصدقائهم وأقاربهم الذين لم يروهم.

مع الحادية عشر صباحًا، كان الوالي في قصره حين جاء إليه أحد قادته وأخبره بأن (إزم) استعاد شعر رأسه ويتجول في الشوارع ويصرخ في الناس

بأنه شفي عن طريق لحس حمار لرأسه، لم يصدق ما سمعه، أمره بإحضاره الساعة، ولم تمض دقائق حتى كان (إزم) ماثلًا بين يديه، نظر إلى رأسه فانبهر بها.. يا إلهي ما أجملها!

بحماسة قال له (إزم) بمجرد تحيته:

ـ «انظر يا سيدي الوالي.. انظر.. لقد شفيت.. نبت الشعر على رأسي مجددًا.. أليس هذا رائعًا؟»

رد عليه في حماسة:

ـ « بلى، بلى.. هنيئًا لك، إن شفاءك لأمر مذهل حقيقة ومثلج للصدر.. ولو تفضلت على أبناء مدينتك بذكر السر فيه لكان فرحنا به مضاعفًا»

ـ «وماذا كنت أفعل بظنك منذ قليل؟ لن يهدأ لي بال حتى تسترد المدينة كلها شعرها فينتهي الحصار البغيض المضروب عليها»

سأله مدعيًا الجهل: «حقًا؟»

ـ «فلتعلم يا صاحب المقام العالي أنني رحت طوال ثلاثة أيام متتابعة أقدم رأسي لحمار يلعقه خمس مرات في اليوم، فشفيت على إثر ذلك كما ترى.. تلك هي وصفة العلاج السحرية..»

ولما كان الوالي يعلم بأن (إزم) اشترى عددًا هائلًا من الحمير، فلقد حزر بأنه يريد من وراء الادعاء بأن لسان الحمير هو ما شفاه بيعها بثمن مرتفع جدًا لعلمه أن الناس سيتهافتون عليها تهافت الجوعى على فتات الخبز، ثم عقب ذلك يقوم ببيع الدواء الحقيقي الذي شفاه بأضعاف مضاعفة، شعر بالغضب من جشعه فصاح به غير قادر على ضبط أعصابه:

ـ «لا تسخر مني! هذه حيلة فقط تريد منها ربح المال!»

ودافع (إزم) عن نفسه ببراءة الأطفال:

ـ «لا يا سيدي.. أقسم بالله أنني لا أسخر منك، بل أقول الحقيقة!»

وقاطعه سائلًا:

ـ «إذن فهل تنكر بأنك اشتريت الكثير من الحمير لكي تبعيها بثمن مرتفع بعد انتشار خبر شفائك بفضل لسانها؟»

وقال مسلمًا:

ـ «أنا لا أنكر ذلك، ولكنني لم أذنب في شيء، فالتجارة تنبني على استغلال الفرص.. وهذه فرصة لا تعوض لبيع هذه الحيوانات الجميلة (أظهر الوالي بعض التقزز من هذا الوصف) بثمن أعلى من ثمنها الأصلي.. ألم نشتر تلك الأدوية الفاشلة التي صنعها أطباؤك بأثمنة خيالية فلم تجد نفعًا؟ فما الضرر إذا بعت حميراً بضعف ثمنها الحقيقي وهي الدواء الشافي؟»

ـ «بالله عليك، لا تنتظر مني أن أصدق بأنك استرجعت شعرك بواسطة الحمير»

ـ «كنت أعرف بأنك لن تصدقني.. لا يهم، ما رأيك أن نتراهن؟ اختر المبلغ الذي تريده.. اترك حمارًا يلعق رأسك خمس مرات في اليوم لثلاثة أيام متتابعة، فإذا نبت شعر على رأسك تدفع لي المبلغ، وإذا لم ينبت دفعته أنا لك»

دون أدنى تردد قال له الوالي: «موافق»

وفكر لوهلة: « علي أن أختار مبلغًا كبيراً، لأن الربح مضمون مائة بالمائة. لا شك أن (إزم) يريد رشوتي بطريقة غير مباشرة لكيلا أمنعه من نشر تلك الشائعة. لا بأس، فليبع تلك الحمير بالثمن الذي يريده وسوف أحصل أنا أيضًا على حصتي من هذه الصفقة». سأله في مكر:

ـ «بكم اشتريت كل الحمير التي بحوزتك؟»

ـ «خمسة آلاف درهم»

ـ «أريد ضعف هذا المبلغ، ناهيك عن الدواء الحقيقي الذي استرجعت به شعرك»

نظر إليه (إزم) في استهزاء، ثم قال:

ـ «موافق.. لكنك إذا استعدت شعرك بواسطة لسان الحمار فستدفع لي أنت هذا المبلغ.. ولدي شرط قبل إبرام الاتفاق»

ـ «ما هو؟»

ـ «أريد أن أرى جلسات اللعق كلها»

ـ «ماذا تقصد؟»

ـ «أريد أن أرى الحمار وهو يلعق رأسك»

وانتصب الوالي شاعراً بالإهانة فصاح به:

ـ «أترغب في إهانتي؟»

ـ «لا حاشا، ولكن ما الذي يثبت لي بأنك ستفعل المطلوب؟ عشرة آلاف درهم ليست مبلغًا هينًا وعلي أن أتأكد بأنك ستترك الحمار يلعق رأسك خمس مرات في اليوم.. ما دمت موافقًا على الرهان فما المانع في أن أرى الحمار يلعق رأسك؟ كن مطمئنًا، لا توجد أية إهانة في ذلك، لقد اعترفت لـ لك بأنني سبق وتركت حمارًا يلعق رأسي، ولتذكيرك، فالمدينة كلها باتت على اطلاع بذلك»

أخذ الوالي يفكر، ثم قال له وقد اقتنع بكلامه:

ـ « لا بأس، لك ما تريد.. ولكن دع الأمر سرًا بيننا.. لا أريد لأحد أن يعرفه»

ـ «أعدك بذلك يا سيدي»

ـ «هيا إلى الزريبة»

وترافقا معًا إلى الزريبة حيث توجد الحمير التي اشتراها مؤخرًا للمشاركة بها في رهانات المهرجان. هناك، بعد أن أخلى المكان من الحرس والخدم، مد رأسه لحمار رمادي، فنزل عليه لعقًا، اندهش أشد الاندهاش، فجأة خفق قلبه خوفًا بعد أن نزلت عليه هذه الفكرة كالصاعقة: «قد يسترد شعره بواسطة لسان الحمار»، لكن سرعان ما زايله الخوف وتمنى لو أن ذلك يتحقق، فتستعيد أسرته بكاملها شعرها، حتى لو كان ذلك على حساب خسارة مبلغ العشرة آلاف درهم الذي سيعرف كيف يسترده لاحقًا.

بعد أن انتهى الحمار من لعق رأسه غادره (إزم) ضاربًا له أربعة عشر موعدًا موزعة بين اليوم والغد وبعد غد. هرول صوب قصره وحمل بضعة حمير ثم انطلق بها في دروب المدينة ينادي بأنها الدواء وينصح من لا يملك حمارًا بشراء واحد منها، باعها بسرعة بضعف ثمنها. الناس صدقوه فتهافتوا عليها، وأنى لهم ألا يصدقوه والبرهان على رأسه، وقبلها كانوا يشترون كل دواء يعرض في السوق حتى لو لم يكن هناك دليل على نجاعته؟

لم يمضِ يومان حتى باع كل الحمير التي اشتراها بهدف التجارة، بعضها بضعف ثمنها مرتين والبعض الآخر بعشرة أضعاف. في اليوم الثالث كان أغلب سكان المدينة، رجالًا، نساء، رضعًا، أطفالًا، شيوخًا، يقدمون رؤوسهم لـ لحمير لتلعقها. لم يكونوا جميعهم يملكون حميرًا في بيوتهم، نظرًا لثمنها المرتفع. لكن الذين لا يملكونها جعلوا يطرقون منازل من يملكونها ويسألونهم التصدق عليهم بلعقاتها، كان بعض الجشعين يستغلون هذه الفرصة للربح، فيطلبون منهم مبلغًا من المال مقابل كل جلسة لعق، كما صاروا يسمونها، وبعض المحسنين استغلوا هذه الفرصة لربح الحسنات، وهكذا سمحوا لهم باستعمال حميرهم مجانًا.

في اليوم الثالث من لعق الحمار لرأسه، بعد أن حضر كل جلسات اللعق، نبتت للوالي زغبات سوداء، على سرير النوم لبث مضطجعًا طوال الصباح

ينظر إلى رأسه في المرآة منتظراً هذه اللحظة بفارغ الصبر. لما ارتفع في المدينة عدد الذين شفوا وعزوا شفاءهم إلى الحمير، اختفى شكه في كلام (إزم) نهائياً، بات يتحرق شوقًا للالتحاق بهم، وأخوف ما كان يخافه أن يبقى بلا شعر من دونهم، لم تكتحل عيناه بنوم، ومع الزوال ظهرت الزغبات من حيث لا يدري، انتصب بسرعة وراح يصرخ فرحًا، فركض نحو زوجته وبنتيه وأخبرهن بذلك فابتهجن واستبشرن خيراً لرؤوسهن التي لعقتها الحمير هي الأخرى في نفس اليوم الذي لعقت فيه رأسه، وخرج إلى الشوارع والأزقة محاطًا بجنده يصرخ ويصرخون معه بأنه شفي.

وحين رجع إلى قصره ألفى (إزم) بانتظاره، فرح برؤيته وإن قرصته فكرة المال الذي يدين له به، على الفور سلمه المال لكي يتخلص منه ثم اندفع يدبج رسالة لوزير السلطان في فاس يخطره فيها بأنهم وجدوا الدواء لذلك المرض الذي استفحل في المدينة ويلتمس منه رفع الحصار عنهم.

وبعد دقائق كان الحمام الزاجل يطير برسالته إلى فاس.

الفصل 13

عقب ستة أيام وصل الجواب من الوزير، أعلن فيه بأنه سيأتي إلى المدينة يوم انطلاق المهرجان، وبمجرد التأكد من أن كل سكانها قد شفوا، سيرفع الحصار، شعر الوالي بالصدمة، لقد كان ينوي إلغاء المهرجان، وإن كان في ذلك خسارة مادية كبيرة له، لأنه متأكد بأن أحدًا من المدينة لن يقبل بالزج بالحمير في تلك الرهانات القاتلة ناكرًا جميلها، هو نفسه لم يكن ليفعل ذلك وقد صارت الحمير أعز حيوانات عنده، بيد أن أمر الوزير لابد أن يطاع وإلا تعرض للتهلكة، عليه أن يستشير الناس، ولكن أولًا ينبغي ألا يترك في المدينة ولو فردًا واحدًا أقرعًا قبيل زيارة الوزير لكي يضمن رفعه للحصار، ليس لديه وقت، تفصله أيام قليلة عن تاريخ المهرجان، لذلك يجب أن يسرع في إتمام هذه المهمة.

نادى على الجنود وطلب منهم إحضار كافة القرع في المدينة سواء كانوا بشرًا أو حيوانات، وذلك بتفتيش البيوت والأزقة وجميع الأركان فيها، ثم استجواب الناس. انصرف الجنود مسرعين، كان سائر الجنود والموظفين بالمدينة قد استعادوا شعرهم، وذلك لأن الوالي لم يلبث في نفس اليوم الذي شفي فيه أن حذرهم بفصل كل من لم يسترد منهم شعره في ظرف ثلاثة أيام على أقصى تقدير.

بعد مرور أربع ساعات، جاءه الجنود بخمسين شخصًا، ومائة حيوان، منها البغال والنعاج والمعيز وكلب أعرج. حبس البشر القرع في سجن قصره، ساق مع جنده الحيوانات القرعاء نحو زريبة قريبة منه توجد فيها مجموعة من الحمير، ناويًا ألا يعيدها لأصحابها حتى تشفى، حينما أدخلها

إلى الزريبة أخذت تصدر أصواتًا خاصة وهي تهرول نحو الحمير بعيون يشع منها الحب والسرور، فلم يكن لديه أدنى شك بأنها فرحة لأنها أخيراً عثرت على هذه الحيوانات السامية.

عاد إلى السجن حيث ينتظره أولئك القرع الذين رماهم جنوده في زنزانة واحدة. فردًا فردًا سألهم عن السبب في كونهم ما يزالون قرعًا، كانوا يتكونون من الأطباء الثلاثة، قاتلي الحمير (حدو) و(حمو) و(إيدير)، مجموعة من الفقراء، والأقرع العاشق (قيس) الذين كان ما يزال سجينًا بتهمة إزعاج أطباء المدينة. فأما الأطباء فقالوا بأنهم يكرهون التحدث عن قرعهم أو فعل أي شيء حياله، وقال مطاردوا الحمير أنهم يكرهون حتى النظر إلى هذه الحيوانات فما بالك بمد رؤوسهم لها للعقها، وقال الفقراء أنهم لا يملكون مالًا يدفعون به ثمن جلسات اللعق، أما الأقرع العاشق فقد قال بأن الحمير أبت أن تلعق رأسه.

طفق الوالي ينظر إليهم باستهزاء حينما انتهوا من كلامهم. كلف الجنود بإحضار حمير لتلعقهم خمس مرات في اليوم. احتج الأطباء، مرددين بأن قرعهم لا يهمهم، وكذلك مطاردوا الحمير، هاتفين بأن كرامتهم وإنسانيتهم تأبى عليهم أن يمدوا رؤوسهم لحيوانات حقيرة للعقها، فأمر الجنود بتقييدهم ومد رؤوسهم للحمير غصباَ عنهم، وقبيل مغادرته أعلن بأنه لن يطلق سراحهم إلا إذا شفوا.

غادر السجن نحو ديوانه، مستدعياَ نواصي الناس بالمدينة كي يشاورهم في مسألة إقامة المهرجان، لما حضروا احتد النقاش بينه وبينهم، وفي النهاية اتفق معهم على إقامة المهرجان ووضع رهانات وهمية، مع إلغاء الفقرة التي تقتل فيها الحمير.

بعد ثلاثة أيام أطلق جميع أولئك السجناء ما عدا واحدًا، هو الأقرع العاشق (قيس)، الحق أن الحمير مرة أخرى أبت أن تلعق رأسه، كانت

تشيح عن رأسه كلما مدها لها كما لو كانت تشم فيها شيئًا تكرهه، وحار (قيس) في أمرها واعتراه الكرب والسقم، وفي يأس طلب من الجنود الذين يحرسون زنزانته إحضار مياه وصابون فغسل رأسه بعناية وجرب تقديمها لها آملا أن تلعقها لكنها للأسف مرة أخرى رفضتها.

لم يكن جل السجناء الذين أطلق سراحهم بعد استعادة شعرهم سعداء، وحدهم الفقراء كانوا كذلك، فأما الأطباء فقد شعروا بالاحتقار من أنفسهم وخرجوا من ذلك السجن دون التحدث عن الأمر أو حتى التفكير فيه، بينما شعر مطاردوا الحمير بالتقزز من أجسادهم وقصدوا بيوتهم بسرعة وراحوا يغتسلون فيها لعلهم ينزعون عنها كل ما علق بها جراء ملامستها للحمير.

وجاء اليوم المنتظر، يوم مشمس صحو، أقبل صباحه وزير السلطان على المدينة، المزدانة بشتى أنواع الزينة من ورود وأعلام ترفرف فوق الأسوار وجدران البيوت، وكان في استقباله الوالي وكبار الموظفين على الباب الشمالي، وما أن سلموا عليه وتمنوا له مديد الحياة ولصاحب السعادة سلطان البلاد، حتى أمرهم بمرافقته في جولة تفقدية حول المدينة للتأكد من شفاء كل سكانها.

كان الوزير يعتمر عمامة على رأسه هو وكل الجنود المرافقين له، خوفًا من انتقال العدوى إليهم، والحق أنه كره المجيء إلى برتات بعد انتشار خبر المرض الذي أصابها في ربوع الدولة كلها، لكنه لم يجد محيصًا عن الامتثال لأوامر السلطان الذي كلفه بذلك.

وكما توقع الوالي، فخلال الجولة كان يطلب منه بين الفينة والأخرى طرق بيت ما ورؤية أهله، لذلك أمر أول أمس جميع أهل المدينة بالتزام بيوتهم، وفتشها واحدًا واحدًا، متأكدًا بأن كل من فيها قد استعاد شعره.

وجدير هنا بالذكر أن تلك العلامات التي ألفاها الناس مرسومة على أبوابهم عقب استيقاظهم من سحر قصة (سفيان) لم تعد موجودة الآن،

فالوالي أمر الناس مؤخرًا بصباغة أبوابهم لكيلا تجذب نظر الوزير، والحق أن أحدًا في المدينة لم يعرف من قام برسمها، فحيكت حولها أقاويل كثيرة، إذ قال البعض بأن لصوصًا هم من رسموها، وقال البعض الآخر بأن رجال (أبو قنافذ) هم من فعلوا ذلك.

تأكد الوالي أول أمس أن إنسانًا واحدًا فقط ما يزال أقرع في برتات، وهو (قيس). ولقد عرف من جيرانه بأنه كان أقرع منذ طفولته، فاستغرب لماذا لم يستعد شعره، مادام العديد من أهل المدينة الذين كانوا يعانون من الصلع الجزئي قبل انتشار المرض حينما لحست الحمير رؤوسهم نبت الشعر عليها كلها بما في ذلك الأجزاء التي كانت صلعاء من قبل. لكيلا يراه الوزير فيظن بأن المدينة لم تشف بعد، ويبقي الحصار عليها، قام الوالي بسجن (قيس) في قبو سري بقصره.

على الزوال، بعد رؤية مئات الرؤوس المزغبة، لم يلبث الوزير أن اقتنع بأن الجميع في مدينة برتات قد شفي، فبشر الوالي بذلك. وسرعان ما توجها إلى قصره، تناولا الغداء ثم قصدا المضمار، جلسا على المنصة التي أعدت لهما، وراحا يشاهدان العروض الفنية التي تقام عادة قبل بدء السباقات، استمتع الوزير بهذه العروض أيما استمتاع، وسرعان ما انطلقت رهانات السباق، ولقد شارك الوزير في أقسامها الثلاثة، الرهان الأعلى والمتوسط والأدنى، وكان في كل منها يشارك بحمار مختلف مهدى إليه من طرف الوالي، والحق أن الحظ حالفه ففاز بسباق الرهان المتوسط، بينما فاز الوالي بسباق الرهان الأدنى، وفاز (إزم) بسباق الرهان الأعلى.

وعقب انتهاء رهانات السباق، تم تزيين كل الحمير وقيادتها إلى المسار الدوار وتركها ترعى فيه متنقلة بين مواضع متباعدة مليئة بالكلأ، فأخذ المتفرجون ينثرون عليها الورود والتبن، وهذه الفقرة لم تكن أبدًا في المهرجان من قبل، فقد جرت العادة مباشرة بعد الانتهاء من رهانات

السباق الانتقال إلى رهانات المطاردة، حيث يطارد الحمير الفائزون بالرتب العشر الأولى في رهانات السباق ويقتلونها، والرابح منهم من يقضي على أكبر عدد منها.

بينما الحمير ترعى في المسار الدوار والناس ينثرون عليها الورود والتبن، قال الوزير للوالي في حماسة المجرمين:

ـ « أنا أتحرق شوقًا للفقرة الأكثر متعة في المهرجان»

وسأله الوالي متوجسًا شرًا: «وما هي يا حضرة الوزير؟»

فقال في حرارة:

ـ «تلك التي تطاردون فيها الحمير وتقتلونها.. سأشارك فيها كلها ما دمت قد حزت مراتب متقدمة في رهانات السباق، أليس كذلك؟»

فوقع ما قاله الوزير من نفس الوالي موقع الصدمة، لما لم يحب هذا الأخير أن ينتشر في الدولة بأن سكان مدينته شفوا بفضل لعق الحمير لرؤوسهم، مخافة أن يعابوا ويعيروا بذلك إلى الأبد، ادعى للوزير عندما سأله أثناء تجوالهما عن مصدر الدواء الذي شفى المدينة بأن طبيبًا هو من صنعه.

ولقد استدعى البارحة أطباء المدينة الثلاثة وطلب منهم أن يخبروا الوزير بأنهم هم من صنعوا الدواء، فرفضوا ذلك بشدة، فوعدهم بمكافأة كبيرة، ثم توعدهم بالسجن والتعذيب، دون أن يجدي ذلك معهم، وهكذا مضى يبحث عن شخص آخر للقيام بهذه المهمة، له إلمام ببعض أولويات مهنة الطب، وبعد بحث مضن عثر على جندي يتوفر فيه هذا الشرط، عرض عليه الأمر وبشره بأن الوزير لا محالة سيدفع له مبلغًا ماليًا كبيرًا كجائزة تقديرية من الدولة على إنقاذ المدينة، فقبل بسرور.

وبالفعل فقد وعد ا لوزير هذا الجندي بجائزة قيّمة حين قدمه له الوالي على مائدة الغداء، لكن يبدو أنه لن يفي بوعده، فالوالي عليه الآن الاعتراف

للوزير بأنه ليس هو منقذ المدينة، بل الحمير. ألا إنه في مأزق لا يحسد عليه، إذا لم يخبره بأن الحمير هي التي شفت المدينة، وبأنهم على إثر ذلك ألغو رهانات المطاردة من المهرجان، فسيصر على إقامة هذه الرهانات، ومن دون شك لا أحد سيشارك فيها غيرهما، وإذا قتلا حمارًا واحدًا فإن أهل المدينة سيقتلونهما دون تردد.

أعلن له بصوت ذليل:

ـ «لقد سحبنا هذه الفقرة من المهرجان يا صاحب المعالي»

فسأله مصعوقًا: «ولماذا!؟»

وهنا حكى له الحكاية من ألفها إلى يائها، وما زال الوزير ينصت إليه ساكنًا صامتًا يتلون وجهه كجلد الحرباء، حتى إذا انتهى، انفجر ضاحكًا بصوت مرتفع، وقال له لما تاب إلى رشده بلهجة ممزوجة بالهزل والتحذير:

ـ «هذا لا يصدق!»

صمت لبرهة راميًا الوالي بنظرة ارتياب ثم واصل قائلًا:

ـ «على أية حال، سوف نجرب ونرى إلى أي حد أنت صادق، فما دمت قد تجرأت وكذبت علي من قبل فلا شيء يؤكد لي بأنك لا تكذب علي الآن.. ويخيل إلي أنك اختلقت هذه القصة الغريبة فقط لأنك خائف من أن أربح رهانات المطاردة»

ودافع الوالي عن نفسه معتذرًا:

ـ «بلى يا سيدي، والله إنها الحقيقة.. شهد الله أنني ما كذبت عليك إلا لأن بعض أهل المدينة طلبوا مني ذلك، بل وهددوني...»

ـ «هددوك؟ من يجرؤ على تهديد ممثل السلطان؟ إلي بهم وأنا أضرب عنقهم الآن»

وقال متلعثمًا ومترددًا:

- «الحق يا سيدي، الحق أنني.. لا أعرف أسماءهم بالضبط، فلقد هددوني في رسالة ألقوها بباحة قصري، ورغم بحثي المضن عن هويتهم لم أصل إلى شيء»

وتوقف لوهلة ثم قال راجيًا:

- « صدقني يا سيدي أنا لم أفترِ ما حكيته لك عن الحمير و...»

فقاطعه الوزير مشيراً إلى رأسه الصلعاء من أطرافها:

- «إذن فإذا مددت رأسي إلى حمار فسيلعقها، وبعد ثلاثة أيام سوف أسترد شعري؟»

فصعق من كلامه ولم يعرف كيف يجيبه، لكن الوزير سأله مرة أخرى بحدة:

- «ما بك؟ هل ابتلعتَ لسانك؟ هل أسترد شعري كما استرددته أنت وجميع سكان مدينتك أم لا؟»

فأجاب في يأس: «نعم، نعم.. يا صاحب المعالي»

وقال الوزير في استهزاء: «لكنني لن أضع نفسي في هذا الموقف السخيف»

ونادى الوزير على جندي أقرع من جنوده، أمره أن يأتي بحمار من تلك الحمير التي في المسار الدوار، فهرول وجاء بحمار مرقط، أمره أن ينبطح أسفل رأسه، فعل، بقي الحمار ساكنًا، لم يلعقه، شعر الوالي بالخيبة، صرخ فيه الوزير: «لماذا لا يلعقه إذن؟ ألم تقل بأن هذه الحمير تلعق القرع؟»

تمنى الوالي لو أن الأرض تنشق وتبتلعه، لم يعرف كيف يتصرف، هو الآخر تفاجأ، لماذا لم يلعقه الحمار؟ وسرعان ما خطرت له فكرة فقال له مستنجدًا بها:

ـ «يخيل إلي يا معالي الوزير بأن هذا الجندي هو السبب، فإما رأسه مريضة بحيث أن الحمير تخاف من الإصابة بالعدوى إذا لعقتها وإما دهنها بشيء تمقته، فإذا سمحتم، نادوا على رجل أقرع غيره، أو حتى أصلع»

ولم يتردد الوزير فنادى على أربعة جنود صلع، وأمرهم أن ينبطحوا أمام الحمار، ففعلوا، لكن هذا الأخير لم يحرك ساكنًا. وصاح الوزير في غضب:

ـ «دعنا ننزل إلى المضمار مع بقية الرجال الثمانية الحائزين على الرتب العشر الأولى في الرهان الأعلى لنرى من منا يقتل أكبر عدد من الحمير وإلا كان لي معك شأن آخر»

وأجاب فزعًا: «سمعًا وطاعة، سمعًا وطاعة»

وهرول باتجاه أولئك الرجال الثمانية، التمس منهم المشاركة فرفضوا بشكل قاطع. وأمر جنوده بتقسيم الحمير التي في المسار الدوار إلى ثلاث مجموعات ووضع كل مجموعة داخل زريبة من الزرائب المخصصة لرهانات المطاردة وانتظار إشارته لإطلاقها، فأبوا، حتى إذا هددهم بأن جنود السلطان سيقطعون رؤوسهم، انصاعوا له.

وحين انضم إليه الوزير بالمسار الدوار، سأله عن بقية الرجال فقال له بانكسار أنهم امتنعوا عن المشاركة، فتوعدهم بالسجن بعد انتهاء المهرجان. وكان كل منهما يحمل قوسًا ونبالًا ويركب حصانًا، وما أن رأى الوزير الحمير تخرج من الزريبة حتى رمى أقرب حمار بسهم فأصابه في عنقه فخر ميتًا، وشعر الوالي بالشفقة على الحمار حتى ذرفت عيناه دموعًا، وبقي متجمدًا حائرًا هل يرمي أيضًا أم ينسحب ويتحمل العواقب، وقبل أن يقرر رأى الوزير يسقط من حصانه وقد انغرز سهم في عنقه، فرح كثيراً وتمنى لو أنه هو الذي غرز فيه ذلك السهم لأنه قتل أعز حيوان لديه، نظر إلى مكان انطلاق السهم، فإذا بمجموعة من السهام تتجه نحوه هو أيضًا، أراد تجنبها لكنها أصابته قبل أن يفعل ذلك فكان فيها حتفه.

وفي الحال ركض بعض جنود الوزير إليه يطمئنون عليه، بينما آخرون اتجهوا نحو الزاوية التي انطلقت منها السهام للانتقام له، فإذا بكل من في المضمار يحيطون بهؤلاء الذين جاؤوا للانتقام فقتلوهم شر قتل، ولما أيقن زملاؤهم أن الوزير قد مات وأنهم لا طاقة لهم بقتال كل ذلك الحشد من الناس، ركبوا أحصنتهم ولاذوا بالفرار.

على إثر ذلك، نزل جميع المتفرجين ناهيك عن المشاركين والمنظمين، بل قل كل أهل المدينة، بمن فيهم الأطفال والشيوخ، نزلوا إلى المسار الدوار وحملوا ذلك الحمار الميت، وهم يبكون، فذهبوا به إلى ربوة خضراء محاطة بالزهور قرب باب المدينة الغربي وقبروه في جو مليء بالحزن. ولما انتهوا قفلوا أدراجهم وحملوا جثة الوالي والوزير وجنوده وعلقوها على أسوار المدينة وكتبوا على يافطة فوقها: «هذا ما يستحقه كل من يمد يده على حمار».

وبعد ذلك راحوا يتداولون فيما بينهم حول ما يجدر بهم فعله ليأمنوا عقاب السلطان، فاتفقوا على أن يرسلوا له كتاباً يجددون فيه ولاءهم وبيعتهم له ويخبرونه أن الوزير الذي أرسله إليهم قُتل على أيدي جنوده هو ووالي المدينة، وبأن هؤلاء الجنود الخونة سعوا لنهبهم وبسط سيطرتهم عليهم، لكنهم استطاعوا طردهم والحلول دون تحقيق غايتهم الشريرة. كما اتفقوا على الاستعداد للذود عن أنفسهم، فالسلطان بدون شك إذا لم يقتنع برسالتهم سيوجه إليهم جيشًا جرارًا يغزوهم.

انصرفوا إلى حال سبيلهم عقب ذلك، ومنذئذ بقيت المدينة تعيش في خوف وترقب، وظلت أبوابها مقفلة في وجه الداخل والخارج في انتظار أن يأتيهم مبعوث من السلطان.

الفصل 14

في صبيحة اليوم الخامس من ذلك أقبل على المدينة رجلان مبعوثان من السلطان، فخرج إليهما الناس بلفيفهم. بالسوق، تحت أشعة شمس حارة، قرأ عليهم أحدهما كتاب السلطان الذي جاء فيه أنه يحييهم ويثني عليهم لولائهم الصادق له وشدة بأسهم في الدفاع عن وحدة الدولة وشرفها، وهو يطمئنهم بأنه قد قبض على أولئك الجنود الخونة الذين قتلوا الوزير والوالي وأعدمهم، ولقد أرسل إليهم رجلًا يخلف الوالي السابق، وهو رجل يرضون نسبه ودينه.

وسرعان ما تقدم الرجل الآخر وأعلمهم أنه الوالي الجديد الموفد إليهم من طرف صاحب الجلالة سلطان البلاد، ووعدهم بأن يعدل بينهم وألا يظلم أحدًا فيهم، وأن ينمي ويقوي تجارتهم، ويقضي على الفقر بينهم، وطلب منهم أن يفضوا إليه منذ الآن بالأشياء التي كانوا ينكرونها من الوالي السابق ويتمنون منه ألا يفعلها، فتقدم (إزم) معلنًا بأن أكثر شيء يغضب أهل المدينة هو المعاملة السيئة للحمير، واقترح أن يحتفى بهذه الحيوانات الجميلة بدل قتلها، فوافق على ذلك، وعندئذ، عندئذ فقط صفق الجميع لهذا الوالي وهتفوا باسمه وباسم السلطان.

ولكي يثبت حسن نواياه تجاه الحمير منذ البداية، بعد ثلاثة أيام فقط من ذلك، نظم مهرجانًا سماه (مهرجان أسياد الطبيعة)، فيه أنشطة وفقرات متنوعة، كلها تصب في موضوع واحد، ألا وهو تقدير الحمير، وكلها من اقتراح سكان المدينة، والحق أنه لم يرفض ولو اقتراحا واحدًا من اقتراحاتهم حين راحوا يدلون بها بطلب منه رغم استغرابه الكبير من أغلبها وتساؤله

فيما بينه وبين نفسه عن مدى سلامة عقل مقترحيها، مثل تلك الفقرة التي تلبس فيها الحمير ثياباً بشرية وأحذية بينما يرتدي الناس الذين يمشون وراءها أقنعة حمير وينهقون.

لئن أسعد هذا المهرجان أغلب سكان المدينة فإنه قد أحزن بعضهم وأصابهم بتعاسة شديدة، كان الأقرع العاشق (قيس) أشدهم حزنًا، حينما خرج من السجن، وذلك يوم المهرجان، كان في قمة الفرح، سوف يذهب إلى محبوبته التي لم يرها منذ عام تقريباً بسبب رميه في السجن كل هذه المدة، لا شك أنها في المضمار كباقي سكان المدينة، مر على بيته ولبس ثياباً جديدة ثم ذهب إلى هناك، لم يكد يدخل حتى أخذت أعين الناس تتفرس في رأسه الصفراء باشمئزاز ونفور واضحين، كانت الوحيدة التي بذلك اللون في المدينة، كره كثيراً الحمير التي كان يحتفى بها في المهرجان كما لو أنها حيوانات خرافية مصنوعة من الذهب، كيف لا وقد أبت أن تلعق رأسه من دون كل الرؤوس، فحتى رؤوس العجائز والشيوخ الذين كانوا معه في السجن لعقتها رغم أنها كانت تتصاعد منها رائحة نتنة، وتمنى لو يعود المهرجان كما كان في السابق فيراها تقتل بالمئات.

وبينا يخترق الجموع إذ لاحت محبوبته أمامه كالبدر، بعينيها البراقتين، وقدها الفارع، وشعرها الأسود، فاهتز قلبه من شدة الفرح حتى خيل إليه أنه يخرج من صدره، لكن فرحه سرعان ما تبخر كالدخان حين رآها تمسك بيد شاب وسيم ذي شعر بني طويل.

فيما يبدو أن هذه الأخيرة تزوجت البارحة فقط من هذا الشاب رغم أنه لم يكن يتوفر على جميع الشروط التي كانت تشترطها من قبل في زوج المستقبل، فهو لم يكن ينحدر من أسرة عريقة، ولم يكن غنياَ، الحق أنها تزوجته لأنها خافت أن ينتشر ذلك المرض مرة أخرى فتفقد شعرها للأبد ولا يطلب يدها أحد.

تساءل (قيس) في نفسه عن هوية هذا الشاب الذي يمسك اليد الطاهرة لمحبوبته، وسرعان ما ناداها كالممسوس:

ـ «(دليلة)!»

في الحال نظرت خلفها، رأته، عرفته، رمقته بنظرة استصغار ثم تأبطت يد زوجها وسارت قدماً مخبرة إياه أن (قيس) مجرد مجنون يقطن في حيها ويعرف اسمها.

لكنه ركض خلفهما وقال لها في استنكار: «ألا تعرفينني؟»

فإذا بزوجها يصرخ فيه: «أيها الأقرع المجنون، إذا لم تبتعد عن زوجتي فسوف ألقنك درساً لن تنساه!»

وشعر كما لو أن أحدًا طعنه في قلبه، زوجته؟ ولكن كيف ومتى تزوجا؟ هذا لا يمكن، إن هذه المرأة لا يمكن أن تتزوج أحدًا غيره.

وتابع الزوجان سيرهما، فإذا بـ(قيس) هذه المرة ينقض على (دليلة) ويمسكها من يدها ويسألها في لوم:

ـ «كيف تتزوجين...؟»

وقبل أن يكمل سؤاله سدد الزوج لكمة قوية إلى وجهه لم يحتج إلى غيرها ليفقده وعيه، فلقد كان المسكين مهزولًا من شدة الجوع الذي عانى منه في السجن خلال الأيام الأخيرة، ذلك أنه نُسي تمامًا بعد مقتل الوالي ولم يقدم له طعام إلا بعد أن جاء إلى القصر الوالي الجديد. غادرت (دليلة) مع زوجها، في الوقت الذي بقي فيه ملقى على الأرض، يتجنبه المارة كما يتجنبون جيفة نتنة.

وما أن أرخى الليل سدوله على المدينة حتى استيقظ من إغمائه، كان ما يزال المكان من حوله يغص بالناس، كانت تلقى أشعارًا لمدح الحمير وكان الناس ينصتون لها ويصفقون لأصحابها بكل حرارة مهما كانت سيئة، أحس

برأسه ثقيلة، بصق في الأرض دمًا، إلى أين يذهب الآن؟ لا يعرف. شرع يمشي كالنائم، فجأة وجد نفسه أمام باب دكانه، فتحه، تقدم إلى الأمام، أشعل الفانوس، تذكر العجوز التي قتلها ودفنها هناك، على الأقل هي الآن مرتاحة من هموم الدنيا وآلامها، أما هو، فعليه أن يستمر في مكابدة كل ألوان الذل والمهانة، فإذا بكلب أعجف يدخل إلى الدكان، فلما رآه عاد من حيث أتى، إنه منبوذ مثل هذا الكلب، بل هو أقل شأنًا منه، فهو أقرع، والكلب له شعر على رأسه، لماذا لم يسترد شعره مثل الجميع؟ لماذا؟ ولماذا ينظر الناس إليه بكل تلك الكراهية؟ لا شك أنهم سوف يسجنونه مرة أخرى أو ينفونه بعيدًا عن المدينة. وهل يستطيع العيش بعد الآن في هذه المدينة البائسة وقد خانته المرأة التي يحبها؟ لا طعم للعيش فيها. بل لا طعم للعيش سواء فيها أو في أي مكان آخر. سوف يقتل نفسه، وعندما تعرف (دليلة) بموته سوف تتحسر عليه لا محالة، لن يحبها الرجل الذي تزوجها بقدر ما يحبها هو. سوف تكتشف ذلك سريعًا، وتبحث عنه، وعندما تعرف أنه انتحر من أجلها، سوف تشعر بالندم الشديد، وعندئذ ستقتل نفسها وتلحق به.

حين وصل إلى هذه النتيجة، أخذ حبلًا قويًا، علقه بسقف الدكان وشنق نفسه.

وفي اللحظة التي رحل فيها (قيس) من الدنيا، رحل (إيدير) من المدينة، لم يحتمل قيام حمار بلعق رأسه، فأصيب مباشرة بعد ذلك بحمى أقعدته الفراش، وزاد من مرضه سماع النهيق بين الفينة والأخرى في منزله لأن أهله كانوا يحتفظون رغمًا عنه بتلك الحمير التي شفتهم ويعتنون بها عرفانًا لها بالجميل، والأسوأ من ذلك أنه كان يسمعهم يتحدثون عنها كما لو أنها أفضل من البشر، ويعاملونها باحترام يكاد يكون تبجيلًا، ويتركونها تمشي وتتجول في البيت كما تشاء، وفي الكثير من الأحيان، كانت تقترب منه،

وبالرغم من صراخه وعويله لكي يأخذوها بعيدًا عنه، كانوا لا يلتفتون إلى طلبه هذا، وبالمقابل يلومونه على نكران جميلها البادي على رأسه.

وحين لم يعد يستطيع التحمل أكثر، رحل من المدينة، رحل لوحده، بعد أن رفضوا مرافقته، وقبله بيومين رحل (حمو) و(حدو). هما أيضًا كرها لعق الحمير لرأسيهما حتى مرضا ولزما الفراش لأيام، ومن حسن حظهما، بسبب فقرهما، لم تجلب أسرتاهما حميراً إلى البيت، وهكذا لم يصادفاها طوال فترة مرضهما، وعقب شفائهما، حينما خرجا من البيت، لم يطيقا رؤية الاحترام الذي باتت تعامل به والمكانة التي أضحت تتبوأها في المدينة، شعرا بقمة الغيظ من ذلك، ومساء رحلا، لوحدهما، هما أيضًا، فلقد رفضت أسرتاهما الذهاب معهما بعد معرفة السبب الذي يحدوهما إلى الرحيل.

لكن مطاردي الحمير رجعوا للمدينة بعد أسابيع فقط من ذلك، إذ تبخر فجأة بغضهم للحمير، الحق أن تأثير الشعر الفيروزي على أهل المدينة اختفى كلية بعد مضي خمسة عشر شهراً على خضوعهم له. وهكذا زال نفور كل الناس من تلك الأشياء التي أبغضوها بسبب أوامر صاحب الشعر الفيروزي: أسرة (إزم) التي حلفت ألا تقرب الباذنجان عادت إلى أكله، وتلك الفئة من النساء التي كرهت الطبخ استأنفته، وأولئك الحرفيون الذين توقفوا عن مزاولة حرفهم رجعوا إليها.

لئن أمسى كل الناس في المدينة يعتنون بالحمير أشد العناية بعدما شفتهم من القرع، إلا أن أحدًا منهم لم يكن يعتني بها أفضل من (الضاوية). إنها عجوز عزباء تعيش وحيدة، كانت جميلة في شبابها، لكنها رغم ذلك لم تتزوج، وذلك بسبب سوء خلقها. وحين أضحت مضرب المثل في العفة والاستقامة كان جمالها قد ذبل وكان قطار الزواج قد فات، بيد أنها لم

تعترف يومًا بذلك، ولم تفقد أبدًا الأمل في الزواج، حتى ولو بعد تجاوزها الستين من العمر.

عندما تفشى القرع في المدينة وفقدت شعرها أحست بالحزن والصدمة وكادت تموت غمًا، حتى أن صدمتها، ويا للعجب، ويا للغرور أيضًا، كانت أكبر من صدمة فتيات المدينة الشابات! والحق يقال، حين كانت في مثل سنهن كان لها شعر رائع، لكنها الآن وقد بلغت الستين، والحق يقال أيضًا، أصبح لها شعر أحمر خشن قبيح المنظر.

وبالطبع كانت تجرب كل ما وجدت إليه سبيلًا من أجل استرداده، كل دواء صنعه أولئك الأطباء اشترته، واقتنت غيره مما كان يتداوله الجيران، لم تكن غنية، بل أخوها، وهو الوحيد الذي كان لديها، هو من كان كذلك، وكان يحبها جدًا ولا يبخل عليها بشيء.

لم تكن تحتاج للإدلاء إليه بطلباتها، فلقد كان يأتيها بها إلى بيتها قبل أن تنطق بها، وحينما شاع في المدينة بأن الدواء في الحمير، جاءها بحمارة. انحنت أسفل رأسها بمجرد أن حكى لها ما يروج حولها، فمضت تلعقها، وإذا كان بعض أهل المدينة قد وضعوا حميرهم بزريبة، فهي لم تفعل ذلك، بل أدخلت تلك الحمارة إلى غرفة بجانب غرفة نومها.

واشترت لها الكثير من العلف، ولم تؤل جهدًا في الاطمئنان عليها بين الفينة والأخرى في الأيام الثلاثة الأولى، أما حين استردت شعرها بسببها، فقد جرت إليها بعد رؤية الزغب على رأسها وطفقت تقبلها بحرارة. ومنذئذ أخذت تعتني بها بشكل مبالغ فيه، يكاد يكون هوسًا أو جنونًا، إذ تتركها تنام بالقرب منها على بطانية مريحة أفضل من البطانية التي تنام هي عليها، وكلما اتسخت تأتي ببطانية أخرى وتضعها مكانها، وتمشط شعرها بعد أن تغسلها بالماء والصابون، وفضلًا عن ذلك تدهنها بزيت اكتشفت أنها تعجبها إذ سبق لها أن دهنت بها حافرها فراحت تلعقه، وبعد مرور

أسبوع على ذلك، خطر لها أن تدهن وجهها ويديها هي بهذه الزيت وتترك الحمارة تلعقها بلسانها لعل التجاعيد تختفي منها كما اختفى الصلع، هذه الفكرة عندما خطرت لها أول مرة التهبت جوانبها حماسًا ونشاطًا حتى نهضت من مكانها وراحت تقفز بحماس وعنفوان الشباب، فنفذتها على الفور، وبالفعل فقد راحت الحمارة تلعقها، وعاشت بعد ذلك على أمل أن تستعيد شبابها كما استعادت شعرها.

ولم تبلغ هذا الحد فقط من الغرابة في تعاملها مع هذه الحمارة، بل تجاوزته إلى أبعد الحدود، إذ جعلت كل ليلة تحكي لها حكاية قبل النوم، وتغني لها أغاني الأطفال، وتحيك لها ثيابًا جميلة، وبالطبع لم تكن تحمل عليها شيئًا أو تكلفها بأي عمل، فلقد كانت بمثابة السيدة وهي خادمتها، وفي يوم من الأيام دهنت وجهها بتلك الزيت وراحت تقوم بحركات بهلوانية كانت تقوم بها في شبابها لأطفال الجيران لتضحكهم، وقد خطر لها بأن ذلك سيسعدها ويجعلها تلعق وجهها بحنان، فتختفي منه التجاعيد، لكنها أجهدت قلبها الضعيف حتى توقف عن النبض. ولما دخل أخوها البيت ألفاها جثة هامدة، وعلى محياها ابتسامة عريضة، فصاح متأثرًا: «لقد ماتت من فرط سعادتها بشعرها الأسود»

منذ شفاء الناس من القرع، أضحت الحمير أسيادًا في برتات، فلم يكن أحد يتجرأ على حمل أثقال عليها أو استغلالها في عمل كيفما كان نوعه، وكانت تطلق حرة في البيوت والأزقة لتفعل ما تشاء، والويل الويل لمن يتعرض لها بسوء. ولقد كتب على أبواب المدينة الأربعة: «ارحموا الحمير يرحمكم الله»

لذلك، لم يكن لأحد من سكان المدينة أن يضر بها، وفي الغالب، المعاملات السيئة التي تلقتها كانت من طرف الغرباء، ومعظمهم لم يكونوا يدرون

شيئًا عن قيمتها في المدينة، ولم يقرؤوا العبارة المزخرفة المكتوبة على أبوابها، وهذا من سوء حظهم، لأنهم تلقوا الضرب بسبب ذلك، وأحدهم قُتل بعد أن أزهق روح حمار، كانت قد مضت خمسون سنة على استرداد الناس شعرهم، عشية السبت جاء الرجل من قرية بعيدة على عربة تجرها بغال، محضراَ علفًا لبيعه، نزل من العربة ودخل دكانًا ليقتني شيئًا، ولما عاد ألفى حمارًا قد أدخل رأسه في مقصورة العربة ويتناول العلف، استل سيفه وطعنه به، فأحاط به جمع من الناس وراحوا يضربونه حتى قتلوه، ثم غادروا دون أن يحاسبهم أحد على ذلك.

وتصرمت الأعوام كالأحلام، وبعد مائة وخمسين عامًا، حل بالمدينة جفاف انتشر على إثره الفقر والجوع والمرض، حتى مات نصف سكان برتات وهاجر ربعهم. وهؤلاء الذين هاجروا أخذوا معهم العديد من الحكايات والأمثال الشعبية عن الحمير، تصورها بصورة الحيوانات الذكية والقوية، لكنها لم تلقَ الاستحسان من طرف سكان المناطق التي انتقلوا إليها، لأن جلهم كانوا يعتبرون الحمير مجرد حيوانات غبية وضعيفة، فاختفت سريعًا هذه الحكايات والأمثال.

ونزحت إلى المدينة قبائل كثيرة حين انتهى الجفاف، وأصبح السكان الأصليون لبرتات قلة، فلم تستطع هذه القلة منع سكان المدينة الجدد من الاستعانة بالحمير في حياتهم كحمل الأثقال عليها والحرث بها... وهكذا لم يعد يقام ذلك المهرجان، وتحول المضمار إلى سوق. فسبحان الله، مبدل الأحوال!

الفصل 15

حين خرج (سفيان) بمساعدة أولئك الأطفال من مدينة برتات، لم يجد بُدًا من الرحيل بعيدًا كيلا يظفر به جنود الوالي فيقتلونه. أخذ يمشي ويمشي دون توقف ليوم كامل. ألفى نفسه يتجه شرقًا، وفجر اليوم التالي صادف في الطريق رجلًا مكسور الساق تهاجمه الذئاب، تناول عصياً وبعض الأحجار وانقض على الذئاب فاستطاع إخافتها وإبعادها، أقبل على الرجل، سأله عما حدث له فأخبره أنه كان قادمًا من مدينة فاس على حصانه، متجهًا إلى مدينة وجدة، فإذا بجماعة من اللصوص يهاجمونه، كسروا رجله، وسرقوا متاعه وحصانه، اسمه (حسّان)، وهو في الخمسين من العمر، فارع القامة، مهيب المظهر، زاهي الشاربين واللحية، وسيم المحيا، وإن كان وجهه قد ذبل بعض الشيء، ويرتدي عمامة وجلباباً أزرق.

ترجاه أن يساعده على بلوغ مدينة وجدة مقابل أي ثمن يطلبه، فوافق على ذلك. وهكذا انطلقا، تارة يحمله على ظهره، وتارة يسنده على كتفه، ولم يتقدما كثيراً حتى صادفا راعياً، فاشتريا منه حصانًا وركباه.

لم يكد (سفيان) يستأنس به حتى أفضى إليه بأنه فر من مدينة برتات، لأن واليها يسعى لإلباسه جرائم قتل لا يد له فيها. طمأنه أنه في أمان الآن وألا أحد يستطيع مسه بأذى، فهو باعتباره مستشار والي مدينة وجدة وأحد كبار الأثرياء فيها ، لن يدخر جهدًا في الدفاع عنه بعدما أنقذ حياته.

أوشك الظلام أن يمد أطنابه على الأرض حينما وصلا وجدة، فقاده السيد (حسان) إلى منزله، عرفه بزوجته، وكانت امرأة بدينة في السادسة والأربعين

من العمر، ظلت تلهج بشكره على إنقاذ زوجها، ثم عرفه على ابنته، وكان اسمها (سميرة)، وكانت فتاة رائعة الجمال في ربيعها السابع عشر، سلمت عليه مبتسمة وشكرته هي الأخرى بحرارة.

بعد تناول العشاء، دخل الغرفة الفاخرة التي خصصوها له، لم يستطع النوم، بقي ساهدًا، مضطرب البال، وهو يتذكر بأسى ما حصل له في برتات. وفي اليوم التالي ألمت به حمى طحنت عظامه فامتلأ جسده بالبثور ولم يقدر على النهوض من الفراش. وأحضر له السيد (حسان) عددًا من الأطباء فلم يعرفوا لمرضه اسمًا ولا دواء، وأخبروه أنه ميت لا محالة. ومر شهر على التزامه الفراش، ولقد كان خلال هذه المدة يستيقظ لساعة أو ساعتين في اليوم ثم يغيب في نوم طويل مشحون بالكوابيس.

وذات ليلة من الشهر الثاني استيقظ ورأى (سميرة) مقبلة عليه بوجهها الصبوح، فتذكر (زينة)، وفي نفس اللحظة اكتشف أنه أضاع الملعقة التي أهدتها له، فغشيه الحزن، لكن هذا الحزن لم يعمر في قلبه إلا قليلًا، وسرعان ما جرفه سرور مفعم بالأمل والبهجة والنشاط برؤية (سميرة).

كانت هذه الأخيرة تزوره كل يوم منذ أن سقط مريضًا، ولم تجده أبدًا مستيقظًا، وحينما رأته الآن كذلك تورد خداها خجلًا، وهمت بالانصراف، لكنه قال لها بصوت خافت:

ـ «أرجوك، تعالي»

فأقبلت تتعثر في أذيالها، فقالت له في استحياء: «شفاك الله!»

فبادرها دون أن يلقي بالًا لكلامها: «كم أنت جميلة!»

فنظرت إليه بخجل بريء، ومن شدة التوتر فكرت بالانصراف، لكنها وجدت نفسها تسأله:

ـ «ما الذي يحزنك؟»

فحكى لها القصة الغريبة التي حدثت له من أولها إلى آخرها. فصدقته ولم تشك في كلمة واحدة مما حكاه، وقالت له مشجعة حين انتهى من السرد:

ـ «تستطيع العثور على تلك القصة المشعة مرة أخرى.. المهم أن تتشجع وتقاوم المرض»

وشعر من كلامها بأن جسده يستعيد عافيته، طاردًا كل ما ينغصه ويسقمه، وشاع في قلبه سرور عذب، ودّعته، فلم تزل تزوره كل يوم، فيتناجيان ويتضاحكان كطفلين سعيدين، مما ساعده على الشفاء بسرعة.

بعد بحث مضن، بمساعدة السيد (حسان)، اهتدى إلى تاجر يتقن اللغة الصينية، أخذ له كتاب (تسي تسن) وطلب منه ترجمته، ففعل ذلك في ظرف أسبوعين. وهكذا أكب على قراءة الكتاب، فاستغرب كثيراً من حكاية كاتبه، المسمى (شاو زي)، وهو عالم من بلاد الصين ظل طوال حياته يدرس شعر الإنسان، فوصل إلى استنتاجات مذهلة وغريبة في نفس الوقت، ولعل أشدها غرابة:

«بعض الشعرات على الرأس مكتوب فيها عمر الإنسان، وبعضها مكتوب فيها حالة أعضاء جسمه، فإذا استطعنا قراءة هذه الكتابة استطعنا بذلك التنبؤ بتاريخ وفاته ومرضه»

« الطريقة التي يُقص بها الشعر بمقدورها التأثير على طريقة تفكير الإنسان»

«ثمة بعض الشعرات المضرة في رأس الإنسان، إذا اجتثت من جذورها فهو سيبرأ من الكثير من الأمراض»

«ثمة بعض الشعرات وسط رأس الإنسان، إذا قطعت لوحدها فهو سيحلم أحلامًا سعيدة حتى تطول لسنتيمترين»

وقرأ في الكتاب أن (شاو زي) ذات يوم طلب من حلاق خط خطوط على مقدمة رأسه ظنًا منه أن هذه الخطوط تسقط أظافره الزائدة، حتى إذا

انتهى الحلاق من رسم الخطوط وكانت النتيجة سلبية، طلب منه رسم حيوان على مؤخرة رأسه من اختياره لعله يبلغ مراده ويغير هذه النتيجة، ففعل الحلاق ذلك، وبعد دقيقة من انتهائه تغير لون عيني وشعر (شاو زي) وأصبح فيروزيًا، وبعد برهة أصبح لون عيني الحلاق فيروزيًا أيضًا، فانبطح وعيناه تشعان بنظرة مليئة بالدهشة والطاعة يرجوه أن يلمس شعره بشعره ويأمره بأمر يفعله، فاستجاب له، وحين خرج من عنده بات كل من يصادفه تتلون عيناه باللون الفيروزي ويصنع معه نفس الشيء، وسرعان ما دانت له المدينة التي يقطن فيها، وعرف أن السر في ذلك هو قصة شعره الفيروزية، فهي قصة عجيبة تبلبل العقول والقلوب وتجعل الناس يكرهون شعرهم ويودون التخلص منه.

بيد أن فعالية هذه القصة انطفأت فجأة لما جرحت رأسه، فعاد شعره وعيناه وأعين كل الذين فتنهم إلى اللون الأصلي، فسجنه أهل مدينته، وفي السجن جزوا شعره قبل أن يعرف الحيوان الذي رسمه الحلاق على رأسه، الحيوان الجالب للسلطة، كما سماه، وبمساعدة الأطفال استطاع النجاة، فاهتدى إلى سجن وطفق يحلق فيه رؤوس المحكومين بالإعدام، يخط على مقدمتها الخطوط التي خطها ذلك الحلاق على رأسه ويرسم على مؤخرتها أحد الحيوانات.

ولقد كان ينوي قطع الرأس التي يصير لون عيني صاحبها فيروزيًا قبل أن يصير شعره كذلك، ليقينه بأن تأثير القصة العجيبة على الحلاق الذي رسمها على رأسه لم يبدأ حتى تحول لون شعره إلى اللون الفيروزي، وبأنه عند قطع الرأس سيزول تأثير القصة، فيرسم حينئذ الحيوان الجالب للسلطة على رأسه هو ثم ينطلق للسيطرة على العالم.

وبالإضافة إلى حلاقة رؤوس المحكومين بالإعدام، انكب (شاو زي) على قراءة كل ما اهتدى إليه من كتب تدو ر حول الخط والشعر، فدبج كتابًا آخر

سماه (إكسير الخط والشعر)، ذكر فيه كل الاستنتاجات التي وصل إليها من خلال مطالعاته وتجاربه، وهذا الكتاب ضاع منه.

في النهاية، يبدو أن (شاو زي) مات قبل أن يبلغ مراده ويعثر على سر القصة العجيبة.

سعد (سفيان) كثيراً لما عرف بأن مصدر القصة العجيبة هو العلم، لا الشعوذة؛ فلطالما كره المشعوذين، مقتنعًا بأن أعمالهم الشريرة تدمر المجتمع وتفرق بين أفراده، ويبدو أن أمه كانت تختلف إليهم كثيراً، لجلب التعويذات التي تدفع الناس للتصدق عليها بكرم دون غيرها، فكان يعظها ألا تفعل ذلك، مذكراً إياها بأن الله حرم الشعوذة، لكن دون جدوى.

قالت (سميرة) لـ(سفيان) مازحة حين أنهى إليها ما قرأه في كتاب (شاو زي):

ـ «هل تريد أنت أيضًا أن تحكم العالم؟»

فأجاب في إصرار:

ـ «بل أريد إنقاذ العالم من التسول»

وتوقف للحظة ثم أضاف بعزم:

ـ «الآن علي أن أتعلم الحلاقة، ومن ثم أجد طريقة لحلاقة رؤوس سجناء المدينة المحكومين بالإعدام»

ـ «أما هذا فأنا متأكدة بأن والدي سيساعدك فيه.. لكن، من الأفضل أن تحكي له كل شيء»

الفصل 16

متبعا نصيحة (سميرة)، حكى (سفيان) للسيد (حسان) الحقيقة. هذا الأخير، عكس ابنته، وجد صعوبة في تصديقه. مع ذلك لم يتردد في تقديم يد المساعدة له، فأحضر حلاقًا يعلمه الحلاقة. بشغف انكب (سفيان) على التعلم. ولم يفوت الفرصة لسؤال هذا الحلاق عن حكاية الشعر الفيروزي، فأجاب أنه لم يسمع عنها من قبل. بعد ثلاثة أشهر فقط تعلم (سفيان) الحلاقة، وسرعان ما صار يحمل عدته، يتجول بين دروب المدينة ويقص مجانًا شعر المتسولين بشكل عادي، وحصل بمساعدة السيد (حسان) على فرصة حلق رؤوس سجناء المدينة، أولئك الذين حكم عليهم بالإعدام أخذ يخط على رؤوسهم تلك الخطوط ويرسم أحد الحيوانات، حتى إذا لم تشع، جز شعرهم كله.

خط على رؤوسهم عشرات الرسوم لمختلف الحيوانات، لكن دون فائدة. يا إلهي! ما هو ذلك الحيوان الذي رسمه (تسي تسن) على رأسه فشعت كالنجمة؟ شأنه شأن هذا الأخير، كان متأكدًا بأن تلك الطاقة التي تنبعث من الرأس فتملك القلوب مصدرها حيوان جميل المنظر، قوي، سريع... باختصار، حيوان يقدره الإنسان، لذلك رسم أول ما رسمه الأسد، ثم النمر، ثم الفهد، ثم الدب، ثم النسر، ثم الأفعى... لكن دون أية نتيجة.

وتصرمت الأيام، أحيانًا كانت لا تتاح له الفرصة لإنجاز تلك القصة إلا مرة في الشهر أو شهرين لخلو السجن من المحكومين بالإعدام. كان يحزن كثيراً لذلك، فيتمنى أن يمتلئ السجن بالقتلة، لكنه سرعان ما يلعن الشيطان ويستغفر ربه ويقرع نفسه على أمنيته الشريرة هذه.

كان ما يزال يسكن مع السيد (حسان) في بيته، فهذا الأخير لم يتركه يغادر كلما هم بذلك. ولم يلبث أن طلب يد ابنته (سميرة) فوافق بعد أن شاورها فوجد منها القبول، وتزوجا في حفل بهيج وفاخر تحدثت عنه مدينة وجدة لشهور.

ومرت أربع سنوات دون أن يعثر على ذلك الحيوان الجالب للسلطة، اعتراه اليأس، ولم يعرف ماذا يفعل، وكانت وجدة تمتلئ بالمتسولين، وكان الفقر متفشياَ فيها، وكان الأغنياء لا يساعدون الفقراء، فأحس من ذلك بحزن عميق لم يزل يبرحه ويؤرقه، واقترح على صهره أن يكلم والي المدينة ويلتمس منه أن يفرض على الأغنياء إيتاء الزكاة للفقراء والمحتاجين لإغنائهم عن التسول، لكنه اعتذر وأبدى عدم قدرته على فعل ذلك، مؤكدًا بأن الوالي شخص شرير ولا يكره في المدينة أحدًا كما يكره الفقراء والمتسولين، ولو كان بمقدوره أن يدفنهم أحياء دون أن يلومه لائم لما تردد في ذلك.

وحصل تغيير في سجن وجدة بحيث لم يعد يستقبل المحكومين بالإعدام، بل صار هؤلاء يُرحلون إلى سجن فاس، ولاح لـ(سفيان) أن حلمه بإيجاد الحيوان الجالب للسلطة لن يتحقق أبدًا، فمرض مرضًا شديدًا أقعده الفراش. بقيت (سميرة) إلى جانبه تسهر عليه، ولم تزل تفكر لعلها تجد حلًا لمعضلته، حتى إذا كان الأسبوع الثالث من مرضه قالت له في حماسة وهي توقظه من النوم:

ـ «حبيبي، لقد عثرت على الحل، لقد عثرت على الحل»

وما أن نظر إليها حتى أضافت:

ـ «ستعلمني الحلاقة فأرسم بنفسي تلك الرسوم على رأسك»

أعجبته الفكرة كثيراً، وبدت له الحل الوحيد الذي أمامه. بلّ من مرضه بسرعة، علم (سميرة) الحلاقة، فأخذت تقص شعره بحثًا عن الحيوان الجالب للسلطة. ومر عام دون أن تنجح، فخطر له أن يذهب إلى بيت الصيني (تسي تسن) بمدينة برتات، فيفتش فيه لعله يجد هذا الحيوان، إنه يعرف انطلاقًا من كتاب (شاو زي) أن سكان برتات قد نسوه تمامًا ولن يعترضوا طريقه ليؤذوه، أنهى إلى (سميرة) ذلك فأقنعته بضرورة مرافقته.

وفي صباح يوم مشمس انطلق الزوجان راكبين عربة تجرها أربعة خيول، وما زالا يتناوبان على قيادة العربة حتى اقتربا من بوابة المدينة الغربية. كان الوقت زوالًا، لاحت المئات من الحمير ترعى قرب البوابة، فقالت (سميرة) لـ(سفيان) مبدية دهشتها منها:

ـ «لم يسبق لي أن رأيت كل هذا العدد من الحمير في حياتي!»

وقال لها:

ـ «كانت الحمير هي الحيوانات الوحيدة التي آذتني»

وساد الصمت بينهما، لكن سرعان ما قطعته (سميرة) قائلة بحماس:

ـ «من الممكن أن يكون الحمار هو الحيوان الجالب للسلطة»

فحدجها بنظرة مستغربة وقال ساخراً:

ـ «لا شك أنك تمزحين، كيف يعقل أن يكون هذا الحيوان الوضيع مصدر تلك الطاقة العجيبة؟»

وقالت مدافعة:

ـ «لا تحتقره يا عزيزي، فلا شك أن الله قد خلق فيه مزايا كثيرة لا نعرفها»

ـ «أنا لا أحتقره يا حبيبتي، ولكنني لم أقل إلا الحق، أليس الحمار حيوانًا قليل الذكاء والجمال والقوة؟»

ـ «بلى، ولكن.. من يدري؟»

ـ «لا أريد أن أضيع شعري من أجل رسم أنا متأكد أنه لن يفيد في شيء.. وأنت تعلمين أنك إذا رسمته الآن فنحن في حاجة إلى الانتظار لأسبوعين حتى ينمو الشعر بما فيه الكفاية كي تستطيعي خط رسم آخر.. كم هو حزين ألا ينمو شعر الإنسان بسرعة!»

ـ « حسنًا يا زوجي الغالي.. هي مجرد فكرة برقت في ذهني بغتة وقلت مع نفسي ربما تنجح، ولكن يبدو أنك على حق.. يجب ألا نضيع الوقت في رسم من الجلي أنه لن يثمر شيئًا»

ودخلا المدينة ومضيا نحو المنزل المعلوم، كان يبدو غير مأهول، فتحا الباب بواحد من تلك المفاتيح التي أحضراها معهما، إذا سألهما أحد ما عن هويتهما سيدعيان بأنهما خادمان عند (تسي تسن) وقد أرسلهما من وجدة، المدينة التي يوجد بها الآن، للاعتناء بالبيت.

لم يعثرا على شيء يذكر، كل المخلوقات التي اهتديا إليها كانت مجرد مخلوقات عادية تتواجد في أغلب البيوت من قبيل العناكب والصراصير والفئران والحمام الذي كان ينزل من وقت لآخر على سطوح البيت. وفي الزريبة ألفيا عظام تلك الحيوانات التي ضربت رؤوسها بالأرض حتى ماتت عندما لم يشعّرها (سفيان).

علم من أحد أصدقائه المتسولين ما حدث للوالي ففرح بذلك أشد الفرح، الليلة التالية رحل مع زوجته إلى وجدة، شرعت (سميرة) ترسم على رأسه تلك المخلوقات التي كانت في بيت (تسي تسن)، سواء الحية منها أو الميتة، ولكن للأسف، لم يأت أي منها بالنتيجة المنتظرة.

وما زال الزوجان في بحث مضن عن ذلك الحيوان الفريد. وعِلمًا منها أن مساعدة المتسولين هو هدف (سفيان) من إتمام تلك القصة، فَلقد اقترحت

عليه (سميرة) بعد ست سنوات من ذلك أن يفتحا مدرسة لتعليم المتسولين حرفًا يستطيعون بواسطتها اكتساب قوت عيشهم، فأعجبته الفكرة وتحمس لها كثيراً، وحين عرضاها على السيد (حسان)، قبلها عن طيب خاطر.

ولم تنسلخ إلا شهور سبعة حتى تحققت على أرض الواقع، استأجر السيد (حسان) مجموعة من الحرفيين وأحضرهم إلى منزل يملكه بضواحي المدينة وكلفهم بتعليم حرفهم للمتسولين الذين استطاع (سفيان) إقناعهم بالفكرة.

إلا أن جل المتسولين هربوا منذ الأسبوع الأول رافضين التعلم، فلم ينجح (سفيان) في إقناعهم بالعودة حتى وعدهم بمبلغ من المال نهاية كل يوم، ومنحهم الطعام واللباس، وبالنسبة لمن لم يكن لديهم منزل يؤويهم، سمح لهم بالمبيت في المدرسة.

ويبدو أن البعض استعصى عليهم التعلم، فأعلنوا بعد شهر فقط نيتهم بالاستسلام والرحيل، لكنه ألح عليهم بالبقاء ومضاعفة الجهد، ففعلوا. وكان البعض يخلفون بالوعد الذي قطعوه له بعدم التسول، فيقف عليهم وهم يتسولون ويؤنبهم قائلًا بأن التسول يحط من كرامتهم، فيعتذرون منه، ويعدونه ألا يكرروا فعلتهم، لكنهم في الغد يعودون إلى التسول مرة أخرى، حتى حار في أمرهم، وقال لزوجته أنهم شر الناس لأنهم لا يهتمون بكرامتهم ويصرون على الظهور أمام الناس بمظهر الفقراء والمغبونين.

واستمرت (سميرة) في رسم تلك الرسوم، وأصبحت ترسم نفس الحيوانات لكن في أوقات مختلفة من اليوم والأسبوع والشهر والسنة، وهذه الفكرة كانت من وحي زوجها. ورزقا بثلاثة أبناء، بنتان وولد. وعاشا حياة مفعمة بالسعادة والطمأنينة، فكانوا محبوبين جدًا في مدينة وجدة، وظلت تلك المدرسة مفتوحة في وجه المتسولين حتى بعد موت السيد (حسان)، والحق أنه بعد عشرين سنة فقط من فتحها صارت وجدة أقل المدن في دولة الموحدين امتلاء بالمتسولين. حمد (سفيان) الله على هذه النتيجة، لكنه ظل

يمني النفس بالقضاء على التسول في كل الأرض، لذلك لم يتوقف عن البحث عن تلك القصة، فكان أحيانًا يقوم بأسفار إلى أماكن بعيدة يبحث فيها عن مخلوقات جديدة تتصف بالقوة والجمال لعله يجد الحيوان الجالب للسلطة. وعلاوة على ذلك، أنشأ مدارس أمل بمدن مختلفة.

وفي الستين من عمرها توفيت (سميرة)، فحزن عليها بشدة حتى فقد طعم الحياة. وبتؤدة، كان الزمن يسلب منه قدرته البدنية، ناهيك عن الذهنية، حتى صار ينسى أسماء أبنائه الثلاثة، وأحفاده العشرة. وفي الثمانين من عمره، توعك وصار لا يغادر الفراش، أخذه ابنه للعيش معه في فاس، حيث يقطن، حاول إقناعه بالعيش معه مرات عديدة من قبل، لكنه ظل يرفض، مصراَ على عدم مغادرة وجدة، حيث يوجد قبر زوجته.

ظل طريح الفراش لشهور، وذات مساء طرق متسول باب منزل ابنه فرأى خادمة تقدم له طعامًا فشعر بغضب ألهب جوانحه، كيف لم تنجح مدرسته بمدينة فاس في إنقاذ هذا المتسول؟ إنه في حاجة إلى تلك القصة العجيبة. وحدها تستطيع تخليص كل المتسولين على الأرض، وأمضى الليل كله يفكر في الحيوان الجالب للسلطة.

وفي اليوم التالي حم حتى فقد وعيه وراح يتنفس بصعوبة، فعاينه الطبيب وأخبر ابنه أنه ميت لا محالة، لذلك نادى هذا الأخير على أختيه، فجاءتا من وجدة مسرعتين يكاد الحزن يقضي عليهما. لحسن الحظ، كان ما يزال على قيد الحياة حين وصلتا، تحلق الأبناء الثلاثة من حوله مع أزواجهم وأبنائهم. وقامت إحدى ابنتيه بدهن رأسه بخليط من الأعشاب يحتوي على عشبة القمرية لعل حرارته تنخفض، كان الوقت صباحًا، أخذ الفقيه يقرأ عليه آيات من الذكر الحكيم، وسرعان ما استيقظ على حين غرة بعد الزوال، متعبَا، محمومًا، فطلب منه الفقيه التشهد، ففعل، وعقبها أغمض عينيه ونام. ولبثوا متحلقين من حوله.

وبعد ساعة استيقظ على إثر نعيق حمار يبدو أن أحفاده كانوا يطاردونه في الحديقة فدخل إلى المنزل هربًا منهم، والتهبت عيناه ببريق أدهش أبناءه. وهم أن يقول شيئًا لابنه البكر، لكنه لم يقدر على لفظه، راح يغمغم، حاول ابنه أن يفهم ما يقوله لكن دون جدوى، نظر إلى أختيه متسائلًا لكن يبدو أن أيًا منهما لم تتبين ما قاله، وفوجئوا في تلك اللحظة به يحمل إحدى يديه ويشير إلى رأسه محركًا أصابع يده اليمنى كما لو كان يحلق رأسه بمقص، وحين تعب، حط يده أرضًا، وأخذ ينظر إلى السقف، بينما يرمقه أبناؤه وأزواجهم في دهشة.

«وجدتها!» قال (سفيان) لنفسه في تلك اللحظة وقد شعر بصفاء ذهني لم يحس به منذ سنوات. الحمار هو الحيوان الذي كان يبحث عنه، هو الحيوان الجالب للسلطة.

وفجأة لفت انتباهه من نافذة الغرفة أن ثلاثة من أحفاده الفتيان راحوا يضربون في الحديقة ذلك الحمار الذي دخل إلى البيت للتو، لم يزالوا يضربونه حتى سقط أرضًا. وبقدرة قادر، انتفض (سفيان) من فراشه بسرعة وركض نحوهم كما لو كان شابًا يافعًا.

على بعد أمتار منهم وقف وصاح بصوت قوي:

ـ «كفى أيها البؤساء!»

فالتفتوا إليه، كانت ساقاه ترتجفان أسفل جلبابه الأبيض، وعيناه تلتهبان كما لو أن نارًا تشتعل فيهما، وكان يتنفس بقوة كالثور الهائج. خافوا منه بشدة، بخطى واسعة أقبل عليهم ففروا كالفئران الهلعة، ظنوا أنه سيلحق بهم، لكنه لم يفعل، حينما بلغ الحمار تهالك عليه وقال له بصوت مسموع: «أيها الحيوان الرائع»، ثم عانقه. وفكر: «سبحان الله، إن تلك القصة العجيبة أنقذت الحمير في مدينة برتات من أعمال القتل الوحشية التي كانت تنفذ في حقها بالمهرجان.. لقد وفر الله الأسباب لهذه القصة في برتات

خصيصًا لذلك.. هذا مظهر آخر من مظاهر رحمة الله بخلقه. حمدًا لله أنه اختارني لأشارك في هذا العمل النبيل.. حمدًا لله»

بقي معانقًا الحمار، لا يصدر عنه أي صوت، أمام دهشة الجميع، راح الحمار يلعق رأسه، اقترب منه أبناؤه، حركوه، فوجدوه ميتًا، وفي محياه ابتسامة غريبة، غريبة جدًا، لم يعرفوا معناها، ولم يسبق لهم أن رأوها على وجهه من قبل.



النهاية

فؤاد سعودي الهموري



أديب مغربي. من أعماله أيضا:

- **إسكافي مراكش (رواية)**
- **بلوكونيا، الهاتف الذكي والأخطبوط (رواية)**